العرب والحضارة

تأليف

دكتور علي حسني الخربوطلي

العرب والحضارة

تأليف

دكتور علي حسني الخربوطلي

١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة



مكتبة الأنجلو المصرية

تقدم مؤلف الكتاب

اعتادت مكتبة الأنجلو المصرية أن تقدم لقراء العربية أشهر الكتب التى تتناول الدراسات العربية والإسلامية ، لتساهم بها فى بناء صرح الثقافة والحضارة العربية . ويسعدها أن تضع اليوم لبنة أخرى فى هذا البناء الشاهق، فتقدم كتاب (العرب والحضارة) . وإن كان المؤلف قد تحدث عن كتابه فى مقدمته ، فيسر مكتبة الأنجلو المصرية أن تتحدث عن المؤلف فى هذه المقدمة الموجزة .

مؤلف هذا الكتاب (الدكتور على حسنى الخربوطلى) فى مقدمة المشتغلين بالدراسات العربية الإسلامية ، ويقوم بتدريس الحضارة العربية والتاريخ الإسلامى بجامعتى عين شمس والقاهرة ، كما قام بالتدريس أيضاً فى معهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماكجيل بمدينة مونتريال بكندا ، وفى الجامعة بالخرطوم بالسودان .

وللمؤلف أكثر من عشرين كتاباً نشرتها كثير من دور النشر الكبرى، إلى جانب عدد كبير من الأبحاث العلمية نشرتها المجلات العلمية والصحف . وكان من حظ مكتبة الأنجلو المصرية أن نشرت له كتابين ، أولهما (الحضارة العربية الإسلامية) وثانيهما (مصر العربية الإسلامية) وقد لقيا إقبالاً عظيما وإعجابا كبيراً . واليوم تقدم كتابه الجديد (العرب والحضارة) وهى واثقة أنه سيلاقى ما لاقته كتبه العديدة القيمة من إعجاب وتقدير . وترجو مكتبة الأنجلو المصرية أن تكون قد ساهمت بهذا الكتاب فى خدمة الحضارة العربية :

مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

يسرني أن أقدم لقراء العربية هذا البحث عن (العرب والحضارة) . والشعب العربي في كل زمان ومكان من أكثر الشعوب عراقة في الحضارة والعرفان ، وأصالة في التقدم والمدنية . وقد اجتمعت له أسباب ومقومات الحضارة مما لم يحظ به كثير من الشعوب الأخرى ، كما أنه أصبح لهذه الحضارة من المميزات والخصائص ما جعلها تنفرد به وتتميز به عن سائر الحضارات .

أما عن حضارة العرب في العصر الجاهلي ، فقد اعتاد بعض المؤرخين أن ينظروا إليه على أنه عصر ظلمات وفوضى . إلا أنه مع تقدم الدراسات العربية ، أثبت العلماء ــ العرب وغير العرب ــ أنه كان للعرب في ذلك العصر حضارة وثقافة ، ونظم اجتماعية واقتصادية ، وقد ظهرت في بلاد العرب في العصر الجاهلي دول ومدن متحضرة أهدت الدول المجاورة لها ألوانا من الفنون والعلوم والآداب . وأثبت العرب في تلك الفترة تفوقا واضحا في الميدان الاقتصادي وخاصة التجارة .

ثم ظهر الإسلام فسطعت أنوار الحضارة ، فقد خلق الإسلام دوافعا للتقدم والمدنية ، إذ سما بالإنسانية ، ورفع من كرامة الفرد والمجتمع . ودعا إلى أن يكون الناس إخوة متحابين في الحياة ، وساوى بينهم في الحقوق والواجبات ، وشرع كثيراً من الشرائع الاجتماعية التي تؤدي إلى تماسك المجتمع ، كما أزال الفوارق الاجتماعية بين الناس والشعوب . وظهر بين العرب شعور بالوحدة

القومية أدت إلى قيام الدولة العربية الإسلامية على أساس الوحـــدة الدينية والسياسية .

ومن أهداف الإسلام العمل على محو العداوة بين العرب وإقامة حضارة جديدة خالية من الفساد الذى وقعت فيه حضارة الفرس والروم ، لينتشر لواؤها فى أرجاء الأرض ، وترتفع فيها أعلام الحضارة ، وتقوم فيها المساواة بين الشعوب والأفراد ، وبهذا يسود السلام بين الأمم ، فيركنون إلى هذه الحضارة العربية الزاهرة العادلة ، ويتحقق الرخاء الإنسانى والسلام العالمى .

كان ظهور الإسلام إيذاناً بمولد الدولة العربية الإسلامية ، وأصبح العرب رسل الحضارة الإسلامية ، وبدأوا يدخلون التاريخ من أوسع أبوابه . وعملت الدولة الوليدة على نشر الإســلام والعروبة ، فـكانت الفتوحات العربية الإسلامية فى عهد الخليفتين الأولين أبى بكر وعمر بن الخطاب ، فتم القضاء على الدولة الفارسية ، واستولى العرب المسلمون على الشام ومصر من الدولة البيزنطية ، ثم توالت الفتوح فى العصر الأموى ، فاستولى العرب على بقية شمال أفريقية ، ثم غزوا القارة الأوربية ، فاستولوا على شبه جزيرة أيبريا ، وجنوب فرنسا ، واستمر العرب فى غزو أوروبا حتى استولوا على جميع جزر البحر المتوسط ، وإيطاليا ، ونجحوا فى تثبيت أقدامهم ونشر دينهم وحضارتهم فى أرجاء كثيرة من القارة الأوروبية .

وكانت أوروبا قبل الفتوح العربية ـ باعتراف جميع المفكرين الأوروبيين ـ تسبح فى دياجير الظلام ، وتعانى من التأخر والفوضى ، فنشر العرب فيهـا حضارتهم ، وأبدلوا ظلام أوروبا بنور من العلم والعرفان والمدنية ، وأرسوا قواعد حكومة عادلة ، تحرص على تحقيق الحرية والمساواة ، وتعمل لصـالح رعاياها من الأوروبيين ، وأصبح العرب أساتذة للأوروبيين ، يلقنونهم أسس الحضارة العربية الزاهرة .

مكث العرب فى صقلية وجنوب إيطاليا ثلثمائة سنة تقريباً ، فاستعرب أهل تلك المناطق ، وأصبحوا يتكلمون باللغة العربية ويدينون بعادات العرب . واستولى العرب على نصف فرنسا المعاصرة وتركوا أثراً عميقاً فى اللغة والدم . أما تاريخ العرب فى إسبانيا فهو معروف ، فقد كتبت إسبانيا العربية صفحة من أروع صفحات التاريخ الحضارى والعقلى لأوروبا فى العصور الوسطى ، وكانت الشعوب المتكلمة باللغة العربية فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر حملة مشاعل الثقافة والحضارة فى ربوع العالم أجمع . وكانت الحضارة العربية أساس النهضة فى أوروبا ، وأوفدت دول أوروبا بعثات علمية إلى الأندلس لتلقى العلوم والأفكار العربية مثلما ترسل الدول العربية اليوم بعثاتها إلى أوروبا وأمريكا .

ثم تقلص نفوذ العرب السياسى عن معظم أرجاء أوروبا ، ولكن ذلك لم يكن يعنى نهاية الحضارة العربية فى أوروبا ، فقد ظلت التأثيرات العربية باقية ، واستمر الطابع العربى قائماً فى كل مكان من القارة ، وأصبحت حضارة العرب أساساً أقام الأوروبيون عليه حضارتهم الحديثة ، وإذا كان الأوروبيون يفخرون الآن بحضارتهم الزاهرة ، فإننا نحن العرب نفخر أننا الذين وضعنا أسسها ، واللبنات الأولى فى بنائها ، وأخذنا بأيدى الأوربيين حتى أصبحوا فيما هم عليه من رقى وتمدن .

والعرب يقبلون اليوم على مستقبل مشرق باسم ، مستقبل موحّد متحرر يتلاءم وطبيعة الوجود القومى العربى ، المستقبل المتطور المتجدد الذى تسوده العدالة الاجتماعية ، وتوجهه القيم الإنسانية السليمة ، المستقبل الذى يتيح للأمة العربية أن تعبّر عن معنى وجودها فى رسالة عربية إيجابية إنسانية .

وهذا البحث يسلط الأضواء على حضارة العربَ قديماً وحديثاً ، فيصل بين الماضي المجيد والحاضر السعيد . ويضع أمجاد الحضارة العربية أمام عيون أبناء الأمة العربية ، حتى يروها على حقيقتها ، ويستفيدوا من التجارب الماضية ، لتدفعهم إلى أمجاد مستقبلة باهرة . ويرسم الكتاب وسائل نهضة الحضارة حتى ينطلق العرب إلى الأمام دائماً ، فيحتفظون بما كان لهم دائماً من عزة وسؤدد ومجد .

إن الحديث عن حضارة العرب موضوع شائق ، ولكنه طويل ، يحتاج إلى عشرات المجلدات لاستيفاء معالم الحضارة العربية الزاهرة ، ولكننا رأينا أن نلم بأهم الأطراف ونتحدث عن أبرز الجوانب ، ونجمع بين الماضي والحاضر ، ونتطلع إلى المستقبل الباسم . ونرجو أن نكون قد وفينا لحضارة العرب حقها علينا من البحث والدراسة ، والله ولي التوفيق .

دكتور علي حسني الخربوطلي

— ١ —

حضارة العرب قبل الإسلام

حدود بلاد العرب القديمة :

إذا أردنا أن نضع حدودا لبلاد العرب فإننا نجد أنفسنا فى حيرة ، فإن هذه الحدود قد تغيرت كثيراً على مر العصور والأزمان . وإذا أردنا نحن العرب أبناء القرن العشرين أن نحدد العالم العربى المعاصر فإننا نقول أنه يشمل جميع الأقطار التى تتحدث باللغة العربية ، وهى الأقطار التى تمتد من الخليج العربى شرقاً إلى المحيط الأطلسى غربا .

أما إذا كنا نقصد ببلاد العرب (شبه جزيرة العرب) فهى معروفة بحدودها الطبيعية ، إذ يحدها الخليج العربى شرقاً والبحر الأحمر غرباً ، والبحر العربى والمحيط الهندى جنوباً ، وبادية الشام شمالا .

أما العرب القدامى فكانوا يضمون إلى شبه جزيرتهم سيناء وفلسطين وسوريا . وكان بعضهم يبدأ الحدود الشرقية لبلاد العرب عند قنسرين فى الشمال وتمتد الحدود مع نهر الفرات حتى نهايته فى شط العرب ثم تمتد على سواحل الخليج العربى إلى عمان فى أقصى الجنوب الشرقى من الجزيرة العربية. أما الحدود الجنوبية فتمتد من عمان شرقاً إلى عدن عند مضيق باب المندب . وتمتد الحدود الغربية من عدن ثم تحاذى سواحل البحر الأحمر إلى القلزم (السويس قديماً) وتمتد هذه الحدود فى بحر الروم (البحر المتوسط) وتضم شواطىء فلسطين ثم تمتد إلى سواحل عسقلان ثم الأردن وتمر ببيروت حتى قنسرين حيث بدأنا .

وهذه هى الحدود الجغرافية ، ولكن كان هناك أنواع عديدة من التقسيمات ، قد تكون جغرافية أو اجتماعية أو سياسية . فعلى سبيل المثال

كانوا يقسمون قديماً بلاد العرب حسب طبائع أهلها وأسلوب حياتهم ، فيقسمونها إلى البادية فى الشمال ، والحاضرة فى الجنوب . فكانت البادية — فى تقسيمهم — تشتمل شمال شبه الجزيرة العربية ابتداء من مشارق الشام إلى حدود نجد والحجاز. أما الحاضرة فتشمل سائر شبه الجزيرة العربية وتضم نجد والحجاز واليمن .

وقسّم بطليموس القلوذى بلاد العرب ثلاثة أقسام هى :

(١) بلاد العرب صخرية أو البادية (٢) بلاد العرب الصحراوية .

(٣) بلاد العرب السعيدة .

واعتاد الجغرافيون تقسيم شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام جغرافية هى :

(١) تهامة : وهى الأرض الواقعة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر الشرقى ، وسميت بهذا الاسم لشدة حرّها وركود ريحها ، وسميت أيضاً الغور لانخفاض أرضها .

(٢) الحجاز : وتقع شمالى بلاد اليمن أى شرق تهامة ، وتمتد إلى فلسطين وسميت حجازاً لأنها تحجز بين تهامة ونجد ، ويقع فى هذا الإقليم المدينتان المقدستان مكة والمدينة .

(٣) نجد : ويمتد هذا الإقليم بين اليمن جنوباً وبادية السماوة شمالا والعروض وأطراف العراق ، وسمى بهذا الإسم لارتفاع أرضه .

(٤) اليمن : ويمتد من نجد إلى المحيط الهندى ، وتحيط به حضرموت والشمر وعمان فى المشرق .

(٥) العروض : وتشمل اليمامة والبحرين ، وسميت بهذا الإسم لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق .

وصف (سيديو) فى كتابه (تاريخ العرب العام) بلاد الحجاز فقال : إن الحجاز يجذب النفوس ويشوقها أكثر من غيره لاشتماله على أكثر مدائن العرب ، ويثرب التى سميت فيما بعد المدينة . ويتخلل أرض الحجاز كثبان من الرمال وآكام خصبة ، وهى مساكن القبائل . وحول هذه الآكام قرى وضياع ، وهى قلاع حصينة تقيهم شر هجمات الأعداء ، وينبت بمنحدراتها بعض الحبوب والثمار التى تستعمل علفا للماشية وبها عيون ماء كثيرة . وإلى الغرب من إحدى تلك الآكام مدينة الطائف التى تعد بستانا ونزهة لأهل مكة .

وبلاد العرب وإن كانت صحراء ، إلا أنها تختلف عن غيرها من الصحارى فى طبيعة سطحها ، فهى مختلفة الأجزاء بعضها مغطى بالكثبان الرملية ، والبعض الآخر بالأحجار ، وبعضها منخفض . والبعض الآخر مرتفع ، مما حمل الكتاب الأقدمين إلى تقسيم بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام ، الأرض العربية الواقعة جنوبى غربى بادية الشام وعاصمتها بترا ، والأرض العربية الصحراوية ، وبادية الشام ، وأخيراً البلاد العربية السعيدة ، وهى بلاد اليمن التى تسمى الأرض الخضراء حيث قامت حضارة سبأ وحمير وغيرها من دول الجنوب .

وشبه الجزيرة العربية كثيرة الجبال الجرد المختلفة اللون ، وفيها الأراضى البركانية والصحارى الرملية المترامية الأطراف ، وبتخللها الجبال والوديان التى هيأتها السيول . والأراضى الغربية خصبة التربة صالحة لإقامة الأهالى الذين يعتمدون على ما تنبته أرضهم وما يجدونه فيها من ماء يشربون منه ومرعى يرعون فيه أنعامهم . أما ما بعد عن هذه الوديان فهو قفر غير صالح للسكنى . وقد يتأخر المطر فتشتد الحال بالقبائل الكثيرة التى تعتمد عليه ، ومع ذلك قل أن يستقر العرب فى مكان واحد لأنهم يتنقلون إلى حيث الماء . كما أن فى الجزيرة العربية ما يسمونها (الأحساء) وهى جمع (حسى) وهو الرمل الذى تحته

صلابة ، فإذا نزل المطر على ذلك الرمل منعت الصلابة أن يتسرب إلى الأرض ويظن البعض أن المعيشة فى الصحارى غير ممكنة لقلة المياه ، ولكن الحال على عكس ذلك ، فإن جوها ملائم لسكنى قوم أقوياء خالين من الأمراض يتحملون المشاق التى فرضتها عليهم طبيعة أرضهم .

وفى الحجاز ، حيث ظهر الإسلام ، كان فى بعض الأحيان تصيب البلاد مواسم جفاف قد تستمر ثلاث سنوات أو أكثر وفى بعض الأحيان كان ينزل وابل من المطر يستمر فترة قصيرة فى شدة غير عادية على مكة والمدينة . وكان يعقب نزول هذه الأمطار ظهور مناطق الرعى فى الصحراء . وفى شمال الحجاز تعد الواحات المنعزلة — وأكبرها يغطى مساحة تبلغ نحو ١٠ أميال العماد الوحيد لحياة الاستقرار . ومعظم سكان الحجاز من البدو . وقد اختفت بعض الواحات كواحة فدك التى كانت مشهورة فى صدر الإسلام .

وإن كانت بلاد الحجاز محرومة تماماً من وجود شبكة من الأنهار ، فقد عوضها الله عنها بشبكة من الوديان . تجرى فيها السيول من جهة ، كما أمكن اتخاذها طرقا للقوافل والحج من جهة أخرى . ومنذ ظهور الإسلام أصبح الحج حلقة الاتصال الرئيسية بين بلاد العرب والعالم الخارجى .

وبلاد العرب من أشد البلاد جفافاً وحرارة فى العالم . وعلى الرغم من أن البحر يحيط بها من كثير من أجزائها ، إلا أن هذه المساحات المائية لا تكسر حدة الاستمرار المناخى فى هذه الأجزاء الواسعة العديمة الأمطار . وإن كان المحيط فى الجنوب يحمل بعض الأمطار ، إلا أن الرياح الموسمية التى تهب فى مواعيد محددة لا تسمح إلا لقليل من الأمطار بالتوغل فى الداخل ، وطالما كانت الرياح الشرقية اللطيفة (المسماة بالصبا) تمد دائماً شعراء العرب بموضوعات محببة فى أشعارهم .

أصل الجنس العربي :

بحث (نولدكيه) في كتابه (المؤرخون وتاريخ العالم) أصل العرب الأقدمين فقال : يبدو أن المعنى الحقيقي للفظ (عرب) هو (صحراء) ، كما يبدو أن معنى (Arabia) يشمل صحراء جزيرة العرب وسورية وشبه جزيرة سيناء ويتضح من الآثار الفارسية القديمة أن إسم (بلاد العرب) كان يطلق على العراق وسورية وصحراء سيناء أما (هيرودوت) المؤرخ اليوناني فيذكر أن العرب هم الذين يسكنون المنطقة الواقعة بين فلسطين ومصر. بينما يطلق « أكزينفون » تلميذ سقراط لفظ (عرب) على صحراء الجزيرة العربية ، كما يطلق على البدو من زمن بعيد لفظ (أعراب) .

يذكر المؤرخون اليهود أن مهد الإنسان فيما بين النهرين ، ومنه انتشر في أرجاء الأرض . وتفرع عن الساميين : الأشوريون والبابليون في العراق ، والآراميون في الشام ، والفينيقيون على شواطىء سورية ، والعبرانيون في فلسطين ، والعرب في الجزيرة العربية ، والأثيوبيون في الحبشة .

ويرى بعض المستشرقين أن مهد الساميين في إفريقية ، مستندين إلى اقتراب بلاد الحبشة من بلاد العرب ، إقليما ولغة . ويرى البعض الآخر أن مهد الساميين جزيرة العرب ومنها تفرقوا في الأرض . وأيد كل فريق آراء بأدلة جغرافية أو اقتصادية أو جنسية أو لغوية . ومن الصعب إبداء رأي قاطع ، فقد كان سكان الجزيرة العربية دائمي الترحال والانتقال إلى البلدان الخصبة المحيطة بالجزيرة العربية لتعويض نقص موارد جزيرتهم فكان يتتابع قدوم العرب مع الأيام ، حتى يصبحوا الأكثرية الساحقة في المكان الذي نزلوه أول مرة جماعات مستضعفة

يرى معظم المؤرخين الأوروبيين أن العرب والساميين شيء واحد . فقال (سبرنجر Sprenger) إن جميع الساميين عرب ، مستنداً إلى أن الأقوام التي تنسب إلى العرق السامي (الأشوريون ، البابليون ، الآراميون ، الفينيقيون ،

العبرانيون ، الأدوميون ، وغيرهم كانوا يهاجرون من جزيرة العرب كلما امتلأت هذه الجزيرة بهم ، أو أجدبت على أثر انحباس المطر ، أو كلما تشوق هؤلاء الأقوام إلى أرض أخصب من الجزيرة العربية .

كانت شبه الجزيرة العربية فى العصور البالغة فى القدم ، يسكنها جماعات من الجنس المعروف فى الجغرافية البشرية باسم (جنس البحر المتوسط) أو (الجنس الأسمر) ويتميز هذا الجنس برؤوسه المستطيلة، وبشرته السمراء ، وشعره الأسود المموج أو المجعد ، وقامته المتوسطة . واتفق المؤرخون والجغرافيون على تسمية هذه الجماعة (الساميين) وكان منهم الحضر سكان المدن ، ومنهم البدو الرحل. وكان جدب الجزيرة العربية يدفع البدو إلى بلاد الهلال الخصيب فى الشمال على شكل موجات أوهجرات واسعة ، يجذبهم الماء والزرع، وهناك يستقرون ويمتزجون بالسكان الأصليين .

هاجر الأكديون واستقروا فى جنوبى العراق وامتزجوا بالسومريين مكونين الحضارة السومرية الأكدية ، ثم حلَّ محلهم العموريون الذين امتدوا إلى شمال سورية ، ثم الأشوريون الذين أسسوا فى شمال العراق امبراطورية امتدت إلى ضفاف النيل ، ثم الفينيقيون الذين استقروا فى السواحل الشرقية للبحر المتوسط والعبرانيون سكنوا فلسطين .

لم يعمر الساميون بلاد الهلال الخصيب وحدهم. فقد كانت هذه البلاد منذ أقدم العصور ، مطمح أنظار الشعوب الفاتحة ، ومعبراً للشعوب المختلفة حل فيه السومريون القادمون من عيلام ، والكاشيون من إيران ، والحيثيون من مرتفعات الأناضول ، والأكراد من الجبال الشمالية الشرقية ، ثم فتح كورش الفارسى البلاد الممتدة من دجلة إلى النيل ثم حلَّ الأغريق بقيادة الإسكندر محل الفرس . وتلا ذلك انقسام هذه البلاد بين الدولتين الفارسية والرومانية ، إلى

زمن الفتوحات العربية الإسلامية . ولـكن بلاد الهـلال الخصيب ، كانت قد اصطبغت ، قبيل العهد المسيحى، بالصبغة السامية ، جنسياً ولغويا وحضاريا ، فما كان أثر الفرس والإغريق والرومان ليمتد خارج المدن الـكبيرة بعيداً ، وهذا بفضل الموجات الساميه العربية .

وأول هذه الموجات السامية اندفعت نحومصر سنة ٣٥٠٠ ق .م . حيث الخصب والماء ، وسكنت الجماعات السامية الحديثة مع السكان المصريين القدماء ، ومن هذا التزاوج خرج الشعب المصرى المعروف فى التاريخ. وفى الوقت نفسه ، خرجت موجة سامية أخرى من الجزيرة العربية ، وتقدمت إلى ما بين النهرين حيث كان يسكن السومريون ، ومن المؤكد أنهم تعلموا من السومريين كيف يزرعون ويقيمون المنازل وكيف يكتبون ، ويعيشون حياة استقرار . ومن التزاوج بين العنصرين خرج العنصر البابلونى الذى كان له حضارة زاهرة تضارع حضارة المصريين .فى منتصف الألف الثالثة قبل المسيح ،خرجت موجة سامية إلى سورية ، وهم الأموريون ، ومنهم الـكنعانيون والفينيقيون . وبين سنة (١٥٠٠ ــ ١٢٠٠ ق . م) ظــهر اليهود فى فلسطين ، والآراميون فى شمال سوريا .

ومنذ أوائل الألف الأولى قبل الميلاد ، سادأحد فروع الجنس السامى العربى فى الجزيرة العربية ، وقد والى هؤلاء العرب الهجرة إلى الهلال الخصيب فاستقر فيها منهم جمــاعات وأسسوا دولا ذات حضارة أهمها تدمر وغسان فى سوريا ، والأنباط فى شرق الأردن ، والمناذرة فى العراق على أن هجرات العرب هذه كانت محدودة فلم تؤثر كثيراً فى السكان، بل تعلم العرب المهاجرون اللغة الآرامية وتحضروا بحضارتها .

وفى القرن السابع الميلادى ، أصدرت الجزيرة العربية موجة سامية جديدة

عرفت باسم (الفتوحات العربية الإسلامية) فى عهد أبى بكر وعمر بن الخطاب وكانت هذه الموجة السامية الأخيرة أبعد الموجات أثراً فى تاريخ العرب والعالم [١].

الملامح العامة للحضارة العربية قبل الاسلام :

اعتاد بعض المؤرخين أن ينظروا إلى العصر الجاهلى على أنه عصر ظلمات وفوضى . إلا أنه مع تقدم الدراسات العربية ، أثبت العلماء — العرب وغير العرب — أنه كان للعرب فى ذلك العرب حضارة وثقافة ، ونظم اجتماعية واقتصادية . وقد ظهرت فى بلاد العرب فى العصر الجاهلى دول ومدن متحضرة أهدت الدول المجاورة لها ألواناً من الفنون والعلوم والآداب وأثبت العرب فى تلك الفترة تفوقا واضحاً فى الميدان الاقتصادى وخاصة التجارة .

يحاول كثير من المستشرقين تشويه صور الحضارة العربية فى العصر الجاهلى ، فيذهبون إلى أن المجتمع العربى الجاهلى كان منحلا منحطاً . ونحن لا ننكر وجود كثير من الرذائل الاجتماعية ، ولكن — رغم ذلك — كان هذا المجتمع العربى أرقى إلى حد كبير من كثير من المجتمعات غير العربية المعاصرة له فكان للعرب نظم اجتماعية ثابتة للأسرة والزواج والطلاق ، وتمتعت المرأة العربية بقسط وافر من الحرية ، وكان وأد البنات على نطاق ضيق فى بعض القبائل الوضيعة .

والجاهلية التى اتصف بها (العصر الجاهلى) ليست من الجهل الذى هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذى هو السفه والغضب والأنفة . وكلمة (الجاهلية) تدل على الخفة والأنفة والحمية والمفاخرة . وهى أمور كانت سائدة بين العرب قبل ظهور الإسلام ، ولذا أطلق على هذا العصر إسم (الجاهلية) . وإذا كان المجتمع العربى قبل ظهور الإسلام ضعيفاً مفككا ، إلا أنه لم يكن منحلا ميتاً .

---

(١) أنظر كتابنا « المجتمع العربى » ص ١٧

وإن كانت هناك نزعات إجتماعية مذمومة ، وعادات وتقاليد مرذولة ، إلا أنه كان إلى جانبها كرم ونجدة ومروءة وشهامة ، يجعل الكفتين تتأرجحان دون أن ترجح إحداهما .

اختلف المؤرخون فى تقييم حضارة العرب قبل الإسلام ، فمنهم من أمتدحهم وقال أن العرب كان لديهم استعداد فطرى للحضارة ومنهم من دفعه استعداده ومؤهلاته إلى قطع شوط كبير فى الحضارة ، بينما ذهب بعض المؤرخين إلى أن عرب الجاهلية كانوا يعيشون فى ظلمات الجهل والتأخر .

قال (بالجراف Palgvrave[1] إنه معجب بالعرب ، وإنه لا يصعب علينا أن نجد فى شبه الجزيرة أناساً يؤهلهم استعدادهم الفطرى إذا خرج إلى حيز العمل أن يبتكروا كثيراً من أساليب الحضارة .

وقال (زابوريسكى) فى دائرة المعارف الكبرى Zapourouski أن الجنس العربى تجمع عليه بأنه من أشرف الأجناس البشرية ، ونحن معجبون كثيرنا من الباحثين بعقلمته وسمو استعداده كعزة النفس وغيرها .

وجاء فى دائرة المعارف البريطانية فى مادة عرب إن العرب من أشرف أجناس العالم ؛ فالعربى قائم التركيب الطبيعى ، سليم الحواس ، فائق الذكاء ، مع استعداد مناسب لطبقة عمله .

وقال ابن رشيق فى كتاب (العمدة) : العرب أفضل الأمم وحكمها أشرف الحكم كفضل اللسان على اليد . وقال الألوسى فى كتابه (بلوغ الأرب) . إن العرب لما كانوا أتم الناس عقولا وأحلاماً ، وأطلقهم ألسنة ، وأوفرهم أفهاماً ، استتبع ذلك لهم كل فضيلة ، وأورثهم كل منقبة جليلة .

---

(١) أنظر كتاب « حضارة العرب » لجوستاف لوبون

هؤلاء هم من مدحوا العرب ، وهناك من قدحهم ، مثل ابن خلدون الذى بالغ فى إبراز بعض عيوب العرب ، فقال إن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط وأنهم إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب . كما قال إبن خلدون أيضاً أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك وذلك لأنهم أكثر بداوة من سائر الأمم. ومن هؤلاء القادحين (أوليرى) فى كتابه (بلاد العرب قبل الإسلام) الذى قال أن العربى الجاهلى مادى ينظر إلى الأشياء نظرة مادية ولا يقومها إلا بحسب ماتنتج من نفع ، يتملك الطمع مشاعره وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف لايميل كثيراً إلى دين ولا يكترث بشىء إلا بقدر ما ينتجه من فائدة عملية.

وهكذا نرى أن أقوال المؤرخين متضاربة متناقضة ، فبعضهم يقدسون العرب قبل الإسلام تقديساً مبالغاً فيه ، وبعضهم — مثل ابن خلدون وأوليرى — يتحاملون على العرب ويذمونهم ونحن نرى أن آراء الفريقين لاتخلو من النقص والغلو ، فأما القائلون بتمجيد العرب قبل الاسلام وتنزيههم عن كل عيب فهذا قول لاينطبق على قواعد العلم الحديث ، لأن كل شعب فيه حسنات وعيوب وهو خاضع لكل نقد علمى فى عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخه ككل أمة أخرى.

وأما أصحاب الرأى الثانى الذى غمط حق العرب فهو غالباً مبنى على كرههم بدافع الشعوبية أو نقص فى دراستهم ، وكان يجدر بهذا الفريق ان يفرقوا بين عرب البادية وعرب المدن ، فلكل من القسمين أخلاقه وعاداته واستعداداته الطبيعية .

أسس حضارة العرب قبل الاسلام :

تنتشر فى بلاد العرب الصحارى الرملية القافرة الواسعة والجبال الجرداء ، ويتخلل بعض هذه الجبال وديان قليلة خصبة تصلح لإقامة الناس، يعتمدون على ماتنبته أرضهم ومايجدونه فيها من ماء يشربون منه هم وحيواناتهم . أما ماعدا

هذه الوديان فأرض قاحلة جرداء لا تصلح للسكنى. والماء قليل لا يكفى حاجة السكان، والمياه الجوفية من العسير استخراجها إلا بوسائل هندسية لا تتوفر للعرب حينئذ. أما بلاد اليمن، فكان نصيبها من الأمطار وفيراً، ونجح أهل اليمن فى اختزان المياه فى وديان الجبال وبناء السدود لحجز المياه خلفها.

هذه هى الجزيرة العربية، نزلها الساميون من العرب فى أول عهدها فى التاريخ، فلما كثر عددهم خرجوا إلى المدن المتحضرة المنتشرة على مشارف الجزيرة العربية، فى الشام والعراق، وطبعوها بالطابع السامى، ولكن معظم هؤلاء العرب احتفظوا ببداوتهم ولم يقبل على الزراعة إلا القليل منهم، ولذا لم تقم حضارات أو ثقافات زاهرة.

وكان جدب الجزيرة العربية وقلة خيراتها من عوامل نجاتها من الاستعمار والنفوذ الأجنبى، ولذا عدل الفرس أو الروم عن غزو الجزيرة العربية من الشمال وإن كانوا عملوا على بسط نفوذهم على بلاد اليمن. ونجا الحجاز من التأثيرات الأجنبية فاحتفظ بطابعه العربى الأصيل.

عاش البدو العرب فى الجاهلية فى فقر وضنك، واعتمدوا تماما على أنعامهم فى مأكلهم وملبسهم ومساكنهم. وهذه الحياة الفقيرة القاسية لا تسمح بقيام حضارة راقية فى بوادى وصحارى العرب، والحضارة تظهر عادة بعد اكتفاء مادى ومعنوى.. ولذا ظهرت الحضارة فى المناطق الخصبة التى تمتعت بثراء اقتصادى أدى إلى الرخاء مثل بلاد اليمن وإمارتى الحيرة والغساسنة.

اتصلت الجزيرة العربية قبل الاسلام بالحضارات المجاورة، فاتصلت بالحضارة المصرية فى مصر، والحضارة البابلية فى العراق، والحضارة الفارسية، والحضارة الرومانية. واقتبس العرب ألوانا من هذه الحضارات مما يناسب عاداتهم وأخلاقهم وكان لقيام إمارتى الحيرة والغساسنة على أطراف الدولتين

الفارسية والرومانية أثره فى تأثر العرب بحضارة هاتين الدولتين .

وقامت التجارة بدور كبيرة فى تأثر العرب بالحضارات الأجنبية المجاورة لهم ، فقد كانت الجزيرة العربية وسيطة فى التجارة بين الاقاليم الموسمى فى الجنوب وإقليم البحر المتوسط فى الشمال . ولكل إقليم منهما غلاته المتميزة . وكانت قوافل العرب تجوب أرجاء العالم القديم ، فشاهد العرب معالم حضاراتها المختلفة ، ونهلوا من منابعها ، وتعلموا اللغات الأجنبية .

أصبح سكان اليمن أكثر عرب الجزيرة حضارة ومدنية ، نتيجة ثراء ورخاء بلادهم ، ولمركز اليمن التجارى وأهمية موقعه الجغرافى ، وقامت دول راقية مثل الدولة السبئية والدوله الحميرية، وقامت مدن يمنية كبرى، وعاش اليمنيون فى قصور ومحافد ، وامتلكوا الضياع والبساتين.

تختلف الشعوب فى عقليتها ونفسيتها تبعاً لظروف المكان والزمان ، ولكل أمة فى التاريخ مميزاتها وتقوم بينها وحدة مشتركة ، جسمية وعقلية ونفسية ، تجعل للأمة شخصيتها المتميزة . كان العربى الجاهلى عصبى المزاج سريع الغضب ، وهو أشد غضباً إذا جرحت كرامته أو انتهكت حرمة قبيلته ، وإذا غضب حكم سيفه ، حتى أصبحت الحروب جزءاً من حياتهم اليومية والمزاج العصبى يكشف عن ذكاء ، ويظهر ذكاء العربى فى لغته، فكثيرا ما يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة والعربى حاضر البديهة سريع الإجابة

ويميل العربى الجاهلى إلى الحرية التامة ، وهى حرية شخصية لا حرية إجتماعية ، ويدفعه حبه للحرية إلى عدم التقيد بقيود دين أو تقاليد قبيلة والعربى يحب المساواة ، ولكنها مساواة فى حدود القبيلة، ولكنه يتعصب لقبيلته ولجنسه.

عاش عرب الجاهلية فى طور البداوة ، وهو طور اجتماعى طبيعى تمر به

سائر الأمم فى طريقها إلى الحضارة . وهذا الطور يحفل بالخرافات والكهانه والعرافه وزجر الطير .

معالم الحضارة العربية قبل الإسلام

كانت الجزيرة العربية قبل الإسلام لا يضمها دولة عربية واحـدة ، وظهرت ثلاثة أشكال للحياة السياسية ، أولها حياة الدولة كوحدة سياسية فى بلاد اليمن ، والشكل الثانى المدينة كوحدة سياسية فى إقليم الحجاز فظهرت عدة مدن كبرى مثل مكة ويثرب والطائف ، والشكل الثالث القبيلة كوحدة سياسية واجتماعية معا فى الصحارى والبوادى وهذه الأشكال الثلاثة حتمتها الطبيعة والبيئة والظروف الجغرافية .

وكان لحرمان بلاد العرب من حكومة مركزية أكبر الأثر فى حياتها الاجتماعية . فالحكومة تدعم المجتمع وتعزز جانب النظام والقانون . ولم يكن هنالك أى منهج للادارة أو القضاء أو الاجتماع ، مما نلمسه فى دول القرن العشرين وكانت الدول أو المدن المتناثرة فى الجزيرة العربية ، أضعف من أن توجد وحدة سياسية موحدة القوانين وانتشرت فى الصحراء قبائل كثيرة تؤلف كل منها وحدة سياسية منفصلة مستقلة ، ومجتمعاً صغيراً ، لكل قبيلة زعيم من أبنائها ، يقودها فى قتالها للقبائل الأخرى . وكان هذا الزعيم مستقلا تماماً لا يدين بولاء أو طاعة إلى أية سلطة مركزية بل كان كل فرد فى هذا المجتمع يحاول أن يكون له شخصية مستقلة ، فهو لا يعتبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته إلا رمزاً لفكرة عامة شاءت الظروف أن يأخذ هو فيها بنصيب ، بل كان لكل فرد مطلق الحرية فى أن يرفض ما اجتمع عليه رأى الأغلبية من أبناء قبيلته، وأبعد من هذا أنه لم يكن هنالك نظام لنقل سلطة الرئيس ، إذ كان يختار لها غالباً أكبر أفراد الأسرة سنا . وأكثرهم مالا ، وأعظمهم نفوذا .

وإذا ما تضخمت قبيلة تشعبت فروعاً كثيرة يتمتع كل فرد منها بحياة

منفصلة ووجود مستقل ، ولا تتحد إلا فى ظروف غير عادية، اشتراكاً فى الدفاع عن القبيلة، أو قياماً بغارات خطيرة. وكانت وطنية البدوى وطنيةقبليه لاوطنية شعبية ، وهــذا الشعور بارتباطه بقبيلتــه يحميهـا وتحميه ، هو المسمى بالعصبية .

وصف السير (وليم ميور)[1] عرب الجاهلية وصفاً دقيقاً معبراً ، فقال : أكثر ما يلفت الانتباه هو تفرق العرب إلىجماعات عديدة ، تتشابهفى العادات والطباع ، تتحدث لغة واحدة ، وتتبع دستورا أخلاقياً غير مكتوب ، أساسه الأخلاق والشرف . ولــكن هذه القبائل متابعدة مستقلة لا تعرف الهدوء والاستقرار . وتشتبك هذه القبائل فى حروب مستمرة ، حتى مع القبائل التى ترتبط بها بروابط الدم والمصلحة، لأسباب تافهة . وكانت كل محاولة لإيجاد نوع من الاتحاد مصيرها الإخفاق . وكان لابد من البحث عن حللهذه المشكلة ولــكن أين القوة التى تستطع إخضاع هذه القبائل وجذبها إلى نقطة الارتكاز؟ لقدظهر محمد صلى الله عليه وسلم وتمت بظهوره المعجزة .

ينقسم عرب العصر الجاهلى من الناحيتين العنصرية إلى قسمين . عرب الشمال ، سكان الحجاز ،وهم مننسل اسماعيل بن ابراهيم ،ويسمون العدنانيين. أو المعديين . والقسم الثانى ، عرب اليمن ويسمون القحطانيين أى أنهم من نسل قحطان . وكان الخلاف الجوهرى بين القسمين هو الحضارة ، فقد عاش القسم الجنوبى حياة متحضرة وعيشة استقرار نتيجة خصوبة بلادهم واشتغالهم بالزراعة ، بينما أهل الشمال تغلب عليهم البداوة وحياة الترحال .

كانت هناك رابطة تجمع القبائل العربية رغم اختلافها ونزاعها الدائم

---

(١) The Life of Muhammad pp 40,45

المستمر . وكان نظام (الأحلاف) السائد فى الجاهلية خير مظهر لهذه الوحدة العربية وكان عرب الجاهلية يتبعون المثل السائر (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً). وإذا دخلت قبيلتان فى حلف كان لكل فرد من إحدى القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الأخرى . عقدت قريش (حلف الفضول) [١] وكانت ترد كل مظلمة بمكة إلى صاحبها ، لا فرق بين قرشى وغيره . وهى روح تنم على الوحدة العربية وتخفف من حدة العصبية الجاهلية [٢] . كما أراد العرب أن يخففوا من حدة الصراع والنزاع ، فعينوا أشهرا حرماً لا قتال فيها ، وأدى هذا إلى تأمين القوافل التجارية وتجار القبائل القادمين حاجين إلى الكعبة أو قاصدين إلى سوق عكاظ وغيرها من الأسوق .

ومن أسباب النزاع الدائم بين العرب فى العصر الجاهلى ، تنافر البداوة والحضارة ، والصراع حول موارد المياه والتنازع حول الشرف والرئاسة . أما تنافر البداوة والحضارة فيبدو واضحاً فى العداء الشديد بين أهل المدينة من الأوس والخزرج ، وهم يمنيون ، وأهل مكة وهم عدنانيون . واستمر هذا العداء بعد ظهور الإسلام ، أما الصراع حول موارد الحياة فكثيرا ما كان يدور بين بنى الأب الواحد ، فأننا نعلم أن حياة العرب قد اعتمدت على المراعى والماء . ولم يكن عند العرب نظم تنظم هذه الموارد الاقتصادية . كما كان التنازع حول الشرف والرئاسة سبباً لحروب عديدة بين القبائل المتقاربة فى الأنساب والمكان مثلما كان بين بنى هاشم وبنى أمية بمكة ، وبين عبس وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة [٣] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٧
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٦
(٣) ابن قتيبة. المعارف ص ٢٦٠-٢٦١

ينقسم العرب بالنسبة إلى مساكنهم إلى بدو يقيمون فى البادية ، وهم القسم الغالب ، وإلى حضر وهم سكان المدن وما يقوم على أطرافها من مزارع ، مثل سكان مكة ويثرب والطائف . على أن التباين بينهما غير كبير ، إذ تنم حياة الحضر ، فى حالات عديدة ، عن نشأتهم الرعوية ، حيث يشتركون مع البدو فى طبائعهم المعروفة . ومن ذلك أن المزارعين المستقرين وأهل الحضر أيضاً لم يتخلوا تماماً عن عادة التجوال والارتحال من مكان إلى آخر . ثم إن البدو من ناحية أخرى لم يكونوا مجرد أفاقين ، يجوبون الأرض حبا فى محض التجوال والارتحال ، وانما كانوا يتخيرون البقاع التى ينتجعونها بقطعانهم على أساس خصوبتها ووفق أوقات معينة من السنة . وإذا وجد أولئك البدو أرضاً خصبة صالحة للزراعة وسط المروج الكبيرة ، استقروا فيها ، على حين إذا وجدت عين ماء يتلاقى عندها الرعاة ورجال القوافل قامت إحدى القرى ، وربما إحدى المدن (١)

كان سكان المدن أو الواحات الخصبة فى الجزيرة ، يجرون على حياة تختلف قليلا عن الحياة التى يحياها البدوى ، لأن المفروض فى هذه الجماعات أن تقيم فى هذه الأرض الخصبة ، وأن تزرعها وترعاها ، ولكنهم مع ذلك كانوا يتفقون مع البدوى فى طريقة حياته وتفكيره ، وكانوا ما فى ذلك شك ولا ريب متأثرين بالحياة البدوية التى حولهم ، متأثرين إلى حد بعيد بالتفكير البدوى نفسه ، فى الشعر وغير الشعر من الفنون الأدبية التى كانت تجد أرضاً خصبة فى هذه الصحراء الملتهبة الجياشة .

وفى هذه الأرض الواسعة كانت الحياة تسير سبيلها متحركة أبداً ، مختلفة أبدا ، ولكنها تظل مطبوعة بطابع البداوة والصحراء ، فاذا هلكت قبيلة ،

---

(١) هل . الحضارة العربية ص ٣

أوهاجرت قبيلة إلى مكان آخر ، أتت غيرها ، فحلت محلها ، وراحت تحيا حياتها وتعيش على غرارها .

حضارة البدو والحضر :

كان البدو يمثلون غالبية سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام . وقد احتفظ البدو بطباعهم وبداوتهم ، وتجلت هذه البداوة فى عاداتهم وحرفهم . وأدت خبرتهم واشتغالهم بالتجارة إلى معرفة دروب الصحراء . وهم يعيشون حياة ترحال دائمة ، إذ ينتقلون من مكان إلى آخر حيث توجد الآبار والعيون ، وهى أساس حياتهم منذ عهد الآباء والجدود ، وينصبون خيامهم حيث يجدون أشجار النخيل التى يحتمون بظلها ، والأعشاب التى يرعون عليها أغنامهم وإبلهم ولكنها إقامة مؤقتة تنتهى بانتهاء ما لديهم من إمدادات وتموين .

انقسم هؤلاء البدو إلى قبائل وأسر ، لكل منها شيخ أو أمير ، يغرس حربته إلى جانب خيمته علامة على رئاسته ، وقد تظل الرئاسة فى أسرة عدة أجيال ، ولكن ذلك يتوقف على موافقة القبيلة . وقد يُعزل الشيخ وتنتخب القبيلة رئيسا آخر من أسرة أخرى . وسلطة الشيخ لها حدود ، وتعتمد على صفاته الشخصية والثقة التى تمنح له . وللشيخ سلطة تقرير الحرب أو السلم ، وعقد المعاهدات ، وقيادة القبيلة فى الحروب ، واختيار المكان الذى تنصب القبيلة فيه خيامها ، واستقبال الأجانب والتفاوض معهم ، ولكن يجب على الشيخ عند تقريره هذه الأمور أن يحترم آراء ومطالب شعبه (١) .

تتفرع القبيلة إلى فروع كثيرة ، ويعرف كل فرد نسبه وصلته بكل فرع من هذه الفروع ويتزعم شيوخ هذه القبيلة شيخ يعرف باسم (شيخ الشيوخ)

---

(١) ارفنج . حياة محمد « من ترجمتنا » ص ٢

ويسكن عادة فى قلعة مبنية من الصخر ، أو ينصب خيمته وسط قطعان أغنامه وإبله فى الصحراء ، ومن واجبه التوفيق بين هـــــذه الفروع والعمل على سعادتها ورفاهيتها .

وكثيراً ما تصطدم القبائل ببعض ، وتعتبر عادة الأخذ بالثأر من أهم دوافع الاصطدام . فمن أهم واجبات كل قبيلة أن تأخذ بثأر قتيلها إذ يتوقف على ذلك شرفها وقد تستمر الحروب الدموية من أجل الثأر أجيالاً طويلة . ويتضامن أفراد القبيلة تضامنا شديداً ، ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم . إذا جنى أحدهم جناية حملتها قبيلته ، وإذا غنم غنيمة فهى للقبيلةولرئيسها خيرها ، وإذا أبت قبيلةأن تحميه لجأ إلى قبيلة أخرى ووالاها ، وحسب نفسه كأنه أحد أفرادها .

وبعض القبائل ترجع فى أصولها إلى رجل واحد ، كان كثير الولد ، ثم تناسل أولاده ، فأسسوا قبيلة جديدة تحمل إسم الأب ، واستقلوا عن غيرهم من القبائل ، وانضم إليها جماعة تركوا قبائلهم لأسباب شخصية أو لاختلافات محلية . ولم يكن البدوى يحاول أن يعرف أن هناك فى الحياة غير القبيلة ، ولم يـكن يريد أن يفطن إلى أن هناك من النظم السياسية التى تختلف عن النظم القبلية .

وكانت نظم هؤلاء البدو الإجتماعية بسيطة،أولها وأهمها حق البدوى فى الحرية الشخصية،برغم صلة القربى التى ربطت الفرد بأسرته وقبليته وجنسه.وثانى هذه النظم هو حق البدوى فى الإغارة على القبائل المعادية،وذلك لأن تنازع البقاء دار فى الجزيرةالعربيةمنذالقدم حول الماء والمراعى وأدى ذلك التناحر إلى ضعف الروح القومية،إذ أصبح العربى البدوى ينظر إلى قبيلته على أنها وطنه،وإلى القبائل الأخرى على أنها أعداء ، يحل له الاغارة عليها ولـكن إذا كان الصراع من أجل الحياة

قد فرق البدو إلى شيع صغيرة متنافرة ، فإن نضالهم المشترك ضد الطبيعة القاسيه قد قرب بين بعضهم بعضا ، وأدى إلى أن اعترف العرب جميعاً بواجب واحد ، غالوا فى المحافظة عليه ، واعتبروه فضيلة كبرى ، ألا وهو واجب الضيافة.

أما الحضر ، سكان المدن ، فقد كانوا أقل شجاعاً وأكثر ميلا إلى الترف والنعيم ، وقد نبغوا فى التجارة . فقد جابت قوافل قريش بلاد العرب ومعظم دول العالم القديم ، مما أدى إلى رقى أحوال قريش الإجتماعية .

ومن يتتبع أشعار العرب فى الجاهلية يجزم أن المرأة العربية كانت تتمتع فى ذلك العصر بقسط وافر من الحرية ، فكانت تستشار فى مهام الأمور ، بل تشارك الرجل فى كثير من أعماله وكانت علاقتها بزوجها على درجة من الرقى أكثر مما يخيل إلينا . يدلك على ذلك افتخار الرجل بنسبة لأمه كما يفخر بنسبه لأبيه ، واعطاؤهم المرأة قسطها مما تحب من النسيب .

وكان للعرب نظام ثابت فى الزواج ، فكان جمهورهم يقترن بالزوجة بعد موافقة أهلها ، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات فى أمور زواجهن . وكان من النادر أن يرى الإنسان بنتاً بالغة دون زواج ، أو أرملة صغيرة لم تتزوج . وكانوا يطلقون ، والطلاق بيد الرجل غالباً وكان وأد البنات على نطاق محدود بين بعض القبائل الفقيرة الوضيعة ، بينما كانت القبائل الشريفة الغنية لاتئد أولادها أو بناتها . وكان الدافع إلى الوأد غالباً خشية الفقر والإملاق ، نتيجة جدب الجزيرة العربية وقلة الإنتاج ، وكثرة نسل العرب حينئذ ، وللموازنة بين الإنتاج وعدد السكان .

الأخلاق والعادات الاجتماعية :

ربما تدلنا دراسة أخلاق وطبائع العرب على الأسباب التى جعلت أحوال العرب ثابتة لم تتغير على مر الزمن . فقد كان وضعهم الجغرافى وصحاريهم القاحلة

تحميهم من الغزو ، كما أدى نزاعهم وصراعهم المستمر ورغبتهم فى الاستقلال السياسى إلى أن صاروا بعيدين عن الغزو والاستعمار ورغم انقسام العرب إلى أقسام ومجموعات فقد كان لهم حيوية عظيمة . وعلى الرغم من أن حياتهم البدويه أدت إلى قوتهم ونشاطهم ، وعلى الرغم من أن معظم العرب كانوا محاربين بالفطرة ، إلا أن كثيراً ما كان بعضهم يشهر سلاحه فى وجه البعض الآخر ، عدا بعض قبائل شمال الحجاز الذين كانوا يشتركون فى بعض الحروب خارج بلاد العرب كجند مرتزقة . هذا بينما كان البدو من الأجناس الأخرى التى تسكن وسط آسيا لم يكن لهم ميل كبير إلى القتال والحرب ، وبينما خرج العرب لغزو العالم المتمدين ، ظل بدو وسط آسيا قابعين فى صحراواتهم (١) .

أكسبت الطبيعة العربى صفات تناسب بيئته ، فهو ضعيف الوزن ، نحيف البدن ، قوى نشيط ، يتحمل التعب والمشقات ، وعظيم الصبر والإحتمال ، يكفيه طعام قليل متواضع . وصفات العربى هى نفس صفات الجنس السامى : الفطنة ، والذكاء ، والدهاء ، وسرعة البديهة ، والخيال المتوقد ، ويتميز بالكبرياء وعزة النفس التى تبدو واضحة فى عينيه السوداوين ، إلى جانب فصاحته وإجادته للشعر . ويتحدث العربى لغة غنية فصحى ، وهو خطيب بالفطرة ، يتلاعب بالألفاظ ، ويميل إلى الحكمة والأمثال .

وكما أن العربى مقاتل شجاع ، فهو كريم مضياف . يجد سروراً فى المنح والإعطاء ، ويفتح بابه لكل طارق ، بل هو على استعداد أن يتنازل عن اللقمة الأخيرة . وإذا شارك العربى عدواً له فى طعامه أصبح دم عدوه محرماً عليه .

ومثل البدوى الأعلى فى الأخلاق تركز فيما سماه (المروءة) تغنى بها

(١) ارفنج . حياة محمد « من ترجمتنا » ص٢٩

فى شعره وأدبه ، ومن الصعب أن نحدد هذه المروءة ، ولكن يمكن أن نقول أنها تقوم على الشجاعة والكرم ، وتتجلى الشجاعة فى دفاع العربى عن قبيلته ونجدته للضعيف ، ويبدو الكرم فى إغاثة البائس وإعطائه أكثر مما يأخذه .

ولما كان العرب مستعدين دائماً للدفاع عن قطعانهم ، ولذا فهم يجيدون استعمال السلاح . حتى أصبح لايبزهم أحد فى استعمال القوس والحربة وغيرهما من السلاح ، أو فى ركوب الخيل .

والممعن فى البداوة من العرب ضعيف الإيمان بدين ، قل أن يؤمن إلا بتقاليد قبيلته وما ورثه عن آبائه ، قال الله تعالى : (الأعـــراب أشد كفراً ونفاقا) .

ونحن ندرس الحياة الاجتماعية لابد لنا من أن نعرض لخيام البدو التى هام فى وصفها الشعراء ، كما كثر بكاؤهم على أطلالها وآثارها الباقية بعد رحيل أصحابها عنها كما يجب الإشارة إلى الإبل التى كانت عماد الحياة فى الصحراء ، يأكلون من لحومها ويشربون من ألبانها ، ويكتسون من أوبارها ، ويقوّمون بها ثروتهم ، ويفتدون بها أسراهم ، ويمهرون بها فى الزواج ولجميع هـــذه الأسباب ، اهتموا بتربية الإبل وكيّفوا حياتهم وفاقاً لحياتها ، ورحلوا من مكان لآخر من أجلهـــا ، وبنوا كثيراً من لغتهم عليها ، وضربوا فيها الأمثال الكثيرة ، وتغنى الشعراء فى وصفها وحدائها . وكانت لدى العرب أيضاً الخيل يعنون بها ، ولكنها كانت متاع المترفين ، بينما كانت الإبل متاع العرب جميعاً .

حضارة مكة قبل الاسلام :

قامت مكة فى عصر إسماعيل بن إبراهيم ، وبدأت مكة تدخل أبواب

التاريخ وتتجلى عظمتها فى عهد قصى بن كلاب الذى وحد بطون قريش فبرزت عظمتها عند ذلك الحين ، وبلغت مكة مجدها فى العصر الجاهلى فى عهد عبدالمطلب ، ، ثم تشهد مكة مشرق نور الهداية ، فيولد فيها خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، محمد الهاشمى القرشى .

كان وادى مكة ، قبل قيامها موئلا لراحة القوافل . والراجح أن إسماعيل ابن إبراهيم كان أول من اتخذها مقاماً وسكناً . وبعد تفجر بئر زمزم نزلت بهذا المكان قبيلة جرهم فقد أصبحت الحياة ممكنة . وشب إسماعيل فى هذه القبيلة وتعلم منهم اللغة العربية . ثم كان قيام إبراهيم وإسماعيل ببناء الكعبة بأمر من الله عز وجل ، فكتب للولى بذلك الخلود والمجد لمكة ، فقد أصبحت موطن الكعبة ومقصد الحجاج .

وكان أهل مكة على صلة وثيقة بالعالم المتمدين ، وكانوا ملمين بوسائل الحكم فى الدول المعاصرة ، واقتبسوا منها ما يلائمهم ، وتولى زعماء قريش السلطات الدينية والمدنية معاً ، وتوارثوا هذه المناصب ، تبعاً لتقاليدهم الخاصة . وقد اقتبس أهل مكة من ألوان الحضارة والترف وأشكال الحكومة ماينسبهم وصبغوه بصبغة خاصة تتلاءم مع بيئة مكة العربية . وقامت جمهورية مكة كدولة من دول المدن ، وهى تختلف عن الدول المعاصرة لها ، كما تختلف تماماً فى شكلها عن أشكال الحكم المختلفة التى عرفتها القبائل العربية البدوية . وكانت التجارة مصدراً لثراء مكة ، كما كانت الكعبة منبعاً للنفوذ السياسى والدينى .

أحاطت منازل أهل مكة بدارة الكعبة ، فكانت تقترب منها أو تبتعد عنها تبعاً لما لكل أسرة ونخذ من أهمية ومقام ، فكان القرشيون أقرب أهل مكة إلى الكعبة . وكانت الحامية المكية إيلافاً من الأسباط المجاورة ، كل

سبط يقيم فى أحد الأحياء ، ولم يكن فى مكة سلطة عامة ، فكان شيوخها مصدر السلطات ، يحكمون بما يحقق المصالح العامة . وعاشت فى مكة جاليات أجنبية ، يهودية ونصرانية ، سورية ومصرية وحبشية ورومية وفارسية ، وكان كثير منهم يشتغل بالصناعات ، وقدم كثير منهم بعد اضطهادهم فى بلادهم الأصلية ، وتعدد هذه الأجناس يبين صلات مكة بالبلاد المختلفة ، وامتلأت مكة بالمنازل الفخمة ، وكانت مكة تفخر على سائر مدن الحجاز بوجود الكعبة بها .

لم تكن مكة فى العصر الجاهلى تستطيع أن تنافس مدن الجزيرة العربية فى خيراتها أو بذخها ، فقد كانت تقع فى أجدب بقاع بلاد العرب . ولكنها كانت تستطيع أن تفخر عليها بوجود الكعبة المقدسة فى حماها ولم يكن منظر مكة يختلف عن غيرها من مدن الصحراء العربية ، ولكنها تفوقها جميعها بأنها تحوى من البيوت الفخمة ما هو أكثر عدداً وأجمل شكلا .

أصبحت مكة بعد سقوط الدولة الحميرية فى بلاد اليمن مركز الحياه الاقتصادية فى بلاد العرب ، وملتقى قوافل دول العالم القديم . وازدحمت مكة بالتجار من مختلف الأجناس والأديان وشهدت مكة ألواناً من الحضارات واللغات والثقافات

وكانت مكة موطن الكعبة ، ودار سلام ، يأمن فيها كل إنسان على نفسه وحريته ومتاعه وعمل أهل مكة على جذب الناس من كل مكان إلى مكة للحج أو التجارة أو السياحة ، تحقيقاً لفائدة مادية تعود على أهل مكة نتيجة كثرة الوافدين ، وكان المكيون يوفرون للقادمين الماء والطعام ، ويقيمون لهم الولائم ، ويذبحون الذبائح ، ويؤمنونهم على أرواحهم وأموالهم ، وكان لمكة ميزانية ثابتة منظمة ، وجمع القرشيون بعض المال من أهل مكة لتوفير

الطعام والماء للحجاج وشراء كسوة حريرية للكعبة(١) .

تميز نظام مكة التجارى بأنه نظام محكم متقن ، فإن أهل مكة لم يكونوا ليؤمنوا باكتناز الأموال واحتباسها فإن المكى كان إذا ما زاد دخله من التجارة ، سعى إلى أن استغلال ماله فى مشاريع أخرى . وكان الشريك الموصى غير العامل يأخذ نصف الأرباح ، مما جعل كل فرد يساهم بأى مبلغ صغير فى التجارة ، وكان تنظيم القافلة ورحيل القوافل الأجنبية ووصولها من الأمور التى تهم أهل مكة جميعاً ، وكانت قوافل مكة ضخمة فى حجمها حيث بلغ عدد الإبل أحياناً ألفين وخمسمائة بعير ، وكان عدد الرجال ثلثمائة رجل(٢) .

تطورت مدينة مكة وصارت مدينة كبرى ، وخاصة بعد سقوط الدولة الحميرية فى بلاد اليمن ، وقد اكتسبت مكة هذه المكانة لا لوجود الكعبة بها ، أو لازدهار تجارتها ، أو لموقعها الجغرافى فحسب ، وإنما ينسب ذلك الارتقاء كما يرى المؤرخ (فلها وزن) إلى تفوق سكان مكة من قريش ، الذين اقتبسوا ألواناً عديدة من الحضارة ، وأجادوا القراءة والكتابة ، وأصبح المكيون أرقى من سائر البدو سكان الجزيرة العربية ، بل أرقى من أهل يثرب المشتغلين بالزراعة ، فقد عاش أهل مكة فى طور صناعى تجارى ، بينما كان سكان يثرب لا يزالون يمرون بالطور الزراعى وعرفت مكة ألواناً من الخدمات البلدية والعناية بالمرافق العامة والطرق وتنظم ملكية العقارات ، وكان الموسرون يشعلون نيرانا عظيمة فوق تلال مكة منارات ترشد القوافل أو العتالين .

كانت أشهر الحج أشهرا حرما ، يحرم منها القتال ، فكان العرب يغتنمون فرصة هذه الهدنة المقدسة ، فيشدون الرحال إلى مكة من كل مكان فى الجزيرة

---

(١) أنظر كتابنا « عبد المطلب جد الرسول » ص ٤٤ و ٤٥

(٢) حسيبى . الإدارة العربية ص ٢٩

العربية، يشهدون الأسواق التى كانت تقام قبل الحج ، والتى كانت تمارس أغراضا اقتصادية ومباريات أدبية . وقد اهتمت قريش وأهل مكة بسوق عكاظ الذى أصبح مسرحاً للأدب والشعر، تتسابق فيه القبائل إلى اظهار نوابغها من الشعراء والخطباء ، وكان لعكاظ فى أيام الموسم رجل يولونه الحكومة الفصل فى ما قد يقع من الخلاف . ومتى فرغ الناس من سوق عكاظ وقفوا فى عرفة ، ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الحج ويرجعون إلى مواطنهم .

ولما كانت مكة مركزاً للحج ، فإن كبار المواطنين فيها وضعوا ترتيبات للخدمات البلدية فى بلدتهم ، فتطوع الناس لإمداد الحجاج بالمياه ، ومهدت طرقات البلدة ومسالكها وعنى بكنسها ونظافتها ، وكانت معظم الطرقات ضيقة ، وتعاون المكيون فى سبيل وقوف السيول التى قد تنحدر من سفوح الجبال المحيطة بمكة . ونقلوا المياه من الآبار الكثيرة الموجودة خارج مكة إلى الكعبة ليمدوا الحجاج بحاجتهم من المياه . واتخذ كل حى من أحياء مكة مستودعاً خاصاً بها لنفاياتها .

أصبحت مكة قبل الإسلام تشبه مدينة روما القديمة فى شبه جزيرة إيطاليا فقد أوت إليها بضع قبائل بعد أن تعبت من حياة التنقل والارتحال ، وتطلعت إلى السكون والاستقرار ، فلجأت إلى تلك البقعة المقدسة من الأرض التى كانت وسطاً بين الجدب والخصب ، ووسطاً بين السهل والوعر . وأقامت تلك القبائل فى مكة فى فصلى الربيع والخريف ، أما الصيف فكانت تمضيه فى مدينة الطائف القريبة من مكة ؛ والتى جادت الطبيعة عليها بهواء طيب ومحصولات أوفر ، لكثرة أمطارها وارتفاع أرضها . أما الشتاء فكانت تمضيه فى جدة على شاطىء البحر الأحمر .

أختارت هذه القبائل المقام فى مكة لأنها مدينة عريقة ، تقوم فيها الكعبة

المقدسة ، كما أنها سوق تزخر بالبضائع التى تفد عليها من أرجاء العالم القديم كالهند وفارس والصين والشام ومصر واليمن . وبدأ سراة هذه القبائل فى بناء بيوت ثابتة حول الكعبة من الحجارة والآجر ،وبدأوا يعتمدون على التجارة فى مواردهم ، بدلاً من الرعى أو الزراعة(١) .

وشهدت مكة نهضة أدبية ، وأنتجت رجالا نبغوا فى السياسة والقيادة والإدارة ، قاموا بدور كبير بعد ظهور الإسلام(٢) .

وكانت مكة بما تحتويه من أماكن ، مدينة مقدسة منذ زمن طويل قبل ظهور الإسلام وكانت مقصد الحجاج من جميع أرجاء بلاد العرب ، وكان العرب يهتمون بالحج ، ولذا جعلوا بعض شهور السنة أشهرا حرماً تمتنع القبائل فيها عن القتال ، فتلقى أسلحتها جانبا ، وتنزع رؤوس حرابها ، ويتجول العرب فى الصحراوات المختلفة فى أمان واطمئنان . ويقصد الحجاج مكة ، فيطوفون بالكعبة سبع مرات ، ويلمسون ويقبلون الحجر الأسود ، ويشربون من ماء زمزم ليعيدوا إلى ذاكرتهم ما حدث لجدهم الأكبر اسماعيل . حتى إذا انتهوا من مناسك الحج الأخرى عادوا إلى بلادهم فى أمان ، وعادوا إلى أسلحتهم وحروبهم .

تولت قريش مهمة تسهيل مهمة الحجاج ، فعملوا على توفير ما يحتاجونه من ماء وطعام ، وقد كان ذلك من أشق الأمور وأصعبها ، فقد اشتهرت مكة بأنها فى واد ضيق غير ذى زرع . إذ حرمت من موارد المياه التى توفر لسكانها مياه الشرب ، كما حرمتها الطبيعة خصوبة الأرض ، فضلا عن إحاطة الجبال بها من جميع الجهات .وإن كان استيراد المواد التموينية من المناطق الخصبة أمراً ميسوراً ، إلا أن توفير الماء من أشق الأمور .

---

(١) لطفى جمعة . ثورة الاسلام ص١٤١

(٢) جرجى زيدان . تاريخ التمدن الإسلامى ج١ ص ٤١

لم تكن هذه المهام الدينية الجليلة شخصية أو عائلية مجردة من ملابسات أخرى، كما أن البيوتات التي كانت يقوم ممثلوها بها لم تضطلع بها ارتجالا وبقوتها الخاصة بها ، بل إنها كانت مهام ذات سلطة رسميــة ما اضطلعت بها هذه البيوتات . وعلى هذا فإنه من الممكن أن نقول أن مهام (السقاية) أو (الرفادة) أو (السفارة) بين أهل مكة وغيرهم حين تطرأ أحداث تقضى ذلك ، و (قيادة الجيش) فى الحرب ، و (عقد اللواء) وغــير ذلك ، لم تكن هى الأخرى شخصية بل كانت مثلها ذات صفة أو سلطة رسمية ما اضطلعت بها البيوتات التى كان ممثلوها يقومون بها بهذه الصفة[1]

قام الحج بدور كبير فى حضارة العرب وكيانهم الإجتماعى ، فقد كان الحج قبل الإسلام يشمل العرب جميعهم على اختلاف عقائدهم وعباداتهم وبيئاتهم ، وكانوا يتخذونه وسيلة من وسائلهم الإجتماعية ، حيث كانوا يفدون إلى مكة من كل صوب وحدب . فيلتقون فى موسم الحج وأسواقه ، وفى ظل أشهره الحرم ، ويجتمعون ويتعارفون ويتبايعون ويتشاورون ، ويتناشدون الأشعار ويعقدون المجالس للمفاخرات ، وحل المشاكل ، ويخطب فيهم مصاقع الخطباء . وقد سنحت العرب نتيجة الحج فرصة لحركة أو نهضة قومية وسياسية وإجتماعية وفكرية ودينية .

أصبحت مكة مركز الحياة الدينية والإجتماعية فى الحجاز خاصة وفى الجزيرة العربية عامة وكان حج العرب إلى مكة وكعبتها يؤدى إلى حركة تجارية عظيمة وحركة أدبية كبيرة . وكان امتناع الناس فى هذه الأشهر الحرم عن إيذاء بعضهم بعضا ، يساعد على إقبال العرب على هذه المواسم ، التى كانت تحدث نشاطاً فكرياً وتجارياً ودينياً عظيما ، رددت آثاره الأخبار والقصائد

---

(١) دروزه : عصر النبى ص ٢١٩

والنوادر الأدبية التي حملها لنا التاريخ عن شعراء وخطباء الجاهلية في هذه الأسواق التجارية الأدبية التي تقام في عكاظ والمربد .

ولم يكن الذين يشهدون موسم الحج ويؤدون مناسكه ويفدون إلى أسواقه قاصرين على أهل منطقة مكة أو بلاد الحجاز ، بل قدم حجاج من أرجاء الجزيرة العربية المختلفة كاليمن ونجد . وقدم يهود ونصارى . وحنفاء موحدون ، منهم من قدم للتجارة ، أو للتبشير بدينه ، أو للمفاخرة والخطابة وإنشاد الشعر . ومنهم من أتى من أجل حلّ مشاكل لا يمكن حلها إلا في مثل ظروف الحج وموسمه وأمنه ولكن معظمهم قد قدم للحج وزيارة الكعبة .

حضارة قريش :

نشأ إسماعيل في قبيلة جرهم اليمنية بمكة بعد أن قدم أبوه إبراهيم به . وظلت زعامة مكة وولاية الكعبة في جرهم حتى طغوا وتجبروا وأساءوا معاملة الحجاج واستولوا على أموال الكعبة (١) . وقدمت قبيلة خزاعة من اليمن فأجلت جرهم وانتزعت منها السيادة ، واستمرت تتولى شئون الكعبة أكثر من ثلثمائة سنة أحدثوا فيها كثيراً من الأوهام الفاسدة ولا سيما عبادة الأوثان ، حتى برزت قبيلة قريش واستطاعت أن تجمع شملها وانتزعت السيادة من خزاعة وأصبح زعيم قريش قصى بن كلاب زعيما لمكة أيضاً .

كانت حكومة مكة من النوع الذى يسميه علماء الاجتماع (الباترياركا) أى تتبع نظام الأبوة أو سيادة الرجل ، فكان لمكة أو لقريش زعيم بارز يخضع له الجميع .

لم تعرف القبائل العربية في بلاد العرب الرئاسة المطلقة كما عرفتها قريش ،

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة ص ٣٦

وإنما كان فى كل قبيلة نفر من «السادة» يعترف أفراد القبيلة لهم بسلطان أدبى، وكان أعظم أولئك السادة عادة يعتبر سيد القوم وواجباته كثيرة، ولكنها ليست محددة، وإذا قامت الحرب أصبحت سيادته رياسة فعلية. هذا بالنسبة للقبائل الظاعنة، أما فى مكة فقد أخذت السيادة معنى حقيقياً بسبب الاستقرار وانتظام أمور الجماعة ووجود الكعبة وضرورة وجود من يتولى شئونها. ومن هنا كان تنافس القبائل وشيوخها على سدانة الكعبة حتى انتهت إلى قريش، على يد سيدها قصى بن كلاب ثم حفيده عبد المطلب (١).

أصبحت لقريش فى عهد عبد المطلب صبغة دولية. فقد كانت تربطها معاهدات سياسية واقتصادية بالدول الكبرى فى العالم القديم، وكان توقيع هذه الدول لهذه المعاهدات هو بمثابة اعتراف الدول بقريش كوحدة سياسية لها كيانها وقوامها واقتصادها (٢)

فقد عقد هاشم مع الامبراطورية الرومانية ومع أمير غسان معاهدة حسن جوار ومودة، وتعهد الإمبراطور بالسماح لتجار قريش بالترحال فى أراضى الإمبراطورية فى سلام. وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع نجاشى الحبشة، وعقد نوفل والمطلب معاهدة سياسية مع الدولة الفارسية، ومعاهدة تجارية مع الدولة الحميرية العربية فى بلاد اليمن. ورأى العرب أن هاشماً وعبد شمس ونوفل والمطلب قد «جبر الله بهم قريشاً فسموا المجبرين» (٣).

كونت قريش جمهورية صغيرة تولاها أكفأ أبنائها، وكانت قريش تشجع العرب على الحج إلى الكعبة، ولذا عملت على إنصاف المظلوم ونشر

(١) أنظر الحاشية بكتاب تاريخ التمدن ج١ ص٦

(٢) أنظر كتابنا «عبد المطلب جد الرسول» ص ٢٢

(٣) الطبرى ج ٢ ص٣٣

العدل ، كما وفرت الماء والطعام للحجاج واتخذت قريش جزءاً من الأرض المجاورة للكعبة أولوه احترامهم واعتبروه حرماً مقدساً وحرموا فيه القتال . وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها ، كما أصبحت قريش محترمة فى نظر القبائل العربية .

عدد الجاحظ ما تميزت قريش به على سائر القبائل العربية ، فتحدث عن كرمها وسخائها ، وتفوقها العقلى ، ونضوج أفكارها ، وحسن تدبيرها وسماحة أخلاقها ، ووصف الجاحظ كيف وصلت قريش قديمها بحديثها .

ولما كانت قريش قبيلة تجارية ، فقد رأت من حسن السياسة أن توفر السلام فى مكة وتحفظ التوازن بين القبائل ، حتى تضمن الأمن لقوافلها ، وساعدها على تنفيذ سياستها موقع مكة الجغرافى ، فقد كانت مكة تقع فى منتصف الطريق ، وكانت القوافل تستقى من زمزم وتأخذ حاجتها من الماء ، ولأن قريشا أهل الكعبة التى يدين العرب بعظمتها ويكنون لها الإحترام .

وعملت قريش على توثيق الروابط بين من يؤمون البيت الحرام كل عام من مختلف القبائل ، إذ أصبحت مكة المكان الذى تفد إليه القبائل من كافة أرجاء بلاد العرب حيث يجتمعون للحج والتجارة . وقد جعل هذا الأمر لقريش مركزاً خاصاً فى نفوس القبائل وأتاح الفرصة لكثير من رجال هذه القبيلة ، فظهرت مواهبهم بعد ظهور الإسلام ، وكان منهم رجال كثيرون يعتبرون بحق من أكبر قادة العالم فى الحرب والسياسة[١] .

استن هاشم بن عبد مناف رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام ، وبرزت فى عهد ابنه عبد المطلب أهمية هذه الرحلات وأثرها فى حياة قريش ومكة ، بل فى حياة الجزيرة العربية كلها . وفى عهد عبد المطلب وصلت

---

(١) حسن إبراهيم . تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٦٧

تجارة قريش إلى ذروتها ، فقد بدأ القرشيون يجنون ثمار المعاهدات التجارية واتفاقات حسن الجوار التي عقدها هاشم وإخوته مع دول الفرس والروم والأحباش والغساسنة والحيريين باليمن . وأصبحت تجارة قريش تعرف طريقها إلى كل مكان في العالم القديم ، وعمل القرشيون كتجار أو كوسطاء تجاريين أو كناقلين للتجارة . وازداد ثراء قريش في عصر عبد المطلب زيادة كبيرة ، وأدى هذا الثراء إلى إنتشار الحضارة في قريش وإلى إنتشار الرخاء في مكة .

واستفاد العرب جميعاً من هذه التجارة ، فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه ، ومنهم من كان يستخدم في التجارة سائقاً أو حارساً أو دليلا . وبرغم حب العربي للغزو والغارات ، إلا أن حبه للوفاء وشعوره بالشرف وتقديره للوعد الذي يصدر منه جعله ينجح في الاشتغال بالتجارة .

أصبح القرشيون وسطاء تجاريين بين أقليم البحر المتوسط المعروف بغلاته المتميزة المتوافرة في الشام وفلسين وآسيا الصغرى ، وبين ذلك الاقليم الموسمى في جنوب الجزيرة العربية الذي يشتهر بغلات كان العالم القديم يحتاج إليها ، مثل التوابل والبخور .

وكان الاشتغال بالتجارة يحتاج إلى الإلمام بالأحوال السياسية والتجارية في العالم القديم ، ولذا اهتم القرشيون بدراسة العلاقات القائمة وقتذاك بين الفرس والروم والأحباش واليمنيين ، والمشاكل التي تشوب هذه العلاقات .

وأصبحت تجارة قريش مدرسة أو جامعة عملت على تكوين أفراد ذوى خبرة وتجارب وعلم يصعب على المدارس أو الجامعات العادية تخريجهم فيها . وكانت التجارة تقضى الإلمام بجوانب الحساب التجاري وكل ما يرتبط بالتجارة من الدراية بالمكاييل والموازين والمقاييس العالمية ، وما يتعلق بالنقد الأجنبي

والعملات الدولية ، والعقود والصكوك ، وغير ذلك من الأساليب التجارية ومستلزماتها الضرورية .

واستفاد القرشيون فوق تجارتهم المادية اقتباسهم ألوانًا عديدة من الحضارتين الرومانية والفارسية . فقد كان التجار القرشيون يطلعون على معالم هاتين الحضارتين حينما يقصدون مدن الدولتين الرومانية والفارسية ويختلطون بأهلها . وقد نقلوا إلى اللغة العربية كثيراً من المصطلحات والكلمات الرومانية والفارسية . وأدى إطلاع القرشيين على النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى دولتى الفرس والروم إلى نمو ثقافتهم وزيادة معلوماتهم ورقى أفكارهم . فكان معظم القرشيين يلمون بالقراءة والكتابة والحساب ، مما أتاح الفرصة لظهور شخصيات مستنيرة استطاعت أن تتولى أمور الدولة العربية الإسلامية التى بزغت بظهور الإسلام .

أصبحت الجزيرة العربية بسبب وجود مكة ، المدينة المقدسة ، مركز الحياة التجارية ، ولذا أثرت وأثرى أهلها وادخروا الأموال والمعادن النفيسة وعرفوا ألوانًا من الترف وتقلبوا فى ألوان النعمة والرفاهية . وظهر من بين أهل مكة رجال حازوا ثروات كبيرة نتيجة اشتغالهم بالتجارة . وكانت المنازل فى مكة تقدر بالذهب وتتراوح ثمن الدار بين مائتين وخمسمائة دينار . وامتلك المكيون الجياد الكريمة وتفاخروا بعددها ونسبها . واشتهر المكيون عامة والقرشيون خاصة بالكرم والشهامة والمروءة وإكرام الضيوف ، وبدا هذا الكرم واضحاً زمن الحج فقد حرصوا على توفير وسائل الراحة للحجاج .

مالت قريش فى حياتها السياسية إلى الديمقراطية ، وكانت دار الندوة تشبه البرلمانات المعاصرة . فكانت مهام الأمور تعرض على وجوه قريش فى دار الندوة ، وكان هؤلاء الوجوه يتدخلون فى زواج فتيات قريش ، فقد كان الزواج مسألة تهم القبيلة كلها وليست مسألة شخصية أو فردية ، فقد كانت العرب تفخر

بالأنساب ونقاء الدماء . وإذا قارنا ديموقراطية قريش بأرستقراطية الأمم العظمى المعاصرة للجاهلية ، وخاصة الفرس والرومان ، لأدركنا سبق العرب فى هذا المجال .

كانت مكة مركز الحياة التجارية والأدبية ببلاد الحجاز ، فكان يقدم إليها العرب من كل مكان زمن الحج والمواسم العربية ، فيتناقلون الآداب الإجتماعية بعضهم من بعض ، ويتناشدون الأشعار الحماسية ، ويتحدثون عن شرف أصلهم وكرم محتدهم ، فتغرس كل هذه المظاهر الاجتماعية والأدبية فى نفوس أطفالهم المواهب النادرة والقرائح الوقادة والخصال الكريمة .

لم يكن معظم العرب يهتمون بتعليم أطفالهم القراءة والكتابة ، فقد انشغل العرب بالبحث عن موارد الحياة والسعى وراء الرزق عن التعليم . ولكن الله عز وجل قد عوضهم عن ذلك بذا كرة قوية ،وسعة أفق ، وصبر وقوة إحتمال، وخيال فياض . ولكن قبيلة قريش كانت أكثر هذه القبائل اهتماماً بالتعليم ، نتيجة الحضارة التى وصلت إليها ، ونمو ثرائها ، واحتكاكها بالدول الكبرى المتحضرة إلى جانب حاجة القرشيين إلى التعليم ليقوموا بواجبهم التجارى . ولم يحل عدم انشار التعليم فى بلاد العرب دون قيام نهضة أدبية ، تظهر واضحة فى ازدهار الشعر الذى يكون صورة صادقة للخلق القومى ، إذ تناول حياة العرب بجميع جوانبها .

ظهرت قريش بمظهر الحذق والفطنة فى التجارة ، والميل إلى السلم من أجل اشتغالهم بالتجارة ، تخلصوا بالتدريج من شوائب البداوة ، وكفوا عن الرحيل لرعى الإبل وتربية الأنعام ، واستقروا وثبتوا ونظموا أسفارهم وقوافلهم . وأصبحت قريش رمزاً للسلام فى الجزيرة العربية ، ونعمت قريش بالهدوء العائلى .

نسب المؤرخ الألمانى (فلهاوزن) ارتقاء مكة والحجاز إلى تفوق سكان مكة

من قريش ، ذلك أن نهضة أهـــــل مكة الثقافية تأثرت بالعلاقات الطيبة مع الساميين الشماليين ، فالمقطوع به أن التجارة التى امتدت إلى سوريا والحيرة وجنوب بلاد العرب قد حملت إليهم مؤثرات ومطامح جديدة ، ولذا كان من بين الرجال الذين عرفوا القراءة والكتابة قبل الإسلام عدد كبير نسبياً من أهل مكة .

ويرى (فلهاوزن) أن أهل مكة ، برغم افتقارهم إلى نظـام حكومى ، تحلوا بروح تعاونية ، ونظر ثاقب فى الأمور التى تهم الصالح العـام ، وذلك بصورة لا نجد لها مثيلا فى أى مكان آخر من بلاد العرب . فبالرغم من أن كل أسرة كانت فى جوهرها حكومة قائمة بنفسها ، فإنها وضعت مصالح مكة أولا وقبل كل شىء ، أى أنه قام هناك سلطان يدل على وجود نظـام صالح لإدارة مكة ، وهذا النظام كان حــــدثا هاماً فى بلاد العرب برغم بساطته وضيق حدوده .

٢ ـ أثر الإسلام فى الحضارة العربية

حاجة العرب إلى الإسلام :

لم تنجح اللغة العربية قبل الإسلام فى توحيد العرب ، وخلق مجتمع عربى متماسك ، ووحدة سياسية تجمع الجماعات العربية المتفرقة المتنابذة . وكانت طبيعة بلاد العرب بما فيها من صحارى قاحلة وجبال وعرة وهضاب عالية وأودية عميقة تدعو إلى تباعد العرب وتفرقهم وتؤدى إلى صعوبة الاتصال والامتزاج ، مما أدى إلى اختلاف اللهجات ، حتى أصبحت بعض هذه اللهجات وكأنها لغات بعيدة عن أصلها العربى . وكانت لغة قريش — أو لهجة قريش على الأصح — أكثر اللغات انتشاراً ، ولذا نزل بها القرآن الكريم .

انغمس العرب فى المسائل السياسية والدينية والاجتماعية وتناسوا لغتهم . وساعدت الأمية — وكانت واسعة الانتشار — على إهمال اللغة العربية بل يرى البعض أن الأغراض الاقتصادية والدينية علت على الأغراض الأدبية فى عقد سوق عكاظ . فقد كان الغرض الأصلى من اجتماعات العرب دينياً بحتاً ، أما تناشدهم الأشعار وتبادلهم الأفكار ، فإنما كان أمراً ثانوياً دفعوا إليه بحكم اجتماعهم فى صعيد واحد ترفرف عليهم ألوية السلام . على أن ذلك الغرض الدينى لم يلبث أن أصبح عرضياً لا قيمة له وثانوياً لا يؤبه له ، بعد أن حلت محله الأغراض الاجتماعية والشئون السياسية ، طالما كانت تعقد المعاهدات وتبرم المحالفات فى تلك المجتمعات ، ومن ثم ظهر الشعراء الذين كانت لهم جلسات ممتعة يتبارون فيها فى الشعر ، وأصبح تبادل الأفكار والمنافع هو الغرض الأصلى من تلك المجتمعات[1] .

---

(١) حسن ابراهيم . تاريخ الإسلام حـ ١ ص٦٧

أما وقد أصبحت اللغة العربية وحدها لا تستطيع أن توحد العـــرب وتجمعهم فى قومية عربية متحدة وتحت راية واحدة ، فكان لا بد من أساس آخر تقوم عليه الوحدة العربية ، ودولة سياسية عربية ، ومجتمع عربى متماسك ألا وهو الدين ، الذى يعطيهم مثلا عليا فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، ويقضى على الرذائل الاجتماعية والتقاليد الجاهلية ، ويحقق وحدة دينية تـكون طريقاً لوحدة سياسية واجتماعية .

وكانت الحياة الدينية فى بلاد العرب تتصف بالفوضى لتعدد الأديان والمذاهب . فكانت هناك الوثنية التى قامت على فـكرة عبادة مظاهر الطبيعة كالأرض والسماء والنجوم والـكواكب وكان عرب الجاهلية يؤمنون أنهم يتأثرون بها فى حياتهم ، ولذا بذلوا جهدهم فى إبراز مظاهر خضوعهم لها فاتخذوا لها أشكالا مختلفة من بيوت وأشجار وأحجار مصورة تمثل إنسانا أو حيوانا وأحجاراً أخرى غير مصورة(١) . ونظر العرب إلى هذه الأشكال المختلفة على أنها رمز للقوة الطبيعية ولذا عبدوها فكانوا يطوفون حولها ، ويعقدون أسواقهم بجوارها وكان البدو يؤدون الطقوس الدينية لمعبوداتهم تحت تأثير التقاليد الموروثة فى قبائلهم دون أن يعرفوا حقيقتها ، كما أنهم كانوا قليلى الاهتمام بأمور دينهم وليس هناك ما يدل على وجود شعور دينى عميق لديهم(٢) .

قبل الإسلام ، كانت الوثنية قد فقدت معناها الأول وقوتها السالفة . ودب فيها الفساد ، وتغير جوهرها ، فأصبحت طائفة من الخرافات والأوهام ، وكان يعرف ذلك من أهل مكة عدد كبير من الزعماء وغيرهم ، ولـكنهم ظلوا

---

(١) ابن الـكلبى : الأصنام ص ١٣-١٦

(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٤٨ — ٤٩

يحتفظون بالأوثان للفائدة التجارية التي كانت تدرّها عليهم من وجودها فى مكة ، وحج العرب لمكة وطوافهم حول الكعبة وأصنامها ، وما كان المستنيرون من رجالات مكة يؤمنون بأرباب يضعونها بأيديهم من الحجارة والخشب لولا هذه المصلحة التجارية . كانوا فى ظاهر أمرهم يمجدون هذه الأرباب ، يحجون إليها ، ويذبحون لها القرابين ، ويحتفلون بمواسمها . ولكن عقيدتهم فيها لم تزد على هذا القدر من المظاهر ، أما فيما عدا ذلك فقد كانوا لا يترددون فى تحطيم آلهتهم إذا لم تتحقق نبوءتها . وقد وصف المؤرخ (ديتلف نيلسن)[١] الأصنام بأنها « آلهة عصر الاضمحلال والتدهور الذى سبق الإسلام » .

عبد بعض العرب النجوم والكواكب ، وانتشرت هذه الديانة بصفة خاصة فى حران وبلاد البحرين والبادية . وكان بمكة رجل يدعى « أبو كبشة » عبد نجماً اسمه « الشعرى » ودعا قريشاً إلى عبادته ، فأجابت بعض القبائل دعوته[٢] . وعبد أهل الحيرة القمر[٣] . كما عبد بعض أهل اليمن الشمس .
واعتنق بعض العرب ، وخاصة أهالى المناطق المطلة على الخليج الفارسى (العربى الآن) ، الزرادشتية ، نسبة إلى نبى الفرس المجوس (زرادشت) ، وهى ديانة رمزية تذهب إلى أن فى العالم قوتين هما الخير والشر فى صراع دائم ، ويرمزون بالنور لإله الخير وبالظلام لإله الشر ، ويقدسون النار باعتبارها مصدراً للنور الذى هو رمز للخير[٤] .

ظهرت فى بلاد العرب ثلاث حركات للاصلاح ، حاولت أن تجمع العرب

---

(١) التاريخ العربى القديم ص ١٧٧
(٢) الألوسى : بلوغ الأدب جـ٢ص٢٦٢
(٣) غنيمة : الحيرة ص ٣
(٤) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ٢ ص ٧٧

حول دين واحد ، وتقضى على هـــــذه الاختلافات الدينية ، ولـكن هذه الحركات الإصلاحية الثلاثة كان مصيرها الإخفاق وعادت بلاد العرب إلى الفوضى الدينية التى لم ينقذها منها سوى ظهور الإسلام .

كانت أولى حركات الإصلاح اليهودية ، فقد انتشرت اليهودية فى أخصب مناطق الحجاز مثل يثرب وخيبر ووادى القرى وفدك وتيماء ، كما انتشرت فى بلاد اليمن فى عهد بعض ملوك الدولة الحميرية وخاصة فى عهد ذى نواس الذى تعصب لها وحاول إرغام المسيحيين فى نجران على اعتناقها ثم قتلهم فى الأخاديد حرقاً حين تمسكوا بدينهم . ونشر اليهود بين العرب الوثنيين تعاليم دينهم حول البعث والحساب وأدخلوا فى اللغة العربية بعض المصطلحات الدينية . ولم تلق اليهودية نجاحاً كبيراً ، فقد نظر العرب إلى اليهود فى اليمن على أنهم عملاء سياسيين للفرس . كما احتـكر يهود الحجاز النشاط الاقتصادى مما جعلهم موضع كراهية وسخط من العرب ، كما اعتقد اليهود أنهم شعب الله المختار ولذا لم يهتموا بالتبشير بدينهم .

تلا هذه الموجة موجة أخرى من الإصلاح ، فقد أخذت الإرساليات المسيحية تتدفق على بلاد العرب فى القرن الثالث من الميلاد ، واستوطنت نجران ، وكان يعزز نشاطها فى الدعوة إلى المسيحية ، ويشد أزرها النفوذ السياسى للدولتين المسيحيتين المجاورتين لبلاد العرب ، وهما مملـكة الحبشة فى الغرب ، والدولة الرومانية فى الشمال . وانتشرت المسيحية فى مناطق محدودة من بلاد اليمن وخاصة فى مدينة نجران . ولـكن العرب لم يقبلوا على المسيحية . لأنها ارتبطت فى أذهان العرب بالنفوذ السياسى الحبشى والرومانى ، فقد أسقط الأحباش الدولة الحميرية العربية ، كما حاولوا غزو مكة وهدم الـكعبة .

أما الحركة الإصلاحية الثالثة ، فكانت حركة داخلية ، عند ما ظهرت قبيل الإسلام مدرسة جديدة ذات عقيدة تدعى بالحنيفية . فقد كان بين العرب أناس مستنيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية ، وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى منها ، وذلك لاختلاطهم باليهود والمسيحيين ، ووجد بينهم أناس دعوا إلى دين جديد ، ودعوا إلى نبذ عبادة الأوثان والتخلص من عادات الجاهلية وكانوا يعتقدون فى البعث وبوجود إله واحد يحاسب ويجازى الناس على أعمالهم من خير وشر . ويطلق على هذه النزعة التحنف وعلى أصحابها الحنفاء[1] .

كانت هذه الحركة الثالثة حركة داخلية محضة ، ولم تعمل من أجل إصلاح المجتمع العربى ، فقد كرست جهودها نحو غرض واحد هو استبدال عبادة الأصنام بالوحدانية ولم تلق فى أرض العرب ما لقيته الحركتان السابقتان من توفيق وقتى ، فكانت أضعفهن ، وربما كان ذلك راجعاً إلى افتقارها إلى سند دنيوى يظاهرها وترتكز عليه :

وترجع تسمية الحنفاء إلى لفظ (حنيف) وهو دين ابراهيم عليه السلام : قال الله تعالى فى سورة آل عمران (ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) . ويقصد المسلمون بالحنفاء من كانوا على دين ابراهيم من الجاهليين ، فلم يشركوا بربهم أحداً ، ولم يدخلوا فى يهودية ولا مسيحية ، ونبذوا عبادة الأوثان وسفهوا آراء الوثنيين .

لم ينتظم الحنفاء فى طائفة ، ولم يرتبطوا برباط واحد ، ولم يشتركوا فى عبادة واحدة معينة ، وكانت تعاليمهم بسيطة ، فطرية . ولتصبح الحنيفية دين العرب ، كانت فى حاجة إلى تعاليم محددة وتنظيم قوى ، وطقوس دينية ، وكتاب سماوى

---

(١) ابن هشام ج١ ص٤٤

ولما كانت الحنيفية يعوزها الأسس السماوية ، التى تجذب الإنسان ، فإنها لم تتمكن من الانتشار بحيث تصبح دين العرب جميعا .(١)

ولكن هؤلاء الحنفاء فى رأينا لم يكن عددهم قليلا ، كما أنهم يثبتون ظهور فكرة جديدة انتشرت بين المستنيرين من العرب ، وهى فكرة الاتجاه إلى ما هو أقرب إلى الحق والسداد فى أسس العقيدة والتقاليد الدينية ، كما أنها خطوة كبيرة من خطوات التطور الدينى والفكرى(٢) .

لم يقدر لأى دين من هذه الأديان الفوز والغلبة فى بلاد العرب ، ولذا أصبحت الجزيرة العربية فى حاجة إلى ظهور دين سماوى جديد ونبى مصلح جديد . وقد وصف السير (وليم ميور) فى كتابه (حياة محمد) فشل هذه الحركات الإصلاحية الثلاثة السابقة ، فذكر أن الجزيرة العربية كانت قبل ظهور محمد فى أسوأ الأحوال ، وربما لم يكن الإصلاح ميئوساً فى أية مدة مضت كما كان فى ذلك الحين ، ولكن ما ظهر محمد حتى هبت العرب فى الحال تلبية للدعوة الروحية الجديدة .

الإسلام والحضارة :

لا نستطيع أن نغفل مراحل التطور البشرى إذا أردنا أن ندرس تاريخ تطور الأديان وما يحمله من مبادىء ونظم ، وعقائد وآراء ، لأن هذه الأديان وصفاتها تسير جنباً إلى جنب مع المراحل التى كان يجتازها البشر فى طريق تعلمهم وتحضرهم . والدين يعمل على تطور الحضارة والإنسانية ، كما أنه منهاج حضارى ، والتطور فى الديانات يسير جنباً إلى جنب مع التطور البشرى .

الدين بمعناه اللغوى — بكسر الدال المشدّدة وضم والنون — هو الطاعة

(١) خودابخش . الحضارة الإسلامية من ترجمتنا ص ٣٣

(٢) دروزة : عصر النبى ص ٤٣٢

والانقياد ، فيقال رجل متدين أى مستسلم منقاد مطيع . والدين جملة معتقدات، والعقيدة تشمل عدة آراء ومبادى وصفات وأحكام يطمئن الإنسان إليها ويعمل بهاولها يخطو خطواته على ضوئها، ويستضىء بهديها، ويكون أحكامه وتصوره الأشياء والناس والصفات من خلال منظارها .

ومنذ أصبح الدين يدرس على أنه موضوع مستقل ، شرع الباحثون يتساءلون عن أصله من الوجهة النفسية . تحدث العالم الهولندى(تيليه Tiele)— أحد مشاهير مؤرخى الأديان — عن الدين فقال : إن أصل الدين هو حينا الإدراك الفطرى فى الإنسان الخاص بالسببية ، وحينا هو شعور الإنسان بتبعيته لقوة عليا ، وحينا حدس اللانهائى ، وحينا الزهد فى العالم وأطراحه ، وهذا الزهد الذى نرى فيها تأثيراً يسود المرء ويغلبه على أمره .

إن الإسلام قد دل على أساسه الرئيسى وطابعه الذاتى ، وذلك بالإسم الذى أطلق عليه منذ بادىء الأمر . فالإسلام معناه الإنقياد . انقياد المؤمنين لله، فهذه الكلمة تركز أكثر من غيرها الوضع ، وكلمة مصطبغة فوق كل شىء ، بشعور التبعية القوى الذى يحس به الإنسان إحساساً قوياً أمام القدرة غير المحدودة التى يجب أن يخضع لها ، وينزل فى سبيل ذلك عن إرادته الخاصة(١) .

إذا تتبعنا مادة « س ل م » ونشوء كلمة الإسلام ، رأينا أن معنى السلام المسالمة ، وضد المسالمة الحرب والخصام . جاء فى القرآن الكريم : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما). ولعل هذه الآية هى المفتاح الذى نصل به إلى معرفة السبب فى تسمية العهد السابق لظهور محمد « جاهلية » وعهده « إسلاما » . والجاهلية ليست من الجهل الذى هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذى هو السفه والأنفة والخفة وهى

---

(١) جولد تسيهر . العقيدة والشريعة ص٩ — ١٠

أمور كانت سائدة بين العرب قبل ظهور الإسلام ،ولذا أطلق على هذا العصر اسم « الجاهلية » .

ثم انتقلت الكلمة إلى معنى آخر قريب من هذا ، وهو استعمال « أسلم» المشتق من السلام ، بمعنى الخضوع والانقياد كما جاء فى الآيتين الكريمتين : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) ، (فقل أسلمت وجهى لله) . وقد أطلقها القرآن الكريم بهذ المعنى أحيانا على المؤمنين والكافرين جميعاً لأنهم خاضعون لله تعالى ، ومنقادون له بحكم خلقتهم ، رضوا أو كرهوا ، تسرى عليهم قوانين العالم ، ولا يستطيعون الخروج عليها ، كما جاء فى الآية الكريمة : (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) . فكل من فى السموات والأرض مسلم بهذا المعنى ، أى خاضع لأمر الله .

ثم قصرت فى الاستعمال على من أسلم وجهه لله طوعا ، فكأن المسلم هو الذى رضى بإطاعة الله ، فاجتمعت له الطاعة والطاعة بالإرادة ، وبهذا المعنى تطلق كلمة (مسلم) على كل من خضع لله وأطاع أى نبى من الأنبياء ، فاتباع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد مسلمون .

ثم خصت فى الاستعمال بالدين الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) . فهذا الإسلام عادة الخضوع لله والانقياد لله[1] .

والدين أساس الحضارة ، وإذا تعمقنا فى البحث فى منشأ الفلسفة والعلوم والفنون وكل فرع من فروع المعرفة الإنسانية وجدنا أن تقدمها وتطورها ونضوجها كان ذلك كله متأثرا فى كل عصر من العصور بالعقيدة الدينية .

(١) أحمد أمين . فجر الاسلام ص ٦٩ — ٧١ .

والدين أحكم مرشد وأهدى قائد للانسان إلى الحضارة والمدنية القائمة على المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة ، وهو أقوى دافع للأمم إلى التسابق لغايات المدنية ، وأمضى الأسباب بها إلى طلب العلوم والفنون والآداب .

ينص الإسلام على أنه لا إكراه فى الدين ، فالإسلام يؤيد ماقبله من الكتب السماوية ، وحث الناس على الحسنى وعلى التعايش السلمى مع غيرهم من أصحاب الديانات السماوية . ولا ينال الإسلام من عقيدة الآخرين ، بل يأمر باحترامها . والإسلام دين يتجاوب مع أرفع الأنظمة وخير التقاليد ، ويعمل لخير الإنسانية كافة ، ووسعت رحابه الملل والنحل المتباينة ، فعاشت تحت ظله فى أمن وهدوء وسكينة .

وصف المؤرخ العربى المسيحى المعاصر (الدكتور فيليب حتى) الإسلام بأنه حضارة عامة شاملة تنتظم كل من يعيش تحت سمائها فى حرية وصفاء ، ويعيش غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة وتربطهم بروابط المحبة والأخوة ، وقال أن المسيحيين قد استأذنوا السلطات الدينية فى أن تكون المواريث فى الشرق العربى هى نفس المواريث التى قررها الإسلام ، فأذنت السلطات بهذا .

وكتب (ليو دورروش) : إن الإسلام دين إنسانى طبيعى اقتصادى أدبى ، ولم أذكر شيئا من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعا فيه ، بل وجدت فيه حل المسائل الاجتماعية التى تشغل العالم جميعاً .

والإسلام يعمل على علاج المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى العالم ، إذ أن الإسلام نظام مؤسس على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها فى أى مذهب دنيوى من المذاهب الحديثة . والدين الإسلامى هو آخر الأديان السماوية ، فهو دين كل عصر ودين كل مكان ، ونصوصه وقوانينه التى تتعلق بالحياة الاجتماعية والاقتصادية جامعة شاملة قابلة للتفسير تفسيراً يتفق وحالة أى

مجتمع . ومن أسمى مميزات الشريعة الإسلامية أن تعاليمها ونصوصها تجمع بين البساطة والتعمق ، وهى تتمشى مع تطور حياة المجتمع ، وهى تستطيع أن تحكم معاملات الناس فيما بينهم مهما تطورت وتنوعت هذه المعاملات .

والإسلام يأمر بتطهير القلوب وتهذيب النفوس ، لأن القلوب الطاهرة العامرة بالإيمان والنفوس الصافية المهذبة بالمعانى السامية هى التى تدفع أصحابها إلى تهذيب عقولهم وتغذيتها بقواعد القانون الطبيعى أو الإلهى ، كما تدفعهم إلى الحضارة والتقدم والمدنية .

يحدد الإسلام الأهداف العليا ويضع القواعد الأساسية ويتناول المسائل الكلية ، و ... يدع الجزئيات للحوادث الاجتماعيـة وتطور الحياة والحضارة ، وظروف الزمان و ... المكان ، تتسع باتساع مدارك الناس وترتقى بارتقاء الحضارة والمدنية .

يقول الكاتب الإنجليزى (برنارد شو) عن الإسلام : إن أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد ... عشق دينه وفلسفته ، كما أنها ستبرىء العقيدة الإسلامية مما اتهمت به من أراجيف رجال أوروبا فى العصور الوسطى ، وسيكون دين محمد النظام الذى يؤسس عليه دعائم السلام والسعادة ، ويستند على فلسفته فى حل المعضلات وفك المشكلات والعقد ، إن كثيرين من مواطنى من الأوروبيين الآخرين يقدسون تعاليم محمد ، ولذلك يمكننى أن أؤكد نبوءتى فأقول أن بوادر العصر الإسلامى الأوروبى قريبة لا محالة .

والإسلام يتفق مع التطور الإنسانى والتقدم البشرى ... ، فهو يعمل على جمع شمل الإنسانية وتقاربها وتآلفها وتعاونها ، والإسلام لا يتعارض مطلقا مع العقل ... أو مقتضيات الحياة ... حتى يتمتعوا

بالمميزات الإنسانية التى تحقق سعادتهم وقوتهم ، وهو يحتفل بحياة الإنسان الدنيوية ، ويساعده على الحياة الكريمة .

اثر الاسلام فى حضارة العرب الاجتماعية :

كان من أهم أغراض الإسلام العمل على محو تلك البداوة بين العرب ، وإقامة حضارة اجتماعية جديدة خالية من الفساد الذى وقعت فيه حضارة الفرس والروم ، فترتفع رايات الحضارة الإسلامية ؛ وتتحقق المساواة بين الشعوب والأفراد ، ويعيشون جميعاً فى ظل هذه الحضارة العادلة الصالحة .

والإسلام رسالة جديدة غيرت مجرى التاريخ ، وبدلت نظام الحياة ، وسمت بالإنسانية التى كان يهوى بها الجهل والفاقة والاستبداد ، وارتفعت بكرامة الفرد والمجتمع إلى المكان اللائق بها ، حيث السمو فى العقيدة ، والكمال فى النظام وروح الجماعة ، وقضت على المبادىء الضارة التى تسىء إلى الحضارة ، سواء فى العقيدة أو فى التفكير أو فى الاجتماع ، وبعثت شعوراً جديداً فى العالم كافة ، يقوم على إيمان عميق وطيد بمبادىء الحق والعدالة والحرية والمساواة والأخوة العامة والزمالة الإنسانية المشتركة .

قرر الإسلام أسمى المبادىء فى قوة وصراحة ، وأقام أعدل النظم فى تناسق وتماسك ، ووضع لكل داء علاجا شافياً ، ولكل مشكلة حلا وافياً يفقهه من شرح الله صدره للاسلام وأنار بصيرته بنور العرفان . وكفلت الشريعة الاسلامية تحقيق العدالة الاجتماعية بأوسع معانيها بالنسبة للأفراد والجماعات . فقد اعتبرت الفرد قواما للجماعة وسنت له النظم الصالحة لحياته فى نفسه وباعتباره عضوا فى أسرته ، وفى عشيرته وفى أمته ، وفى المجتمع الانسانى ليكون لبنة متينة فى بنائه وعضواً قويا فى كيانه . كما اعتبرت الجماعة عضدا للفرد وظهيراً له فى أداء رسالته والتمتع بحقوقه والقيام بواجباته . ووثقت الصلة بين الفرد

والجماعة بالتكافل فى كثير من الحقوق والواجبات ، ولم تدع شأناً من شئون الفرد والجماعة إلا أنارت فيه سبيلا .

وأوجب الإسلام الزكاة ، تؤخذ من الأغنياء وترد إلى الفقراء ، وأمر بالبر والإحسان لذوى القربى واليتامى والمساكين والجار وابن السبيل ، وضاعف مثوبة الصدقات . كما حث الإسلام على العمل والكسب ، ونهت السنة عن البطالة والكسل وإراقة ماء الوجه بالسؤال والاستجداء لكيلا يتكل الفقراء على الأغنياء . ونادى الإسلام بالحرية والأخاء والمساواة ، وأقام موازين الحق والعدالة والإنصاف ، ودعم التعاون على البر والخير والإصلاح ، كل ذلك فى ظل المحبة والوئام والسلام .

اعترف الإسلام للانسان بحريته واستقلاله الفكرى والاجتماعى والمالى ، وجعله حراً طليقاً من كل قيد ، إلا من الخضوع لدين الله ، وأولى الأمر الذين يحكمون بشريعة الله ، ويحفظون الأمن والنظام بين الناس ، فرفع الإسلام بذلك من كرامة الإنسان ومعنويته ، وهيأه للمزيد من الحضارة والمدنية .

دعا الإسلام إلى أن يكون الناس إخوة متحابين فى الحياة ، وساوى بينهم فى الحقوق والواجبات ، وحرّم دعوة العصبية واستبدل بها دعوة الدين والطاعة لحاكم واحد يلزم شريعة الله . وشرع كثيراً من الشرائع الاجتماعية التى تزيد من قوة المجتمع ووحدته كالحج والزكاة وصلاة الجماعة والإحسان ، وحارب الرذائل الاجتماعية ، وأزال الفوارق الاجتماعية بين الناس والشعوب ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى[1] .

غير الإسلام من الحياة الاجتماعية فى بلاد العرب والعالم أجمع ، فقد أخذت

---

(١) خفاجى : الاسلام وحقوق الإنسان ص ٢٤ .

روح الفردية تتضاءل لتخلفها روح الجماعة ، وتلاشت مبادىء الطغيان الدينى والاجتماعى والمادى ، لتقوم بدلا منها مبادىء الإيمان بالعدالة والمساواة والحرية والكرامة . جاء الإسلام والعرب قبائل موزعة ، وأحياء متخاصمة ، لا يجمعهم دين ولا سلطان ، ولا شريعة اجتماعية عادلة منظمة . فبدلهم من ذلك كله نظاماً موحداً ، وحيـــــاة كريمة مهذبة فى الاجتماع والسياسة ، وفى الدين والدنيا .

تحدث جعفر بن أبى طالب إلى نجاشى الحبشة ، وقد أرسلت قريش وفداً لتحريضه على طرد المهاجرين المسلمين ، يصف ما غيّر الإســلام من حالهم . فقال : « أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار . والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنــة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام »[1] .

وازن كل من (جولدتسيهر) و (أرنولد) بين المثل العليا فى الجاهلية والإسلام . فقال جولدتسيهر[2] : إن الشجاعة الفردية ، والكرم العظيم ، والبذخ والإسراف فى تكريم الضيف والانتصار لذوى القربى وأخذ بالثأر بلا شفقة أو رحمة إذا وقع اعتداء على شخصه أو عشيرته ، كانت أبرز فضائل

(١) ابن هشام حـ ١ ص ٣٥٨ — ٣٥٩ .
(٢) أنظر تاريخ الفرس الأدبى لبراون حـ ١ ص ١٨٩ — ١٩١ .

الجاهلية . أما فى الإسلام ، فنجد الصبر والاحتمال ، وتفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، شخصية كانت أو قبلية . كما نجـد عدم الاكتراث بالأمور الدنيوية والأعراض الزائلة ، وتجنب الرياء والفخر . وكانت هـذه الفضائل كفيلة بأن تدفع المسلمين على احتقار هذه المثل العليا للجاهلية .

وقال أرنولد[1] : كانت المساواة بين المؤمنين فى الإسلام وما ساد بينهم جميعاً من أخوة مشتركة ، فكرة عارضت فى الصميم نعرة الشعور القبلى عند العربى الذى بنى احترامه الشخصى على شهرة أجداده ، وأخذ يقتدى بهم فى إثارة النزاع الدامى الدائم الذى كان يلتمس فيه اللذة والسرور .

وتحدث (جوزيف هل[2]) عن أثر الإسلام فى وحدة المجتمع فقال : ثم إن انتظام المؤمنين فى الصلاة شجع روح الوحدة بين المسلمين ، وخلق بينهم شعوراً بالمساواة التى كانت أفكاراً جديدة على أهل بلاد العرب . إذ كانت الوحدة الموجودة حتى ذلك الوقت هى رابطة الدم ، كما أن المظاهر الرئيسية التى سادت حياة العرب إذ ذاك هى الافتخار بالأسرة والحسب والثراء ، وامتهان شأن المعوز وعديم الحياة . ولذلك فإن محمداً مهد السبيل لوحدة بلاد العرب المتنافرة ، عندما نجح فى تدعيم الاتحاد الذى احتضن على السواء الغنى والفقير على أساس المساواة . وعندما نجح كذلك فى توجيه ضربة عنيفة إلى العصبية القبلية والعائلية . واستهدف الإسلام منذ مبدأ أمره تحقيق ذلك الغرض وهو القضاء على العصبية القبلية والعائلية وتحطيمها . وإلى جانب الصلاة ، كانت فكرة المساواة الاجتماعية تجديداً تاماً أحدثه الإسلام ، فأصبحت مساعدة الفقير والقيام بأمره واجباً مقدساً ، ولم يعد من شأن الأفراد أن يعطوا كيفما

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٦١ ــ ٦٢

(٢) الحضارة العربية ص ٢٤ .

شاءوا ، وإنما غدت الزكاة فرضاً تجبى إلى بيت المـــــال وينفق منها على الفقراء .

أراد محمـــد ، المصلح الاجتماعى الأول ، أن ينظم مجتمعه ويقرر الحقوق والواجبات . فـكان يستمد من الشريعة الإسلامية روح قوانينه وتشريعاته . ووضع القوانين ورعايتها يحتاجان إلى حكومة مسئولة مطاعة ، ولذا اهتم محمد بإنشاء حكومة عربية إسلامية مستنيرة ، وعود الناس الحياة فى ظل حكومته ، وذلك بالمشاركة فى المسئولية والخضوع للقوانين ، فـكان يطبق الشورى .

وأصبحت بلاد العرب بعد انتشار الإسلام فيها تجمع بينها عقيدة واحدة ، وقد مهدت هذه الرابطة الدينية لقيام وحدة سياسية ووحدة اجتماعية تجمع شمل العرب . وقامت الدولة العربية الإسلامية على أساس الوحدة الدينية . ونجح الإسلام فى القضاء على العصبية القبلية ،فتحول التيار الذى كان يغذى العصبية القبلية إلى تغذية عصبية أخرى هى العصبية الإسلامية التى تعمل على عزة المسلمين والعرب، وتجعل فى الإسلام ما يغنى عن الحسب والنسب، وتدفع المسلمين إلى الحضارة والتقدم .

ووحد الإسلام المجتمعات العربية ، أى القبائل فى مجتمع كبير وألف بين قلوب العرب ، وقضى على العصبية الجاهلية، فزالت العداوة التى كانت بين القبائل، وخضعوا لحكم النبى وأوامر القرآن الكريم ، بعد أن كانوا يدينون لرؤساء القبائل . وبذلك قامت فى بلاد العرب حكومة مركزية عزيزة الجانب . وأبدى العرب حماســة كبيرة للاسلام ، وبذلوا النفس والنفيس فى سبيل نشر دينهم وحمايته . ودانت جميع قبائل العرب بالإسلام ، وأصبحت ترى فيه رمز وحدتها وشعار مجدها .

اهتم الإسلام بتنظيم المجتمع ، فبدأ بإصلاح الفرد، فدعاه إلى طهارة الجسم وصفاء الروح . ونبذ العادات الاجتماعية المرذولة .والتحرر من غرائزه الحسية،

وفرض الإسلام عبادات القصد منها أن تنهى القائم بها عن الفحشاء والمنكر والبغى. واستمر محمد ينصح قومه، فأمرهم بالمعروف والتضامن الاجتماعى، والتعاون على البر والتقوى. وهذا الإصلاح الفردى متشابك مع التنظيم الاجتماعى وآخى محمد بين المسلمين وبين علاقة المرأة والرجل فى نطاق الأسرة التى هى الخلية الأولى للمجتمع. وحدّد مركز المرأة فى المجتمع وحقوقها وواجباتها، وحررها من قيود الجاهلية لتكون عضواً نافعاً فى المجتمع. كما اهتم الإسلام بالأسرة، فنظم علاقات الآباء والأبناء. ونهى عن وأد البنات ونظم الزواج والطلاق والمواريث والرق، وهى أمور أهملها المجتمع الجاهلى تماماً.

أثر الإسلام فى حياة العرب السياسية :

نجح الإسلام فى أن يجمع القبائل العربية فى صعيد واحد، وألف بين قلوبهم، وقضى على العصبية القبلية، فزالت الحزازات القديمة والثارات التى بين القبائل، فخضعوا لحكم الرسول وأوامر القرآن الكريم بعد أن كانوا يدينون لرؤساء متفرقين. وبذلك قامت فى بلاد العرب حكومة مركزية قوية. ولم يكن أهداف الدولة العربية الإسلامية سيادة شعب على شعب كما كانت أهداف الدولتين الفارسية والرومانية، بل كان هدفها الدعوة إلى توحيد الله، والحكم بالعدل بين الناس ونشر لواء الحضارة.

يصف ابن حزم[1] أثر الإسلام فى تآخى العرب وتخلصهم من مفاسد الجاهلية فيقول: «وكانت العرب بلا خلاف قوماً لقاحاً لا يملكهم أحد كربيعة ومضر وإياد وقضاعة، أو ملوكا فى بلادهم يتوارثون الملك كابراً عن كابر... فانقادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله، وهم آلاف آلاف وصاروا إخوة كبنى أب أو أم، وانحل كل من أمكنه الانحلال عن

(١) أنظر كتاب الدعوة إلى الإسلام لأرنولد ص ٣٧.

ملكه منهم إلى رسوله طوعاً بلا خوف غزو ولا إعطاء مال ولا يطمع فى عز . . . بل كلهم أقوى جيشاً من جيشه ، وأكثر مالا وسلاحاً منه ، وأوسع بلداً من بلده . . .

وهكذا كان إسلام جميع العرب أولهم كالأوس والخزرج ثم سائرهم قبيلة قبيلة لما ثبت عندهم من آياته وبهرهم به من معجزاته » .

وصف (فون كريمر) أثر الإسلام فى توحيد العرب فقال : جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل فى نظام سياسى واحد، ذلك النظام الذى سرت مزاياه فى سرعة تبعث على الدهشة والإعجاب ، وإن فكرة واحدة هى حققت هذه النتيجة ، تلك هى مبدأ الحيـــاة القومية فى جزيرة العرب الوثنية . وأصبح النظام القبلى شيئاً ثانويا بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية . وتكللت المهمة الضخمة بالنجاح، فعندما انتقل محمد إلى جوار ربه، كانت السكينة ترفرف على أكبر جزء من شـــبه الجزيرة العربية بصورة لم تكن القبائل العربية تعرفها من قبل ، مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذ الثـأر ، وكان الدين الإسلامى هو الذى مهد السبيل إلى هذا الائتلاف .

ويرى (نولدكيه) أن أبرز ما تركه الإسلام فى العرب هو القضاء على عادة الأخذ بالثأر . فكانت كل قبيلة اعتنقت الإسلام تتنازل عن حقها فى الأخذ بثأر من قتل من أبنائها فى الحروب ، بينما كان العربى فى الجاهلية يرى تركه الأخذ بالثأر عاراً وذلا .

عمل الإسلام على جمع شمل العرب ، وأزال دوافع تفرقهم ، وخلص العرب من رذائل الجاهلية ، ونشر بينهم روح العدالة والشورى والسلام ، وأن أكرم الناس أتقاهم ، وأعدّ العرب ليكونوا خير أمة صالحة ينشرون دينهم فى أرجاء الأرض .

نجح الرسول صلى الله عليه وسلم فى تحقيق هدفين كبيرين : فقد وحد بين العرب وخلق منهم أمة واحدة ، ودولة عربية إسلامية قوية ، ثم ساوى بين العرب وغيرهم من الأجناس ما داموا قد اعتنقوا الإسلام وامتازوا بالتقوى . وكان العرب قبل الإسلام يتفاخرون بالعصبية والأنساب ، فجاء الاسلام فجمع كلمتهم وصاروا يداً واحدة على اختلاف أنسابهم ومواطنهم ، وجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو الإسلام[١] . ورغم أن محمداً كان عربياً قرشياً ، فإن العادات العربية القبلية لم تؤثر عليه فى حال من الأحوال ، كان يقضى على كل ما يدعو إلى الانقسام والخلاف ، ويدعو إلى دين وطنى شعاره توحيد الصفوف فى الدين والسياسة والاجتماع .

كتب المؤرخ الألمانى الكبير (فلهاوزن) بحثاً بعنوان « الجماعة السياسية نشأت من الجماعة الدينية[٢] » جاء فيه : نشأت الجماعة السياسية فى الإسلام من الجماعة الدينية ، ويكاد أن يكون اهتـداء محمد إلى طريق الحق قد حدث مع نهوضه لتبليغ الرسالة . نعم . هو قد بدأ بنفسه ، وكان أول ما استولى على قلبه اليقين بالله القادر على كل شىء واليقين بيوم الحساب . ولـكن ذلك اليقين الذى ملأ نفسه كان من القوة بحيث فاض عنها ، فلم يجد بداً من أن يرشد إخوانه إلى نور الهدى وإلى الصراط المستقيم ، ولم يلبث حتى أنشأ فى مكة جماعة دينية صغيرة . وكان الذى يؤلف بين قلوب هذه الجماعة هو الإيمان بإله واحد ، لا تدركه الأبصار ، خالق هذا العالم ، ومحاسب كل نفس بمـا كسبت ، كما كان يجمع بينها مبدأ خلقى ، وعماده أن يعبد الإنسان الله ، وأن يسعى إلى نجاة روحه من شرور الدنيا . وكان يربط بين الجماعة الإسلامية من الخارج القيام بعبادات واحدة .

(١) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ح ٤ ص ٣٨ .
(٢) فلهاوزن : الدولة العربية ص ١ — ٤ .

ويقول فلهاوزن : أما الدولة من حيث هى نظام منفصل عن الجماعة ومستقل عنها فى وظيفته ، ومن حيث أن لهذا النظام سلطاناً يخضع له الناس ، فلم يكن بعد قد وجد بين العرب ، بل كانت الدولة عندهم هى الجماعة فى جملتها ، ولم تكن هيئة لها نظاماً خاصاً ، ولا كانت لها أرض محدودة . فلم يكن هناك فى الحقيقة دولة وإنما كانت هناك أمة . فلم يكن هناك نظام سياسى من صنع الإنسان ، بل كان هناك كيان اجتماعى طبيعى بالغ درجة النماء ، لم يكن هناك موظفون يدبرون شئون الجماعة بالمعنى الذى نعرفه فى الدولة ، وإنما كان هناك رؤساء العشائر والقبائل . ولم ير محمد أن رسالته هى أن يضم إلى دعوته أتباعاً متفرقين هنا وهناك . نعم كان لا بد له أن يبدأ بضم أفراد، لكنه كان يرمى إلى ضم الجماعة كلها . فكان يطمع إلى أن يجعل أمته العربية كلها جماعة دينية .

ثم تحدث (فلهاوزن)[1] عن تحول الجماعة الدينية بعد هجرة الرسول إلى المدينة إلى جماعة سياسية فقال : أصبحت المدينة منذ الهجرة أمة واحدة . وكلمة (الأمة) هنا ليست اسماً للجماعة العربية القديمة التى تربطها رابطة النسب ، بل هى تدل على الجماعة بالمعنى المطلق . وهى تدل فى العادة على جماعة تقوم على الدين والإيمان هو رباط الاتحاد . والأمة لا تشتمل على المؤمنين وحدهم ، بل هى تتألف أيضاً من كل من يتبعهم ويحارب معهم ، أى من كل أهل المدينة .

كان معنى (الدولة الإسلامية) فى عهد الرسول ينطبق تماماً على معنى (الدولة العربية) فليس هناك غير دولة إسلامية واحدة ، ولهذه الدولة صفتان فى وقت واحد ، الإسلام والعروبة ، ومحمد زعيم المسلمين ، وزعيم العرب فى وقت واحد .

(١) الدولة العربية ص ١١ .

وينادى جورجى زيدان(٢) بمثل هذا الرأى فيقول : العصبية التى قام بها الإسلام هى الجامعة العربية ، ولذلك كان اللفظان مترادفين فى ذلك الحين ، وخصوصاً عند الأمم التى خضعت لسلطان المسلمين، فكانوا إذا قالوا (العرب) أرادوا (المسلمين) وبالعكس . ولفظ (طيبوتا) عند السريان يدل على العرب والمسلمين على السواء ،والفرق بين هذه الجامعة قبل الإسلام وبعده أن العرب كانوا فى الجاهلية عصبيات عديدة تختلف باختلاف الأنساب فأصبحوا بالإسلام عصبة واحدة تجمعها كلمة (العرب) وتركوا ذكر الآباء والأجداد عملا بما تقتضيه روح الإسلام .

دعا الإسلام إلى اتحاد العرب وقيام (دولة عربية إسلامية) تجمعهم وتوحد كلمتهم ، فقد أدى الإسلام إلى إضعاف القوة الرابطة للفكرة القبلية القديمة ، تلك الفكرة التى أقامت بناء المجتمع العربى على أساس قرابة الدم . وكان إسلام العربى ودخوله فى المجتمع الجديد هدماً لأهم قوانين الحياة العربية الأساسية ، كما كانت كثرة دخول العرب فى الإسلام من العوامل القوية التى أدت إلى تفتيت النظام القبلى وتركه ضعيفاً أمام حياة قومية شديدة التماسك ، كذلك الحياة التى صار إليها المسلمون ، وهكذا اضطرت القبائل العربية إلى أن تذعن للنبى ، لا لمجرد أنه رئيس لأقوى قوة عسكرية فى بلاد العرب ، بل لأنه رمز لمذهب حياة اجتماعية كان يجعل كل خارج عليها ضعيفاً عديم الأثر .

كانت شعائر الإسلام تؤدى إلى الوحدة السياسية والقومية . كانت الصلاة تمثل نوعاً من الرياضة البدنية ، بل يصفها بعض المستشرقين بأنها نوع من التدريب العسكرى ، بما فيها من الوقوف صفاً واحداً على قياس واحد ، ثم القيام بالحركات المفروضة من ركوع وسجود وفاقاً لأمر يصدره الإمام . وإذا نظرنا إلى أن العرب

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى ج ٤ ص ٤٢ — ٤٣ .

الفخورين بأنفسهم وعاداتهم وتقـــاليدهم لم يكونوا يقبلون نوعاً من أنواع التقييد والحصر ، أدركنا خطورة هذه الصلاة التى فرضت عليهم الائتمار بأمر رجل واحد فى وقوفه ، وركوعه وسجوده ، مما كان جديداً عند العرب ، غريباً عنهم وعن تقاليدهم وعاداتهم . ثم أن هذه الاجتماعات المقررة لـكل المسلمين فى المسجد قد خلقت منهم نوعاً من روح المخالطة والتفاهم بعضهم مع بعض ، خصوصاً بعد اقرار مذهب المساواة فى الإسلام مما قضى على رابطة القبيلة ، وأحلّ محل هذه الرابطة الضيقة رابطة عربية إسلامية إنسانية واسعة ، كانت الخطوة الأولى للوحدة العربية . ثم هناك (الزكاة) وهى ظاهرة جديدة فى العالم حينئذ . فالإسلام لم ير من الحـكمة أن يترك مساعدة الفقير للجماعة نفسها . بل فرض ذلك فرضاً ، وحدّده تحديداً . وجعله من أركان الدين . وكلف الحـكومة أن تقوم بجمعه ثم تعمل على تقسيمه بين المستحقين .

تحدث (أرنولد)[١] عن أثر الإسلام فى قيام الدولة العربية الإسلامية فقال: كان ظهور مبادىء الإسلام فى بلاد العرب فى القرن السابع الميلادى . على يد النبى العربى الذى انضوت تحت لوائه شتى القبائل العربية فأصبحت بذلك أمة واحدة . فلما امتلأوا من آثار هذه الحياة القومية الجديدة . ومن هذه الحماسة ، وتلك الحمية التى أمدت جنودهم بقوة لا تقهر ، تدفقوا فى أرجاء الأرض ، يفتحون البلاد .

الدولة هى الحـكومة التى تقوم فى طائفة من الناس لتدبير مصالحهم الداخلية والخارجية . ولم يكن للعرب قبل ظهور الإسلام حكومة ترعى هذه المظاهر . وإنما كانوا قبائل متفرقة متعادية . فى نزاع وصراع دائمين . وفى فوضى سياسية واجتماعية دينية بعيدة المـــدى . ثم ظهر الإسلام فخلق دولة عربية إسلامية ،

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥ — ٢٦ .

ووحد كلمة العرب وعرفوا معنى النظام والأمن والإستقرار . ونجح الإسلام فى أن يجمع شمل العرب المتفرقين المتنابذين وأن يخلق دولة عربية إسلامية جديدة .

ظهرت الدولة العربية الإسلامية فى القرن السابع الميلادى برسالة تهدف إلى تكوين أمة واحدة (وإن أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) . وأبرز أبناء هذه الدولة هم العرب المسلمون، الذين اعتنقوا الإسلام ونبذوا دياناتهم السابقة وأهل هذه العقيدة أهل وطن واحد لا حدود له ، فهم فيه سواسية متساوون فى الحقوق والواجبات مشتركون فى وطن عالمى واحد لا فضل فيه لعربى على على عجمى إلا بالتقوى . ولم يريدوا أن يقيموا من وطنيتهم وقوميتهم نزاعاً أبدياً بينهم وبين الأوطان الأخرى . فقالوا أن من يدخل هذا الوطن ويرضى ذمتهم ولو لم يكن من دين أهله ، أى من غير المسلمين ، يصبح له ما لهم وعليه ما عليهم وبذلك أصبحت داخل الدولة العربية الإسلامية أمم وأقوام مختلفة الأصول والملل متساوية الحقوق والواجبات .

كانت غاية الدولة الإسلامية كما بين الله تعالى فى كتابه العزيز فى عدة مواضع إقامة المآثر والمكارم التى يحب الله أن تتحلى بها الحياة البشرية ، وأن تستأصل من الأرض كل ما يبغض الله من شرور . فالإسلام ما جاء ليقيم فى هذه الدنيا دولة من حيث إنها دولة ويعنى بتدبير شؤونها فقط . فالإسلام يضع بين يدى الدولة التى يقيمها وفق مبادئه وأصوله غاية أسمى وأرفع من ذلك بكثير(١) . ويحتم عليها أن تستخدم فى سبيل تحقيقها كل مايسمو من الوسائل . وذلك ليظهر مايحب الله أن تتزين به حياة عباده فى أرضه وتصطبغ بصبغة من النزاهة والخير والرشد . ويقى على كل ما يتوقع منه أن

(١) نظام الحياة فى الإسلام ص٣٢ .

يكون مبعث فساد فى الأرض فالدولة الإسلامية تستطيع أن تضع برنامجها الإصلاحى على أساس ما يحقق مصالحها وخير البشرية .

وجه محمد صلى الله عليه وسلم جهوده المباشرة إلى عشيرته والجزيرة العربية عند ظهور الإسلام . وكانت العلاقات التى أخذ عند نهاية رسالته — فى عقدها مع الدول الأجنبية وكذلك الأعمال والمشاريع التى نظمها . هذه وتلك تكشف عن جهد تجاوز حدود الجزيرة العربية . ومما لاحظه (نولدكيه) أن خططه كانت ترمى إلى ميادين أوسع إذ كان على يقين من الالتقاء بالروم فى ميادين القتال، وكان آخر ما أوصى به المجاهدين متجها إلى غزو أو فتح الإمبراطورية البيزنطية وأن الفتوحات الكبرى التى تمت بعد وفاته بمعرفة الذين كانوا أكثر أصحابه اطلاعاً على نواياه ومشروعاته ، لهى أحسن تفسير لإرادته الخاصة فى هذا الصدد .

دعا محمد صلى الله عليه وسلم إلى وحدة إنسانية ، أممها وجماعاتها ، وإلى محو جميع الفروق الطائفية والعنصرية الظالمة التى فرقت بين الإنسان والإنسان ، وبين الجماعة والجماعة ، وبين الأمة والأمة، وإلى المساواة التامة بين الأفراد والجماعات . وأهدر جميع الموازين التى ألف الناس تقويم قيم الأشخاص على أساسها من الحسب والجاه والمال ، إلا ميزاناً واحداً هو ميزان الكفاءة الشخصية والعمل الصالح والخلق الكريم .

ويذكر المؤرخ (أرنولد)[١] أن محمداً كان يطالب البشرية كلها بارتضاء الإسلام ، فكان يقول عن بلال أنه « أول ثمار الحبشة » وأن صهيباً « أول ثمار الروم » . وهكذا صرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربى قبل أن يدور بخلد العرب أى شىء يتعلق بحياة الفتح

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٥٠ .

والغزو بزمن طويل . ويؤيد عموم دعوة الرسول والحق فى المطالبة أن يستجيب لها جميع الناس ، أن الإسلام كان الدين السماوى الذى اختاره الله للجنس البشرى كافة ، ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان محمد « خاتم النبيين » كما أوحى به قبل على لسان غيره من الرسل .

الاسلام والاقتصاد :

كان الدين الإسلامى ثورة اقتصادية عظيمة فى القرن السابع الميلادى ، ولا يزال نظاماً إقتصاديا يصلح أن يكون أساساً لاقتصاديات القرن العشرين ، فقد عرف الإسلام الطبيعة البشرية فسايرها ، وعرف الطبيعة الإنسانية الاجتماعية فكان عاملا فعالا فى تنظيمها ، وعرف طبائع الفرد فرعاها ولم يكبتها وعرف طبائع المجتمع فجعلها لصالح الفرد .

قام الإسلام على أساس حلّ جميع مسائل الحياة ، ولا يعارض أصول الفطرة ، ولا يهمل جانباً من جوانبها ، ولا يتجاهل حقيقة من حقائقها . والإسلام لا يقتصر على سن القواعد فى النظام المدنى ، بل يدعمها بالحث على مكارم الأخلاق وإصلاح الأفكار وتزكية النفوس ، ليكون منها رقيب على مواصلة العمل بتلك القواعد ، وبذلك يستأصل جذور الفساد . ويتميز الإسلام باتساع الأفق والمرونة ومجابهة الواقع ، وبادراك طبائع البشر ، فهو دين الفطرة والتطور والخلود .

وضع الإسلام القواعد الكلية والأسس العامة والأصول الجوهرية لأحكم شريعة عرفتها البشرية (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وترك للمسلمين أن يفسروها فى كل عصر بوحى من إيمانهم وبروح عصرهم ، ويبنوا عليها حسب مقتضيات الأحوال وظروف البيئة « وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام .

والإسلام يعمل على التوفيق بين الحياة الروحية والحياة المادية ، وتقـــوم

التعاليم الإسلامية وحضارتها ونظمها على أساسين رئيسيين : أساس روحى أو عاطفى ، وأساس عقلى أو منطقى . وبذلك تقوم الحضارة الإسلامية على أساس هو النقيض من أساس الحضارة الغربية ، فهى تقوم على أساس روحى يدعو الإنسان إلى حسن ادراك صلته بالوجود ومكانه منه قبل كل شيء . فإذا بلغ هذا الإدراك حدّ الإيمان دعاه إيمانه إلى إدامة تهذيب نفسه وتطهير فؤاده وإلى تغذية قلبه وعقله بالمبادىء السامية ومبادىء الأباء والألفة والأخوة والمحبة والبر والتقوى .(١)

وقد جعل الإسلام العقل حكما فى كل شيء ، وجعله حكما فى الدين وفى الإيمان بنفسه ، ويقول الله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلاَّ دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) . فالنظم الإسلامية اقتصادية كانت أم اجتماعية أم دينية تستند إلى العقل .

ولا يضحى النظام الإسلامى بالمجتمع فى سبيل الفرد ، ولا ينظر إلى الفرد إلا باعتباره اللبنة الطبيعية لبناء المجتمع السليم ، وهناك مسئولية متبادلة ، فالمجتمع مسئول عن سعادة الأفراد الذين يطلق لهم الإسلام حرية النشاط الاقتصادى ، فلهم أن يجمعوا المال ولهم أن يستثمروه طالما كان جمع المال واستثماره من حلال وفى حلال ، فالمال الصالح قوام الحياة والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » . فأما أن يكون مستغل المال سفيها لا يجيد التصرف ولا يحسن الاستثمار فلا حق له عندئذ فيما بين يديه من مال ، والله تعالى يقول (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم) لأن بقاء المال فى يد السفيه مضيعة لصالح المجموع ، وهذا مالا يرضاه الإسلام .

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٥٠١ .

والإسلام ينظر إلى صالح المجتمع وإلى صالح الفرد سواء بسواء ، فإذا كان ثمة من تعارض بين المصلحتين فمصلحة المجتمع مقدمة لاجدال. والاقتصاد الإسلامى يهدف إلى تنظيم العلاقات بين الفرد والمجتمع على قسطاس مستقيم ، ويجمع بينهما على أساس التعادل والتكامل ، بحيث تبقى حقوق الفرد وحريته مصونة ولا تضر بالمجتمع ، بل تكون نافعة لمصالحه وتقدمه . وكما أن الإسلام يكره النظم التى تقيد حرية الفرد ، فهو لا ينظر بعين الاستحسان إلى ذلك النظام الاجتماعى الذى يطلق العنان لأفراد المجتمع فى الدوائر الاجتماعية والاقتصادية ويترك حبلهم على غاربهم يفعلون ما يشاؤون مما يضر بمصلحة الجماعة.

واختار الإسلام طريقاً وسطا بين هذين الجانبين المتناقضين ـ جانبى الأفراد والتفريط ـ فهو يقيد الفرد أولا بجملة من الحدود والتكاليف حفظاً لمصلحة الجماعة ، ثم يخلى بينه وبين شئونه الفردية يعالجها كيف ماشاء فى ضمن هذه الحدود .(١)

يهدف الإسلام إلى أن لايبقى فى المجتمع البشرى حواجز وعقبات قانونية أو تقليدية تعوق الإنسان وتقعده عن بذل جهده واستطاعته فى سبيل اكتساب الرزق حسب ماأولاه الله من القوى والمواهب ، كما يريد أن تنعدم عنه الامتيازات والفوارق التى تضمن لبعض الطبقات أو السلالات أو البيوتات سعادتها المتوارثة وتحوطها بسياج من التحفظ القانونى ، فهذان الطريقان يحولان التباين الفطرى والفوارق الطبيعية قهراً إلى تباين وفروع غير فطرية (٢) .

أقر الإسلام فى المسائل الاقتصادية للحياة الانسانية جميع الأصول الفطرية التى قام عليها صرح اقتصادى انسانى : والاسلام فى نظامه هذا لايعارض

---

(١) نظام الحياة فى الإسلام ص ٦٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٦١ .

إلا البذور غير الطبيعية التى تسربت إلى حقـل الشئون الإقتصادية .

فرض الإسلام الزكاة وأمر أن تنفق فى مسـاعدة الفقراء واليتـامى والمعوزين وذوى الحاجة . وهذا تأمين اجتماعى يوفر لـكل فرد فى المجتمع الاسلامى ضرورات الحياة ، وبذلك لاتنحط قوة فرد من أفراد المجتمـع عن ذلك المستوى الذى لابد منه للمساهمة فى الـكفاح الاقتصادى .

أعلن الإسلام هذا النظام العامل للتكافل الاجتماعى قبل ثلاثة عشر قرناً دون أن تـكون هنالك فى البيئة العربية — التى ظهر فيها الإسلام — عوامل اقتصادية اضطرت الإسلام لإعلان هذا النظام ، ودون أن يصدر ذلك عن حقد من فئة نحو فئة أو رغبة فى انتزاع المال والسيطرة عليه انتقـاما من الأغنيـاء الأثرياء ، بل هى نزعة انسانية عميقة قبل أن ينتبه لها ضمير العالم ، وتنظيم دقيق شامل قبل أن يهتدى إلى قريب منه عباقرة العالم بثلاثة عشر قرنا (١) .

---

(١) مصطفى السباعى : الاشتراكية فى الإسلام ص ١١٢ .

المجتمع العربي الإسلامي نشأته ومعالم حضارته

الموجات السامية قبل الفتح الاسلامى :

سبق الفتح العربى الإسلامى هجرة عربية وهجرات سامية ، وكان فى الهـــلال الخصيب مجموعات من العرب عاشت طويلا وتأثرت بالحضارات الأخرى ولا سيما السامية منها . وقد تدفق الساميون من سكان الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب ، وكان الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى ما هو إلا تتمة لهذه الموجات السابقة ، التى هيأت الأسباب للموجة الـكبرى ، ولـكن هـذه الموجات السالفة لم تـكن تحمل طابع الفتح ولا الاحتلال ، فقد كان العرب الساميون يغادرون مواطنهم الأولى إلى البلاد المجاورة طلباً للسكن والعيش مع السكان الأصليين الذين كانوا يعارضون هجرتهم أحياناً ويقبلونها أحياناً أخرى .

لما فتح العرب العراق ، كان يسكنه بعض قبائل عربية من ربيعة ومضر ، وبعض الفرس والنصارى . ولما فتحت فارس ، كان فيها عدا سكانها من الفرس يهود وروم من الذين أسروا فى الحروب الفارسية الرومانية ، أو من الذين نقلوا إلى بلاد الفرس . أما سورية ، فـكان يسكنها عند الفتح : السوريون أهل البـــلاد ، والأرمن ، واليهود ، وبعض الروم ، وبعض القبائل العربية كغسان ولخم وجذام وكلب وقضاعة وطائفة من تغلب ، وكانوا فى القسم الجنوبى من سورية أكثر منهم فى القسم الشمالى وكانوا يتكلمون لغة هى مزيج من الارامية والعربية . أما مصر ، مهد المدنية القديمة ، فقد كان يسكنها

المصريون ومزيج من أمم أخرى كاليهود والرومان . ولما فتحت إفريقية كان يسكنها البربر والرومان .

امتزاج العناصر المختلفة بعد الفتح :

رحبت معظم هذه العناصر بالفتح العربى الإسلامى ، إذ وجدوا فى الفتح خلاصاً لهم من مظالم الحكم الفارسى والرومانى . ولا شك أن هذا الترحيب كان عاملا مساعداً على امتزاج العرب المسلمين الفاتحين بهذه العناصر المختلفة ، وكان هذا المزيج شاملا للدم والنظم الاجتماعية والعقلية والعقائد الدينية .

ولكن سياسة عمر بن الخطاب وقفت حائلا دون هذا الامتزاج وما قد يؤدى إليه من اندماج . فقد أمر عمر بترك الأراضى الزراعية لأصحابها الأصليين ورفض تقسيمها بين جنده العرب ، وأمر قواده وعماله ألا تسكن الجيوش الإسلامية المدن الجديدة ، كالبصرة والكوفة والفسطاط ، على أن تظل هذه المدن محتفظة بطابعها كمعسكرات لا كمدن للسكنى[1] فقد كان عمر يعلم أن حياة المدن حافلة بالترف والرفاهية التى تصطبغ بصبغة غريبة عن الحياة العربية الإسلامية .

لعلنا نتساءل عن الدوافع التى دفعت عمر إلى انتهاج هذه السياسة ، فيعلل (فان فلوتن)[2] سياسة عمر بأن الفتح لم يكن هدفه إدماج شعب أو العمل على نشر دعوة دينية معينة ، بل هو احتلال بقوة السيف ، ولكن هذا الرأى فى رأينا بعيد عن الحقيقة . أما (فون كريمر)[3] فيرى أن عمر قصد من هذه السياسة أن يجعل من العرب طبقة عسكرية ممتازة ، ولذا حرم

---

(١) الطبرى حـ ٤ ص ١٩١ .
(٢) السيادة العربية ص ١٥
(٣) الحضارة الاسلامية ص ٧٤

عليهم احتلال الأرض أو زراعتها ، ويرى فون كريمر[1] أيضاً أن التشريع الإسلامى يحول دون الاتحاد التام بين العرب والأجانب ، ولكن الحقيقة أن الإسلام يعترف بأن الله خلق الناس شعوباً وقبائل لتعارفوا ، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم . أما ابن خلدون[2] فيرى أن عمر قد نهى العرب عن مخالطة الأعاجم ليحافظ على اللغة العربية .

لم يكتب لسياسة عمر طول البقاء ، فقد غلبت الحياة رغبات عمر ، واندفع المسلمون إلى الإقامة بالمدن الإسلامية الجديدة ، يسكنونها ويعمرونها ، وإذا بالعرب يخالطون أهل البلاد فى شتى النواحى سياسية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية . وقد شعر عمر أن سياسته لن تستطيع الصمود أمام رغبة العرب فى الاختلاط بأهالى البلاد المفتوحة فأذن لهم فى أواخر خلافته بالانتشار فى هذه البلاد[3] . ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة ، أطلق العنان القريش فخرج عدد كبير منهم من المدينة إلى الأمصار المفتوحة وتفرقوا فى أرجائها ، وأباح لهم عثمان أن يمتلكوا الأرض[4] . وكان هذا عاملا هاماً فى الاختلاط ، إذ لم يكن العرب يفلحون الأرض بأنفسهم بل كانوا يستعينون بأهل البلاد فى فلاحتها .

أدت إقامة العرب فى المدن الإسلامية الجديدة إلى امتزاجهم بأهالى البلاد ، وقد تعاونوا جميعاً فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ولم تكن عناصر الأمصار المفتوحة غريبة على العرب الفاتحين ، كما أن فروقهم الدينية

---

(١) الحضارة الاسلامية ص ٨٩

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٦

(٣) ابن الأثير : الكامل حـ ٣ ص ٧

(٤) الطبرى : حـ ٥ ص ٦٤

لم تقف حائلا فى سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلم اللغة العربية واعتنق الإسلام.[١] وظهر الامتزاج فى عدة صور، فكان هناك امتزاج فى الدماء، وامتزاج فى الحضارات، وامتزاج فى اللغات، وامتزاج فى الأديان.

امتزاج الدماء العربية بالدماء الأجنبية :

أدى اختلاط العرب بأهل البلاد المفتوحة فى المدن إلى اختلاط الأنساب وتداخل الشعوب « وإنما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم، وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب فى بيوتهم وشعوبهم، وإنما هـذا للعرب فقط ».[٢] وكان السبي أبرز عوامل مزج الدماء، فقد وزع كثير من أبناء البلاد المفتوحة ونسائهم على الجند العرب كغنائم، فكان لكل جندى من العبيد والإماء عدد يستخدمهم فى قضاء حوائجه، ويستولد الإماء إن شاء[٣] فلم يعد البيت العربى بيتاً صميماً بل أصبح بيتاً مختلطاً، فكان الإماء يلدن أولاداً يحملون الدم العربى من جهة الأب والدم الأجنبى من جهة الأم وقد أنتجت هـذه الإماء الجيل الثانى لسكان الدولة العربية[٤].

وقد بدأت عملية مزج الدماء هذه منذ بداية الفتح ورغم سياسة عمر فقد حاز الجند الفاتحون كثيراً من السبايا فاقتسموهن « فاتخذن فولدن فى المسلمين »[٥]. فقد كان بعض هؤلاء الجند قد تركوا زوجاتهم فى الجزيرة العربية، وبعد انتهاء الفتح واستقرار العرب فى الأمصار المفتوحة رأوا قلة عددهم

(١) ديمومبين . النظم الاسلامية ص ٩
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٩٢
(٣) احمد أمين : فجر الاسلام ص ١٠٨
(٤) الطبرى حـ ٤ ص ١٨٢
(٥) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى حـ ٤ ص ٤١٠ .

بالنسبة لسكان البلاد الأصليين ، فاستكثروا من أمهات الأولاد من بين السبايا حتى يكثر نسلهم ويزداد عددهم[١] .

امتزاج الحضارة العربية بالحضارات الاخرى :

وكانت الحضارات زمن الفتح العربى متقاربة فى مختلف المواطن ، فالحضارة الإغريقية غلبت الحضارة الرومانية فى القسطنطينية ، وهذه أخذت الكثير من الحضارة الفارسية لاتصالها السياسى والحربى ، كما أخذ الفرس عن اليونان من قبل . ومن المؤكد أن الحضارة الإسلامية كانت فى أول الأمر مزيجاً من الحضارتين الآرامية والعربية ، ولكن هذا لم يستمر طويلا ، فما لبثت الحضارات الأخرى أن اتصلت بالحضارات الإسلامية التى اتصلت بدورها بالحضارات اليونانية والفارسية وحضارات وسط آسيا .

أدت عملية مذج الدماء إلى امتزاج الحضارة العربية بحضارة الأمصار المفتوحة : فكما اتخذ العرب من بين السبى زوجات وأمهات أولاد فقد أتخذوا منهم خدم وجوارى يقمن على أمر البيوت فى نظامها وإدارتها والخدم والأزواج هم الذين يصنعون البيوت وينشئون الأطفال .[١] وكان بين السبى نصرانيات ويهوديات وقد احتفظن بديانة الأجداد رغم اتخاد أسيادهن منهن سرارى أو زوجات وبجانب احتفاظهن بديانة الأجداد فقد احتفظن بكثير من العادات المتوارثة . بل أن السبى الفارسيات رغم إسلامهن احتفظن بعاداتهن وتقاليدهن . ونتج عن هذا التزاوج عدد لا يحصى من النسل والذرية التى تأثروا بالأمهات[٢] .

---

(١) عمر أبو النصر : الحضارة الأموية ص ١٩٤

(٢) Muir The Caliphate, P. 19

لقد كان الطريق ممهداً أمام امتزاج الحضارات ، فقد كان العرب أميون فاضطروا إلى الاعتماد على غيرهم فى الإدارة والكتابة والشئون المالية ، وسرعان ما خضعوا لحضارة الهلال الخصيب وانجرفوا معها واقتبسوا كل شىء من جيرانهم فصارت حضارتهم مزيجاً من حضارات مختلفة .(١) وكانت البلاد المفتوحة أرقى من العرب مدنية وحضارة وأقوى نظماً اجتماعية ، فكان من الطبيعى أن تسود مدنيتهم وحضارتهم ونظمهم ، ولكن العرب — وهم العنصر القوى الفاتح — عدلوا هذه النظم بما يتفق وعقليتهم ، وبما يلائم الدين الإسلامى . وشمل اقتباس العرب من الفرس والروم جميع النواحى ، وسواء كان ذلك فى وسائل الزينة والترف التى لم يعهدوها من قبل ، أو فى الحرف الدقيقة أو فى نظام الحكم والإدارة ، أو فى اللغة والآداب .

أثر اللغة العربية فى مزج الدماء والحضارات :

لعبت اللغة العربية دوراً كبيراً فى مزج الحضارات والعناصر المختلفة المتنافرة فى الأمصار المفتوحة . فقد أدى تعميم استخدام اللغـة العربية فى هذه الأمصار إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجاً قوياً فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربى الحاكم (٢) إذ ربطت اللغة العربية جميع البلاد برباط معنوى(٣) ، كما أن أهل الأمصار وقد أصبحوا شعبا إسلامياً فإنهم كانوا يزدادون إسلامية كلما اقتربت لغتهم من لغة القرآن (٤).

أقبل سكان الأمصار المفتوحة على تعلم اللغة العربية واتقانها . فقد كانت رغبة هذه العناصر فى قراءة القرآن وتولى المناصب عاملا دفعهم إلى إجادة اللغة

---

(١) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٦ – ٧
(٢) أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص ٦٨
(٣) جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٥٠
(٤) ديمومبين النظم : الاسلامية ص ١١

العربية[1]. كما كانت رحمة العرب الفاتحين بهذه العناصر وتسامحهم من الأسباب التى أدت إلى سهولة اعتناقهم الإسلام واتقان اللغة العربية والنظم العربية[2]. وجرت العادة أن المغلوب نراه دائماً مولعاً بتقليد الغالب[3].

كان قيام إماراة الحيرة على حدود الدولة الفارسية ، وإمارة الغساسنة على حدود الدولة الرومانية ، عاملا هاماً على بقاء العروبة واللغة العربية والتمكين لها ، وكانت الإمارتان على صلة دائمة بالجزيرة العربية .

هل انتشرت اللغة العربية بالقوة وحد السيف ؟ الإجابة : لا ، بل سار العرب فى نشر لغتهم على نفس المنهاج الذى ساروا عليه فى نشر دينهم فلم يحارب العرب لغات البلاد الأصلية على رسوخها فيها ، بل ساروا فى نشر لغتهم بتعقل وراعى دعاتهم سنن الطبيعة والنشوء ، وعملت قاعدة الانتخاب الطبيعى عملها فى اللغة كما عملت فى العناصر ، فبقى ماهو مفيد للناس فى مصالحهم على اختلاف نحلهم ومللهم[4] ويرى بارتولد[5] أن غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة ، ويعلل ذلك بأن انتشار اللغة العربية فى الأقوام غير الإسلامية أمراً غير مرغوب فيه كثيراً لدى الحكومة ، ويدلل على ذلك بمنع النصارى من التحدث باللغة العربية ومنع تعليم أولادهم فى مدارس المسلمين . ولكن بارتولد فى نفس الوقت يذكر أن تسامح العرب أدى إلى انتشار اللغة العربية إذ أن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح كالجرمان والمغول والفرس .

كان سكان الأمصار المفتوحة مضطرين إلى خلق طريقة للتفاهم بينهم وبين

---

(١) حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٩ ـ ٣
(٢) لوبون : حضارة العرب ص ٧٢٠
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٤
(٤) كرد على : الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٨٠
(٥) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٣٠

العرب ، فقد كانوا يتصلون بهم فى شئون الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو الجيش أو السبي ، وكانوا مضطرين إلى خلق طريقة للتفاهم بينهم ، ومن هنا أخذت تدور على ألسنة هذه الطبقات لغة أولية بسيطة تحقق أيسر ألوان التفاهم وتكون كالوسيط بين لغة السكان الأصليين ولغة العرب الوافدين (١) . وأدى هذا إلى نقل ألفاظ أجنبية إلى اللغة العربية وترك ألفاظ عربية كانت مألوفة فى الجاهلية واصطلح على كلمات عربية كانت تؤدى معانى أخرى قبل الإسلام ، (٢) وكان هذا التقارب بين اللغة العربية وغيرها من اللغات من العوامل الرئيسية التى دفعت الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان إلى تعريب الدواوين ، ولم يجد من سبقوه من الخلفاء جرأة للأقدام على هذا التعريب لأن اللغة العربية كانت فى واد واللغات الأخرى فى واد آخر .

أدى امتزاج اللغة العربية بغيرها من اللغات إلى آثار أضرت باللغة العربية. وكان عمر بن الخطاب بعيد النظر حين نهى العرب عن الاختلاط بالأعاجم حرصاً منه على سلامة اللغة العربية من الشوائب (٣) . وحدث ما كان عمر يخشاه، فقد انحرفت الألسنة وخرجت عن قواعدها، وفشا اللحن بين العرب. وكما تأثرت اللغة العربية باللغات الأخرى ، فقد أثرت فيها بدورها .فقد فرضت اللغة العربية كتابتها على الفرس وغيرهم وقضت نهائياً على الألفباء القديمة لهذه اللغات القديمة. فقد اقتبست اللغة الفارسية ثلث ألفاظها من اللغة العربية وأضافتها إلى مجموعة كلماتها الهندو ـ أوروبية (٤) . وكان الزارادشت هم أول من اتخذوا الحروف العربية وأوجدوا لغة فارسية حديثة محتوية على كثير من الكلمات العربية (٥) .

---

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٢٥٨
(٢) كرد على : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٨٠
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٦
(٤) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ١٢ – ١٣
(٥) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٦٨

وأدى الاختلاط بين اللغة العربية واللغات الفارسية إلى ظهور فرق واضح بين لغة القرآن الكريم واللغة العامية. مما أدى إلى البحث عن حل لهذه المشكلة، وقد وجدوها أخيراً فى دراسة النحو واللغة. وقام الفرس بتلك المهمة بمساعدة العرب[١]. واختصت البصرة بهذا النوع من الدراسة. فشغل علماؤها بتقريب القرآن من اللهجات العامة، ويرجع السر فى اختيار هذه المدينة دون غيرها وقوعها على تخوم فارس[٢]. وكان معظم واضعو النحو من الآرميين والفرس الذين دخلوا فى الإسلام[٣].

الاسلام كأساس للمجتمع الجديد :

أدى الإسلام إلى امتزاج واندماج العرب بالعناصر الأخرى فى الأمصار المفتوحة. فقد منح الإسلام العناصر المختلفة التى كانت تسكن الأمصار ما تحتاجه من المثل العليا التى اكتسبوا بها من الحمية ما استعدوا به للتضحية بأنفسهم فى سبيله. وقد منحت هذه المثل العليا أهالى الأمصار مشاعر مشتركة وآمالا مشتركة وإيماناً متيناً يندفع به كل واحد من أبنائها فى التضحية بنفسه فى سبيل نصره وكانت الدولة التى أسسها العرب هى الدولة العظمى الوحيدة التى قامت باسم الدين والتى اشتقت منه جميع نظمها السياسية والاجتماعية[٤].

هل نشر العرب الإسلام بالقوة وحد السيف ؟ والجواب بالنفى، فالإسلام هو الدين الوحيد الذى لم يفرض بالقوة، بل أقبل الناس على اعتناقه بإرادتهم واختيارهم[٥]. فإنه من المستحيل أن يفوز الإسلام بقلوب الناس بالسيف[٦].

(١) Hell The Arab Civil P- 90

(٢) حتى تاريخ العرب جـ ٢ ص ٣٠٩

(٣) كريمر : الحضارة الاسلامية ص ٩٠

(٤) لوبون : حضارة العرب ص ٧١٨ — ٧١٩

(٥) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٨٢

(٦) S. L. Pooie : Studies in a Mosque, P. 86

ويعترف لوبون[١] بذلك فيقول « والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم » . ولم يعمل العرب لنشر الإسلام، ولم يكن عندهم مبشرون ولا كانوا يحسنون التبشير، والذين كانوا يحسنون التبشير منهم هم المسيحيون الذين أسلموا والذين تعلموا التبشير من المسيحية .

ما أسباب الانتشار السريع الذى صادف الإسلام ؟ يعلل لوبون[٢] هذا الانتشار السريع بعاملين ، أولهما تشابه الإسلام والمسيحية فى الأصل الأساسى وهو الإله الواحد ، أما العامل الثانى فهو سهولة الإسلام التى كانت سر قوته، فهو يخلو مما نراه فى الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض، وكل مسلم يستطيع أن يعرف أصول الإسلام فى بضع كلمات سهلة ، على عكس المسيحى الذى لا يستطيع حديثاً عن التثليث وغيره من الغوامض التى لا يعرفها غير علماء اللاهوت . أما (ستانلى لين بول)[٣] فهو يتساءل عن سبب سرعة انتشار الإسلام هل هو القانون الأخلاقى الذى تحويه العقيدة وما يعد الإسلام المؤمنين به من جنات ؟ ولكن (بول) يعود فيقول أن هذه الأسباب كلها كافية لتعلق قلوب الملايين بالإسلام ولكن العامل الأول فى سرعة الانتشار هو أن الإسلام لم يقابل عدواً قويا ، فلم تكن اليهودية أو المسيحية بالقوة التى تحول دون انتشاره ، بل لم يكن هناك ما يمنع هذا الانتشار ، وكان هذا سبب انتصار الإسلام ، هذا بجانب ما حواه الإسلام من مبادىء وتعاليم سامية .

يعلل (دوزى)[٤] إقبال الفرس على الإسلام بأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه فى دياناتهم السابقة . أما (أرنولد)[٥] فيرجع

---

(١) حضارة العرب ص ٧٢٠

(٢) حضارة العرب ص ٥٨

(٣) Studies in a M sque, p. 84

(٤) نظرات فى تاريخ الاسلام ص ٤١١ — ٤١٢

(٥) الدعوة إلى الاسلام ص ٧٠

سبب انتشار الإسلام إلى عاملين : أولهما نجاح العرب الواسع النطاق الذى زعزع عقيدة المسيحيين ، فقد رأوا أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم فى الدنيا وبين التوفيق الإلهى . أما العامل الثانى فهو ما كان ينادى به الإسلام من مثل عليا ترمى إلى أخوة المؤمنين كافة فى الإسلام .

أصبح الإسلام هو الرابطة بين العناصر المتنافرة المختلفة التى كانت تسكن الأمصار ، وأصبح الإسلام بالنسبة لهذه العناصر مسألة اقتصادية واجتماعية أكثر منها فكرة دينية[1] ولعب موسم الحج دوراً كبيراً فى مزج هذه العناصر فقد قصد المسلمون على اختلاف أجناسهم وحضاراتهم إلى مكة فساعد ذلك على نقل الثقافات والحضارات والعادات .

نتائج الامتزاج والاندماج :

كان للفتوح العربية طابع خاص لا نجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب، فالبرابرة الذين استولوا على العالم الرومانى ، والترك والمغول وغيرهم، وأن استطاعوا أن يقيموا دولا عظيمة ، إلا أنهم لم يؤسسوا حضارة ، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التى قهروها . ولكن العرب أنشأوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التى ظهرت قبلها ، وتمكنوا من حمل هذه العناصر المختلفة الموجودة فى الأمصار على اعتناق دينهم وتعلم لغتهم فضلا عن حضارتهم الجديدة ولذا ظل نفوذ العرب بها ثابتاً[2] .

هذا الامتزاج بين الحضارات جعل البعض[3] يذكرون أن الأمة الإسلامية لم تعد أمة عربية ، لغتها واضحة ، ودينها واحد ، وخيالها واحد ، كما كان

---

(١) كريمر : الحضارة الاسلامية ص ٧٤

(٢) لوبون : حضارة العرب ص ١٧١ — ١٧٢

(٣) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١١٤

الشأن فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل كانت الأمة الإسلامية جملة أمم وجملة نزعات وجملة لغات تتحارب ، وكانت الحروب سجالا ، فقد ينتصر العرب ، أو تنتصر العناصر الأخرى .

كانت حضارة العرب بعد الفتوحات العربية حضارة عظيمة ، ويرجع سبب عظمتها إلى عاملين : أولهما بيئة العرب الحديثة التى ترغم العرب على التحضر والتمدن . وشتان بين الهلال الخصيب فى العراق والشام ووادى النيل وبين صحراء الجزيرة العربية المجدبة . والعامل الثانى ذكاء العرب وثقافتهم الأولى فقد استطاعوا أن يهضموا ويتمثلوا الحضارات التى وجدوها فى الأمصار المفتوحة ، فى حين فشل غيرهم من الفاتحين ، كالبرابرة مثلا ، فى هضم ما بقى من الحضارة اللاتينية[١] .

أدت عملية الامتزاج والاندماج إلى آثار اجتماعية ، بعضها حسن ، وبعضها الآخر ضار . أما الآثار الحسنة ، فقد حل هذا الاندماج محل التنظيمات القبلية القديمة ، فقد كان تحول سكان الأمصار المفتوحة عن أديانهم القديمة سبباً فى إدخالهم ضمن التنظيم القبلى ، ولكن هذا التنظيم قد بدأ يفقد شيئاً من قيمته الاجتماعية ، فقد أدى اختلاط السكان إلى أن أصبح نظاماً مصطنعاً ، فقد تقارب الأفراد بفضل اعتقاداتهم أو مصالحهم ، مما أدى إلى اندماجهم فى جماعات جديدة حلت محل التنظيمات القبلية القديمة[٢] . كما يرجع إلى العرب الفضل فى إزالة نظام الطبقات البغيض الذى كان موجوداً فى معظم هذه الأمصار ، وخاصة فى الدولة الفارسية ، فضلا عن إخراج الفرس من ظلمات المجوسية إلى نور الإسلام[٣] .

---

(١) لوبون : حضارة العرب ص ٧٢١
(٢) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ١٥٤
(٣) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٦٤

أما الآثار الاجتماعية السيئة التى أدى إليها الامتزاج والاندماج ، فهو ظهور مشكلة التوفيق بين مصالح الطبقات المتضادة ، بين العربى وغير العربى، بين الغنى والفقير ، وبين الحر والعبد ، وبين أصحاب العمل والأراضى وعمالهم وفلاحيهم . وقد ظهرت هذه المشكلة بعد اندماج الأمة العربية فى غيرها من الأمم المختلفة ذات الحضارات القديمة والأديان المتباينة ، ونتجت عن ذلك حالة اجتماعية جديدة توترت العلاقات فيها بين بعض طبقات المجتمع الاسلامى أدى إلى سقوط الدولة الأموية العربية[١] وتجلى هذا التوتر فى الصراع الدائم بين العرب والفرس ، وهو صراع بين اللغة العربية واللغة الفارسية ، وحرب بين آمال العرب وآمال الفرس ، وحرب بين النظم الاجتماعية العربية البسيطة والنظم الاجتماعية الفارسية . ولم ينجح العرب فى حل هذه المشاكل الاجتماعية تماماً رغم نجاحهم فى نشر الإسلام واللغة العربية[٢] :

عناصر المجتمع العربى الاسلامى وحضارتها :

أولا : العرب وحضارتهم فى صدر الإسلام :

غمرت الموجات السامية بلاد العراق والشام قبل ظهور الإسلام بفترة طويلة ، وكانت خمسة أولها حوالى سنة ٣٥٠٠ ق . م . وآخر هذه الموجات هى الموجة التى بدأت فى القرن الثانى للميلاد ، وأدت فيما بعد إلى تكوين دولتى الغساسنة والمناذرة[٣] .

خرجت الجيوش العربية الإسلامية لفتح كثير من البلاد التى كانت خاضعة للدولتين البيزنطية والفارسية . وكانت هذه الجيوش تمثل عناصر من معظم القبائل

(١) جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ق ص ٤٠
(٢) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١١٤
(٣) الألوسى : بلوغ الأرب حـ ١ ص ٢١٧

العربية ولما تم النصر للعرب المسلمين ودانت لهم الأمصار بدأت مرحلة الاستقرار في حياة العرب ، وتمثلت هذه المرحلة في بناء المدن ، مثل البصرة والكوفة والفسطاط . وكانت هذه المدن في بداية أمرها معسكرات للجند العرب ، فكان العرب يقيمون في معسكراتهم الجديدة إلى زمن الربيع فيسرحون بخيولهم إلى المراعي في القرى حيث يرعاها الأتباع والموالي . وقد اشترط عمر في بناء المدن الجديدة ألا يبنوها في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء[١] . كما حرص على عدم اختلاط العرب بأهالي البلاد الأصليين ، وكان عمر يدرك تماماً أن سكنى المدن تؤدي إلى اختلاط الأنساب مما يؤدي إلى ضعف الجنس العربي[٢]

لم يكتب لسياسة عمر النجاح التام ، فإنه في أواخر خلافته أذن لجنده العرب بأن ينتشروا في البلاد المفتوحة[٣] . وفي عهد عثمان بن عفان طاب للعرب الإقامة بالأمصار ، واقتنوا الأرض والضياع ، وتحولت المعسكرات إلى مدن عامرة ، وتعلم العرب الزراعة وسائر المهن وتطوروا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور . وكان العرب في بداية استقرارهم بالأمصار قلة بالنسبة للسكان الآخرين . ولذا انصرف هم العرب إلى الاستكثار بالتناسل ، فاستكثروا من أمهات الأولاد فضلا عن الزوجات ، وتسابقوا إلى امتلاك الجواري ، وأسرفوا في التسري[٤] .

حافظت القبائل العربية التي أقامت في مدن منفصلة كالكوفة والبصرة والفسطاط على تقاليدها القبليه لفترة طويلة ، أما تقاليدها الحضرية الاجتماعية

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٨٤
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٩٢
(٣) ابن الأثير : الكامل حـ ٣ ص ٧
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٨ ص ٤٩

فقد تكونت تدريجياً[١] . ويذكر فان فلوتن[٢] أنه بينما كانت المسيحية تنتشر بين الشعوب المتحضرة وتوطد سلطانها بين الأمم ذات المدنيات الراقية، كان الشعب العربى لا يزال على بداوته الأولى رغم اعتناقه الإسلام . ويعترف فان فلوتن أن الجيش الإسلامى لم يكن يخلو من بعض القبائل المتحضرة ، كما كان يضم الكثير ممن لم يكونوا بعيدين كل البعد عن المدنيات والأفكار الدينية التى كانت سائدة بين الشعوب المجاورة لهم إلا أن روح الصحراء وتقاليد البدو لم يقض عليها نهائيا . يقول ابن خلدون : «ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم ، واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد فى شيء من الحضارة ، فقد حكى أنه قدم إليهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً » .

ومن مظاهر بداوة العرب عند الفتح خروجهم للغزو بنسائهم وأولادهم وإبلهم وسائمتهم على نحو ما كانوا عليه فى أيام الجاهلية ، وهذا يرجع إلى سياسة عمر فى نهيهم عن الزراعة والاختلاط بأهالى الأمصار وإقامتهم بالمعسكرات .

لكن سرعان ما بدأ العرب يرتقون سلم الحضارة حتى بلغوا ذروتها وكان ذلك نتيجة البيئة الجديدة التى عاشوا فيها ، ونتيجة استعداداتهم الفطرية، فقد حتمت البيئات الجديدة على العرب الاختلاط بغيرهم من عناصر السكان الأصليين فاختلطوا مع فلاحيهم فى أرضهم ، وفى المدن مع أرباب المهن المختلفة، وفى الجيوش حيث كانت هذه العناصر تقوم بإنشاء الطرق وإقامة الخيام ، وفى السبى حيث أقبل العرب على امتلاك الجوارى والإماء اللاتى اتخذوهن للتسرى والإنجاب ، وكانت هذه الإماء والجوارى عاملا هاماً فى نقل الحضارة إلى بيوت

---

(١) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٩

(٢) السيادة العربية ص ١٤ ـ ١٥

العرب وتعليمهم أرقى أنواع الطعام والملابس ، فضلا عن الغناء والموسيقى ووسائل الترف .

انتقل عرب الأمصار من البداوة إلى الحضارة(1) ، واتخذ هذا التقدم صوراً شتى . ففي فن البناء اقتبسوا نظم الفرس والرومان وزادوا عليهما يناسب طبيعتهم وذوقهم ، حتى صار نظام البناء العربى يفوق نظامى البناء الفارسى والرومانى . فقد امتازت العمارة العربية بالأعمدة والمنحنيات والمآذن والقباب ، وهى تماثل النخيل وهى أعز شىء عند العرب ، ونالت الثقافة العربية تقدما سريعاً ملحوظاً ، كما تأثر العرب بأنواع الثقافات السائدة فى الأمصار المفتوحة من قبل . على أن العرب وإن اقتبسوا بعض معالم الحضارة عن الفرس والرومان ، فقد استقل العرب بشعرهم وآدابهم وقضائهم وتشريعهم ، بل فرضوا لغتهم العربية وأضعفوا اللغات الفارسية واليونانية واللاتينية .

أدى تقدم الحضارة إلى ازدياد ثروة العرب ، وكان لذلك أثره السىء فانغمس العرب فى الترف(2) وتعلموا من بعض أهالى الأمصار فنون اللهو(3) .

كانت العصبية هى أهم مميزات حياة العرب فى الدولة العربية الإسلامية بل كانت المحور الذى تدور حوله حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافة ، واتخذت عصبية العرب ثلاثة مظاهر : أولها العصبية القبلية ، وثانيها عصبية المدن ، وثالثها العصبية الإقليمية .

ونبدأ الحديث بالعصبية القبلية : كان العصر الجاهلى مسرحاً لكثير من الحروب بين القبائل ، وشغل العرب بالعصبية القبيلية فى جميع نواحى حياتهم . ثم جاء الإسلام فدعاهم إلى محو التعصب للقبيلة والتعصب للجنس وأعلن مساواته

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١١٨

(٣) كريمر : الحضارة الاسلامية ص ٩١ .

بين جميع الناس ، فقال الله تعالى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال الرسول الكريم فى خطبة الوداع : « أيها الناس إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » ، وحارب الرسول العصبية بقوله : « من قاتل تحت راية عمية بغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبة فقتل ، قتل قتلة جاهلية » . واختفت العصبية طوال حياة الرسول وأبى بكر وعمر فى شبه الجزيرة العربية ، ولكنها عادت إلى الظهور فى الدولة العربية الإسلامية بعد انتهاء حركات الفتح واستقرار العرب فى الأمصار المفتوحة .

كان التوسع العربى يمثل قوة التيار الإسلامى وتغلبه على التيار القبلى بتنظيمه وتوجيهه فى صالح الإسلام(١) . كانت عناصر الجيوش العربية الإسلامية التى فتحت الأمصار تمثل معظم قبائل شبه الجزيرة العربية ، وهى توضح لنا أن المسلمين دخلوا الأمصار فى ظلال هذه الوحدة التى أفاءها عليهم الجيش ، فلم تكن هجرتهم إلى هذه الأمصار مثل هجراتهم السابقة من حيث الطابع القبلى(٢) .

وكان اشتراك هذه القبائل فى الفتح عاملا فى امتزاجها ، فقد كان عليها أن توحد صفوفها ومشاعرها أمام أعدائها الفرس والروم . كما أن نظم الجيش العربى كانت تحتم الامتزاج والاتحاد ، فقد انقسم الجيش العربى إلى فرسان ومشاة وضاربين بالسيوف وضاربين بالرماح ، وكانت كل فئة تمثل جميع القبائل العربية .

---

(١) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٥٥
(٢) الطبرى ج ٤ ص ١٩٢

ولـكن الحال لم تستمر على هـذا المنوال ، فما كاد العرب ينتصرون على الفرس والروم ، وتخضع لهم الأمصار ، وتبدأ مرحلة الاستقرار ، حتى عادت العصبية القبلية إلى الظهور مرة أخرى ، لقد تناست القبائل العربية عصبيتها وعداوتها أمام عدوها المشترك ، ولـكن ما كاد هذا العدو يتلاشى حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من عداء وتعصب . لقد أثبتت هذه القبائل أن الإسلام على فرط ما حارب العصبية القلبية ، فإنه لم يقض عليها ولم يمحها من نفوس أصحابها، ولـكنها تضاءلت فى نفوسهم .

كنا نتوقع أن يكون بناء المدن فى الأمصار ، كالبصرة والـكوفة والفسطاط والقيروان ، عاملا فى القضاء على العصبية القبلية، فالقبائل حتما ستتجاور وتتعاون فى حياتها الاجتماعية الجديدة . ولـكن حدث عكس ما توقعناه ، فقد وضع العرب أسس العصبية القبلية فى نفس الوقت الذى وضعوا فيه أسس المـدن الجديدة . فقد أصبح لـكل قبيلة مكان خاص بها فى المسجد ، وأصبح يمثل الروح القبلية[١] ، فأزال العرب بذلك الحـكمة التى قصدها الله من الصلاة ، وهى أن يتساوى جميع المسلمين بين يد خالقهم وأصبح لـكل من القيسية واليمنية جزء فى كل مدينة[٢] ، وكان لـكل حى مسجد ومقبرة وكأن هذه القبائل أرادت أن يبتعد بعضها عن البعض الآخر حتى فى الموت وكنا نتوقع أن تقسم المدن الجديدة إلى أحياء على أساس الحرف[٣] ولـكن العرب كانوا يمقتون المركزية مقتا شديدا، فتجمعوا حسب تقسيمهم القبلى،وكان هذا يدعو إلى التمرد والعصيان، فقد كانت تلك الأحياء القبلية تقوم مقام المدن الصغرى ، وكان يفصل بعضها

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٥
(٢) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ١٦٧
(٣) شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٨٠

عن البعض الآخر أبواب يحرسها رجال أشداء ، فإذا قامت فتنة داخلية أقفلت الأبواب وانقطعت المواصلات بين أحياء المدينة .

وهكذا غلب طابع الحياة الجاهلية على الحياة فى البصرة والكوفة ، فلم يتم للعرب فيها اندماج تام يجعلهم ينسون حياة العصبية القبلية القديمة بل استمر سكانها يشعرون أنهم قبائل وإن عاشوا فى المدن وخدمهم الأعاجم[(١)] وأصبحت القبيلة هى الوحدة الاجتماعية الطبيعية . وظل الفاتحون يتبعون تنظيمهم القبلى ، واحتفظت هذه الجماعات المتشعبة بكل ماضيها القديم من حيث النسب والتآلف والتباغض ، وكان لهذا أثره السىء فى حياة الجماعة الإسلامية[(٢)] . فقد كانت العلاقة بين رجال القبيلة الواحدة أوثق من العلاقة بين سكان المدينة الواحدة[(٣)] . وكان لقبائل العربية النازلة بالمدن الجديدة رؤساء يشبهون رؤساء القبائل فى العصر الجاهلى من حيث سيادتهم على قبائلهم ، ووقوف الشعراء بأبوابهم . ويتهم ديمومبين[(٤)] الخلفاء بأنهم تسببوا فى إحياء الروح القبلية لأنهم كانوا يتصلون بجمهور الناس عن طريق زعماء القبائل ، فكان الخليفة يؤكد ويؤيد تعيين رئيس القبيلة ، ويزوده بسلطة عسكرية وإدارية ومالية . وجرف العرب موالى الأمصار إلى تيار العصبية القبلية وكانوا بعيدين عنها قبل الفتح . فكان أهل البلاد الذين يعتنقون الإسلام يدخلون فى ولاء القبائل العربية حتى يضمنوا حمايتها لهم . وتعصب كل قوم من الموالى للقبيلة التى حالفوها من العرب[(٥)] .

---

(١) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ١٥٣
(٢) بارتولد : الحضارة الاسلامية ص ٣١
(٣) النظم الاسلامية ص ١٥٤
(٤) النظم الاسلامية ص ١٥٤
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٩

بذر العرب فى الأمصار فى خلافة عمر بن الخطاب بذور العصبية القبلية ، فقد كان العرب فى كل مصر يمثلون الحزبين الكبيرين اللذين عاشا فى بلاد العرب منذ االجاهلية ، وهما : اليمنية والمضرية . وكان بين هذين الفريقين عداء مستحكما رغم تشابه العادات والأخلاق . فبلغ اليمنيون درجة عظيمة من الحضارة قبل الإسلام ، فلما انتقلوا إلى الأمصار جنوا ثمار حضارتهم . فأسسوا لهم حكومة منظمة . أما المضريون فكان معظمهم — باستثناء قريش — قبائل بدوية رحالة ، وكان كل بطن من بطونها فى عزلة عن الآخر ، فتباينت نزعاتها وتباعدت مصالحها ، مما أدى إلى ضعفها وخضوعها إلى سلطان اليمنيين قبل الإسلام[1] .

ساعد عمر بن الخطاب بغير قصد على ظهور روح العصبية ، فقد كان نظام عطاء الجند الذى سنه دافعاً هاماً لظهور العصبية القبلية ، فقد كان هذا النظام قائماً على أساس السابقة فى الإسلام والقرابة من الرسول ، فكان يرتب الجند باعتبار القبائل والأجناس مما يؤدى إلى تمييز هذه القبائل على غيرها ، فكان عمر يقدم العدنانيين على القحطانيين لأن النبوة فيهم ، والعدنانيون يشملون قبيلتى ربيعة ومضر ، ثم يقدم مضر على ربيعة لأن النبوة فيهم ؛ ثم يقدم عمر قريشا من مضر على غيرها ، ثم يفضل عمر بنى هاشم على أمية ، ثم يرتب بنى هاشم بدرجة قرابتهم للرسول[2] وبجانب هذه السياسية المالية التى أدت إلى ظهور العصبية القبلية فقد كانت سياسة عمر القاضية بعدم اختلاط العرب بالشعوب الأخرى المتحضرة عامـــلا على احتفاظهم بالتقاليد البدوية بما فيها من تعصب وتنابذ[3] .

---

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٦٣.

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٤ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٣

(٣) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٧٠

بدأت العصبية القبلية فى عهد عثمان بن عفان تظهر فى صورة واضحة . كانت القبائل العربية فى خلافة عثمان ترى أنها دخلت فى الإسلام كما دخلت قريش ، وهاجرت كما هاجرت ، ولكن قريشاً استأثرت بالخلافة والزعامة رغم أن أعباء الفتوح وقع على عاتق القبائل الأخرى وفت تغلب العنصر الأموى القرشى فى عضد هذه القبائل . وكان فى الأمصار بيوت شرف أخرى لا تقل مجداً عن البيت الأموى . مثل بيت قيس وبيت تميم وبيت شيبان وبيت كنده[1] وأنف هؤلاء من طاعة قريش ، واتهموها بالظلم وطالبوا بالمساواة بين جميع القبائل[2] وكانت هذه القبائل ذات فضل فى الجاهلية ثم ضاع فضلها بظهور الإسلام ، كما أسهمت فى إعلاء شأن الدين الجديد والفتوحات ثم لم يفوزوا بثمار جهودهم .

وبعد أن كانت العصبية القبلية فى عهد عثمان بين قريش والقبائل الأخرى، أصبحت هذه العصبية فى خلافة على بن أبى طالب بين فرعى قريش الكبيرين : بنى هاشم ، وبنى أمية . وانقسمت القبائل بين مؤيد ومعارض لأحد هذين الفرعين . فقد ثار معاوية على على متظاهراً بطلب الثأر لعثمان رأس البيت الأموى ، وهو فى الحقيقة يريد بقاء السلطة فى هذا البيت . بينما رأى على أن تكون الخلافة فى بنى هاشم وهم آل الرسول وكان على يميل إلى التيار الإسلامى ، بينما كان معاوية يمثل التيار القبلى .

كانت واقعة صفين صورة حقيقية للعصبية القبلية . ونرى هذا واضحاً فى رواية الطبرى ، فقد كان على يسأل عن أسماء قبائل العراق ثم يضع كل قبيلة فى مواجهة مثيلتها بين قبائل الشام : « وأمر كل قبيلة من أهل العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام . إلا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فيصرفها

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ١٧ ص ١٠٥

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٥١

إلى قبيلة أخرى بالشام ليس منها بالعراق أحد »[1] .

بدأت موجة قوية من العصبية القبلية فى أوائل العصر الأموى، فكانت تولية معاوية بن أبى سفيان الخلافة إنتصاراً لبنى أمية على بنى هاشم فثارت العصبية من جديد . اعتمد معاوية على اليمنيين ، دون المضريين ، فتزوج من قبيلة كلب اليمنية وأنجب منها يزيد ، ولذا ارتفع شأن كاب فى خلافة يزيد ، مما أثار الغيرة فى قلوب قيس وهى من مضر . كما قرت عين مضر لخروج عبد الله بن الزبير فى الحجاز فأسرعت إلى تأييده . ولما مات يزيد أبت مضر الاعتراف بولده معاوية خليفة وبايعت لابن الزبير[2]

كذلك اشتد الخلاف بين قيس وتغلب ، فقد كانت تغلب تدين بالولاء لمروان بن الحكم بينما وقفت قيس دائماً موقف المعـــارض لبنى أمية ، وكانت قيس تنزل قبل الإسلام فى نجد وبوادى الحجاز وتمتد بطونها وعشائرها حتى تشرف على منازل تميم وبكر ، أما تغلب فنزلت فى الموصل وأقامت بطونها وعشائرها فى المنطقة الممتدة من الحيرة إلى شواطىء الفرات وإلى بادية الشام . فلما ظهر الإسلام خرجت قبائل قيس للاشتراك فى حركة الفتوح ونزل جزء كبير منها فى الشام وامتدت بعض فروعها إلى منازل تغلب فى الموصل وحوض نهر الفرات[3] وهكذا كان بين قيس وتغلب تزاحم فى المنازل وتضارب على المعيشة والمكان ، مما جعلها مختلفتين فى مصالحها الاقتصادية . وهـــذا الجانب الاقتصادى هو الذى جعل تغلب تنتهز الفرصة فى مرج راهط وتنضم إلى القبائل اليمنية ضد قيس حتى تخرجها من بلادها إذا دارت عليها الدوائر .

---

(١) الطبرى حـ ٦ ص ٨
(٢) تاريخ العراق للمؤلف ص ٢٤٩
(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٣١٤

وإلى جانب العصبية القلبية كان هناك عصبية المدن ، فكان عرب كل مدينة ومواليها يتعصبون لمدينتهم رغم ما بين الفريقيين من كراهية وأحقاد ، ونخر سكان كل مدينة بما تحفل به مدينتهم من خيرات ، وبمن يقيم فيها من الصحابة والعلماء والفقهاء(١) . بدأت عصبية المدن منذ تأسيس البصرة والكوفة والفسطاط . فقد اختصم سكان البصرة والكوفة فى خلافة عمر بن الخطاب حول الفتوح والفىء والخراج . ففى سنة ٢٢ هـ كتب أهل البصرة إلى عمر يشكون عجز خراجهم وسألوه أن يضم إلى مصرهم بعض الأراضى التابعة للكوفة مما أدى إلى خصومة المصريين(٢) .

وفى خلافة على بن أبى طالب كانت حرب الجمل بين البصرة والكوفة ، فقد وقفت كل قبيلة من قبائل الكوفة أمام مثيلتها من قبائل البصرة ، فكانت مضر فى القلب واليمن فى الميمنة وربيعة فى الميسرة فى كل من جيش البصرة(٣) وتجلت عصبية المدن أيضاً فى حرب صفين فقد كانت البصرة عثمانية والكوفة علوية . وكان خذلان الكوفة لعلى مظهراً من مظاهر عصبية المدن . فقد سار على فى الكوفة وفق الاتجاهات الإسلامية وكان هذا لا يناسب الكوفيين الذين يؤثرون مصلحتهم على مصلحة غيرهم(٤) .

ونضيف إلى العصبية القبلية وعصبية المدن العصبية الإقليمية . فقد تعصب كل إقليم عربى وإسلامى على الآخر . وتجلت العصبية الإقليمية فى العصر الأموى فى عدة مظاهر ففى عهد معاوية كانت البصرة عثمانية فى حين كانت الكوفة

---

(١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٩٨
(٢) ابن الأثير الكامل : ج ٣ ص ١٣
(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٨١
(٤) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٧٠

علوية ، وكانت الشام أموية ، أما الجزيرة فكانت خارجية ، فى حين كانت الحجاز سنية .

وفى خلافة يزيد بن معاوية كانت العراق تؤيد الحسين بن على فى حين بايع الحجاز عبد الله بن الزبير . وكان الحجاج عند بنائه واسط يهدف إلى عدم مخالطة جند الشام لأهل العراق حتى يبقى جنده محتفظين بعصبيتهم الإقليمية ضد أعدائه العراقيين[١] .

ثانياً : الموالى ودورهم فى حضارة الدولة العربية الإسلامية :

كلمة (مولى) فى اللغة العربية تحمل معانى كثيرة تدور حول المحبة والنصرة فأحياناً تطلق ، ويراد بها لفظ الجلالة ، كقوله عز وجل (ثم ردوا إلى الله مولاهم بالحق)[٢] ، وتطلق على أبناء العم ، كقوله تعالى : (وإنى خفت الموالى من ورائى)[٣] ، كما تطلق على الناصر كقوله تعالى : (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم)[٤] . ويطلق لفظ « مولى » على المعتق كقول الرسول » : مولى القوم من أنفسهم » ، كما يطلق أيضاً على الحليف والجار ، وغير ذلك من المعانى .

أما الموالى فى الشريعة الإسلامية فهم نوعان : مولى العتاقة ، وهو الرقيق الذى أعتقه صاحبه ، ومولى الموالاة ، هو الحليف ، ويسمى أحياناً مولى اصطناع أو مولى عقد ، وذلك كأن يقول رجل لآخر : ليس لى عشيرة ولا ناصر ، وإنى

---

(١) الجاحظ : البيان والتبين ج ٣ ص ٦١
(٢) سورة الأنعام آية ٦٣
(٣) سورة مريم آية ٥
(٤) سورة محمد اية ١١

أنضم إليك وإلى عشيرتك وتنصرنى وتدفع عنى نوائبى ، وإن مت كان ميراثى لك ، فيعقد بينهما عقد الموالاة .

وقد اعترف الإسلام بهذا النوع من الولاء ، فقال الرسول : « إن مولى قوم منهم وحليفهم منهم » ، والمراد بالحليف : مولى الموالاة ، لأنهم كانوا يؤكدون الموالاة بالحلف(١) .

الموالى فى نظر مؤرخى التاريخ الإسلامى : هم المسلمون من غير العرب ، وكانوا فى الأصل أسرى حرب أصبحوا فى منزلة الرقيق ، ثم أسلموا فأعتقوا وأصبحوا موالى ، فقد اقترن إسلامهم بدخولهم فى خدمة العرب وتحالفهم معهم كى يعتزوا بنصرتهم وقوتهم ، فكأنهم أصبحوا فى نفس الوقت موالى حلف وموالاة .

تكاثر الموالى فى الدولة العربية الإسلامية بموالاة الفتح وتكاثر الرقيق بالأسر والإهداء . فكان بعضهم يقدم أعداداً من الرقيق بدلا من الخراج . وكان العمال يوزعون هؤلاء الرقيق على خاصتهم وقوادهم وهؤلاء يفرقونهم فيمن حولهم أو يبيعونهم ، فينتقل الرقيق إلى الناس على اختلاف طبقاتهم .

فمن أنجب من أولئك الأرقاء أو أعتق لسبب من الأسباب صار مولى ، غير الذين كانوا يدخلون فى الولاء بالعقد أو غيره(٢) وكان العرب يطلقون إسم « الهجين » على من كان أبوه عربياً وأمة أعجمية . ويطلقون لفظ « المذرع » على من كانت أمة عربية ، وأبوه أعجميا ، وكانت العرب فى الجاهلية لا تورث الهجين(٣) ، وتكاثر الموالى حتى فاقوا الأحرار فى عددهم فى بعض المدن.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٦ ، الطيب النجار : الموالى فى العصر الأموى ص ١٧١

(٢) جرجى زيدان : تاريخ التمدن ج ٤ ص ٩١

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٦ ص ١٢٩

كان معظم الموالى فى الدولة العربية الإسلامية ، وخاصة موالى العراق من أصل فارسى ، ويتحدثون باللغة الفارسية[١] .

أما موالى السواد : فكانوا يتحدثون بالسريانية[٢] ، وقد احتفظ الموالى بهذه الصفات فترة طويلة ، وكان بعض ولاة العراق يجيدون اللغة الفارسية ، مثل المغيرة بن شعبة الذى أحبه الموالى كثيراً[٣] ، وتأثرت اللغة العربية باللغة الفارسية إذ اقتبست منها كثيرا من كلماتها ، وكانت عامة أهل العراق تستخف هذه اللغة[٤] .

وقد استطاع الموالى الفرس أن يحتفظوا ببعض صفاتهم وخصائصهم ، ولكنهم رغم ذلك حرصوا على التسمى بأسماء عربية وخاصة الإسلامية منها ، وإن احتفظوا بخصائص النبط والفرس[٥] . وقد ساعدهم الأمويون على الاحتفاظ بهذه الخصائص . فحالفوا الدهاقين وحافظوا على الأوضاع الاجتماعية القائمة[٦] .

دخل الموالى ضمن التنظيم القبلى وتأثروا بالعصبية القبلية ، فكان موالى كل قبيلة ينتسبون إليها ، ويحاربون فى صفوفها ، وكانت حالة الموالى تتأثر بظهور هذه العصبية أو اختفائها ، فكلما وجدت تلك العصبية ساءت حالة الموالى وانحدرت منزلتهم ، حتى إذا ما اختفت تنفس الموالى الصعداء[٧] .

كان من أبرز العوامل التى أثرت فى حياة الموالى الاجتماعية تعصب العرب ضدهم ، فقد احتقر الأمويون بتأثير العصبية جميع الأقوام غير العربية ، وعدوهم

---

(١) البلاذرى : انساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٥٤
(٢) ابن النديم : الفهرست جـ ١ ص ١٩
(٣) الطبرى جـ ٤ ص ٢١٨
(٤) الجاحظ : البيان والتبين جـ ١ ص ١١
(٥) ديتومبين : النظم الاسلامية ص ٤٩
(٦) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٧٩
(٧) الطيب النجار : الموالى فى العصر الأموى ص ٢٨

فى منزلة اجتماعية أدنى من العرب ، وأبعدوهم لذلك عن السياسة والقيادة ، ففرضوا عليهم من الضرائب أكثر مما فرضوه على العرب ، فالعصبية تبدأ للبيت الأموى ، ثم للقبلية ، ثم نتوسع أخيراً فتكون للأمة العربية[١]

اختلف المؤرخين فى تحديد عوامل تعصب العرب على الموالى ، وقد بدأت هذا العوامل فى الظهور منذ مقتل عمر بن الخطاب على يد أبى لؤلؤة المجوسى مولى المغيرة بن شعبة ، فأثار هذا الحادث عصبية العرب نحو الأعاجم سواء من أسلم منهم أو من بقى على دينه ، وبعد أن كان عمر يأمر بمعاملة الموالى برفق ، بدأت العصبية ضدهم فى عهد عثمان بن عفان فكتب إلى عماله بالعراق فى تفضيل العرب على الموالى[٢] .

ويعتبر سيديو[٣] الموالى مسئولين عن تعصب العرب ضدهم فقد عاملوهم كما كانوا يعاملون أكاسرة الفرس مما أدى إلى غرور العرب أما فان فلوتن[٤] فيرى أن العرب لم يكونوا يحترمون سوى مهنة الحرب ولذا أعتبروا الموالى طائفة منحطة لا تكاد تختلف عن طائفة الرقيق فى شيء . وذلك لامتهانهم طبقات العمال التى نشأ فيها هؤلاء الموالى وازدرائهم تلك المهن التى كانوا يزاولونها وينسب أحد الكتاب هذه العصبية إلى حرص العرب على أن يعرف الناس أن نسبهم ثابت فى آل البيت أو فى قريش أو فى قبائل البادية على الأقل ، وأنهم ليسوا موالى ، ويدلل على رأيه بأن الموالى أخذوا يلفقون لأنفسهم أنساباً إلى القبائل العربية[٥] .

---

(١) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٧٧
(٢) الطبرى : حـ ٥ ص ٦٣
(٣) تاريخ العرب العام ص ١٧٣
(٤) السيادة العربية : ص ٣٧
(٥) عمر فروخ . شعراء البلاط الأموى ص ٣

ومن أسباب تعصب العرب على الموالى غيرة العرب على الإسلام واللغة العربية . أما غيرتهم على الإسلام ، فقد شعر العرب فى قرارة نفوسهم أن بعض الموالى لم يعتنقوا الإسلام لاقتناعهم بمبادئه القويمة ، ولكن لمصالح شخصية ذاتية. فيذكر كريمر[١] أن بعض الموالى ظلوا مخلصين فى قرارة نفوسهم لمعتقداتهم الدينية القديمة وقبلوا الإسلام ظاهريا فقط . ويقول ديمومبين[٢] إن الملاك من الموالى قد اعتنقوا الإسلام ليخضعوا للنظام الإسلامى ، ولكنهم احتفظوا بدينهم وعاداتهم . أما دوزى[٣] فينسب تظاهر بعض هؤلاء الموالى بالإسلام إلى الفرار من دفع الجزية ، فى حين أنهم لا يقومون بتنفيذ أحكام الدين والأخذ بتعاليمه .

وهكذا لم يكن إسلام معظم الموالى حقيقيا صادقا ، ولذا نجد بعض العذر للعرب فى غيرتهم على دينهم الذى بذلوا النفس والنفيس فى سبيل نشره . ولذا لم يقتنع العرب بما نادى به الموالى بأن إسلامهم قد ساواهم بالعرب[٤] ورأى العرب أن الإسلام لا يرفع الأجنبى إلى المستوى الذى يؤهله للمساواة بالعربى الأصيل . بل اعتبر العربى نفسه دائما من الأمة الحاكمة التى عهد إليها بحكم الأجانب[٥] وكان العرب يفخرون دائما على الموالى بأنهم أخرجوهم من الشرك إلى دين الهداية فكان لسان حالهم يقول : « لولم يكن منا على الموالى عتاقة ولا إحسان إلا استنقاذنا لهم من الكفر وإخراجنا لهم من دار الإيمان[٦] » .

---

(١) الحضارة الإسلامية ص ٧٤

(٢) النظم الإسلامية ص ١٦٤

(٣) نظرات فى تاريخ الإسلام ص ٣٩١

(٤) Nicholson : A Lit. Hist. Of The Arabs, P S 47

(٥) كريمر : الحضارة الإسلامية ص ٧٩

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٢

كان موالى العراق أكثر من موالى الشام رغبة فى تعلم اللغة العربية وأدى هذا إلى تأثر اللغة العربية باللغة الفارسية ، ودخول كلمات أعجمية إلى اللغة العربية وانتشار اللكنة الفارسية بين العرب مع فشو اللحن ، فكان عبيد الله بن زياد والى العراق ممن تميز باللكنة الفارسية[١] . وشعر أبو الأسود الدؤلى بالغيرة على اللغة العربية فاستأذن زياد بن أبيه فى وضع علم النحو[٢] كما كانت الغيرة على اللغة العربية من العوامل التى أدت إلى حركة تعريب الدواوين فى عهد عبد الملك بن مروان وولده الوليد ، ويرى نيكلسون[٣] أن حركة التعريب هى فى الحقيقة إثبات لتقدم الكتابة العربية .

كان العرب يطلقون على الموالى من أبناء الفرس لفظ « الحمراء » كما كانوا يسمونهم العجم[٤] ، والأعجم فى اللغة العربية هو الأخرس أو الأخزر وهو ذو العين الضيقة . وقد عدد ابن عبد ربه[٥] عدة أمثلة لاحتقار العرب للموالى فى العصر الأموى ، فقد قدم نافع بن جبير بن مطعم رجلا من الموالى يصلى به ، فعاب عليه العرب ذلك ، فقال : إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه : وكان نافع إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فإذا قالوا : قرشى . قال : واقوماه ! وإذا قالوا عربى ، قال : وابلوتاه ؟ وإذا قالوا : مولى ، قال : هو مال الله يأخذ ما شاء ، ويدع ما شاء . وكان العرب يقولون : لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة ، حمار أو كلب ، أو مولى . وكان العرب لا يكنون الموالى بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ، ولا يمشون فى الصف معهم ، ولا يقدمونهم فى الموكب ،

---

(١) الجاحظ البيان والتبيين ج ١ ص ٤١

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ١١ ص ١٠٢

(٣) A Lit H st. Of The Arabs, P. 207

(٤) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠١

(٥) العقد الفريد : ج ٣ ص ٤١٢ — ٤١٣

وإن حضروا طعاما قاموا على رءوسهم ، وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه فى طرف الخوان لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب ، ولا يدع العرب مولى يصلى على الموتى إذا حضر أحد من العرب وكان العربى إذا أراد الزواج من بنات الموالى خطبها من مولاها وسيدها لا من أبيها وأخيها ، وإن زوجها أبوها أو أخوها بدون رضا سيدهم اعتبر العقد باطلا أما زواج المولى من عربية فهو جريمة لا تغتفر ، وللوالى أن يفرق بينهما فى الحال(١) ، فقد تزوج عبد الله بن أبى كثير مولى بنى مخزوم بالعراق فى ولاية مصعب بن الزبير امرأة عربية ، ففرق مصعب بينهما(٢) .

استخدم العرب الموالى فى الحروب كمشاة ورفضوا أن يشاركوهم فى امتطاء الجياد . وكان المختار أول من سمح لهم بركوب الخيل(٣) . وقد خدعه العرب وخوفوه من هرب الموالى أثناء القتال ونصحوه بأن يجعلهم كما كانوا مشاة فاتبع نصيحتهم ممـا أدى إلى هزيمته(٤) وكان هناك عشرون ألفا من الموالى يحاربون بلا عطاء ولا رزق(٥) وكان العرب يعتقدون أن مهنتهم الأولى الحرب، وأنهم إذا اشركوا مواليهم معهم فهذا استثناء ، فالموالى لم يخلقوا إلا للحرف والمهن الوضيعـة ، كما قال عربى : « يكسحون طرقنا ، ويخرزون خفافنا ، ويحوكون ثيابنا(٦) » .

كان العرب يكرهون أن يقاسمهم المولى العطاء . فثاروا فى وجه الوليد بن

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٣ ص ٤١٣ ؛ الجاحظ : البيان والتبيين ج٢ ص ١٢٠
(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ٢ ص ١١٤
(٣) الطبرى ج ٧ ص ١٤٧
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٣
(٥) الطبرى ج ٨ ص ١٣٤
(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٤١٤.

عقبة فى خلافة عثمان لأنه أعطى العبيد والموالى نصيبهم من العطاء[١] . على أن الموالى مالبثوا أن ثاروا فى عهد عبد الله بن الزبير لانقطاع العطاء عنهم[٢] . وكان فرض المختار العطاء للموالى سبباً لثورة العرب عليه . وكان الولاة الأمويين يرغمون الموالى على حمل الهدايا إليهم فى عيدى النيروز والمهرجان[٣] ولم يقف اضطهاد الأمويين للموالى عند هذا الحد ، بل فرضوا عليهم الجزية رغم اعتناقهم الإسلام ، وكانت اصلاحات عمر بن العزيز وإعفاء الموالى من الجزية سلاحا ذا حدين ، فقد هدأت معارضة الموالى ولكنها أيقظت فيهم آمالا لم تستطع الحكومات التالية أن تنفذها[٤] .

كان للموالى فضل كبير على الإسلام والعروبة ، فقد كان ترحيب الموالى بالعرب عاملا هاماً فى سهولة فتح الأمصار . وكان الموالى يحملون دائما أعباء الحرف والمهن ، وقامت على أكتافهم النهضة الزراعية والصناعية والتجارية ، كما وقف الموالى وراء العرب فى حروبهم المختلفة وقاموا بنصيب كبير فى الفتوحات الإسلامية وخاصة فى عهد الوليد بن عبد الملك . وكانت ميادين الحضارة الفارسية منهلا نهل العرب منه الكثير ، فقد قلد العرب الموالى الفرس فى طعامهم وملابسهم وموسيقاهم وغنائهم ونظم الحكم والإدارة ، فقد كانت الموالى أكثر حضارة وأعظم نظما اجتماعية فسادت حضارتهم .

تمتع الموالى فى العصر الأموى بنظام اجتماعى يعد أفضل من مثيله فى الدولتين البيزنطية والفارسية . فكان النظام الفارسى اقطاعياً يقوم على طبقتين اجتماعيتين : أولهما الطبقة الأرستقراطية وتشمل الدهاقين الذين كانوا يملكون الأرض

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٦٢

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٨٨

(٣) اليعقوبى : ج ١ ص ١٩٤

(٤) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٥٨

ويستأثرون بالخير ويكونون حلقة الإتصال بين الأكاسرة والأهالى [١] وثانيهما طبقة الشعب وتتألف بدورها من طبقات متحاجزة تحاجزا تاما أوغر قلوب الناس بعضهم على بعض [٢]. وأدى هذا النظام إلى ظهور مزدك الذى نادى بأن : « الله جعل الأرض لعباده بالسوية ، فتظالم الناس واستأثر بعضهم على بعض ، ونحن قاسمون بين الناس ، ورادون على الفقراء حقوقهم فى أموال الأغنياء [٣] » ولما جاء الإسلام قضى على نظام الطبقات الفارسى . ويعترف جوزى [٤] بذلك فيقول : معاذ الله أن أنكر فضل بنى أمية على الأمة العربيـة وبعض حسناتها على الأمم المغلوبة كالفرس مثلا ، فقد ألغوا النظام القديم المبنى على تفاوت الطبقات ، وساووا بينهم فى الحقوق والواجبات ، ويرى كريمر [٥] أن الموالى كانوا يتمتعون نظريا بالحقوق والميزات التى تتمتع بها العرب الخلص .

كان للموالى نصيب أكبر من نصيب العرب فى الوظائف العـامة ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالإدارة المالية [٦] ، فكان عامل خراج وكاتب زياد بن أبيه من الفرس [٧] بل إن مصعب بن الزبير الذى عرف بكراهيته للموالى ولى أحد رجال الفرس أمر خراجه [٨] وظل شريح قاضيًا على الكوفة خمسا وسبعين سنة من عهد عمر بن الخطاب إلى عهد الحجاج ، وكان من أصل فارسى [٩] وكان عبيدالله بن زياد يقرب الموالى ويجفو العرب ، كما أنشأ جيشًا من الموالى سماه

---

(١) كريمر : الحضارة الإسلامية ص ٧٨
(٢) العبادى : صور من التاريخ الإسلامى ص ٩١
(٣) ابن نشوان : الحور العين ص ١٤٢
(٤) من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ص ٥٤
(٥) الحضارة الإسلامية ص ٧٩
(٦) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٦
(٧) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٦
(٨) المرجع السابق ص ٤٤
(٩) الدميرى : حياة الحيوان جـ ١ ص ٢٦

« المحاربة » ليحارب بهم العرب [١] كذلك أسند المختار بن أبى عبيد الثقفى إلى الموالى الوظائف وأعد جيشاً منهم [٢] .

وصفوة القول أن الثروة كانت مركزة فى أيدى الفرس فضلاعن الإدارة التى حرصوا على بقائها فى أيديهم [٣] . ولم يكن هناك مبرر لشكوى الموالى من امتناع العرب عن تزويج بناتهم لأحد منهم ، فقد كان الفرس زمن الدولة الساسانية يمنعون زواج العرب من الفارسيات أما شكواهم من تعريب الدواوين فلا محل لها ، إذا احتفظ العرب بالموظفين الموالى الذين يجيدون العربية ، فضلا عن بقاء نفس النظام الإدارى الفارسى القديم ، مع بعض التعديلات لمسايرة التطور .

ثالثاً : أهل الذمة كرعايا للدولة العربية الإسلامية :

الذمة فى اللغة العهد والأمان والضمان ، وأهل الذمة هم المستوطنون فى بلاد الإسلام من غير المسلمين وسموا بهذا الإسم لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم . فإن تقاليد الإسلام ، كانت تقضى بأنه إذا أراد المسلمون غزو إقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله إعتناق الإسلام ، فمن استجاب منهم طبقت عليه أحكام المسلمين ، ومن امتنع فرضت عليه الجزية ، كقوله تعالى (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ومن الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ولم يكن يتمتع بهذا الإمتياز سوى اتباع الملل المعترف بها وهى : المسيحية واليهودية ، والمجوسية ، والسامرية ، والصابئة .

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٢

(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠٠

(٣) Sykes . Hist of persia, v 1, P.533

يوضح معاملة الرسول للمسيحيين عهده لأمير (أيله المسيحى) فقد جاءفيه:
(بسم الله الرحمن الرحيم . وهذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لايحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر)[1] .

لما تم للعرب فتح الأمصار رحب بهم أهل الذمة ، فقد أملوا فى الخلاص من الانقسامات الدينية والمذهبية ، والخلاص من ظلم حكامهم ، والإعفاء من الخدمة العسكرية ، والتمتع بالحرية الدينية التى يسمح بها الإسلام مقابل دفع الجزية . وكان ترحيب أهل الذمة عاملا على نشر الإســلام ، فإن هذا الدين لم يقابل عدواً قوياً[2] فقد دعا العرب المسلمون أهل الذمة إلى الإسلام ،وأعلنوا أن المحارب إذا أسلم يصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ولذا دخل فى الإسلام جموع هائلة من أهل الذمة ، واعتقد بعضهم أن توفيق العرب فى الفتوح هو مظهر من مظاهر رضاء الله عليهم ودليل على صدق دينهم[3] . وأما من بقى من أهل الذمة على دينه ، فقد عاملهم العـــــرب بتسامح عظيم باعتبارهم أهل كتاب[4] وكانت كتب الصلح صورة صافية لتسامح المسلمين .

كان على أهل الذمة طوال عهد الخلفاء الراشدين والأمويين واجبات ولهم فى مقابلهم حقوق . أما الواجبات : فكان على أهل الذمة أن يدفعوا الجزية ،

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٠ ــ ١٨١
(٢) S. L. Poole Studies in a mosque, P.81
(٣) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٧٥
(٤) Shedd. Islam and the Oriental (hurches, P.97

على الموسر ٤٨ درهماً وعلى متوسط الحال ٢٤ درهماً ، وعلى الفقير ١٢ درهما[١] مع تقديم الزيت والخل والطعام اللازم للمسلمين وكان يشترط على أهل الذمة فى عقد الجزية شرطان ، أحدهما مستحق والآخر مستحب .

ويشمل الشرط المستحق ستة أمور يجب على أهل الذمة تحقيقها ، فيجب عليهم احترام القرآن والرسول وعدم القدح فى الإسلام ، وألا يصيبوا مسلمة بزنا ولا بنكاح ،وألا يحولوا مسلماً عن دينه ، ولا يعينوا أهل الحرب ، أما الشرط المستحب فتشمل أيضاً أمور ستة ، فعليهم لبس الغيار وشد الزنار ، وأن تكون مبانيهم أقل ارتفاعاً من مبانى المسلمين ، وألا يسمعوا المسلمين أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم ، وعدم المجاهرة بشرب الخمر أو إظهار الصلبان والخنازير ، وإخفاء دفن الموتى وعدم النواح عليهم ، وعدم ركوب الخيل مع السماح بركوب البغال والحمير[٢] وكان على أهل الذمة ألا يحدثوا بيعة أو كنيسة ، ولكن يجوز بناء ماتهدم بين بيعهم وكنائسهم[٣] ، كما كان على فلاحى أهل الذمة العناية بالطرق والجسور والأسواق والإرشاد وضيافة أبناء السبيل[٤] .

أما حقوق أهل الذمة فهى الكف عنهم والحماية لهم[٥] ولأهل العهد الأمان على نفوسهم وأموالهم[٦] وفى الحقيقة كانت معاملة المسلمين لأهل الذمة تنم عن تسامح وعطف وكرم . فقد كان أهل الذمة لا يدفعون سوى عشر التجارة

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٢٢
(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٨
(٣) المرجع السابق ص ١٤٠
(٤) الطبرى جـ ٤ ص ١٨٤
(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧
(٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧

والجزية بينما هم معفون من الصدقات (١) وكانت الجزية تساوى مايدفعه المسلم من صدقة (٢) كما كانت مقابل عدم إسلامهم والسماح لهم بالبقاء على دينهم (٣) وأعفى الصبيان والنساء والمساكين وذوو العاهات والرهبان (٤) . وكثيراً مانقض بعض أهل الذمة ماشرطه المسلمون عليهم ، فكان المسلمون لايقتلونهم أو يغنموا أموالهم أو يسبوا ذراريهم ، بل كانوا يكتفوا بطردهم من بلاد المسلمين (٥) وعاش المسلمون مع أهل الذمة جنباً إلى جنب ، فقد اشتركوا مع المسلمين فى تخطيط المدن الإسلامية الجديدة ، وعاشوا جميعاً فى سلام .

أما عن معاملة المسلمين للمجوس ، فقد اختلف المسلمون فى اعتبار المجوس من أهل الكتاب ، فالماوردى (٦) يذكر أن « أهل الكتاب هم اليهود والنصارى وكتابهم التوراة والإنجيل ويجرى المجوس مجراهم فى أخذ الجزية منهم وإن حرم أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم . وتؤخذ من الصابئة والسامرة إذا وافقوا اليهود والنصارى فى أصل معتقدهم » .

ويؤكد البلاذرى (٧) أن المجوس من أهل الكتاب . أما أبو يوسف (٨) فيروى أن الرسول وأبا بكر وعمر أخذوا الجزية من المجوس ، وأن عليا قال : وأنا أعلم الناس بهم كانوا أهل كتاب يقرأونه وعلم يدرسونه فنزع من صدروهم أما الشهرستانى (٩) فيذكر أن المجوس لهم شبهة كتاب . ولكن الثابت

(١) ابن آدم : الخراج ج ١ ص ١٠
(٢) الطبرى ج ٤ ص ١٩٨
(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٥
(٤) أبو يوسف : الخراج ص ١٩ - ٧٠
(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٠
(٦) الأحكام السلطانية ص ١٣٧
(٧) فتوح البلدان ص ٢٧٦
(٨) الخراج ص ٧٤
(٩) الملل والنحل ج ١ ص ٤٨

تاريخياً أن الرسول صالح مجوس أهل هجر على أن يأخذ منهم الجزية ، وإن لم يستحل مناكحة نسائهم ولا أكل ذبائحهم (١) وظل الولاة الأمويون يجمعون الجزية من المجوس مثل سائر أهل الذمة فأبو يوسف حفظ لنا خبر أخذ عدى ابن أرطأة عامل عمر بن عبد العزيز فى العراق الجزية من المجوس (٢) .

وجد أهل الذمة من مصلحتهم تعلم اللغة العربية ، وكان تسامح العرب مع أهل الذمة سبباً فى إقبالهم على تعلم لغتهم والعمل بالنظم العربية (٣) حتى أصبحت اللغة العربية بمرور الوقت لغة معظم المسيحيين (٤) . أما مجوس العراق وفارس فكانوا يتحدثون باللغة الفهلوية (٥) وحرص المجوس عند إسلامهم على تغيير أسمائهم إلى أسماء عربية وعلى تعلم اللغة العربية (٦) .

تمتع أهل الذمة بقسط وافر من الحرية مقابل أداء الجزية والخراج وارتبطت بالفعل قضاياهم فى الأمور المدنية والجنائية برؤسائهم الروحيين مادامت القضية لا تمس المسلمين ، أما الشريعة المحمدية فلم تطبق عليهم لأنها لم توضع لهم .

كان عدد كبير من أهل الذمة يشتغل بفلاحة الأرض ، فقد ترك عمر بن الخطاب أرضهم لهم مقابل دفعهم الخراج فضلا عن الجزية . ومن المهن التى اشترك فيها النصارى واليهود الطب ، فقد كان القسس يعالجون المرضى ، وكانت الأديرة مراكز للعلاج من الأمراض . واشتهرت بعض الأديرة بالمياه الكبريتية (٧)

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٧٤
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧٥
(٣) لوبون : حضارة العرب ص ٧٢٠
(٤) Shedd : Islam and the Oriental Churches P. 97.
(٥) الأصطخرى : مسالك الممالك ص ١٣٧
(٦) Shorter Encycl of Islam, P.299
(٧) الشابشتى : الديارات ص ١٩٦

كذلك نبغ أهل الذمة فى التجارة والصناعة فكان اليهود يحترفون الصباغة ونسج الحرير وصناعة الزجاج وإدارة السفن [١]. وكان الصناع وأصحاب الحرف، وأهل الطبقة العاملة من أهل الذمة أسرع الناس إلى الإسلام، فقد اعتنقه عدد عظيم فى حماسة كبيرة [٢].

وعلى الرغم من بعض القيود التى فرضت على أهل الذمة أحياناً فى الدولة العربية الإسلامية، فإن معظم المستشرقين اعترف بحسن معاملتهم فى هذا العهد، فيقول أرنولد [٣] أن المسلمين لم يألوا جهداً فى معاملة رعاياهم من المسيحيين، كما أكد بارتولد [٤] أن النصارى كانوا أحسن حالا تحت حكم المسلمين، إذ أن المسلمين — كما يذكر جولد تسيهر [٥] اتبعوا فى معاملاتهم المدنية والاقتصادية لأهل الذمة مبدأ الرعاية والتساهل ويذكر (شد) [٦] أن العرب عاملوا النصارى واليهود معاملة تمتاز بالتسامح، ويمتدح جوزى [٧] بنى أمية لأنهم ساووا بين طبقات الفرس وعاملوا أهل الذمة بالحسنى.

والحقيقة أن أهل الذمة تمتعوا بالحرية الدينية تماما، فضلا عن حسن المعاملة، فقد كان التسامح شعار الاسلام، ولم يكن الفتح العربى حرباً صليبية. يدلل أرنولد [٨] على تسامح المسلمين برسالة لأحد رجال الكنيسة، وهو البطريق النسطورى يشوع ياف الثالث كان قد بعث بها إلى رئيس أساقفة الفرس.

---

(١) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ٢٠٥
(٢) أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص ٢
(٣) الدعوة إلى الاسلام ص ٦٥
(٤) الحضارة الاسلامية ص ١٩ — ٢٠
(٥) العقيدة والشريعة ص ٣٨
(٦) Islam and the Oriental Churches
(٧) من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٤٥
(٨) الدعوة إلى الاسلام ص ٧٥

وقد تضمنت هذه الرسالة الدليل القاطع على طابع الهدوء والمسالمة التي اتبعها العرب في نشر الإسلام : فقد احترم المسلمون عقائد أهل الذمة وعاداتهم وعرفهم مقابل جزية زهيدة تقل عما كانوا يدفعونه إلى ساداتهم السابقين الفرس من الضرائب (١) . ولم يطبق العرب على أهل الذمة ما كانوا يوقعونه على المسلمين من عقوبات لشربهم الخمر (٢) .

تفاوتت درجات المعاملة الحسنة التي لقيها أهل الذمة باختلاف الخلفاء والولاة ، وقد اعترف أهل الذمة لعمر بن الخطاب بتسامح ولاته حين سألهم عن ذلك ، فقالوا : ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة (٣) . وكان في وصية عمر عند وفاته نصيب لأهل الذمة ، فقد أوصى بأن « يوفى لهم بعهدهم ،ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، وأن يقاتل من ورائهم (٤) » .ولدينا وثيقة هامة تدل على تسامح العرب الفاتحين ، كتبها بطريق النساطرة إلى نصارى العراق وفارس جاء فيها : « إن العرب الذين منحهم الله زمام العالم في هذه الآونة أصبحوا في صفنا كما تعلمون وهم لا يضطهدون المسيحية بل يمتدحون عقيدتنا ويحترمون قسيسينا وقديسينا ، ويساعدون كنائسنا وهيا كلنا (٥) » وسار عثمان بن عفان وولاته بالأمصار على سيرة ولاة عمر في التسامح مع أهل الذمة ، فقد كان — على سبيل المثال — الوليد بن عقبة يدخل النصارى المساجد ويجرى عليهم الخمر والخنازير كل شهر ، وضمن لهم أرزاقهم شهريا (٦) كما تمتع أهل الذمة في خلافة على بن أبي طالب بالمعاملة الحسنة ، فقد أعطى النصارى من العطاء وساواهم بالعرب والموالي (٧) .

(١) لوبون : حضارة العرب ص ١٦٩

(٢) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ١٦٦

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢١٨

(٤) أبو يوسف . الخراج ص ٢١

(5) Shedd, Islam an the Oriental Churches, P. 110

(٦) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣١

(٧) اليعقوبي : ج ٢ ص ١٥٩

وكان يوصى عماله فى كل مكان بأهل الذمة خيراً[١] وأمر عامـلا له بحفر نهر لأهل الذمة يروون منه أرضهم[٢] واشتكى يهودى علياً إلى شريح قاضى البصرة فأنصفه شريح من الخليفة مما أدى إلى اسلام اليهودى وقتاله فى صفوف على[٣].

افتتح معاوية بن أبى سيفان عهداً جديداً من التسامح مع أهل الذمة فقد عين لولده يزيد مربياً مسيحياً ، وبالتالى كلف يزيد كاهناً مسيحياً بتثقيف ولده خالد[٤] وعامل المختار بن أبى عبيد الثقفى أهل الذمة معاملة حسنة ، وكان يزعم أنه سيزوج ابنته للمسيح . أما الحجاج الذى اتهمه المؤرخون باضطهاد أهل الذمة ، فقد كان عامله بخراسان يبنى لأهل الذمة البيع ، وقد سمح له الحجاج بذلك[٥] وكان الأخطل الشاعر المسيحى يدخل المساجد فى دمشق والكوفة فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان فيقف المسلمون إجلالا[٦] .

كذلك امتاز عهد عمر بن عبد العزيز بالتسامح مع أهـــل الذمة . فنفى بارتولد[٧] عن عمر بن عبد العزيز منعه النصارى من بناء كنائس جديدة وإصلاح الكنائس القديمة . كما ذكر دوزى[٨] أن المسـلمين لم يتمسكوا بتنفيذ شرط تجديد بناء الكنائس التى تهدم ، ويرى أن هذا الشرط وغيره لم يكن يطبق بحذافيره إلا فى أحوال استثنائية نادرة ، والحقيقة أن أهل الذمة تمتعوا بالكثير من عدل عمر ورحمته ، فقد أمر عماله بألا يهدموا كنيسة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ١٥٩

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ١٦ ص ٣٦

(٣) Lammens : Etudes sur le Regnedu Calife Omaiyade Muoaw ier, P 309

(٤) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٣٦

(٥) ابن النديم : الفهرست ج ٢ ص ٤٦٧

(٦) الأصفهانى : الأغانى ج ٧ ص ١٧١

(٧) الحضارة الاسلامية ص ٧١

(٨) نظرات فى تاريخ الاسلام ص ٤٠٢ — ٤٠٣

أو بيعة أو بيت نار صولح أهل الذمة عليه [١] كما نهى عمر عامله على الكوفة عن اتباع سياسة الحجاج التى تقضى بإرجاع أهل الذمة إلى قراهم [٢] . وكتب عمر إلى عامله بالكوفة أيضاً أن يعطى أهل الذمة مابقى من خراج الكوفة ، فيسدد ديونهم ويساعد من أراد الزواج منهم ، ثم ختم رسالته بقوله : « قوأهل الذمة فإننا لانريدهم لسنة ولا لسنتين [٣] . وكان عمل يجعل صدقات بنى تغلب — القبيلة المسيحية — فى فقرائهم دون ضمها إلى بيت المال [٤] .

تمتع أهل الذمة فى الدولة العربية الإسلامية بنصيب كبير من الوظائف وقد أيد ديمومبين [٥] هذا الرأى بقوله : إن أهل الذمة احتلوا مكانة بارزة فى حياة الدولة الأموية وكثر عددهم فى الدواوين والمصالح وزاد بارتولد [٦] عليه بأن النصارى والفرس كانوا يقومون ببناء المساجد والقصور . كذلك كان لليهود نصيب فى الوظائف العامة ، فقد كان كاتب أبى موسى الأشعرى والى العراق يهوديا ، وكان يركن إليه ولا يثق بغيره ، ورفض أبو موسى ما أمره به عمر بن الخطاب من عزل هذا الكاتب اليهودى [٧] ويكفى اليهود فخراً أن سمير اليهودى قام بضرب الدراهم فى خلافة عبد الملك ابن مروان وأنها سميت باسمه (الدراهم السميرية [٨]) .

لم يكن النظام المالى الذى عومل به أهل الذمة فى العصر العربى الإسلامى

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ١٤١
(٢) الطبرى : ج ٨ ص ١٣٩
(٣) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٧
(٤) ابن الجوزى : مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٥٢
(٥) النظم الاسلامية ص ١٦٧
(٦) الحضارة الاسلامية ص ٢١
(٧) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق ص ١٠٣
(٨) المقريزى : كتاب النقود القديمة الاسلامية ص ٣٥

قاسياً أو ظالماً، فذكر (فون كريمر)[١] أنه لم يلاحظ فى نظام الضرائب شيئاً مجحفاً ، ويرى (فان فلوتن) [٢] أن الضرائب ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومة العربية من بناء الطرق وحفر الترع وتوطيد الأمن وما إلى ذلك من ضروب الإصلاح . الحقيقة أن الجزية لم تكن عقاباً لأهل الذمة ، فهى نظير إعفائهم من الجندية ومقابل حماية المسلمين لهم ، وقد فرض الإسلام على المسلم الصدقة (الزكاة) حتى يتكافأ الذمى والمسلم فى الواجبات ، كانت الجزية أكثر قليلاً من صدقة المسلم فى حين يقوم المسلم بأعباء الجندية ، وكان نظام الجزية عادلاً ، فقد كان حسب مقدرة الفرد المالية ، ففرق بين الغنى والفقير ومتوسط الحال ، كما أعفى النساء والصبيان وذوى العاهات والرهبان ، وكان لأهل الذمة نصيب من العطاء .

رابعاً : الرقيق : فى المجتمع العربى الاسلامى :

عرف الفقهاء المسلمون الرق بأنه عجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر . وترجع تسميته بأنه (عجز) إلى أن الرقيق لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرها . أما أنه (حكمى) فلأن العبد قد يكون أقوى فى الأعمال الحسية من الحر . أما الافرنج فيعرفون الرق بأنه حرمان الفرد من حريته الطبيعية بحيث يصبح ملكاً للغير . [٣] وقد سمحت التوراة بالرق إلا أن العبد كان يسترق سبع سنين يصبح بعدها حراً . وعرف الرومان واليونان الرق ، وقد منح القانون الرومانى للسيد حق قتل رقيقه ، وكثر رقيق الرومان حتى فاقوهم فى العدد ، وجاءت المسيحية فتحسنت حالة الرقيق ، ثم جاء الإسلام فاحتفظ بنظام الرقيق القديم

---

(١) الحضارة الاسلامية ص ٨٣

(٢) السيادة العربية ص ٢٠

(٣) أحمد شفيق : الرق فى الاسلام ص ٧

الذى أقرته التوراة من قبل ، ولكن الإسلام هذب هذا النظام وأزال ما كان يشوبه من شوائب . وكان العرب فى الجاهلية يغزون بعضهم بعضاً ويسترقون رجال ونساء أعدائهم . وعندما دخل العرب المسلمون العراق والشام ومصر كانت عامة السكان تشكو من الرق والاستعباد ، فجاءهم الإسلام رحمة ونجدة .

كان معظم طبقة الرقيق فى المجتمع العربى الإسلامى من أسرى الحروب خلال الفتوحات العربية الإسلامية فى العراق وفارس والشام ومصر وغيرها ، وخير القرآن الكريم المسلمين بين قتل الأسرى أو فدائهم أو المن عليهم بإطلاق سراحهم بغير فداء ، أو الاسترقاق (١) . ولم يسترق العرب الفاتحون إلا حاميات المدن التى قاومتهم مقاومة عنيفة ، وكان المسترقون من الأسرى يعتبرون غنيمة فتأخذ الدولة الخمس وتوزع أربعة الأخماس الباقية بالتساوى على الجند . وتزايد عدد الرقيق بعد الفتوحات الإسلامية الواسعة النطاق فى عهد الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك .

كان أسرى الحروب يوزعون على المحاربين المسلمين بعد إرسال الخمس إلى الخليفة فى حاضرة الدولة ، وكان الأسرى يعدون أحياناً بالألوف بحيث كانت حصة المسلم المحارب تصبح عظيمة مما يضطرهم إلى بيع أسراهم بدراهم قليلة للأسير الواحد ، وخاصة إذا لم يكن المحارب يملك مزرعة يستخدم فيها هؤلاء الأسرى أو يمتهن حرفة يحتاج فيها إلى من يساعده ، ففى هذه الحالة يصبح الأسير عالة على سيده .

زاد عدد الرقيق زيادة كبيرة فى العراق ، فكان يوجد عند الواحد منهم عشرة أرقاء أو مائة أو ألف ، بل كان بيت الفقراء من عامة الناس لا يخلو من عبد أو أكثر يقومون بالخدمة بسبب رخص أسعار الرقيق نتيجة تكاثرهم . وكان

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٥

الأمير ووجوه القوم يسيرون فى طرقات البصرة والكوفة وخلفهم مئات العبيد يؤلفون موكباً عظيما وكان الأرقاء يختلفون فى أشكالهم وألوانهم ، منهم أسود اللون وهم أسرى فتوح الهند أو أصفر اللون وهم عبيد الصين أو التركستان [١]

على أن الأمر الذى يجدر ملاحظته أن العبيد لم يكونوا جميعاً من الأسرى ، بل كان منهم من صار شراؤه من أسواق النخاسة التى كانت منتشرة فى أرجاء الدولة العربية الإسلامية فى ذلك الحين. وكان العرب يشترونهم لاستخدامهم فى زراعة الأرض أو مساعدتهم فى حرفهم أو خدمتهم فى قصورهم وبيوتهم ومساعدتهم فى حروبهم مع ملاحظة أن العربى لا يسترق إطلاقاً ، ولم تخالف هذه القاعدة إلا فى حالات نادرة ، منها مافعله الأمويون بعد إخماد ثورة يزيد بن المهلب فقد باعوا النساء والأطفال فى أسواق الرقيق خلافاً للمعتاد [٢].

احتفظ الإسلام بنظام الرق إلا أنه مع هذا نصح بحسن معاملتهم وبالعمل على تحريرهم . قال الرسول : لايقولن أحدكم لمملوكه عبدى أو أمتى ، ولكن يقول فتاى وفتاتى ، ولا يقول المملوك ربى وربتى ، ولكن يقول سيدى وسيدتى » وحبب الإسلام للمسلمين عتق رقيقهم وجعله كفارة عن كثير من الذنوب والآثام ، فضلا عما فيه من تقرب لله تعالى . قال الله تعالى : (فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة [٣]) وجاء فى الحديث الشريف: «من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه » أما الذنوب التى جعلت كفارتها عتق الرقيق فهى عديدة ، أبرزها كفارة القتل الخطأ كقول المولى عز وجل: (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة)، ومنها الكفارة عن الحنث فى اليمين .

---

(١) الاصفهانى : الأغانى جـ ٩ص ٧٥
(٢) الطبرى : جـ ٨ ص ١٥٧
(٣) سورة البلد : الجزء الثلاثين .

ولـكن العتق لم يكن يقطع الصلة بين السيد ورقيقه ، بل تبقى بين الطرفين صلة تسمى « الولاء » فالمعتق مولى للعاتق ، ويترتب على الولاء أن السيد يدفع الدية من مولاه إذا ارتكب جناية ، وثانيهما أن يرث السيد معتقه . فقد كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عماله: «مولى العتاقة يورث ولا يرث» (١) ومن أهم العوامل التي أدت إلى تحرير العبيد هي الأحوال الاقتصادية (٢). إذ أن الاحتفاظ بالعبد كان يكلف غالياً إذ يستلزم إطعامه وإكساءه في حالة عمله أو بطالتـه ، فإعتاق العبد كان يخلص السيد من أعباء مادية وخاصة في الأزمات الاقتصادية والضائقات المالية . وكان السيد يتحايل أحياناً على التخلص من أعباء الإتفاق على الرقيق ، فيمنحهم حرية العمل مع الاحتفاظ بحقوق الاسترقاق .

كان الرقيق محروماً من بعض ما يتمتع به أسيادهم ، فـكانت حقوق الرقيق في الأمور المدنية أقل من حقوق الأحرار ، فقد كان عليهم أن يحملوا في أعناقهم ختوماً تشير إلى أرقامهم، ولم يكن لهم أن يتزوجوا أكثر من زوجتين والطلاق عندهم طلقتان، وكانت عدة الأمة شهران ولا تجوز شهادة الرقيق ، وإذا ارتـكب الرقيق جريمة قتل فلأهل القتيل أن يقتلوا العبد القاتل أو يأخذوه بقياهم أو يطلبوا دية كاملة من سيده ، أما إذا قتل العبد فإن ديته تختلف حسب قيمته ، ولا يجـوز أن يقتل الحر بالعبد . ولـكن إلى جانب ذلك تمتع الأرقاء بحسن المعاملة ، وخاصة إذ قارنا ذلك بحالتهم قبل الفتوحات العربية الاسلامية .

كان العرب يطلقون إسم (عبد العين) على العبد الذى لا يخدم إلا ما دامت عليه عين مولاه(٣) ، وكانوا يسمون العبد الذى يشتغل في الأرض (القن)(٤).

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٦
(٢) صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٦١
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٦ ص ١٢٩
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٨٣

وكان العرب يستخدمون آلافا من الرقيق فى الزراعة . وجعل عمر بن عبد العزيز رقيق الخمس فى خدمة ذوى العاهات والعميان[١] . فقد كانت الدولة تمتلك رقيق الخمس وأصله حصتها من أسرى الحرب الذين لم يسرحوا أو يوزعوا على الجند المسلمين ، وتتمتع الدولة بكافة الحقوق التى يتمتع بها الأفراد على رقيقهم ، فلها أن تبيعهم أو تستخدمهم فى الأعمال المختلفة أو تعتقهم ، كما أنها كانت مسئولة عما يرتكبون من جرائم ، كما كانت مسئولة عن طعامهم وملابسهم ، وكانت تدفع لهم ثلاثة دراهم فى عهد الخليفة عثمان بن عفان .

تمتع الرقيق بكثير من المميزات ، فكان للرقيق الذين يشتركون فى القتال نصيب فى العطاء[٢] . وقد ساوى عمر بن الخطاب بين الحر والعبد فى الرزق فجعل لكل منهما مديى حنطة وقسطى زيت وقسطى خل فى كل شهر[٣] وكان الوليد بن عقبة والى عثمان بن عفان بالعراق يقسم للولائد والعبيد مما أدى إلى غضب الأحرار[٤] .

كان من حق الرقيق امتلاك الأموال ، بل لهم أن يمتلكوا عبيداً ، ولكن أموال العبيد ترجع إلى سيدهم عند بيعهم أو موتهم . ولهم أن يعتنقوا ماشاءوا من أديان والقيام بشعائرها ، ونبغ من الرقيق عدد كبير فأصبحوا من العلماء والرواة ، وحاز بعضهم ثقة أسيادهم فبرزوا فى ميادين التجارة والصناعة والزراعة .

وكانت روح الإسلام تنص على حسن معاملة الرقيق ، فمن أحاديث الرسول الكريم : « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » ، ومنها « أتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم مما تأكلون ، وأكسوهم مما

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٥
(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٤
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٦٥
(٤) الطبرى : ج ٥ ص ٦٢

تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله فإنه ملككم إياهم ، ولو شاء لملكهم إياكم » . وكان من أعمال المحتسب في الولايات الإسلامية ملاحظة وتطبيق هذه القواعد الإسلامية على معاملة الرقيق[١] . وأباح الإسلام زواج الرقيق ، فقال الله تعالى: (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانهم من فتياتكم المؤمنات[٢] . وقال عز وجل أيضاً : (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وأمائكم أن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله)[٣]

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أعتق أمة ثم تزوجها كان له أجران ». وأباح الإسلام للسيد أن يزوج رقيقه لمن يشاء من الأحرار والأرقاء، ولم يبح له التفريق بعد إتمام الزواج لو تزوج العبد بغير إذن سيده[٣] وأعفى الإسلام الرقيق من الرجم وجعل عقاب جلد الرقيق نصف عقاب الحر .

كان هناك نوعان من الرقيق هما : الخصيان والجوارى . والخصاء ليست عادة عربية بل هى شرقية . وكانت شائعة فى العراق زمن الأشوريين والبابليين وقد نهى الرسول عن الخصاء فقال : « خصاء أمتى الصوم ، والصوم وجاء » وللخصاء أغراض[٥] أبرزها استخدام الخصيان فى دور النساء غيرة عليهن، فلما ظهر الإسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان فى دورهم ، وكان معاوية بن أبى سفيان أول من اتخذ الخصيان لخدمته[٦] ويذكر الجاحظ أن

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ص ٢٤٣
(٢) سورة النساء آية ٢٥
(٣) سورة النور : آية ٣٢
(٤) الشيبانى : الجامع الصغير فى الفقه ص ٣٧
(٥) البيهقى : المحاسن والمساوى ج ٢ ص ٢٠٧
(٦) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٣١

الخصى كان منتشراً بين العبيد والأحرار وبين العرب والعجم . كما يذكر الجاحظ أيضاً (١) أن الصابئة بالعراق كانوا قبل الفتح العربى يخصون أبناءهم ويوقفونهم على بيوت العبادة .

كان مصدر الجوارى فى الإسلام سبى الفتوح، فما يقع من النساء فى أيدى الفاتحين العرب يعتبر « سبيا مسترقا » يقسم مع الغنائم(٢) . ولا يفرق فيمن استرققن بين والدة وولدها، وإذا كان فى السبايا ذات أزواج بطل نكاحهن بالسبى حتى ولو سبى أزواجهن من قبل(٣) . وكان مصير هذه السبايا إما الخدمة أو الاستيلاء أو البيع أو الإهداء . فكثيراً ما تعتبر الجوارى من أعظم الهدايا عند العرب(٤) وكان بعض الجوارى يقمن بالخدمة فى قصور وجوه العرب أو الغناء والرقص ، وزاد عددهن إلى درجة كبيرة ، فقد كان للمغيرة بن شعبة والى معاوية بن أبى سفيان يملك ستين أو سبعين أمة(٥) . ولما تعود الناس اقتناء الجوارى اشتغل النخاسون فى استجلابهن من أقصى بلاد الترك والهند وأرمنية والروم والسودان صغاراً وكباراً يربونهن على ما تقضيه مواهبهن أو جمالهن: وكان تعليم الجوارى وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة ، فإذا ما اشترى أحدهم جارية ولاحظ عليها أمارات الذكاء ثقفها وعلمها رواية الشعر أو الغناء .

ذكر الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان مميزات كل جارية فقال : « من أراد أن يتخذ جارية للتلذذ فليتخذها بربرية، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية. ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية(٦) »

---

(١) الحيوان : ج ١ ص ٥٣ - ٥٦
(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٨
(٣) المرجع السابق ص ١٣٠
(٤) الأصفهانى : الأغانى ج ٩ ص ٧٥
(٥) المرجع السابق ج ١٤ ص ١٣٨
(٦) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٤٨

أما التسرى فهو اقتناء الجوارى للتمتع بهن ، وكثيراً ما يعقب التسرى الزواج ، فإذا ولدت الجارية لأحدهم تزوجها وأصبحت (أم ولد) وكان العرب يكرهون زواج الجوارى ولكنهم كانوا يتسرونهن للفراش وكانت السرية أقل منزلة من الزوجة ولكن علاقتها بزوجها شرعية . ويرى السيد أمير على(١) أن اختلاط العرب بالجوارى كان له أثره السيء على الحياة الاجتماعية الإسلامية، إذ ساعد الرقيق والجوارى على انحطاط مستوى الحياة الفكرية الأخلاقية ، فقد أدى التزاوج إلى ظهور بعض أنواع النسل المنحط .

وهكذا كان الرقيق يختلفون إختلافاً كبيراً من حيث الأصل والمهن، ولم يكونوا موزعين بانتظام بين الأفراد والعشائر ، كما أنه لم تكن لهم محلات للسكنى خاصة بهم ، غير أنهم كونوا طبقة خاصة خاضعة لنفس القواعد الاجتماعية والقانونية التى تقيد سلوكهم وتميزهم عن غيرهم . ومما زاد فى تماسك هذه الطبقة وتميزها أن أفرادها كان يفضل الزواج من أفراد طبقتهم ، الأمر الذى أدى إلى تقليل الفوارق الجنسية والثقافية بينهم . وقد تعلم معظم أفراد هذه الطبقة اللغة العربية واعتنقوا الإسلام، وبذلك ضاقت الهوة التى كانت تفصلهم عن أسيادهم العرب .

الأسرة كخلية للمجتمع العربى الاسلامى :

كانت الأسرة فى الدولة العربية الإسلامية هى نفس الأسرة الأصلية التى كانت عند ظهور الإسلام وكانت الأسرة تتكون من الأبوين والأبناء والأحفاد والرقيق ويرأسهم جميعاً الأب . وقد اهتم الخلفاء والولاة على مر العصور بالمحافظة على كيان الأسرة ورفع مستواها المادى والمعنوى . كتب الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز إلى ولاته يبين له ما يحتاجه كل رب أسرة فقال : « لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأساً ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس

---

(١) مختصر تاريخ العرب ص ١٧٣

يجاهد عليه عدوه ، وأثاث فى بيته »[١] . وكان زياد بن أبيه ، الوالى الأموى يجلس ليفصل فى الخصومات بين الأزواج ، وأبدى استعداده لدفع صداق من لا تعجبه امرأته[٢] .

مركز المرأة فى الأسرة والمجتمع :

كانت المرأة العربية المسلمة ذات مركز اجتماعى ممتاز ، فى الأسرة خاصة ، وفى المجتمع العربى الإسلامى عامة . وقد تمتعت المرأة بكثير من المميزات الاقتصادية التى أدت إلى رقى مستواها الاجتماعى ، فقد كان للنساء خلال الفتوحات العربية الإسلامية نصيب من الفىء والغنائم[٣] وفرض عمر لكل مسلمة فى كل شهر مدين خيطة وقسطى زيت وقسطى خل مثلها فى ذلك مثل الرجل المسلم[٤] . وأعفيت المرأة غير المسلمة من دفع الجزية وإذا ملكت امرأة أرض خراج فإنها لا تدفع عنها سوى الخراج[٥] . وكانت النساء يمارسن كثيراً من أنواع النشاط الاقتصادى .

كانت عادة عزل النساء شائعة عند الفرس منذ قديم الأزمان . ولكن مشكلة الحجاب لم تظهر فى بداية الفتح الإسلامى ، فقد كان المسلمون والمسلمات يتمتعون بقوة الإيمان والتقوى والصلاح ، ولكن ما كادت تبدأ الخلافة الأموية وتنتشر الحضارة ويختلط العرب بالأجناس الأخرى وخاصة بالفرس حتى برزت مشكلة الحجاب إلى الوجود . والمراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه ، ولم يعرف البدو الحجاب ، فكان رجالهم يجلسون مع النساء فيتحادثون ويتسامرون[٦] ويرى ڤون كريمر[٧] أن نظام الحريم لم يظهر سوى فى عهد

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٧١
(٢) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص ١٥٢
(٣) اليعقوبى : جـ ٢ ص ١٢٢
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٦٦
(٥) المرجع السابق : ص ٤٥٢
(٦) الأصفهانى : الأغانى جـ ٧ ص ١٧٥
(٧) Orient Under the Caliphs. P. 171

الخليفة الأموى الوليد الثانى الذى أدخل فى بلاطه كثيراً من التقاليد البيزنطية ، وعين الخصيان أمناء فى قصره ، وكان الإغريق أول من اهتموا بالخصاء وكانت النساء فى العصر العربى الإسلامى يتمتعن [illegible] ولا يرون فى ذلك بأساً[١] وكانت عائشة بنت طلحة ، زوجة مصعب بن الزبير ، لا تستر وجهها عن أحد ، فعاتبها مصعب فى ذلك فقالت . (إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره) .

برزت فى الدولة العربية الإسلامية عـــدة نساء كان لهن مركز ممتاز ، فى مقدمتهن السيدة عائشة أم المؤمنين ، زوجة الرسول الـكريم ، فقد اشتهرت بتفوقها فى الفقه ورواية الحديث والفتيا والأدب والتاريخ والنسب ولعبت دوراً كبيراً فى موقعة الجمل . كما اشتهرت أختها أسماء بنت أبى بكر ، زوجة الزبير ابن العوام ، وأم عبد الله بن الزبير ، فقد أشتهرت برواية الحـــــديث والشجاعة والـكرم .

ومن أشهر النساء فى عصر الدولة العربية الإسلامية ، عكرشة بنت الأطرش التى اشتركت فى الحرب بين على ومعاوية ، وكانت تحرض الجند على معاوية . وكانت المرأة العربية تصحب الجيش ويخصص لها مكان فى المـــدن الحصينة والمعسكرات[٢] .

ومن النساء الشهيرات سكينة بنت الحسين بن على ، فـكانت من أجمل النساء وأرقهن ، وكانت تخالط الرجال الأتقياء والأدباء وعلماء الدين والشعراء . بعد مقتل زوجها مصعب بن الزبير تقدم عبد الملك بن مروان يطلب الزواج

---

(١) ابن عبد ربه . العقد الفريد ج ٦ ص ١

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٥٤٦

منها ، لكنها أبت وتزوجت عبد الله بن عثمان بن عبد الله وكان متزوجا من أخت مصعب ، وماتت سكينة سنة ١١٧ هـ[١] .

وتعتبر عائشة بنت طلحة بن عبيد الله من النساء الشهيرات ، وقد تزوجت عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ثم مصعب بن الزبير ، اشتهرت بالجمال والعفة والأدب وعلم التنجيم ، وكانت لها منزلة كبيرة عند مصعب ، فكانت نساء العراق يقصدنها طالبات وساطتها عند مصعب ليعفى أزواجهن من بعض ما عليهم من ضرائب . وبعد مقتل مصعب خطبها بشر بن مروان والى عبد الملك على الكوفة ، ولكنها تزوجت عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى[٢] .

ومن شهيرات النساء أيضاً هند بنت أسماء بن خارجة ، وقد كانت تتمنى الزواج من عبيد الله بن زياد لكنه مات ، ثم تزوجت بشر بن مروان حتى إذا مات تزوجها الحجاج ، ثم طلقها فخطبها عبد الملك بن مروان فاشترطت عليه أن يقود الحجاج الجمل الذى يحمل هودجها من العراق إلى الشام[٣] ومنهن أيضاً هند بنت النعمان بن المنذر ، وكانت قد بنت بالحيرة ديراً ترهبنت فيه وسكنته دهراً طويلا حتى عميت فى أواخر حياتها ، وزارها سعد بن أبى وقاص عند الفتح ، ثم جاءها المغيرة بن شعبة حين ولاه معاوية الكوفة فعرض عليها الزواج منه فرفضت ، ثم زارها الحجاج بن يوسف ولكنه غضب من غرورها فأخرجها من ديرها وطالبها بالخراج[٤] .

اشتهرت بعض النساء بالزهد والتصوف بجانب الصلاح والتقوى ، مثل رابعة العدوية ، ومعاذه العدوية ، وبعض نساء الخوارج كالبلجاء وغزالة وقطام

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ١٧ ص ١٦٥

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ١٠ ص ٥١ — ٥٤

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٣٩

(٤) الشابشتى : الديارات ص ١٥٦

وحمادة وكحيلة . وأبرزهن أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية ، « وكانت من أعيان مصرها ، وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة » وكانت وفاتها سنة ١٣٥ هـ وأصبح قبرها مزاراً لأهل العراق[١] ..

وبرزت بعض النساء فى ميادين السياســـــــة ، منهن أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك . وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر ، وكانت لها مكانة ملحوظة فى قصر الخليفة الوليد ، الذى كان يستشيرها فى أمور الدولة الهامة .

كانت نساء الخوارج أبرز النساء فى العصر العربى الإسلامى ، فقد امتزن بالتقوى والورع والشجاعة والأدب والاجتهاد[٢] فكانت نساء الخوارج تخرج مع رجالهن فتتلقى ويلات الحـــــرب إلى جانبهن فى الميدان بصورة لا تجدها فيما سبق من فتوح إسلامية وغزوات[٣] وقد وجه زياد بن أبيه وابنه عبيد الله اهتمامهما إلى منعهن من الاشتراك فى الحروب فقبض ابن زياد على البلجاء فقطع يديها ورجليها ورمى بها فى السوق . ولكن ذلك لم يمنع نساء الخوارج من الاشتراك فى الحروب ، فكانت إمرأة من الخوارج مع قطرى بن الفجاءة تدعى أم حكيم من أشجع الناس وأجملهم وجهاً وأحسنهم بدينهم تمسكا[٤] . وفى عهد الحجاج بن يوسف ثار عليه شبيب بن يزيد الشيبانى وكانت زوجته غزالة وأمه جهيزة تحاربان معه جنباً إلى جنب[٥] وقد نذرت غزالة أن تدخل مسجد الكوفة فتصلى فيه ركعتين وتقرأ فيهما سورتى البقرة وآل عمران ، فجاهدت

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨
(٢) العبادى : صور من التاريخ الاسلامى ص ١٨٠
(٣) سهير القلماوى أدب الخوارج ص ١٣٧
(٤) الأصفهانى : الأغانى ج ٦ ص ٦
(٥) اليعقوبى : ج ٣ ص ١٩

حتى تحقق لها ما نذرت ، وهرب الحجاج أمام الخوارج . فسخر أهل العراق منه وقالوا :[١] .

هلا برزت غـــــزالة فى الوغى   بل كان قلبك فى جناحى طائر

تقاليد الزواج :

كانت تقاليد الزواج فى المجتمع العربى الإسلامى تدل على مركز المرأة الاجتماعى الممتاز . ولم يكن تعدد الزوجات عيباً كبيراً فى ذلك الحين ، كما لم يكن زواج المرأة بعدة أزواج على التوالى غريباً ، فبين النساء العربيات من تزوجت أربعة أو خمسة أزواج على التوالى[١] وكان العرب يفضلون الزواج من القرشيات ، فإن لم يتحقق ذلك فالعربيات ، وكانوا يقولون : « ولا تحمل لستين إلا قرشية ، ولا تحمل لخمسين إلا عربية[٢] » .

يبدأ الزواج فى المجتمع العربى الإسلامى بالخطبة ، وكانت هناك نسوة تخصصن فى التوفيق بين الرجال والنساء وهن ما نسميهن فى وقتنا الحاضر (الخاطبات) وكن يجلسن غالباً فى المساجد[٤] . وبعد مرحلة الخطبة تبدأ مرحلة دفع الصداق ، وقد اختلف قدره بقدر حالة الزوجين الاجتماعية . وكان العرب يدفعون الصداق نقداً وعيناً . ولكن معظم المسلمين كانوا يدفعون الصداق نقداً ويقدمون بعض الهدايا عيناً . وكانت عبارة « ساق إلى المرأة صداقها » ترجع إلى وقت أن كان العرب يدفعون الصداق من الإبل[٥] . واحتفظ العرب فى العصر الأموى بهذه العادة فإن الفرزدق مهر النوار بمائة

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٦٤

(٢) Perron : Femmes Arabes, p. 358.

(٣) الأصفهانى: الأغانى ج ١٥ ص ٨٥

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٦ ص ١٠٧

(٥) الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ١٦٣

دفع مصعب بن الزبير لسكينة بنت الحسين خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثلها[٢] . ودفع عمر بن عبيد الله لعائشة بنت طلحة مليون درهم نصفهم صداقها والنصف الآخر هدية لها[٣] وبعث الحجاج إلى عروسه هند بنت أسماء بمائة ألف درهم وثياباً كثيرة[٤] .

يبين لنا زواج فاطمة بنت محمد تقاليد الزواج الإسلامية . فقد خطب كل من أبي بكر وعمر بن الخطاب فاطمة من الرسول فاعتذر فى رفق . وأشار بعض الصحابة على على بن أبي طالب أن يخطب فاطمة من أبيها فقال لها الرسول : إن علياً يذكرك ، وقال له . أهلا وسهلا ، وكانت هذه علامة الرضا . وكان صداق فاطمة وغيرها من بنات الرسول خمسمائة درهم وكانت فيما جهزت به فاطمة سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ، وإناء للشرب يطلق عليه اسم (نور) ،وقربة ومنخل، وقدح وأهدت بعض النساء إليها بردين مزينة بالفضة والزعفران[٥] . وقد تزوج على فاطمة فى شهر رجب بعد مقدم النبى المدينة بخمسة أشهر ، ودخل بها بعد عودته من غزوة بدر وكانت فى الثامنة عشرة .

كان الزواج أحياناً لأغراض سياسية ، فكان يقصد من بعض عقود الزواج ربط القبائل العربية بعضها ببعض فقد حرص الحجاج بن يوسف على الزواج من اليمن ومضر[٦] . وزوج الحجاج ابنه محمداً من ميمونة بنت محمد ابن الأشعث بن قيس الكندى « رغبة فى شرفها » ، مع ما كانت عليه

---

(١) الأصفهانى: الأغانى ج ١٩ ص ٧
(٢) المرجع السابق : ج ١٠ ص ١٣٥
(٣) المرجع السابق : ج ١٠ ص ٥٥
(٤) المرجع السابق : ج ١٨ ص ١٣٠
(٥) حسن ابراهيم . تاريخ الاسلام ج ١ ص ٥٤٨
(٦) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٥٩

من جمالها وفضلها فى جميع حالتها ، وأراد من ذلك استمالة جميع أهلها وقومها إلى مصافاته ليكونوا له يداً على من ناوأه[١] » كذلك زوج الحجاج أخته زينب من ثقيف ، فخيرها بين ثقيفين ، أحدهما شاب فى السابعة عشرة من عمره، والآخر شيخ كبير ، فاختارت الشيخ ثم طلبت من أخيها توليته شرطة البصرة فاستجاب لطلبها[٢] .

ويعلل المؤرخون[٣] غضب عبد الله بن الزبير لزواج أخيه مصعب من سكينة بنت الحسين بما دفعه مصعب من أمواله طائلة لعروسه فى مهرها ولكننا نرى أن الدافع إلى غضبه عدم رغبته فى مصاهرة أخيه لبنى هاشم فى الوقت الذى يقوم هو فيه باضطهاد وجوههم وخاصة محمد بن الحنفية[٤] .

اتبع العرب المسلمون فى العصر الأموى كتاب الله وسنة رسوله فى زواجهم، فما غالوا فى تقدير المهور ، ولا طلبوا من الزوج شروطاً قاسية مادام الزوج صحيح البدن عفيفاً نزيهاً ، وكانوا يعتقدون أن المتزوج أسعد بالا وأهنأ عيشاً من الأعزب ، ولا سيما إن شاركته زوجته بؤسه وسعادته ، أما الشروط التى كان يطلب العربى توفرها فى زوجته ، فنراها واضحة فى عبارة لخالد بن صفوان أحد وجوه العرب فى العصر الأموى ، فقد قال : « أطلب لى زوجة أدبها الغنى وذللها الفقر ، لاضرعة صغيرة ولا عجوزاً كبيرة ، قد عاشت فى نعمة . لها عقل وافر وخلق طاهر وجمال ظاهر . . كريمة المحتد رخيمة المنطق ، لم يدخلها صلف[٥] .

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣٦
(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ٦ ص ٢٧
(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٨٢
(٤) انظر كتابنا « تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى » ص ٣٣٥
(٥) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص ١٤٨

وكانت أميرات البيت الأموى خاضعات لجميع الأحكام الإسلامية ، فهن عرضة للطلاق ولاحتمال الضرائر . خطب محمد بن الوليد بن عقبة إلى عمر بن عبد العزيز أخته فقال عمر : « . . . . . وقد زوجناك على ما فى كتاب الله فى إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان[١] .

حفلات الزواج

كان للزواج عند العرب يومان، يوم الإملاك وهو يوم العقد ، وفيه يجتمع ذوو الفتاة فى ساحة دارهم ، ويقدم أقارب الفتى . وإذا التأم جمعهم خطبهم ولى الفتى خطبة رقيقة ، ثم يرد عليه ولى الفتاة فى خطبة قصيرة يضمنها الرضا . ثم تنحر الجزر ، وتمد الموائد ويسمع الغناء من مجالس النساء ، وتسمى وليمة ذلك اليوم النقيعة واليوم الثانى يوم الغناء وفيه يتبارى العرب فى الاحتفال ، فيلعب الفتيان بالرماح ويتسابقون على الخيل ، ويبسطون الأنماط فى الدار ويشدونها على الجدران ، ويجلس النساء على النمارق وتجلى الفتاة وتلبس الحلى . ثم تسير فى حشد من أترابها ، ثم تغنى النساء فتشيد بمآثر آبائها ومحامد قومها . وإذا انقضى ذلك الحفل أخـذ النساء فى الانصراف وودعن الفتاة بقولهن : باليمن والبركة وعلى خير طائر[٢] .

الاخلاق الاجتماعية

خرج العرب المسلمون من جزيرتهم العربية خلال الفتوحات ، فى الشام والعراق ومصر ، فى ظل راية الإسلام وحاولوا جهدهم أن يتخلوا عن عصبيتهم القبلية وارتباطهم بقبائلهم . متخلين عن قيود الجاهلية . وقد اجتهد الإسلام فى أن يخلع عن العربى المسلم الثوب القبلى وأراد له أن يتشكل فى أثواب أخرى

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ٢١٥

(٢) حـ ں ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٥٤٩

كأن يتجه نحو عصبية الفكرة وشعائر الدعوة ، وأن يمضى فى طريقه إلى إنشاء أمة جديدة ترتبط بقرابتها الفكرية ، وتوحدها غاياتها المذهبية .

ولكن هذا المجتمع الجديد كان لا بد له من خطى يتعثر بها واتجاهات متقاربة أو متضاربة يتشعب إليها ، وكان لا بد فى دور التجربة من أن يتقلب فى كثير من الأوضاع ويتخذ كثيراً من الأشكال ، وتتعاقب عليه النزعات والرغبات . ولذلك بدأ هذا المجتمع وكأنما يخضع لطائفة من التشكلات : بعضها تشكل صادق وبعضها تشكل كاذب ، بعضها ضعيف لا يلبث أن يطويه شكل آخر قوى ، بعضها يعتمد على المدن التى سكنها الفاتحون وبعضها يعتمد على المواقع التى خاضوها والأمجاد التى حققوها ، وبعضها يعتمد على الصحبة وبعضها يعتمد على القرابة ، بعضها سياسى وبعضها اقتصادى وبعضها زمنى وبعضها اجتماعى .

هذا المجتمع كان من التعقيد ومن السعة والاختلاط بالأقوام واللغات والديانات بحيث لم تقو بذور هذه الأنماط من التشكل الاجتماعى أن تستغرقه ، وأن تقنع رغباته وتسد حاجاته ، فكان لا بد أن تعرض له — قبل أن يتسم بالاستقرار — هزات ورجات ، وكان لا بد له أن يتبلور فى صور وتشكلات كثيرة قبل أن يتخذ صورته النهائية . وسيكون لاتساع الدولة آثار كثيرة فى صياغة المجتمع وتحديد طبقاته .[1]

كانت أخلاق أبناء المجتمع العربى الإسلامى — مثله مثل أى مجتمع فى التاريخ — مزيجاً من الخير والشر ، ومن الزهد والمجون . أما الخير والزهد فقد امتاز به أهل الكوفة خاصة ، فكان يقال « خذوا الحلال والحرام عن

---

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٤٩ .

أهل الكوفة »[١] وكان على بن أبى طالب يقول عن الكوفة : « كنز الإيمان وحجة الإسلام وسيف الله ورمحه » . وكان سلمان الفارسى يقول عن أهل الكوفة : « إنهم أهل الله والكوفة قبة الإسلام يحن إليها كل مؤمن » [٢] .

انتشر الزهد فى العراق عامة وفى الكوفة خاصة فى صدر الخلافة الأموية، فقد وجد كثير من النساك الذين سموا بالعباد أى الذين يعكفون على عبادة الله .وكانت كلما مالت الحياة العامة نحو المصالح المادية والملاذ الدنيوية ، وجد هؤلاء الذين نشدوا المثل العليا الإسلامية أسباباً وبواعث تدفعهم إلى إبداء استجانهم وسخطهم ، متخذين لأنفسهم موقفاً خاصاً لا يحيدون عنه ، وهو نبذ كل غاية دنيوية[٣] وكان نمو حركة الزهد والتصوف فى العراق متأثراً ببعض المبادىء اليهودية والمسيحية [٤] ولا شك أن فشل ثورات أهل العراق ضد بنى أمية من جهة وقسوة الولاة الأمويين من جهة أخرى كانا عاملين هامين لانتشار الزهد فى العراق .

أما بعض أهل البصرة فقد تميزوا بالشر والمجون ، فقد كان يقال (أهل البصرة لا يفتحون باب هدى ولا يغلقون باب ضلالة) .[٥] وفى خلافة معاوية ابن أبى سفيان انتشر الفسق والمجون فى جميع أنحاء البصرة[٦] ووصف زياد ابن أبيه هذه المفاسد فى خطبته البتراء التى ألقاها فى مسجد الكوفة فقال : (إنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه ، من تركـكم هذه

---

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص٩٩

(٢) المرجع السابق : جـ ٧ ص ٢٩٨ .

(٣) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ١٣٠

(٤) Nichoilson : Alit . Hist . of the Arabs, P110.

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ٢٤٩

(٦) الطبرى : جـ ٦ ص ١٢٤

المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس) .[١] وتميزت بعض عامة أهل العراق بحب الاستطلاع ومعرفة الأسرار .[٢] وكانوا كما قال معاوية عنهم (يعيبون الشىء وهم فيه ، كل إمرىء شيعة لنفسه) .[٣] كما امتازوا بالافراط فى جميع نواحى الحياة ، فقد أراد الوليد بن عبد الملك أن يبنى مسجداً بدمشق (فقال الوليد لأصحابه ، أقسمت عليكم لما أتانى كل رجل منكم بلبنة . فجعل كل رجل يأتيه بلبنة ورجل من أهل العراق يأتية بلبنتين فقال له : ممن أنت ؟ قال : من أهل العراق . قال : يأهل العراق تفرطون فى كل شىء حتى فى الطاعة) .[٤] سأل الحجاج بن يوسف كاتبه زاذان فروخ عن طباع أهل العراق فقال عن أهل الكوفة : نزلوا بحضرة أهل السواد فأخذوا من صنافتهم وسماحتهم . وقال عن أهل البصرة : نزلوا بحضرة الخوز فأخذوا من مكرهم وبخلهم[٥] وكان زياد بن أبيه يقول : أهل الكوفة أكثر طعاماً ، وأهل البصرة أكثر دراهم[٦] .

أما أهل الحجاز ، فقد تحدثنا عن حياتهم وعن مجالس الغناء والموسيقى خلال حديثنا عن المجالس الاجتماعية فى الفصل السابق ، فقد انتشرت بيوت القيان فى كل من مكة والمدينة ، وشغل كثير من أهل هاتين المدينتين بالغناء والموسيقى وأنواع اللهو المختلفة ، نتيجة تدفق الثروات على بلاد الحجاز من

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ١٤٩
(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢١١
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ٨٢
(٤) الطبرى : جـ ٨ ص ٩٩
(٥) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١١٤
(٦) المرجع السابق : ص ١٦٥

سائر الأمصار المفتوحة ، كما أن انتقال العاصمة من المدينة بالحجاز إلى دمشق بالشام جعل الحجازيين ينصرفون عن الاشتغال بالسياسة إلى اللهو والطرب ، فحفلت بلاد الحجاز فى العصر الأموى بشعراء الغزل والمطربين والمطربات ومحبى الاستماع إلى الموسيقى والغناء .

وإذا تركنا أهل العراق ، وأهل الحجاز ، وانتقلنا إلى دمشق عاصمة الدولة العربية الإسلامية فى العصر الأموى ، لوجدنا طرقها الضيقة وقد ازدحمت بالدماشقة ، يخبون فى سراويلهم الواسعة وقد انتعلوا الأحذية الحمراء المدببة (المراكيب) وعلت رؤوسهم العمائم الكبيرة وأخذوا يتدافعون بالمناكب مع البدو الذين صبغت الشمس وجوههم وقد لبسوا الجبب الفضفاضة ووضعوا فوق رؤوسهم الكوفية والعقال ، وقد ترى هنا أو هناك الدمشقى الفنى من طبقة الأشراف . وقد امتطى صهوة جواده والتحف بعباءة من الحرير الأبيض وتسلح بسيف أو مزارق .

ويعبر فى الطرقات عدد قليل من النسوة كلها منقبات فى حين يسترق البصر أخريات غيرهن من خــــلال نوافذهن المشبكة إلى الأســواق والميادين الهامة . وترى بائعى الشراب والحلوى وقد علت أصواتهم كأنما ينافسون ضجيج المارة والعدد العديد من الحمير والإبل المحملة بمختلف حاصلات الصحراء والمزارع . وكان العرب فى هذه المدينة ، شأنهم فى غيرها من المدن ، يعيشون فى أحياء منفصلة حسب قبائلهم . وكان باب كل بيت يؤدى من الشارع إلى ردهة يتوسطها حوض ماء كبير ينبعث الماء فيه من نافورة فيحدث رذاذه ما يشبه النقاب . وإلى جوار هذا الحوض ترى شجرة برتقال أو ليمون ، وتحيط الحجرات بفناء الدار ، وفى البيوت الكبيرة تجد إلى جوارها رواقا.(١)

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٢٨٦

ونترك العراق والحجاز والشام، ونرحل إلى مصر ، وهناك نجد الفسطاط مركز المجتمع الإسلامى الجديد ، وقد أراد عمر بن الخطاب ، كما أراد البصرة والكوفة ، أن تكون الفسطاط معسكراً للجند ولكن الذى حدث فى البصرة والكوفة والفسطاط أن تحولت هذه المعسكرات إلى مدن عامرة ، ومضت مظاهر الترف تشق طريقها إلى حياة الجند ، وانتهت حياة الجند إلى الاستقرار واستمر عمر بن الخطاب يكتب إلى جنده يوبخهم وينصحهم ، ولكن توبيخ الخليفة أو نصحه لم يستطع أن يغالب هذه الموجة التى غمرت المسلمين بفعل ما كان من آثار الأجواء الجديدة فى عيونهم وقلوبهم.(١)

أما الاسكندرية فقد كانت تضم أخلاطاً من الناس وكان يغلب عليها الطابع البيزنطى ، نتيجة وقوعها على ساحل البحر المتوسط ، كما أن مركزها التجارى فى شرقى هذا البحر وثق صلاتها بأوروبا ، ولذا كثر عدد الروم فى الاسكندرية وأضفوا عليها طوابعهم اللغوية والثقافية والإجتماعية .

آمن العرب المسلمون بالتفاؤل والتشاؤم ، فكانوا يسمون أولادهم بأسماء الحيوانات تفاؤلا من ذلك وكان الرجل إذا ولد له ذكر يتعرض لزجر الطير والفال ، فإن سمع إنساناً يقول حجراً أو رأى حجر أسمى ابنه به ، وإن سمع إنسانا يقول ذئب أو رأى ذئبا تأول فى المولود الفطنة والمكر والكسب ، إن رأى حماراً تأول فيه طول العمل والقوة والجلد وقد أطلق على الحجاج وهو صغير إسم « كليب » .(٢) وكان يخرج فى صحبة كل جيش منجم ليخبرهم عن اليوم السعيد الذى يبدأون فيه المعركه(٣) .

---

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ١٤١

(٢) الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ١٥٨

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٠

وكان أهل كل قطر إسلامى يعتقدون أن المطر إذا أصاب باب الحرم المواجه لبلادهم كان الخصب والمطر فى تلك السنة فى قطرهم ، وإذا عم جوانب الحرم كان المطر والخصب عــــاما فى سائر الأمصار .[١] وكان معظم العرب يتشاءمون من نعيق الغربان ، وكان زياد بن أبيه فى مقدمة من يعتقدون فى ذلك .[٢] أو يتشاءمون من بعض الأيام فـكان أهل العراق مثلا — يتشاءمون من يوم الأربعاء فلا يغزون أو يتاجرون أو يسافرون فيه .[٣]

وخلاصه القول فى الأخلاق الاجتماعية ، أنها اختلفت من عصر إسلامى إلى آخر ، فالأخلاق فى بلاد العراق التى شهدت الحـكم الفارسى وسيادة التقاليد والنظم الاجتماعية الفارسية ، تختلف حتما عن الأخلاق الاجتماعية فى الشام، ومصر التى خضعت للحـكم الرومانى فترة طويلة . بل أن العرب الذين خرجوا خلال الفتوحات العربية الإسلامية فى عهدى أبى بـكر وعمر قد استقروا فى الأمصار المفتوحة وتزوجوا من نسائها ، وأصبح الجيل الثانى يحمل خليطا من الدماء ومزيجا من الأخلاق والنظم الاجتماعية .

الأعياد والمواسم والحفلات :

كان المسلمون فى جميع الأمصار الإسلامية يحتفلون بأربع ليال من السنة وهى : ليلة أول رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلتا العيدين[٤] وكانوا يقيمون إحتفالات كبيرة فى عيد الفطر والأضحى ، وعيد المولد النبوى . وحرص المسلمون فى بلاد العراق على الاحتفال بأول المحرم وباليومين التاسع والعاشر منه ، فـكان بنو أمية فى اليوم العاشر من المحرم يلبسون الملابس

(١) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٤٣
(٢) الطبرى : ج ٦ ص ١٢٣
(٣) ابن قتيبة : الأمامة والسياسة ج ٢ ص ٤٥
(٤) الدميرى : حياة الحيوان ج ١ ص ٨١

الجديدة ويتزينون ويتكحلون ويقيمون الولائم ، بينما الشيعة ينوحون ويبكون أسفا لقتل الحسين(١) ، وكانت شيعة العراق تقصد كربلاء للزيارة والتجارة ، وقد بذل الولاه الأمويون جهدهم فى منع الشيعة من زيارة كربلاء ، واشتد هذا المنع فى خلافة هشام بن عبد الملك بعد ثورة زيد بن على(٢) . وكان العرب المسلمون يتزينون فى أعيادهم بأحسن الثياب ويتسابق فرسانهم فى هذه الأعياد على الخيل .

حرص الفرس على الاحتفال بأعيادهم القديمة ، وأبرزها النيروز والمهرجان وكان النيروز أول أيام الربيع ، وفيه يرش الناس بعضهم بعضاً بالماء ويتبادلون الهدايا(٣) أما المهرجان فهو ابتداء أيام الشتاء . وكان الولاة الأمويون يطلبون من الدهاقين — أى كبار الملاك الفرس — تقديم الهدايا فى عيدى النيروز والمهرجان ، وبلغت قيمة الهدايا التى حملت إلى معاوية بن أبى سفيان بالشام عشرة ملايين درهم(٤) .

احتفل أهل الذمة بأعيادهم فى جو من الحرية والتسامح ، وكان المسلمون يشاركونهم فى أعيادهم وخاصة النصارى منهم ، فقد كانت هذه الأعياد فرصة طيبة لنزهة المسلمين ، وخاصة أن الأديرة كانت تحفل بالحدائق الغناء والبساتين اليانعة(٥) ومزج المسلمون بين أعياد المسيحيين وأعياد الفرس ؛ وبين الأعياد المسيحية والفصول ، فقالوا أن الفصح وقت النيروز ، والعنصرة وقت الحر ، والميلاد وقت البرد ، وعيد بربارة وقت الأمطار ، وعيد الصليب وقت قطاف

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٣٢٩
(٢) الكليدار : تاريخ كربلاء ص ٩٣
(٣) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٥
(٤) اليعقوبى : ج ٢ ص ١٩٤
(٥) الشابشتى : لديارات ص ٦٠

العنب . ومن أمثال الناس فى ذلك : (إذا جاء عيد بربارة فليتخذ البناء زمارة) أى ليمكث كل فرد فى بيته ، و (إذا جاء القلندس فتدفأ واحتبس)(١) .

أما اليهود فكانوا يحتفلون بعيد رأس السنة اليهودية ويسمونه (عيد رأس ميشا) ، كما يحتفلون بعيد (صوماريا) وهو عيد الصوم العظيم ومدته خمس وعشرين ساعة ، وعيد (المظال) ومدته ثمانية أيام يجلسون فيها تحت ظلال النخل وأشجار الزيتون ، وعيد الفصح أو الفطر وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير(٢) .

كان أبرز ما يميز الأعياد مواكب الخلفاء والولاة . وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب فى العصر الجاهلى ، فلما ظهر الإسلام لم يتكلف الخلفاء الراشدون شيئاً من ذلك ، فكان الراشدون يركبون ويمشون بين الناس كسائر المسلمين ، لا حرس أمامهم ، ولا حاجب خلفهم . وأول من اتخذ المواكب ولاة الأمصار ، تقليداً لحكام الروم والفرس قبلهم ، حتى لا يشعر الأهالى بأنه تغير شىء مما اعتادوه من أبهة الملك وسطوة السلطان وأقام معاوية حراساً يرفعون الحراب بين يديه ، أو يقفون بالسيوف عند المقصورة التى يصلى فيها خوفاً من الاغتيال ، واقتدى به ولاته ، فاتخذ زياد بن أبى سفيان فى العراق رجالاً يمشون بين يديه بالأعمدة أو الحراب ثم أصبح المسير بالحربة خاصة بولى العهد ، أو بكبار العمال يحملها فارس على جواد يتقدم الخليفة أو الأمير .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٨٢
(٢) الألوسى : بلوغ الأرب جـ ١ ص ٣٦١

معنى الخلافة :

الخلافه فى اللغة مصدر « خلف » . يقال « خلفه خلافة ، كان خليفته وبقى بعده . والخليفة السلطان الأعظم ، والجمع خلائف وخلفاء » . فالخلافة موضوعة فى الأصل ليكون الشخص خلفاً لأحد ، ومن ثم سمى من يخلف الرسول فى تنفيذ الأحكام الشرعية خليفة ، فقد خلف النبى فى أمته ، فيقال خليفة بإطلاق ، أو خليفة رسول الله . واختلف فى تسميته خليفة الله ، فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التى للآدميين فى قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ، وقوله عز وجل (وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض)[١] .

وقد نهى أبو بكر المسلمين عن تسميته (خليفة الله) واعتبر نفسه خليفة رسول الله ، فالاستخلاف إنما هو فى الحق الغائب، لا الحاضر[٢] .

عرف ابن خلدون[٣] الخلافة بقوله : « والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليهـا ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » . ويطلق بعض المسلمين ، وخاصة الشيعة ، على الخليفة لقب « إمام » ، تشبيهاً بإمام الصلاة فى اتباعه الاقتداء به ، ولذا يسمون الخلافة « الإمامة الكبرى » .

---

(١) سورة الأنعام ٦ : ١٦٥

(٢) مقدمة ابن خلدون

(٣) المقدمة

ذهب السلف إلى أن أساس كل حكم فى الإسلام « الخلافة » أو « الإمامة ». وجروا فى تعريف الخلافة على أنها رياسة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن رسول الله ، وأن منزلة الخليفة من الأمة ، منزلة رسـول الله من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة ، والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم ، فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه وله حق القيام على شئون دنياهم أيضاً ، بيده وحده زمام الأمة ، فكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه ، فهو الحاكم الزمنى ، وهو الحاكم الروحى(١).

والخلافة تتميز عن سلطة القياصرة والأباطرة والأكاسرة بأن الخلافة تشمل السلطتين الدينية والدنيوية ، أما تلك فتنحصر فى حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية . وقد يظهر الفرق بين السلطتين كبيراً ومرجعهما إلى مبدأ واحد ، لأن الذى يتأتى له أن يتولى أمور الناس ويحكم فيهم حكماً مطلقاً ، إما أن يسير بهم على قانون مفروض ، أو على مقتضى ميوله وأغراضه . وأكثر حكام العالم المتمدن يحكمون بقوانين سياسية وضعها عقلاء الأمة وأكابر الدولة ، يطيعها الناس ويجرون على أحكامها ، وأما الخلافة فإنها مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها أمته ويحمل الناس على أحكامها بالنيابة عن الرسول صاحب تلك الشريعة ، ومن هذا القبيل اشتمال الخلافة على الإمامة(٢) .

حاول كثير من المستشرقين أن يشبهوا الخلافة بنظام الإمبراطورية الرومانية المقدسة الذى نشأ فى أوروبا فى العصور الوسطى ، وراح بعضهم يحاول التقريب بين النظامين ، والتأليف بين المذهبين ، ولكن الواقع أن

---

(١) انظر كتابنا (غروب الخلافة الاسلامية) ص ٣

(٢) جرجى زيدان : اريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ١٢٧ .

الخلافة شيء ، والإمبراطورية المقدسة شيء آخر ، وكان السير توماس أرنولد من المستشرقين القلائل الذين فطنوا إلى الفرق بين النظامين ، فقال[١] : لما صرح البابا أينوسنت الثالث بأن المسيح قد استودع بطرس الرسول شؤون الكنيسة العالمية ، وحكم العالم كله أيضاً ، أعلن مذهب الدين العالمي الذي كانت تدعو إليه الكنيسة منذ نشأتها ، ومن هنا نشأت فكرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي يكون فيها إمبراطورا عالمياً ، وحاكما مرشدا لشؤون المؤمنين الدنيوية بسلطات واسعة جداً حتى تعم سلطته العالم كله .

والإسلام كذلك دين عالمي ، يدعو جميع الناس إلى الإيمان بالله ورسوله ، أو يدفعون الجزية كشعوب خاضعة للسيادة الإسلامية التي يشرف عليها سياسياً ودينياً الخليفة .

ومع وجود فكرة أو مبدأ السيطرة العالمية بين المذهبين فإنهما يختلفان فيما بينهما من حيث الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن مستحدثة الوجود ، وإنما هي منبثقة عن إمبراطورية وثنية سابقة ، كما نجد فيهما حاكمين أحدهما (زمني) وهو الإمبراطور ، والآخر (روحي) وهو البابا ، وأما الخلافة فنظام مستحدث ، ووليد ظروف وأحوال نشأت عند وفاة رسولُ الله ، والخليفة إلى ذلك حاكم سياسي وديني ، ولكن وظيفته الدينية لا تتعدى المحافظة على الشؤون الدينية المقررة في الإسلام ، وليس له سلطات دينية كهذه التي ينعم بها البابا ، من عصمة وغفران للخطايا ، فإن مثل هذه الأمور ليست من شأن الخليفة في كثير ولا قليل وإنما هي شيء يتعلق بين المرء وربه ، والله وحده عند المسلمين يغفر ويصفح ويمحو الذنوب .[٢]

---

(١) The Caliphate p. 9

(٢) انظر كتابنا « غروب الخلافة الاسلامية » ص ١١

ولسنا ننكر أن الخليفة كان ينعم بساطات سياسية عظيمة ، ولـكن سلطاته الدينية كانت ضعيفة جداً — وهذه هى نظرية السنة فى هذا الموضوع — وإن كان الشيعة يذهبون إلى أن (الإمام) وهو اللفظ الذى يسمون به الخليفة « يجب أن لا يفوض أمره إلى نظر الأمة ، وأن الإمامـة ركن من أركان الدين ، لا يجوز لنبى إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، وأن يكون هذا الإمام معصوما عن الـكبائر والصغائر » .

الخلافة فى الواقع مع صفتها الدينية الضيقة ، لا تنعم بشىء من السلطات الدينية ، ومايعطيه هذا المنصب لصاحبه من ساطات دينية لا يرفعه عن غيره من المسلمين ، لأن هذه السلطات هى سواء عند الجميع ، لا تتعلق به وحده فى كثير ولا قليل .

إن السبب فى هذه النظرية الخاطئة التى فشت بين المستشرقين من وجود تشابه بين الخلافة والإمبراطورية الرومانية المقدسة تعود إلى أن المستشرقين نظروا إلى الخلافة ، نظرهم إلى البابوية ، وفى ذلك يقول أرنولد : إن العقيدة الإسلامية المتعلقة بالله وصفاته تختلف اختلافاً عظيما عن الصفات الإلهيـة فى الدين المسيحى فالإسلام يعتبر صفات الله ، شيئاً خاصاً بالله دون غيره من المخلوقات ، لا يشاركه فيها أحد ، ولا يتعلق ببعضها أحد ، وهى إلى ذلك تربط العلاقات بين المسلم وربه ارتباطاً يختلف كل الاختلافات عن العلاقات المقررة بين المسيحى والله فى الدين المسيحى ، والسنة فى الإسلام — وهى ما وافق عليه أكثرية المسلمين تقرر أن أحداً من المسلمين لا يستطيع أن يقول : أنه أقرب إلى الله من غيره ، وكل المسلمين سواء فى طاعة الله والانقياد لأوامره ونواهيه ولا يوجد فى الإسلام انفصال بين الدولة والدين كما يوجد فى المسيحية ، ذلك الإنفصال الذى أدى إلى خـلافات عنيفة فى الدول المسيحية فى القرون الماضية .

ولـكى نفهم نظام الخلافة — كما يقول أرنولد — يجب أن نعلم أن الخليفة موظف

سياسى قبل أن يكون موظفاً دينياً ، وأن الواجبات الدينية الملقاة على عاتقه لا تعطيه حقوقا دينية أو روحية تجعله يمتاز بها عن غيره من المسلمين .

الخلافة عند الاحزاب الاسلامية :

لم يشر القرآن الكريم إلى نظام الحكم الذى يتبعه المسلمون بعد وفاة الرسول ، ولكن الآيات القرآنية تحض على طاعة أولى الأمر : (اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)[١] . وبعد وفاة الرسول تولى الخلفاء الراشدون الأربعة ، وكانت طريقة توليهم انتخابية شورية . ولكن الخلافة فى العصرين: الأموى والعباسى تحولت إلى حكم وراثى مطلق ، تنقصه الديموقراطية والشورى ، وأصبح الانتخاب صوريا تماماً .

انقسم المسلمون إلى أحزاب ، بعضها اصطبغ بصبغة سياسية بحتة ، وبعضها الآخر جمع بين المبادىء السياسية والدينية ، وأصبح لكل حزب منها نظرية خاصة فى الخلافة .

١ — المهاجرون والأنصار : توفى الرسول دون أن يرسم طريقاً لاختيار خليفة له . وانقسم المسلمون بعد وفاة الرسول إلى فريقين ، فمنهم من رأى ضرورة حصر الخلافة فى قريش . فهى القبيلة التى ينتسب محمد إليها ، كما أنها أعظم القبائل العربية فيدين لها العرب جميعاً بالاحترام والتقدير . كما أن المهاجرين هم أول من استجابوا لدعوة الرسول وعاضدوه . وتحملوا الأذى والاضطهاد ، وهاجروا مع الرسول إلى المدينة ، تاركين ممتلكاتهم ومتاعهم ، واعتمدوا فى تأييد آرائهم على حديث شريف يقول « الأئمة من قريش »[٢] .

ولكن الأنصار رأوا أنهم أحق المسلمين بالخلافة ، فهم الذين نصروا

---

(١) آية ٥٩ سورة النساء

(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى (ص ٦) .

الرسول والمسلمين فى محنتهم ، ورحبوا بهم فى المدينة ، وشاركوهم أموالهم وأرضهم ، وكان لتأييدهم الأثر الأكبر فى انتصار الإسلام .

٢ — الشيعة : يرى حزب الشيعة أن على بن أبى طالب وأولاده من بعده هم أحق المسلمين بالخلافة ، يتولونها بالوراثة ، والشيعة تجعل للخليفة صفات دينية فهو مستودع العلم الشرعى وهو وحده الذى يفهم القرآن والسنة ، وله حق تفسيرها ، ولذا لقبوا الخليفة بلقب : « إمام » لأنهم يعتبرونه قدوة لهم ، ووضعوا عليا فى مصاف الآلهة .

كانت غاية حزب الشيعة فى أول نشأته لاتعدو المطالبة بحق على فى الخلافة بعد الرسول ، ولما تولى على اعتبروه الوصى والإمام ، فقالوا : « ليست الامامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة ، وينتصب الامام بنصبهم ، بل هى قضية أصولية هو ركن الدين لا يجوز للرسول عليه السلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله . ويجمع القوم بوجوب التعيين والتخصيص ، وبوجوب عصمة الأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر [1] » . ولذا رأوا أن عليا هو الذى عينه رسول الله بعده ، ويوردون لذلك نصوصاً كثيرة .

٣ — الخوارج : يرى الخوارج صحة خلافة أبى بكر وعمر لصحة انتخابهما ، وقالوا بصحة خلافة عثمان فى سنينه الأولى ، كما أقروا بصحة خلافة على ، ولكنهم قالوا إنه أخطأ فى التحكيم ، وحكموا عليه بالكفر ، كما كفروا طلحة والزبير وعائشة والحكمين . ثم وضعوا أسساً لاختيار الخليفة « فجوزوا أن تكون الإمامة فى غير قريش ، وكل من ينصبونه برأيهم وعاشر الناس على مامثلوا له من العدل واجتناب الجور كان إماما ، ومن خرج عليه يجب نصب القتال معه ، وأنه إن غير السيرة وعدل عن الحق وجب عزله ، أو قتله ، وهم

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٤ .

أشد الناس قولا بالقياس . وجوزوا أن لايكون فى العالم إماما أصلا وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً أو نبطياً أو قرشياً (١) .

تتجلى النزعة القبلية فى مبادىء الخوارج السياسية ، فقد ملوا الخضوع للسلطان والحكم المركزى (٢) . ونرى فيها معالم السخط على قريش والتذمر من استئثارها بالخلافة ، فتربصوا الفرص لعلى ، ووجدوها بعد قبوله التحكيم ومحوه لقب إمرة المؤمنين من صحيفة التحكيم ، فأعلنوا انتزاع الخلافة من قريش ، ورأوا أن تعقد الخلافة لأفضل أبناء الأمة الإسلامية عن طريق الاختيار المطلق من كل قيد ، بل ذهبوا إلى أن « عبداً حبشياً » لايقل أهلية للخلافة واستعداداً عن سليل أعظم القبائل حسباً ونسباً (٣) . فهم لم يعودوا ينظرون إلى قريش نظرة تقديس ، فرغبوا فى رئيس من دمائهم حتى يستطيعوا طاعته (٤) . واعتبروا حديث الرسول « الإمامة فى قريش » حديثاً موضوعا لايعتد به ، وكان أول من عارض هذا الحديث سعد بن عبادة بعد وفاة الرسول ثم سكتت هذه المعارضة طوال عهود أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، حتى عادت بفضل الخوارج (٥) .

كان الخوارج يدعون إلى أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين ، وهذه الفكرة إسلامية عربية دعا إليها القرآن وأقرها عمر بن الخطاب لما جعل الشورى أساساً لاختيار خليفته (٦) . وخالف الخوارج المذهب الشيعى الذى يجعل الخلافة فى بيت الرسول ، والمذهب الذى يدعو إلى أن تكون

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٤

(٢) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٧٠

(٣) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ١٧٠

(٤) Nicholson : A Lit. Hist of the Arabs P298

(٥) Cont. to the hist of Isl. Civil., V. II, P, 259

(٦) أنظر كتابنا « تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى » ص ٦٣

الخلافة فى قريش ، وأضاف الخوارج إلى مبدأ الاختيار مبادىء أخرى ، فيرون أن الخليفة مرغم على قبول الخلافة ولا يحق له النزول عنها ، وإذا غير سيرته وحاد عن الحق ، وجب عزله أو قتله . ويرى خودابخش [١] أن هذا المبدأ حمل الثوار على قتل عثمان حين غير وبدل سياسته .

يذهب الخوارج فى الخلافة مذهباً بعيداً ، فإذا لم تمكنهم الظروف من تحقيق الأسس التى وضعوها لاختيار الخليفة ، فـلا مانع من الاستغناء عن الحكومة وعن الخلافة [٢] ، لأن الناس يتوازعون ويتكافون باحتياج بعضهم إلى بعض واشتباك علاقاتهم ، ففى ذلك ما يكفى لردهم عن الظلم وصدهم عن الجور وعدم الإنصاف . ويعيب ابن عبد ربه [٣] على الخوارج هذا الرأى فيقول : « إنما مـــذهبهم أن لا يكون أمير ، ولا بد من أمير برا كان أو فاجراً » .

٤ — المرجئة : ظهر حزب المرجئة بعد ظهور حزبى الشيعة والخوارج واشتداد النزاع والجدال بينهما ، فالخوارج يكفرون عليا وعثمان والحكمين ، والشيعة تكفر أبابكر وعمر وعثمان ، وكلاهما يكفر الأمويين ، والأمويين يرونهم خارجين عن الطاعة ، وكانت المرجئة ترى أن الخوارج والشيعة والأمويين مؤمنون ، وبعضهم مخطىء والبعض على الحق ، ولكن من الصعب تبيان ذلك ولذا يرجئون أمورهم إلى يوم القيامة [٤] . وتتفق المرجئة مع الشيعة الزيدية فى رأيهم فى الإمام فيحتمون أن يكون من قريش ، على أن هناك أمور تختلف

---

(١) Khuda Buksh : Cont. of the hist. of Isl Civil , V,II,P.159

(٢) ابن نشوان : الحور العين ص ١٥٠

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٨٨

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٦٦

فيها هاتان الفرقتان ، فآراء المرجئة التي تدل على التسامح والتساهل تتعارض مع رغبة الشيعة في قيام دولة ذات حكم إلهي مؤسس على الشريعة الإلهية ومحكومة بآل الرسول (١) . كما أن المرجئة كانوا يعترفون بشرعية حكومة الأمويين ؛ بينما يعمل الشيعة على مناهضة هذه الحكومة(٢) .

٥ — المعتزلة (أو القدرية) : كانت جماعة المعتزلة في بداية أمرها جماعة دينية لا دخل لها في السياسة ، على عكس ما كان عليه الخوارج والشيعة والمرجئة ، إلا أنها مزجت تعاليمها الدينية بمبادىء سياسية ، كان من أبرزها مسألة الخلافة أو الإمامة . وقد مالت فرقة المعتزلة إلى الخوارج للتشابه بين آرائهم في الخلافة ، فقد نادى المعتزلة بأن اختيار الخليفة مفوض إلى المسلمين . ويرى بعض الكتاب(٣) أن المعتزلة كانوا من ضمن حزب الخوارج ثم انشقوا عليه . يلخص المؤرخ المسعودي(٤) نظرية المعتزلة في الخلافة بقوله : (يذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، وأن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة تختار رجلا منها ينفذ فيها أحكامه ، سواء كان قرشياً أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان . ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره . وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك) .

شروط الخلافة :

الخلافة ضربان : اختيارية وقهرية . والاختيارية هي التي تكون نتيجة انتخاب الأمة وبيعتها ورضاها . ويشترط فيمن يكون مستحقاً لها أن يكون

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص ١٥٤
(٢) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ٧٦
(٣) الملطي : التنبيه والرد ص ٥٧
(٤) مروج الذهب ج٣ ص ١٥٤

جامعا للصفات المطلوبة ، والشروط اللازمة لها أربعة : العلم ، والعدالة ، والكفاية ، وسلامة الحواس والأعضاء ؛ مما يؤثر فى الرأى والعمل . واختلفوا فى شرط خامس هو النسب القرشى ، وإذا كانت الشروط الأربعة السابقة ضرورية لكل مرشح للخلافة ، فإن الشرط الخامس لم يحز إجماع الناس ليصبح قاعدة مقررة ، خصوصاً وليس فى الإسلام تفضيل لعربى على عجمى من المسلمين إلا بالتقوى والعمل الصالح فإذا كان الإسلام يمنع المفاضلة بين العربى والعجمى ، فمن المفروض أن يمنعها بين العربى والعربى .

والقهرية هى التى نالها صاحبها بالغلب والقوة ، ويرى بعض الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها ، حتى لاتكون فتنة عامة وثورة جارفة ، تمزق العالم الإسلامى .

ألقاب الخليفة :

اتخذ الخليفة ثلاثة ألقاب : (الخليفة) و (أمير المؤمنين) و (الإمام) . أما لقب الخليفة فقد ورد فى القرآن غير مرة ، ولكنه لم يرد بالمعنى الذى صار استعماله فى عهد الدولة الإسلامية ، وأول من استعمل هذا اللقب الخليفة الأول أبو بكر .

وكان يطلق على أبى بكر (خليفة رسول الله) ، فلما ولى عمر بن الخطاب كانوا يخاطبونه أول الأمر قائلين : ياخليفة خليفة رسول الله ، وكان هذا اللقب ثقيلا على الآذان ، فدعت الحالة إلى استعمال لقب آخر أسهل وأفضل ، فاستعملوا لقب (أمير المؤمنين) ، وكان عمر أول من لقب بذلك ، وقد تردد عمر فى قبول هذا اللقب أول الأمر ، لما فيه من الزهو والخيلاء ، ثم ارتضاه وقبله ، حين لم يجد أفضل منه .

أما كلمة (إمام) فقد وردت فى القرآن وكانت تعنى أول الأمر ما تعنيه

كلمة (خليفة) ولم تستعمل عند السنة إلا قليلا ، واستعملها الشيعة أكثر منهم، فأخذوا يطلقونها على أئمتهم من أولاد على بن أبى طالب وفاطمة بنت محمد . وتتمثل فى لفظ (الإمام) الصفة الدينية من حيث الإمامة فى الصلاة التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين ، ولذا نرى الشيعة يستعملون هذا اللفظ لأنهم يعتقدون أن لأفراد البيت العلوى الذين يرون أحقيتهم قوة إلهية مقدسة ، كما يعتقدون فى المهدى أى الهادى إلى الطريق المستقيم وقد ورد لفظ أمام فى القرآن بمعنى الزعيم أو الدليل أو الرئيس . كما فى هذه الآية الكريمة (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات)[1] ،وكان النبى يؤم الناس فى الصلاة باعتباره زعيما للمسلمين ، وكان اختيار الرسول لأبى بكر ليصلى بالمسلمين خلال مرضه من الأسانيد التى اعتمد عليها أبو بكر فى تولى الخلافة[2] .

تحدث (أرنولد) عن ألقاب الخليفة فقال : إن الفقهاء حينما أخذوا يبحثون عن سند لاستعمال ألقاب الخليفة لم يوفقوا تماما ، فلم يظفروا بلفظ «إمام» بالمعنى الذى أرادوه . وعلى الرغم من أنهم قد ظفروا بلفظ « خليفة » ، فإن ذلك لم يرد فى القرآن بالمعنى المقصود فى الإسلام . وقد بحث فقهاء المسلمين عن سند فى القرآن يبنون عليه نظريتهم فى الخلافة ، كما رجع رجال الدين المسيحى إلى الأنجيل للاهتداء إلى الأغراض البابوية والإمبراطورية ، ومع أن لفظ « خليفة » قد ورد فى القرآن ، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن نستدل منه على وجود نظام سياسى لحكم المسلمين .

علامات وشارات الخلافة :

١ — البردة : هى بردة الرسول التى كان يرتديها إلى أن أعطاها للشاعر كعب بن زهير بن أبى سلمى ، الذى كان قد أعلن توبته وندمه على هجاء

---

(١) سورة الأنعام آية ١٦٥

(٢) غروب الخلافة الاسلامية ص ٢٤

الرسول ثم مدح الرسول بقصيدته المشهورة التى مطلعها : (بانت سعاد فقلبى اليوم متبول) ، وتداول أهل كعب البردة إلى أن اشتراها منهم معاوية بن أبى سفيان بأربعين ألف درهم ، وتوارثها الأمويون والعباسيون .

٢ ــ الخاتم : صنع الرسول خاتما حينما بعث خطابه المشهور إلى كسرى فارس ، وكان الأكاسرة لا يقبلون كتبا بدون أختام ، فصنع الرسول خاتما من فضة ونقش عليه «محمد رسول الله» وانتقل الخاتم إلى أبى بكر ثم إلى عمر ، ثم إلى عثمان ، ولكن الخاتم سقط من أصبع عثمان فى بئر أريس ، فاصطنع عثمان خاتما مثله . وحرص كل خليفة على اصطناع خاتم ، يختمون به كتبهم بالطين أو المداد أو الشمع . وكان معاوية أول من أنشأ ديوان الخاتم ، فقد زور عمرو بن الزبير فى كتاب لمعاوية لواليه بالعراق زياد بن أبيه يأمره فيه بمنح عمرو مائة ألف درهم فجعل عمرو المائة مائتين ، فأراد معاوية تلافى مثل هذا الحادث .

٣ ــ القضيب : هو ثالث علامات الخلافة ، فإذا تولى الخليفة جاؤوه بالبردة والخاتم والقضيب وظل الأمر على ذلك فى الدولة الأموية والدولة العباسية .

٤ ــ الخطبة : هى الدعاء للخلفاء على المنابر فى الصلاة ، وأصلها أن الخلفاء كانوا يتولون إمامة الصلاة بأنفسهم فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للرسول والرضى عن الصحابة فلما فتحوا البلاد وبعثوا إليها العمال ، صار الولاة يتولون إمامة الصلاة فى ولايتهم ، فكانوا إذا صلوا ختموا الصلاة بالدعاء للخلفاء . وأول من فعل ذلك منهم عبد الله بن عباس لما تولى البصرة فى عهد على بن أبى طالب ، فإنه وقف على منبر البصرة وقال : « اللهم أنصر عليا على الحق » . ثم أصبح الأمر عرفا ، فصار يدعى للخليفة على منابر البلاد التى تخضع لسلطته .

٥ ـــ السكة : ومن شارات الخلافة نقش اسم الخليفة على السكة ، أى العملة ، بطابع من حديد .

٦ ـــ الطراز : حرص الخلفاء الأمويون ثم العباسيون على رسم أسمائهم أو علامات مميزة على أثوابهم ، وعلى ثياب كبار رجالهم وجنودهم .[١]

---

(١) أنظر كتابنا « غروب الخلافة الاسلامية » تجد كثيراً من التفاصيل حول موضوع الخلافة .

٥ - المسجد كمركز للحضارة العربية الإسلامية

مسجد المدينة أول المساجد فى الاسلام :

كان مسجد المدينة هو أول مسجد أنشأه المسلمون فى صدر الإسلام . فقد خرج محمد صلى الله عليه وسلم وصديقه أبو بكر مهاجرين من مكة إلى يثرب ، فوصلا فى نهاية رحلتهما الشاقة إلى (قباء) وهو تل على بعد ميلين من مكة ، وكان مصيفاً لأهل مكة ، يرسلون اليه مرضاهم إذ كان هواؤه عليلا نقيا ، كما امتاز بالخصوبة فكان يمد مكة بما تحتاجه من فاكهة . وحينا بلغ الصديقان هذا المكان الخصب ، بركت ناقة محمد (القصواء) وأبت الاستمرار فى السير ، ورأى الرسول أن يمكث فى قباء حتى يتأهب لدخول المدينة . وأقام المسلمون فى هذا المكان مسجدا سموه مسجد (التقوى) تخليدا لهذه الذكرى المجيدة . وتذكر معظم المصادر العربية أن الرسول هو الذى أنشأ المسجد ثم أكمله عمار بن ياسر ، وقد جاء ذكره فى الآية ١٩٨ من سورة التوبة .

كانت الأرض التى أقيم عليها مسجد المدينة الجديد ملكا لأخوين يتيمين هما سهل وسهيل ، سألهما الرسول عن ثمن الأرض فأبديا استعدادهما للتبرع بها فقالا: لا نطلب ثمنا لها إلا ثوابا من الله . لكن الرسول حدد ثمنها بعشرة دنانير دفعها أبو بكر من ماله [١] . وكانت هذه الأرض تنتشر عليها القبور وأشجار النخيل ، فنقلت الجثث من القبور ، وقطعت أشجار النخيل ، ثم بنى محمد

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٦٣

مسجدا بسيطا فى مظهره وطريقة بنائه ، يتناسب مع الدين اليسر السمح الذى يدعو اليه (١) .

كان هذا المسجد عبارة عن ساحة مكشوفة إلى السماء تحيط بها جدران من اللبن ، وقد أمر الرسول فيما بعد أن تمد السقوف المسطحة من الأبنية المجاورة حتى تحيط كل الساحة المكشوفة اتقاء للشمس . وكان السقف مكونا من جذوع النخل التى اتخذت كدعائم يرتكز عليها الجريد والطمى وبلغت مساحة المسجد حوالى مائة ذراع مربع ، وكان له ثلاث أبواب ، أحدها نحو الجنوب حيث أصبحت القبلة فيما بعد ، والثانى كان يسمى باب جبريل ، والثالث باب الرحمة .

اشترك الرسول بيده فى بناء هذا المسجد . وعند ارساء الأساس حمل الرسول حجراً ضخماً فالتصق الغبار بصدره ، وأراد الصحابة نهيه عن ذلك لكنه أبى ، وأمر أبا بكر أن يضع حجره إلى جنب حجر الرسول ، ثم أمر عمر ابن الخطاب أن يضع حجره إلى جانب حجر أبى بكر ، ثم وضع أشراف المسلمين أحجارهم ، وتبعهم عامة المسلمين ، وكان الرسول يحمل اللبنات فى ثوبه ، فيحذو المسلمون حذوه (٢) .

أصبح هذا المسجد فيما بعد قبراً للرسول وحرما نبويا . ورغم أنه قد أدخل عليه فيما بعد اصلاحات كثيرة فزادت مساحته إلا أنه ظل دائما يحمل اسم (المسجد النبوى) فقد بناه الرسول بيديه (٣) .

تميز كل شىء فى المسجد فى بداية الأمر بالبساطة التامة . فكان يضاء فى

---

(١) انظر كتاب « حياة محمد » لارفنج الذى قمنا بترجمته ص١٢٥

(٢) الطبرى ج ٢ ص ١٦٥

(٣) أ. فنج : حياة محمد ص ١٢٦

الليل بسعف النخل ، فلم تكن قد عرفت المصابيح والزيت بعد . وكان الرسول يخطب فى المسلمين وهو واقف على الأرض مستنداً بظهره إلى جذع نخلة من الجذوع التى استخدمت كأعمدة للمسجد وبعد فترة ، أقام منبراً جعله يرتفع ثلاث درجات عن المسجد ، وكان الرسول يخطب من فوق للنبر جالساً أو واقفاً أو مستنداً إلى عصا .

لا نستطيع أن نجزم إذا كان الرسول قد اتخذ له محرابا لتحديد اتجاه القبلة فى مسجده أم لا . وكان الناس إذا قاموا للصلاة وقفوا صفوفا متوازية مولين وجوهم شطرا الجدار المواجه لبيت المقدس ثم حول الاتجاه فيما بعد إلى مكة . وكان بلال الحبشى يعتلى السقف المسطح ويدعو المسلمون بصوته الندى إلى الصلاة . من هذا الوصف يمكن أن نرى مميزات المسجد الجامع فى أبسط صورها ، وهى الصحن والسقف لوقاية المسلمين والمنبر[١] .

المساجد فى الامصار الإسلامية فى فجر الاسلام :

فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر بن الخطاب خرجت الجيوش الإسلامية من الجزيرة العربية إلى الأقطار المجاورة الخاضعة للدولتين الفارسية والرومانية تفتحها وتنشر فيها الإسلام والحضارة العربية . وكان المسلمون يحرصون على بناء مسجد جامع عند إنشائهم المدن فى الأمصار المفتوحة لأنه أبرز صورة يعبرون بها عن سيادة الدين الإسلامى[٢] .

تقدم العرب فى الأراضى الفارسية والرومانية ، وأسقط هذا التقدم فى حوزتهم عدداً لا يحصى من المبانى التى شادها صناع أكثر منهم فناً ، فورث العرب الخبرة والمهارة الفنية . وقد كان من نتيجة هذا الإندماج أن تطورت

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص٣٢٣

(٢) انظر كتابنا « تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى » ص ٣٢٧

حاجات المجتمع الإسلامى الدينية التى حددها مسجد المدينة واصطبغت بصبغة الأقاليم التى فتحوها ، فنشأ بمرور الزمن فن يطلق عليه اسم الفن الشرقى أو الفن العربى أو الإسلامى . أما مادة البناء فسواء أكانت من الحجر أو الآجر أو اللبن فهذه كانت تخضع للظروف الغالبة فى كل منطقة ، ففى الشام تأثرت العمارة الإسلامية بطراز الشام المسيحى البيزنطى وما سبقه من الأطرزة الوطنية والرومانية . وفى العراق وفارس تأثرت بالطراز النسطورى والساسانى الذى أقامته التقاليد هناك . وفى مصر كان السكان الأقباط من أهل البلاد يقومون بعمل الزخارف البديعة .

كانت ثقافة وفنون الأمصار المفتوحة ذات طابع يونانى وسريانى وقبطى وفارسى ، نستطيع أن نجمل وصفها بقولنا أنها ثقافة هيلنية مسيحية . وقبل أن يلم العرب بالثقافة الهيلينية كانوا قد ألفوا منذ زمن طويل الفن الهيلينى وعمائره . ويستطيع المرء أن يتبين جلياً التفاعل والتجاوب بين الإسلام والنصرانية فى ميدان الفن . ذلك أن جيوش الإسلام رأت فى المدائن ودمشق وبيت المقدس ومصر أعمال الفن من عمارة ونحت ، وشاهدت بدائع الصناعات كالنسيج والصباغة ، فأيقظ ذلك كله فى نفوس العرب الرغبة فى تقليدها وجلبها لأنفسهم . ذلك أن العرب على النقيض من الشعوب الهمجية ، تجنبوا التخريب ، وحافظوا على تلك الكنوز الفنية ، وأضفوا عليها طابعهم الخاص (١) .

ظهرت عدة مدارس متميزة للفن العربى وهى : (١) السورى المصرى وكان يحتذى فيه المثل اليونانى الرومانى وما سبقه من أطرزة وطنية . (٢) الطراز العراقى الفارسى المأخوذ من الطراز الساسانى والطرازين

(١) جوزيف هل : الحضارة العربية « ترجمة الدكتور العدوى » ص ٥٩

الكلدانى والآشورى القديمين (٣) طراز الأندلس وأفريقية الشمالية ويتضح فيه الأثر الوطنى المسيحى والقوطى وكان ما يسمى الطراز المغربى (٤) الطراز الهندى وتبدو فيه معالم الطراز الهندوسى[١] .

كان أول مسجد جامع أنشأه المسلمون فى الأمصار هو مسجد المدائن بالعراق[٢] ، وقد أنشأه سعد بن أبى وقاص وأصحابه[٣] . فما كاد سعد يدخل المدائن حتى « أمر الناس بايوان كسرى فجعل مسجداً للأعياد،ونصب فيه منبراً ، فكان يصلى فيه وفيه التماثيل»[٤] . وعند إنشاء البصرة قام عتبة ابن غزوان ببناء مسجدها ، وعند تمصير الكوفة قام سعد بن أبى وقاص ببناء مسجد فيها ، ثم بنى سعد مسجد الأنبار[٥] . وكان مسجد الكوفة كمسجد البصرة فضاء مربعاً مكشوفاً تحيط به أسوار من القصب حولت فيما بعد إلى أسوار من الطمى واللبن . وكان المسجدان يشبهان مسجد الرسول فى المدينة .

وفى مصر ، بنى عمرو بن العاص فى الفسطاط أول مسجد فى القارة الأفريقية ويذكر (هل)[٦] أن عمرو استعان بمهندس نصرانى ، فقد كان مرتبطا بمعاهدة مع المسيحيين ، تقضى بترك كنائسهم وعدم التدخل فى شئون عبادتهم . وكان جامع عمرو مستطيل الشكل ، بسيطاً ، ليس محراباً ولا مئذنة ، وقد زوده عمرو فيما بعد بمنبر صنعه وأهداه إليه ملك النوبة المسيحى .

وفى الشام ، وجد العرب فى دمشق كنيسة القديس يوحنا ، التى كان لها

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٢٤ « ترجمة مبروك نافع » .
(٢) نخالف بذلك رأى الدكتور حتى الذى يذهب إلى أن أول مسجد هو مسجد البصرة.
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩٨
(٤) الطبرى ج ٤ ص ١٧٧ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩٨
(٦) الحضارة العربية ٥٩

تأثير عميق فى نفوسهم جعلهم يتخذونها مقراً لصلاتهم ، وكان بناء معماريا فاخراً ، مشيداً على أطلال معبد وثنى ، ولها باب عظيم ، فتكون سدته من أعمدة كورنثية تعلوها تيجان ثمينة الزخرفة ، وتغطى قبابها صحن الكنيسة ، على حين تغطى الفسيفساء المذهبة المتلألئة جزءاً من جدرانها الداخلية . وأخذ المسلمون الأجزاء الشرقية لأنفسهم ، وأصبحوا يمرون مع المسيحيين من باب واحد لأداء الصلاة فى القسم الخاص بهم ونقب المسلمون فى بيت المقدس عن المسجد الأقصى (معبد سليمان من قبل) الذى تحدث عنه النبى ليلة أسرى به ، وشيد عمر عند المكان الذى عرج منه الرسول مسجدا[1] .

لما تولى معاوية بن أبى سفيان أراد أن يزيد كنيسة القديس يوحنا فى المسجد بدمشق ، فأبى النصارى ذلك فأمسك ، وحاول عبد الملك بن مروان أن يدفع لهم مبلغاً من المال فأبوا أيضاً . وأعاد الوليد بن عبد بن عبد الملك نفس المحاولة وهدد بهدم الكنيسة ، ونفذ وعيده فهدم الكنيسة وأدخلها فى المسجد . فلما تولى عمر بن عبد العزيز شكى النصارى إليه ما فعل الوليد بهم فى كنيستهم ، فكتب إلى عامله يأمره برد ما زاده فى المسجد عليهم ، فكره أهل دمشق ذلك ، وأخيرا اتفق عمر مع النصارى على أن يترك لهم جميع كنائس الغوطة مقابل عدم مطالبتهم بكنيسة يوحنا[2] .

كان مسجد المدينة أول مسجد صنع له محراب ، وسرعان ما أصبح المحراب ظاهرة عامة فى كل المساجد ، وكان يعتبر مكانه أقدس الأماكن فى البناء ، ومن أجل ذلك كانت المحاريب يبالغ فى زخرفتها كثيرا ، ونستطيع بناء على هذا أن نقرر أنها تعتبر القياس الذى تقاس به تطور الأزمنة فى فن الزخرفة الإسلامية .

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ٥٩

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣١

بعد مصرع على بن أبى طالب ومحاولة الاعتداء على حياة معاوية بن أبى سيفان ، أدخل معاوية المقصورة على المسجد ، وهو جزء فى داخل المسجد يحيط به سياج . وكما أدخل الأمويون المقصورة ، أدخلوا المئذنة ، وعلى ذلك فبلاد الشام تعتبر الموطن الأصلى للمئذنة وفيها كانت المئذنة تأخذ شكل برج المرقب الوطنى أو برج الكنيسة المربع الذى تلاه . فقد كانت مئذنة المسجد الأموى فى دمشق فى الأصل مرقباً (ناطورا) يتبع كنيسة القديس يوحنا (١) .

ثم زيد الايوان على المساجد ، وهو عبارة عن صحن كبير تقوم فيه الأعمدة الضخمة ، ترد المطر وحرارة الشمس ، كما تقوم فيه فى الوقت نفسه نفسه أقنية الماء لوضوء المصلين ، وأصبحت المساجد تضاء بالشموع والقناديل (٢) .

كانت المساجد التى شيدت خلال العصر الأموى أكثر فخامة من المساجد التى شيدت فى بداية الفتح العربى ، ويعلل (ديمومبين) (٣) ذلك بأن الفاتحين من المؤمنين كانوا شديدى الاعجاب بفخامة الكنائس النصرانية فأرادوا أن يظهروا قدرتهم على أن فى إمكانهم أن يضارعوا النصرانية ويبنوا مساجد لاتقل جمالا عن كنائسهم

دور المساجد فى حياة المسلمين السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية

كانت المساجد فى فجر الإسلام مركزاً من مراكز الحياة العامة : مركزاً للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والإجتماعية إلى جانب وظيفته الدينية . كان المسجد مركزاً للناس ، ومقراً للسياسة ، ومعهداً للعلوم المختلفة ، فيه يجتمع الناس ، وفيه ينتقدون حكامهم ، وفيه تذاع قرارات الدولة ، أو تعلن الثورة ، وفيه تدرس العلوم والآداب والفقه ، فقد كان المسجد يختلف تماماً عن مساجد

---

(١) حتى تاريخ العرب ص ٣٢٧ (٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٥٣
(٣) النظم الاسلامية ص ٢٦٣

اليوم ، ويمكننا أن نشبه بالبرلمانات فى الوقت الحاضر ، فقد كان يشبه الميدان الرومانى كمركز للحياة السياسية والاجتماعية [١] .

اتخذ ولاة الخلفاء الراشدين من المساجد أماكن مختارة يصرفون منها شئون الحكم ويحفظون فيها أموال المسلمين [٢] . ولعبت المساجد دوراً فى بث روح الثورة فى نفوس أهالى الأمصار الاسلامية ضد عثمان بن عفان [٣] . ثم أصبحت المساجد فى عهد الدولة الأموية هى كل شىء بالنسبة لولاة الأمصار ، فقد كان على كل أمير أن يقصد إلى مسجد الولاية حين يوليه الخليفة عليها ، وهناك يعلن سياسته الجديدة على الناس من منبرها ، وبعد قيامه بهذا الواجب التقليدى يصبح أميراً لهذه الولاية ووكيلا للخليفة بصورة رسمية شرعية . وكانت كتب الخليفة وأوامره تقرأ على الناس فى المساجد . وكثيراً ما كان الولاة الأمويون يبعثون مناديهم لينادوا فى الطرقات العامة يدعون أهلها إلى صلاة جامعة ولا يكون اليوم يوم جمعة ، ومعنى ذلك أن الوالى يريد الصلاة فى المسجد ويريد أن يحضر اجتماعه كل المسلمين حتى يبلغهم أمرا أو يشرح سياسة جديدة ، وكان بعض الولاة يأمرون الشرطة باحضار الناس إلى المسجد بالقوة ، وكان منادى زياد بن أبى سفيان ينادى فى طرق الكوفة « ألا برئت الذمة من رجل من الوفاء والشرط والحرس لم يحضر المسجد » [٤] وكان زياد يخرج سريره من قصر الأمارة إلى مسجد الكوفة حتى يجتمع الناس حوله ، فقد كان يكره اجتماعهم فى بيوتهم [٥] . وكانت المساجد المكان الذى تحشد عندها الجيوش ، وتخرج منا قاصدة وجهتها للقيام بالفتوح والغزوات .

---

(١) أرنولد الخلافة ص ١٧ (٢) الطبرى ج ٤ ص ١٩١

(٣) الأصفهانى : الأغانى ج ١١ ص ٢٨ « طبعة دى ساسى »

(٤) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٥٣ (٥) المرجع السابق ص ٢٣٦

كانت أرض المساجد تغطى عادة بالحصباء . وجرت عادة أهل العراق فى مساجدهم أن يحصبوا ولاتهم إذا لم يعجبهم حديثهم ، وكان المغيرة بن شعبة يسكت عن حصبهم له ، ولكن زياد بن أبى سفيان أراد أن يمنع هذه العادة فلما حصبه أهل الكوفة فى المسجد أرغم جميع الحاضرين على القسم على عدم اشتراكه فى الحصب ، وقطع أيدى كل من أبوا القسم [١] ، وأخيراً رأى زياد أن ينشىء المقصورة فى مسجد الكوفة ليتجنب حصبه [٢] ، وكانت المقصورة عبارة عن سياج حول المحراب [٣] . أما الحجاج بن يوسف فكان يأمر حرسه بالوقوف على أبواب مسجد البصرة حتى إذا حصبه أهلها أعملوا فيهم القتل [٤]

كانت المساجد مركزا للقيام بالشعائر الدينية ، وكانت المصاحف تحفظ بالمساجد ، واهتم الولاة الأمويون بالأذان والخطب فى المساجد . وكان المؤذنون يتوارثون — عادة — الأذان [٥] . وكان بشر بن مروان بن الحكم أول من أحدث الأذان فى العيدين ، وأول من جعل الخطبة خطبتين وقعد فى الأولى منهما [٦] . وكانت الإمامة فى الصلوات الخمس فى المساجد الحكومية لمن ينتدبه الوالى أو الخليفة ورزقه من بيت المال ، أما مساجد العامة فالامام يختار برضاء المصلين ، أما الأمامة فى صلاة الجمعة فهى للوالى أو نائبه [٧] . وكان المحتسب يمنع إطالة الصلاة ، لأن الضعفاء يعجزون عن ذلك ، كما أن هذه الإطالة تعطل أصحاب الأعمال ، وكان الرسول ينهى عن ذلك دائما [٨] . كما كان المحتسب يعاقب كل من ترك صلاة الجمعه [٩] .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٣١ — (٢) الطبرى ج ١ ص ١٣٢
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٨ — (٤) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٣٢
(٥) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٤٦ — (٦) ابن رسته: الأعلاق النفسية ص ١٩٩
(٧) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٣٠
(٨) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤٣ — (٩) المرجع السابق ص ٢٤٣

اتخذ المسلمون المساجد مركزاً من مركز الحياة الاقتصادية ، فكانت مكاناً يحتفظ به الخلفاء والولاة لحفظ الخزانة العامة، وكان الصيارفة يجلسون على أبواب المسجد حيث يقومون بعمليات مبادلة العملة النقدية أو اقراض المحتاجين ، كما كان كثير من التجار يحرصون على عقد صفقاتهم التجارية فى المساجد ، وكثيراً ما أقيمت الأسواق على مقربة من المساجد .

لعبت المساجد دوراً كبيراً فى النهضة العلمية والأدبية فى صدر الإسلام ، وخاصة مساجد البصرة والكوفة ، فقد صارت هاتان المدينتان مركزين نشطين للحياة العلمية ، ولم يكن فى القرن الأول الهجرى مدينة تستطيع منافستهما، ففيهما وضعت علوم العقائد والفقه ، وفيهما نشأت مدرسة النحويين واللغويين (١) . ولذا يعتبر (نيكلسون) (٢) البصرة مركز الحياة العقلية فى الإسلام . ولعل من الأسباب التى أدت إلى ازدهار الحياة العلمية والأدبية فى العراق فى العهد الأموى أن أهل العراق رأوا أن ينصرفوا عن السياسة حتى لا يتعرضوا لاضطهاد ولاتهم الأمويين ، فوجهوا اهتمامهم إلى الاشتغال بالعلوم والآداب ، كما أن الموالى أرادوا أن يصلوا إلى مرتبة العرب ، فأقبلوا على تعلم اللغة العربية حتى إذا أجادوها بدأوا ينهلون من مناهل الأدب والعلم (٣) .

شهدت المساجد الكثير من مظاهر هذه النهضة العلمية والأدبية ، وكان لكراهية بعض المسلمين للغناء والموسيقى والفنون أثره فى نشاط المجالس الأدبية فى المساجد (٤) . وكانت المساجد بمثابة مدارس يقصدها طلاب العلم ، فقد كان كل عالم يتخذ سارية من سوارى المسجد يجلس تحتها ، ويلتف طلابه وتلاميذه

---

(١) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٤٠

(٢) Lit. Hist. of the Arabs, P. 220

(٣) انظر كتابنا « تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى » ص ٣٢٩

(٤) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢ ص ١١٩

حوله . وهناك كانت الصبية تتلقى دروس القرآن ثم العلوم العربية كالتفسير والحديث والفقه وأصول الدين والنحو واللغة والبيان والأدب . وكان المحتسب يراقب المعلمين حتى لا يقصرون فى عملهم(١) وكثيرا ما شهدت المساجد المجالس الأدبية التى كان يعقدها العلماء ، وتدور فيها محاورات أدبية حول التفضيل بين الأمصار والمدن(٢) . كما شهدت المساجد كثيراً من المحاورات والمناقشات التى تدور حول العصبية القبلية وتفضيل قبيلة على أخرى وخاصة بين تميم وقيس .

كان القصاص يتخذون من المساجد مكاناً مختارا لقص قصصهم . فيجلس القاص بالمسجد ويلتف حوله الناس ، فيروى لهم القصص والتواريخ التى تمتزج فيها العبرة بالتسلية . وكان هناك نوعان من القصص : قصص العامة ، وقصص الخاصة « فأما قصص العامة فهو الذى يجتمع إليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم ، فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه ، وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية ، ولى رجلا على القصص ، فإذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ودعا على أهل حربه وعلى المشتركين كافة(٣) » .

كان على بن أبى طالب يأمر بطرد القصاص من المساجد ، أما معاوية فقد اعتمد على القصص فى تأييد ملكه ودولته . وأشهر من قام بالقص فى العراق الحسن البصرى ، وكان يعتمد على التذكير بالآخرة ، ويستخرج العظة مما يقع حوله من أحداث ، وكان يجلس فى آخر مسجد البصرة وحوله الناس يسألونه

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ٢٤٢
(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٥ ص ١٤٩
(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٥٣

فى الفقه وفى حوادث الفتن التى عاصرها فيحدثهم بما صح عنده من حديث ، ويقص عليهم فيعظهم ويذكرهم[١] . ومن أبرز القصاص صالح بن مسرح ، أحد زعماء الخوارج ، وكانت كل قصصه تدور حول الأمر بالتقوى ، والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، وكان يكثر من ذكر الموت[٢] .

وكانت المساجد أيضاً مسرحاً لإنشاد الشعر ، فكان الشعراء على اختلاف أديانهم وأوطانهم ، ينشدون قصائدهم من فوق منابرها فكان الأخطل الشاعر النصرانى يدخل مساجد الشام والعراق فيقف المسلمون له إجلالا[٣] . وشهدت المساجد الكثير من المفاخرات القبلية والحزبية ، والمفاخرات والنقائض بين الشعراء ، وخاصة بين جرير والفرزدق ، وكثير والأحوص ، والكميت والطرماح[٤] . وكان الكميت نزارى شيعى يتعصب لمضر (العدنانية) ، بينما كان الطرماح شامى قحطانى يتعصب للقحطانية (اليمنية) ، فتعصب الكميت لأهل الكوفه بينما تعصب الطرماح لأهل الشام[٥] .

استفاد المسلمون من المساجد فى بعض الأغراض الاجتماعية المختلفة ، فيها يتلاقى الناس فيتحادثون ويتسامرون ويتآلفون ، ويقيمون فيها بعض احتفالاتهم فى الأعياد والمواسم الدينية والاجتماعية ، ويعقدون بها عقود الزواج . وكانت (الخاطبات) يجلسن فى المساجد لمارسة مهنتهن ، فيحدثنا ابن عبد ربه[٦] عن امرأة كانت تداوم الجلوس فى مسجد البصرة ، وكانت تمتهن التوفيق بين الرجال والنساء بالزواج ، وكان الرجال يحتشدون حولها فى المسجد وكل يذكر لها

---

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٩٢
(٢) الطبرى جـ ٧ ص ٢١٧
(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ ٧ ص ١٧١
(٤) الأصفهانى : الأغانى جـ ٧ ص ٦٨ و جـ ١٠ ص ١٤٩
(٥) الأصفهانى : جـ ١٥ ص ١٠٩
(٦) العقد الفريد جـ ٦ ص ١٠٧

الشروط التي يرى وجوب توفرها فى زوجة المستقبل . وكان زياد بن أبى سفيان ونائبه سمرة بن جندب يجلسان فى مسجدى البصرة والكوفة لحل المشاكل الزوجية وإزالة الخلاف بين الأزواج والزوجات .

لا نأخذ على المساجد فى فجر الإسلام إلا أنها كانت مظهراً من مظاهر العصبية القبلية ، فقد كانت كل قبيلة تقيم مسجداً ليصلى فيه أبناء القبيلة ، أما المساجد الجامعة فكانت مقسمة إلى أقسام قبلية ، فتختص كل قبيلة بجزء من المسجد ، فلا تلتقى بغيرها من القبائل . ففى الكوفة — مثلا — كان مسجدها أول بناء خطه سعد بن أبى وقاص ، وحرص سعد أن يمثل هذا المسجد الروح القبلية أصدق تمثيل ، فجعل لكل قبيلة مكاناً بهذا المسجد[1] . وكان هذا التقسيم القبلى للمسجد يناقض الحكمة التى قصدها الله من الصلاة ، وهى أن يتساوى جميع المسلمين بين يدى خالقهم . وقسمت المدن الإسلامية الجديدة فى الأمصار إلى أقسام قبلية فكان لكل قسم قبلى مسجد خاص بهذه القبيلة ، ولا شك أن هذا التقسيم أدى إلى استمرار الفوارق القبلية وإذكاء نيران العصبية بين القبائل .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٩٤

٦ — الحضارة العربية فى العصر العربى الإسلامى

أولا : حضارة الاقتصاد :

التجارة فى الاسلام :

لا تميز الشريعة الإسلامية بين المعاملات التجارية والمدنية ، ولا تفرق بين التاجر وغير التاجر فى الحكم ، ومعنى هذا أن الشريعة الإسلامية — وهى منزلة فى منتصف القرن السابع الميلادى — لا تعترف بإنفصال المعاملات التجارية عن المعاملات المدنية ، فأحكامها جامعة شاملة لجميع المعاملات دون تفرقة ، بخلاف القوانين الحديثة ، حيث نجد قانوناً تجارياً خاصاً مستقلاً عن القانون المدنى .

وإذا قال أحد أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان تاجرا قبل أن يكون رسولا ، فنقول أن التجارة التى كان يزاولها ويقوم بها رسول الله تخالف نظم التجارة الحديثة ، إذ أنها كانت عبارة عن النقل والتوزيع ، أى نقل السلع والمحاصيل من مكة إلى الشام أو من بلد إلى آخر ، وتوزيعها بين المستهلكين توزيعاً يراعى فيه العدالة والإنصاف ، ويقصد به تدعيم الألفة والأخوة . وقد كانت تلك التجارة التى تشبعت بها مكة والطائف جميعاً ، والتى كانت تجىء إلى مكة من بلاد الجنوب ، تجارة واسعة النطاق ، حتى لقد كانت بعض القوافل تسير فى ألفى بعير ، حمولتها تزيد على خمسين ألف دينار ، وكانت صادرات مكة السنوية ، على ما قدرها المستشرق (سبرنجر)

توازى مائتين وخمسين ألفاً من الدنانير ، أى نحو مائة وستين ألف جنيه ذهباً .

وفوق ذلك كله كان محمد يقوم بالتجارة فترة قصيرة من الزمان لا لأجل الارباح ، وإنما لأجل حياة التفكير والتأمل ، إذ ظل محمد طول حياته أشد الناس زهداً فى المادة ورغبة منها ، والذين يتوقون إلى المال ويلهثون فى طلبه إنما يبتغون لإرضاء شهواته ، ولم يعرف محمد طوال حياته شيئا منها .

روى ابن اسحق : « . . . وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها ، وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم ، وكانت قريش قوما تجارا ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا ، وتعطيه أفضل ما تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة . فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، وخرج فى مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة ، حتى قدم الشام . . . فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريبا » .(١)

ضرب محمد مثلا فى ميادين التجارة ، وحدد عمليا معنى التجارة وأشكالها وأساليبها ومثل هذه التجارة هى التى نريد أن نتبعها وأن نطبقها فى حياتنا الإقتصادية .

ولا يمكن أن يحصل هذا إلا إذا كان من عادة الناس عامة أن ينفقوا ما ينالون من الثروة أثناء سعيهم الاقتصادى بسعة قلوبهم بدرجة أنهم إذا نالوا من الثروة ما يزيد عن حاجاتهم حولوه إلى الفقراء والمعوزين من أفراد الجماعة ليمكنوهم من الإسهام إلى جانبهم فى اشتراء مرافق حياتهم اللازمة .

---

(١) الروض الأنف (جـ ١ ص ١٢١)

اهتم الإسلام بشروط التجارة وخاصة الصورة العامة لعقود البيع، أما التفاصيل فقد تركت للفقهاء ينظمونها حسب آرائهم. وأول شروط العقود هى إتفاق البائع والمشترى، وقد يكون إتفاقا مدونا أو شفهيا، والشرط الثانى أن يكون موضوع العقد تجارة نافعة حلالا. وعرف المسلمون فى فجر الإسلام عقود الرهون والودائع، فكثيرا ما كان التجار يرهنون بعض أنواع تجاراتهم ليحصلون على نفقات سفرهم إلى مدن أخرى للتجارة، كما عرفوا نظام المقايضة وقد سمح بعض الفقهاء بالمشاركة بين المسلم والذمى على أن يكون المسلم حاضرا جميع عمليات البيع والشراء ولكنهم حرموا إستدانة المسلم من الذمى[1].

اتبعت الحكومة الإسلامية سياسة حرية التجارة، فلم تقيد نقل السلع بين مختلف ولاية الدولة الإسلامية، ولم تحتكر تجارة أية بضاعة أو تمنع مبادلتها، ولا ريب أن هذه السياسة أتاحت لبعض الأفراد فرصة إحتكار بعض السلع، غير أن إحتكاراتهم كانت فى الغالب محلية مؤقتة فردية لا تدعمها إمتيازات حكومية، لذلك لم يكن لها تأثير مستمر على الأسعار أو شامل لكافة أنحاء الإمبراطورية الإسلامية. وكان المسلمون عامة ينفرون من هذه الاحتكارات الفردية، فهناك كثير من أحاديث الرسول تذم الاحتكار.

بين الربا والتجارة :

الربا فى اللغة هو الزيادة، والمراد به فى الآية كل زيادة لم يقابلها عوض جاء فى القرآن الكريم : « وأحل الله البيع، وحرم الربا »[2] وهاتان جملتان تعطيان حكمين متقابلين لعقدين متناقضين، أولها عقد المعارضة العادل الذى يقوم على تبادل المنافع بين الناس أى البيع وله ضماناته التى تحقق مصالح البائع

(١) انظر فصل التجارة فى كتابنا (تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى) ص ٣٦٤
(٢) سورة ٢ آية ٢٧٥

والشارى وثانيهما عقد المراباة الذى ينص على زيادة لا مقابل لها عن طريق النص والشرط الظاهر .

هناك فرق كبير بين البيع والربا ، فالبيع هو أن يقدم البائع سلعة إلى المشترى ، فهناك تستقر بينهما قيمة لهذه السلعة ويتسلمها المشترى من البائع نظير هذه القيمة ، فهذه الصورة من التعامل لا تخلو من أحد الأمرين إما أن يكون البائع قد هيأ هذه السلعة للمشترى بجهده وبإنفاقه عليها من ماله أو اشتراها من غيره . فهو فى كلتا الصورتين يضيف أجهزة جهده إلى رأس ماله الذى أنفقه على السلعة فى اشترائها أو تهيئتها ، فهذا هو ربحه .

أما الربا ، فهو أن يعطى الرجل رأس ماله رجلا آخر على أن يرده إليه بزيادة معينة ففى هذه الصورة من المعاملة تصبح الزيادة نظير التأجيل الذى قد تم الاتفاق عليه بين الرجلين كشرط فى المعاملة ، وهو ما يسمى « الربا » وكأن الربا مزيج من ثلاثة أجزاء : (١) الزيادة على رأس المال (٢) تحديد الزيادة باعتبار المدة (٣) كونها شرطا فى المعاملة ، فكل معاملة للدين توجد فيها هذه الأجزاء الثلاثة هى معاملة ربوية من غير شك .(١)

وهناك فروق خلقية وإقتصادية تفرق بين التجارة والربا . ففى التجارة يستفيد كل من المشترى والبائع ، فيستفيد المشترى من السلعة التى اشتراها ، أما البائع فينال أجره على كفاءته وجهوده . أما فى المعاملة الربوية ، فيأخذ الدائن من المدين مقدارا معلوما من المال ينفعه وقد لا ينفعه . والبائع مهما أسرف ربحه فإنما يناله مرة واحدة ، ولكن ربح الدائن فى المعاملة الربوية له سلسلة لا تنقطع بل تستفحل مع الأيام والأنسان فى التجارة والزراعة والبضاعة يبذل كفاءته ووقته ثم ينال أجرها ، ولكن فى المعاملة الربوية يصبح المساهم الأكبر فى كسب غيره بمجرد دفعه إليه مقدارا من المال زائدا عن حاجاته بدون أن يبذل معه شيئا من جهوده ووقته ، ولا يكون بمنزلة المساهم الذى يشارك

---

(١) الربا ص ١١٢

غيره فى الربح والخسارة معاً ، بل هو شريك يدعى لنفسه ربحا بدون مبالاة لربح مدينه أو خسارته .

الاسلام والمصارف :

إن المصارف ، كوسيلة من وسائل المدخرات وتوظيفها وإقراضها وتوجيهها ، تعتبر وسيلة هامة من وسائل الحياة الحديثة بضخامة مجتمعها وبإنتاجها الكبير . ويضاعف من أهمية المصارف فى الحياة الحديثة ما لها من مقدرة على الائتمان ، وتجميع النقود كل ذلك يجعل المصارف وسيلة ضرورية للحياة الحديثة .

والمصارف — بهذا المفهوم — لا تهتم بالحصول على أرباح مقتطعة من عمل العاملين باسم تأجير رأس المال ، بل إنها تعتبر نفسها وسيلة لتجميع المدخرات ، وخلق الإئتمان ، وتوزيع القروض ، وتوجيه رأس المال فى المجتمع بما يحقق ازدهاره .

تقوم المصارف بكثير من الخدمات المشروعة التى هى نافعة للحياة المدنية والحاجات الاقتصادية ، فيجتمع فى خزاناتها ما يفضل عند أفراد المجتمع من المال ، فيستثمر فى الصالح العام ، ثم يوزع الربح على أحسن صورة ممكنة .

ولنرى كيف كانت حال المصارف فى الدول الإسلامية . كانت المصارف تسمى وقتئذ «حوانيت الصيارفة» وكان مركزها فى المساجد فى جميع المدن[1] . وكان لنشاط الحياة الاقتصادية فى الدولة الإسلامية أثره فى تدفق الأرباح التجارية على التجار . وأراد بعضهم أن يتمتع بهذه الفرص التجارية العظيمة ولكن غاقهم قلة ما فى أيديهم من أموال عن تحقيق غرضهم ، فلم يكن هنالك وسيلة أخرى سوى الاقتراض . غير أن تحريم الإسلام للربا أعاق عمليات

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩٤

الاقتراض وأثر فى قيام المصارف ونمو أعمالها رغم أنه لم يمنعها ، ولذا اضطر الأتقياء إلى مزج أعمال المصارف بالتجارة ، فيبيعون المدينين بضائع بسعر أعلى من سعر السوق ، على أن يكون الدفع مؤجلا ، والفرق بين سعر السوق وسعر البيع هو فى الحقيقة الفائدة على ثمن البضاعة عن المدة التى تؤجل فيها الدفع عن ثمن الشراء .

وقد يكتفى المقرض بثقته فى طالب القرض أو قد يطلب منه رهنا ، وقد يكون الرهن داراً أو بناء أو عقاراً أو حيواناً ، وله الحق فى إستخدام هـذا الرهن لمصالحه الخاصة . وهذه المنفعة التى يجنيها من الرهن يمكن اعتبارها فائدة على القرض المدفوع ، على أنه يجب المحافظة على الرهون . أما فى القروض الكبيرة فلا بد من توافر الثقة أو بضمان شخصية معروفة . وإذا عجز المدين عن سداد دينه فى الموعد المحدد منح فرصة أخرى كما أمر القرآن الكريم ، حتى إذا عجز مرة أخرى طولب الكفيل بسد الدين ، أو قد يلجأ الدائن إلى الحكومة لتجبى دينه بالقوة ، فكانت تصادر أملاك المدين أو تسجنه . ولا شك أن تحريم الربا كان ذا أثر فى عرقلة أعمال المصارف والائتمان ، كما أنه شجع أصحاب رؤوس الأموال المسلمين على توظيف أموالهم فى التجارة [1] .

التسعيرة فى العصر الاسلامى :

عن أنس بن مالك قال : « غلا السعر فى المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الناس : يارسول الله ، غلا السعر ، فسعر لنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله هو المسعر ، القابض الباسط الرازق ، وإنى لأرجو أن ألقى الله تعالى ، وليس أحد منكم يطلبنى بمظلمة فى دم ولا مال » .

ومع هذا فلم يمنع ذلك الرسول أن يحظر أنواعا من المعاملات كان الناس

---

(١) تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى للمؤلف ص ٣٦٤ .

يقولون عنها كما سبق أن قال رافع بن خديج : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر كان لنا نافعاً ، وطواعية الله ورسوله أنفع لنا وأنفع » .

يذكر ابن خلدون [1] عوامل ثلاثة تؤدى إلى الغلاء وارتفاع الأسعار ، هى : « الأول كثرة الحاجة لمكان الترف فى العصر بكثرة عمرانه ، والثانى اعتزاز أهل الأعمال لخدمتهم وإمهان أنفسهم لسهولة المعاش فى المدينة بكثرة أقواتها . والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم وإلى استعمال الصناع فى مهنهم فيبذلون فى ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة فى الإستئثار بها فيعتز العمال والصناع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر فى ذلك » .

فى الدولة الإسلامية ، كانت هناك بعض النظم الحكومية تؤثر تأثيراً غير مباشر على الأسعار ، فقد كانت الحكومة مثلا تجبى ضرائبها من الزراع نقدا وعيناً ، وبذلك تخفف من أعباء الفلاحين فلا يبيعون محصولاتهم بثمن بخس ليحصلوا على المال اللازم لتسديد الضرائب . ولما كانت ضرائب الدولة ثابتة فقد كان هذا يؤدى إلى ثبات الأسعار بعض الشىء . ثم أن الحكومة كانت تدفع إلى الجنود وأسرهم مقداراً ثابتاً من العطاء كان من شأنه أن يحدد القوة الشرائية لهؤلاء المقاتلة العرب المستهلكين . كما أن ما تمنحه الحكومة لهؤلاء المقاتلة من الحنطة والشعير والزيت وغير ذلك كرزق شهرى لهم ضيق مجال التلاعب فى أسعار هذه المواد الضرورية للمعيشة . وأهتم حكام الدولة الإسلامية بالمحافظة على مستوى أسعار التجارة ، وعدم استغلال التجار لحاجة الناس إلى تجارتهم ، فكان بعضهم يعاقب التجار الجشعين بالقتل والجلد والتعذيب [2] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٥

(٢) انظر كتابنا (تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى) ص ٣٦٦

ورغم مانعرفه عن عدل عمر بن عبد العزيز وحزمه وعزمه ، إلا أن الأسعار ارتفعت فى عهده ارتفاعاً كبيراً ، وقد سأله أحدهم عن سر هذا الغلاء فقال: إن الذين كانوا قبلى كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم فلم يكونوا يجدون بداً من أن يبيعوا ويكسد مافى أيديهم ، وأنا لا أكلف أحداً إلا طاقته ، فباع الرجل كيف شاء . واقترح البعض على عمر تسعير الحاجيات فقال عمر : إنما السعر إلى الله (١) .

وهكذا عرف عمر بن عبد العزيز نظرية العرض والطلب وهى من أبرز النظريات الإقتصادية ، فقد كان معظم الولاة الأمويون يلقون كثيراً من الأعباء على الأهالى مما أدى إلى سوء أحوالهم فأقبلوا على بيع إنتاجهم الزراعى والصناعى مما أدى إلى النشاط التجارى من جهة وإنخفاض الأسعار من جهة أخرى . فقد زاد العرض على الطلب . ولكن عدل عمر خفف الأعباء من أهل الذمة والمسلمين على السواء فشعروا بالرخاء الإقتصادى ، فأقبلوا على التمتع بمحصولاتهم ومصنوعاتهم دون بيعها ، كما أقبلوا على شراء مايحتاجونه من أنواع التجارة فزاد الطلب على العرض .

الأسواق فى الاسلام:

يعرف ابن خلدون (٢) الأسواق بقوله : « إعلم أن الأسواق كلها تشمل على حاجات الناس ، فمنها الضرورى وهى الأقوات من الحنطة ومافى معناها كالباقلا والبصل والثوم وأشباهه . ومنها الحاجى والكمالى مثل الأدم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمبانى » . والحقيقة أن كلمة « سوق » تعنى فى المدن مجموعة من الحوانيت والمصانع التى تتركز فيها الحياة

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٧٦
(٢) المقدمة ص ٢٥٥

الصناعية والتجارية ، كما تعنى الأسواق البسيطـة التى تنتشر فى القرى (١) ولم يكن من الضرورى أن تتجمع الأسواق معاً فى جزء واحد من المدينة الإسلامية فكل صنف له سوقه الخاص المنفصل عن الأسواق الأخرى . وقد حوت الأسواق كثيراً من المخازن لحفظ أنواع التجارة بها ، وحظائر لايواء الدواب وخانات (فنادق) يأوى إليها الغرباء ، ويشرف على هذا كله المحتسب .

لعبت الأسواق دوراً كبيراً ، فى حياة الدولة الإسلاميـــــة ، سواء الإقتصادية أو الأجتماعية أو السياسية . فكانت السوق مركز البيع والشراء وبها تعقد الصفقات ، وتقرر حالة البلاد الأقتصـادية ، إذ أن السوق أبرز ميادين تصريف الإنتاج الزراعى والصناعى . كما أثرت السوق فى الحـــالة الإجتماعية ، ففيها يلتقى المسلمون وغيرهم بعضهم ببعض ، فيتعارفوا ويتحادثوا وفيها اختلطت عناصر السكان المختلفة من عرب وأعاجم ، ومسلمين وأهل ذمة . وكانت السوق مركزاً من مراكز الحياة السياسية ، ففيها تلاقى الناس تحت ستار التجارة بعيداً عن عيون رقباء الولاة والحـكام فدبروا المؤامرات وحاكوا خيوط الفتن .

عرف العرب كثيراً من الأسواق فى الجاهلية والإسلام ، وكلنا نعرف ما كان لسوق عكاظ من شهرة داوية ، فقد كان مكاناً مختاراً للتجـــارة والأدب . ولذا حرص العرب بعد انتهاء الفتوحات العربية الإسلامية على إنشاء الأسواق فى الأمصار المفتوحة فزاد العمران واتسعت المدن . وأصبحت الأسواق بجانب أغراضها لاقتصادية والاجتماعية والسياسية مكاناً لمفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ، كما كان الحال فى مربد البصرة وكناسة الكوفة وغيرها (٢) .

---

(١) د. ومبين : النظم الاسلامية ص ٢٤٩

(٢) انظر كتابنا (تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى) ص ٣٧٢

وضعت الأسواق الإسلامية تحت مراقبة دقيقة . فبعد أن تغرب الشمس ويخيم الظلام تنتهى الحركة من السوق ، فيحمل التجار تجارتهم إلى مخازنها وتخلو السوق من أهلها ، اللهم إلا الحراس الذين يجوبونها لحراستها من اللصوص (١) . واهتم ولاة المسلمين بالتفتيش على الأسواق ، وخاصة على الأسعار والمكاييل والموازين . وكان يجلس فى السوق رجل يدعى «الناقد» وكانت حرفته تمييز الدراهم وفحصها حتى يعرف جيدها من رديئها ويضمن تمام وزنها (٢) . وكان على المحتسب مراقبة عمليات البيع حتى يمنع غش المبيعات وتدليس الأثمان والبخس والتطفيف (٣) . ويقوم المحتسب باختيار الدلالين ويتوخى فيهم الأمانة والنزاهة . وكان ولاة الحسبة يراقبون جودة المصوغات ويراقبون الصاغة والحاكة والصباغين حتى لا يهربوا بأموال الناس أو حاجاتهم .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يهتم بمراقبة الأسواق بنفسه أو يكلف بعض صحابته بهذه المهمة ، ويضع للحياة الإقتصادية والمالية من التشريعات مايلائم نموها فى ظل العدالة ، والأمانة ، والصدق ، وحفظ حقوق العمل ومنع الربا . عن أبى سعيد الخدرى أن الرسول نهى عن المنابذة ، وهى طرح الرجل ثوبه بالبيع إلى الرجل قبل أن يقلبه ، أو ينظر إليه ، ونهى عن الملامسة ، والملامسة لمس الرجل الثوب لا ينظر إليه . وعن أبى هريرة أن الرسول مر برجل يبيع طعامه فسأله : كيف تبيع ؟ فأخبره . فأوحى إليه (٤) . أن أدخل يدك فيه ، فأدخل يده فيه ، فإذا هو مبلول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس منا من غش » وفى رواية مسلم فقال : ماهذا ياصاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤١
(٢) الكرملى النقود العربية ص ١٢
(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤٠ — ٢٤١
(٤) أى أشار إليه بعض الصحابة فى خفاء .

يارسول الله قال : أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس من غش فليس منى .

ومن وسائل رسول الله صلى الله وسلم فى حفظ حقوق العاملين وزجره عن استغلال جهلهم بحال الأسواق والأسعار ، أنه منع تلقى الركبان، وبيع الحاضر للبادى ، وبيع الرجل على بيع أخيه . عن عبدالله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لايبيع بعضكم على بيع بعض، ولا تلقوا السلع، حتى يهبط بها الأسواق » . وعن طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تلقوا الركبان ، ولا يبع حاضر لباد » . قلت لابن عباس : ما قوله : « ولا يبيع حاضر لباد » قال : لايكون له سمساراً .

بيت المال والدواوين الحكومية الاسلامية :

لم يكن للعرب حينما بدأوا الفتوحات العربية الإسلامية فى الأراضى الرومانية والفارسية دواوين مدونة ، ولا نظام معلوم للضرائب إلا نظام الأعشار أو الزكاة أو الصدقة . وكانت هناك أحاديث تتعلق بالضرائب التى وضعها رسول الله على أراضى اليهود والنصارى كالتخميس والتنصيف ولكنها كانت لاتفى بحاجة الدول العربية الإسلامية الناهضة التى قطعت فى الحضارة شأوا بعيداً ، ولا تقارن بالأوضاع التى كانت سائدة فى الدولتين الفارسية الفارسية والرومانية التى عرفت كثيرا من النظم الإقتصادية الراقية . ولهذا لم تكد الفتوحات العربية الإسلامية تستتب وتستقر فى بعض هذه الأمصار حتى دعت الحاجة إلى إنشاء بيت للمال يقوم على صيانة الواردات المالية وحفظها لمصالح الدولة العربية الإسلامية الوليدة .

ولهذا لم تكد تنتهى العمليات الحربية فى البلاد الرومانية والفارسية حتى أخذ عمر بن الخطاب منظم الدولة العربية الإسلامية وواضع دستورها يبحث عن نظام للضرائب جديد يضمن لبيت المال مصلحته ولا يكون مجحفاً بحقوق

الأهالى الذين دخلوا فى ذمة المسلمين ، فكان له إما أن يتبع سنة الرسول فى الجزيرة العربية ، وإما أن يسير فى طريق آخر افترضته الأحوال وسنة التطور ، فرأى بعد التحرى والتفكير أن يبقى الأراضى فى أيدى أصحابها السابقين ويأخذ منهم الجزية التى كانوا يؤدونها لأصحاب السلطة قبله ، فاتبع بعض النظم الفارسية والبيزنطية . .

كان عمر بن الخطاب أول من دون الدواوين فى الإسلام حينما كثرت أموال المسلمين ، وكان من رأى على بن أبى طالب أن يقسم عمر كل ما اجتمع إليه من مال ، أما عثمان فقد رأى إنشاء الديوان ، وأخيراً تم تدوين الدواوين فى شهر المحرم من سنة ٢٠ هـ(١) . وظلت دواوين الأموال فى البلادالمفتوحة على ما كانت عليه قبل الفتح العربى(٢) . وكان لابد للعرب من الاحتفاظ بالنظم الإدارية غير العربية وخاصة الفارسية . ويذكر كريمر(٣) أن معظم نظم عمر بن الخطاب كانت فارسية الأصل مثل نظام العملة ، وتقسيم الولايات الإدارى ، ونظام الضرائب (الجزية والخراج) . وهذه هى الحقيقة ، فقد ظل النيروز أول السنة المالية طوال حكم الخلفاء الراشدين الأمويين حتى خلافة هاشم بن عبد الملك ، فكان النيروز هو موسم جباية الخراج . وضرب العملة ، وتولية العمال(٤) وتحدث الجهشيارى(٥) عن الدواوين التى كانت بالعراق حتى خلافة عبدالملك ابن مروان فقال : « لم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان : أحدهما بالعربية بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم وهذا الذى كان عمر قد رسمه ، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية » .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤
(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ١٩٨
(٣) الحضارة الاسلامية ص ٦٠
(٤) الجاحظ: التاج ص ١٤٦
(٥) الوزراء والكتاب ص ٣٨

وربما نجد من يتساءل : لماذا لم يعرب عمر الدواوين الفارسية والرومانية ويوحد نظم الدواوين الإسلامية ؟ ونحن نجيب عليه أنه لم يكن بمقدور أمير المؤمنين وهو يحمل أعباء هذه المسئوليات الحربية العظيمة فى تلك الفترة من الزمن أن يعمل على تعريب الدواوين ، أو أن يوحد نظاماً واحداً يفرضه على الدولة العربية الإسلامية الواسعة . وهذه الدواوين لم تفكر الدولة العربية فى نقلها إلى العربية إلا بعد خمسين سنة من هذا التاريخ . على أن كل هذه المشاكل العظيمة التى كان عمر يحمل أعباءها لم تكن لتمنعه عن النظر أحياناً فى الأنظمة التى صار إقرارها ، ولم تكن تصرفه عن التدقيق فى الضرائب وموارد الخلافة. فقد ذكر أبو يوسف فى كتابه (الخراج) أن عمر قال للدهاقين الذين دعاهم يستفسر منهم عن مقدار الضرائب التى كانوا يؤدونها إلى الأعاجم وعن طريقها ، أنه فرض على بعضهم أكثر مما كانوا يدفعونه ، كما يقول فى موضع آخر : أن عمر قال لما رفع إليه ما فعله عثمان بن حنيف فى السواد « أنهم يطيقون أكثر من ذلك » .

كان فى الدولة العربية الإسلامية أربعة دواوين : ديوان الخراج ، وديوان الرسائل ، وديوان الإيرادات المنوعة ، وديوان الخاتم ، وبجانب هذه الدواوين الأربعة قامت مصالح صغيرة تهتم بشئون الأقطاع ، والجند والأساطيل، والمعادن والرسائل ، والثغور ، وغير ذلك[١] .

نظام اللامركزية :

اتبع خلفاء الدولة العربية الإسلامية ، الراشدون والأمويون ، نظام اللامركزية ، فكانت كل ولاية تصرف إيراداتها على مرافقها الخاصة والباقى يحمل إلى الخزينة العامة بالمدينة أو دمشق . وبدأ عمر بن الخطاب هذه السياسة

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٣

فكتب إلى عثمان بن حنيف عامله على مساحة أرض العراق : (أحمل إلى أهل المدينة أعطياتهم فإنهم شركاؤهم)[١] . وكان بعض أهالى الأمصار الإسلامية ، وخاصة أهالى العراق لديهم غيرة شديدة على بيوت أموالهم ، فقد دافع أهل البصرة عن بيت مالهم عند محاولة طلحة والزبير الاستيلاء عليه حتى سقط أربعون منهم قتلى[٢] . وبعث معاوية إلى عامل خراج العراق يأمره ألا يقسم الذهب والفضة بين أهالى العراق وأن يبعث بها إليه . ولكن هذا العامل أبى إلا أن يقسم فىء أهل العراق فيهم[٣] وخرج زياد بن أبيه من البصرة إلى دمشق ومعه فضل بيت مال البصرة فاجتمع عليه أهلها وانتزعوا منه الأموال بالقوة وقسموها بينهم ، كما فعلوا مثل ذلك مع حمزة بن عبدالله بن الزبير[٤] . وفى أواخر الدولة الأموية بدأ الضعف يدب فى أطرافها وحاول الخليفة يزيد بن الوليد أن يفوز برضاء أهل الأمصار الإسلامية فأعلن أنه لن ينقل مالا من بلد إلى بلد أخرى حتى يسد ثغره ويغنى أهله[٥]

ايرادات الدولة الاسلامية :

كانت أهم موارد بيت مال الدولة العربية الإسلامية الغنائم ، والفىء ، والخراج ؛ والجزية ، والزكاة ؛ والعشور . ويدخل تحت هذه الأقسام الأصلية فروع صغيرة[٦] . فالغنيمة هى ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة ، أما الفىء فهو ما صولح عليه المسلمون من جزية وخراج[٧] وتختلف الغنيمة والفىء من الصدقات من عدة وجوه : أولها أن الصدقات مأخوذة من المسلمين تطهيرا

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٣
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٨٣
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ٥٨
(٤) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢ ص ١٧
(٥) الفخرى ص ٩٨
(٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٠٣
(٧) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ٣

لهم ، بينما الفيء والغنيمة تؤخذ من الكفار إنتقاماً منهم : وثانيهما أن مصرف الصدقات منصوص عليه في القرآن ، بينما مصرف أموال الفيء والغنيمة باجتهاد الأئمة[١] .

(١) الغنائم : تنقسم الغنائم إلى أربعة أقسام : أسرى ، وسبي ، وأرض وأموال[٢] . أما الأسرى فهم المقاتلون من الكفار الذين يقعون أسرى في يد المسلمين ، وكانوا إما أن يقتلوا أو يسترقوا أو يفدوا أنفسهم بمال أو أسرى أو يمن عليهم بغير فداء ، فإن أسلم الأسير سقط عنه القتل وخير بين الوجوه الثلاثة الأخرى ، ويكون المال المأخوذ في الفداء غنيمة[٣] .

أما السبي فهم النساء والأطفال ، ولا يجوز قتلهم إذا كانوا أهل كتاب ، ولكن يعتبروا سبياً مسترقا ويقسمون مع الغنائم ، ولا يفرق بين والدة وولدها ، ويجوز فداء السبي بالمال ، كما يجوز مبادلتهم بأسرى المسلمين ، والمن عليهم بشرط رضا الغانمين[٤] .

أما الأرض التي استولى عليها المسلمون فهي ثلاثة أقسام : أولهما ملكت عنوة وقهراً ولم يحصل عليها المسلمون عليها إلا بعد القتل أو أسر أو إجلاء أصحابها ، وهذا النوع من الأرض اختلفت في أمره الفقهاء فبعضهم يعتبروه جزءاً من الغنائم والبعض يرى إعادتها إلى أصحابها مقابل دفعهم الخراج على الأرض والجزية على الرؤوس . والقسم الثاني الأرض التي ملكت عفواً ويتصرف فيها الإمام كيف شاء ، والغالب أن تصبح أرضاً خراجية ولا يجوز بيعها أو رهنها . القسم الثالث الأرض التي يستولى عليها المسلمون صلحاً وهي

---

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٠٣

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٢٥

(٣) المرجع السابق ص ١٢٥ ، ١٢٢

(٤) المرجع السابق ص ١٢٨ ، ١٣٠

تبقى فى أيدى أصحابها مقابل دفعهم الخراج ، ولا يسقط الخراج بإسلام أصحابها[١] ورفض عمر بن الخطاب أن يقسم أرض سواد العراق بين المسلمين باعتباره جزءاً من الغنائم « لأنه ليس مما حازه المسلمون حين ظهروا عليه ، لو كانوا حازوه وجمعوا ما فيه من السبى والأموال كان غنيمة[٢] ». أما الغنائم المنقولة كالماشية والمال والأسلحة فهى تقسم كما جاء فى الآية الكريمة (واعلموا أنما غنمتم عن شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) .

(ب) الفىء : أما الفىء فهو المورد الثانى لبيت مال الدولة الإسلامية ويعرف ابن آدم[٣] الفىء بأنه ما صولح عليه المسلمون من الجزية والخراج بغير قتال . ويعرفه الماوردى[٤] بقوله : « كل ما وصل من المشتركين عفواً بغير قتال ، ولا بإيجاف خيل ولا ركاب ، فهو كمال الهدنة والجزية وأعشار متاجرهم ، أو كان واصلا بسبب جهتهم كمال الخراج » . وكان يؤخذ منه الخمس فيجعل سهم منها للرسول وقد أصبح بعد وفاته ينفق فى مصالح المسلمين كأرزاق الجيش وأسلحتهم وحصونهم والقناطر وأرزاق القضاة والأئمة . والسهم الثانى ، سهم ذى القربى وهم بنو هاشم وبنوا عبد المطلب ولا حق فيه لمن سواهم من قريش . أما السهم الثالث فلليتامى من ذوى الحاجات . والسهم الرابع للمساكين والسهم الخامس لأبناء السبيل . أما الأربعة الأخماس الباقية من الفىء فقد اختلف الفقهاء فيها ، فمنهم من جعلها لمصالح المسلمين وخاصة لأرزاق جنودهم

---

(١) المرجع السابق ص ١٣١ ، ١٣٢

(٢) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ١٣

(٣) الخراج : جـ ١ ص ٣

(٤) الأحكام السلطانية ص ١٢١

و بعضهم جعلها للجيش بحيث لا يشاركهم أحد فيها[١] . ورفض عمر بن الخطاب تقسيم أرض سواد العراق ، باعتبارها جزءا من الفيء وقال : فقد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم ، في هذا الفيء ودمه في وجهه[٢] » . وأمر عمر بترك الأرض لأصحابها مقابل دفعهم الجزية على الرؤوس والخراج على الأرض[٣] . وكان أصحاب الأرض إذا ما اعتنقوا الإسلام أصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ولكن أرضهم تبقى فيئاً[٤] .

(ح) الخراج : الخراج في لغة العرب اسم للكراء والغلة ، ومنه قول الرسول . « الخراج بالضمان[٥] » وفي دائرة المعارف الإسلامية[٦] أن كلمة خراج فارسية . ويعرف الماوردي[٧] الخراج في الإسلام بأنه « هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عليها » وقد اهتم الخلفاء والولاة بالخراج أكثر من اهتمامهم بالجزية لأن الخراج أكثر ثباتاً من الجزية وأكثر دخلا ، حيث إن الجزية تسقط بالإسلام .

كانت أراضي الأمصار عدة أنواع ، وكان لكل نوع منها وضع خاص بالنسبة للخراج .

وصفوة القول ، أن أرض الخراج هي كل أرض مسحت ووضع عليها الخراج[٨] ،وكل أرض روتها أنهار الخراج ، وخصصت لزراعة الغلات المختلفة

---

(١) المرجع السابق ص ١٢١ ، ١٢٢
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ١٣
(٣) المرجع السابق ص ١٦
(٤) ابن آدم : الخراج ح ٢ ص ٣٣
(٥) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٤ — (٦) P 245
(٧) الأحكام السلطانية ص ٤٠
(٨) ابن آدم : الخراج ج ١ ص١١

أو جعلت بساتين للنخل والكروم وغيرها ، أو شغلت بالطواحين[١] .

كان الخراج يظل مفروضاً على الأرض المفتوحة عنوة حتى بعد إسلام صاحبها ، لأن هذه الأرض فىء للمسلمين وملك لهم جميعاً ، وما يدفعه صاحبها هو إيجار مقابل زراعته لها[٢] . فقد توجه رجل إلى عمر بن الخطاب « فقال : إنى قد أسلمت فارفع عن أرضى الخراج . قال إن أرضك أخذت عنوة[٣] » . وكان عمر بن عبد العزيز يقول : من أسلم من أهل الأرض فله ما أسلم عليه من أهل ومال ، فأما داره وأرضه فإنها كائنة فى فىء الله عز وجل على المسلمين[٤] » .

أما الأرض التى صولح أهلها على زوال ملكهم عنها فلا يجوز بيعها ويعتبر خراجها إيجارا ، ولا يسقط الخراج بإسلام أهلها إنما ترفع عنهم الجزية[٥] .

أما الأرض التى صولح أهلها عن بقاء ملكهم عليها فيجوز بيعها ويسقط خراجها بإسلام أهلها وتصبح أرضا عشرية[٦] .

جمع العرب الخراج من الأمصار منذ اللحظة الأولى للفتح العربى الإسلامى ، وأراد عمر بن الخطاب أن يحدد مقدار الخراج الذى يفرضه على كل نوع من الزرع ويحدد طرق الجباية فاستدعى إليه بعض أصحاب الأراضى فسألهم عن النظم التى كانت متبعة قبل الفتح العربى الإسلامى . وجعل عمر على كل جريب قفيزا ودرهما ، وكان القفيز وزنه ثمانية أرطال وثمنه ثلاثة دراهم بوزن

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٧
(٢) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ٨
(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٥٤
(٤) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ١١
(٥) المرجع السابق جـ ١ ص ٧
(٦) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ٧

المثقال ، وهو نفس ما فرضه كسرى بن قباذ من قبل .(١) وفرق عمر بين أنواع الزرع ، فكان على كل نوع مقدار معين من المال مقابل الخراج .(٢) وأمر عمر عماله بأن أهل الخراج إذا احتملوا أكثر من ذلك فلا يزاد عليهم ، وإن عجزوا عن ذلك خفف عنهم ، وألا يكلفوا فوق طاقتهم(٣) والحقيقة أن نظام عمر كان نظاماً عادلاً ، فقد كانت الأرض تحتمل ما وضعه عمر من خراج بل وتفيض(٤) وكان عمر يسمح بتقسيط الخراج ودفعه عيناً أو نقدا .(٥) ولكن أهل السواد رغم ذلك التيسير ، كانوا يرون أن نظام المقاسمة الذى كان يتبعه الأكاسرة أخف عبئا عن نظام الخراج الذى وضعه عمر .(٦)

سار على بن أبى طالب ومعظم الخلفاء الأمويين على سياسة عمر بن الخطاب وكان الخراج قابلا للزيادة والنقصان حسب الظروف .(٧) وكان خراج كل ناحية يختلف عن خراج غيرها . وكانت الأرض التى تصاب بالآفات والغرق تعفى من الخراج ، كما تعفى الأرض التى تبنى عليها الحوانيت وإذا عطل فلاح أرضه عن الزراعة انتزعت منه ومنحت لغيره يزرعها ويؤدى عنها خراجها ، وكان يسمح بزراعة الأرض أكثر من مرة فى السنة الواحدة مقابل خراج واحد .(٨)

كانت هناك عدة عوامل تؤثر فى اختلاف جملة الخراج من ناحية إلى أخرى

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤١
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٨
(٣) ابن آدم الخراج ج ١ ص ٩
(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٢١
(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧٧
(٦) أبو يوسف : الخراج ج ١ ص ٩
(٧) أبو يوسف : الخراج ص ٤٨
(٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٢

ومن سنة إلى أخرى ومن عهد إلى آخر . وقد ذكر الماوردى [١] أربعة من هذه العوامل . أولها إختلاف جودة فى الأرض من مكان لآخر ، وزيادة هذه الجودة أو نقصانها تبعاً لعناية الولاة والفلاحين بها . وثانيها نوع المحاصيل من حيث الجودة ، وهذه الجودة تتبع اهتمام الولاة بالزراعة ومكافحتهم للآفات الزراعية . وثالثها نظام الرى ، ومن البديهى أن تختلف نظم الرى ومشاريعها من عهد إلى آخر ، ورابعها اختلاف حالة الأسواق ، ولا شك أنه كلما زاد عدد الأسواق زاد رواج المحصولات وبالتالى زاد الخراج .

(د) الجزية : فرض الأكاسرة على رعاياهم فى بعض الولايات دفع الجزية . ويرى الماوردى [٢] أن دفع غير المسلمين الجزية كان مقابل الكف عنهم وحمايتهم . وقد فرضت الجزية على غير المسلمين فى الولايات سواء أكانوا من اليهود أو النصارى أو المجوس أو الصابئة أو السامرة ، ماعدا نصارى بنى تغلب وأهل نجران . [٣]

بعد استقرار الفاتحين فى الأمصار المفتوحة فكر عمر بن الخطاب فى وضع نظام ثابت موحد للجزية يتبعه العمال فى سائر الأمصار ، وليمنع اجتهاد الولاة [٤] فجعل عمر الجزية على الرجال ، على الموسر ثمانية وأربعون درهما ، وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهما ، وعلى الفقير اثنا عشر درهما . [٥] أما الموسر فهو صاحب الحرفة المربحة مثل الصيرفى والبزاز وصاحب الصنيعة والتاجر والطبيب ،

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٤٢
(٢) الأحكام السلطانية ص ١٣٧
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٦٩
(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٨
(٥) أبو يوسف : الخراج ص ٦٩

أما المتوسط الحال فهو الأقل كسباً ، أما الفقير فهو العامل بيده مثل الخياط والصباغ وما شابههم .(١)

كانت الجزية تجمع مرة واحدة كل سنة بالشهور الهلالية .(٢) وكان يسمح بدفع الجزية نقداً أو عيناً ، ولكن لايسمح بتقديم الميتة والخنزير أو الخمر بدلا من الجزية ، ولكنها كانت تباع ثم يحصل ثمنها وكانت تختم رقاب أهل الذمة وقت جباية جزية الرءوس ثم تكسر الخواتيم وتستبدل بشارة تعلق حول الرقبة يقدمها عامل الجزية دلالة على دفع الجزية .(٣)

(هـ) الصدقة : الصدقة هى الزكاة أو العشر .(٤) ويعرف الماوردى(٥) الصدقة بقوله : « الصدقة زكاة ، والزكاة صدقة ، يفترق الإسم ويتفق المسمى ، ولا يجب على المسلم فى ماله حق سداها » . فقد قال الرسول : « ليس فى المال حق سوى الزكاة ، والزكاة تجب فى الأموال المرصدة للنماء إما بنفسها أو بالعمل فيها طهارة لأهلها ومعونة لأهل السهمين » . وكان بين الأراضى التى فتحها المسلمون ما فتحت عنوة فأصبحت أرض خراج ، وما صولح عليه أهلها فكان عليهم ما صولحوا عليه دون زيادة وما أسلم عليها أهلها فأصبحت أرض عشر تؤخذ عليها الصدقة .(٦) ومنها الأرض الموات التى أحياها المسلمون فأصبحت أرضاً عشرية .(٧)

وهكذا خضعت الجماعة الإسلامية لضريبة واحدة هى الصدقة أو الزكاة

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٧٠
(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٨
(٣) اليعقوبى : ج٢ ص ١٣٠
(٤) ابن آدم : الخراج ج ٣ ص ٧٠
(٥) الأحكام السلطانية ص ١٤٠
(٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٠
(٧) ابن آدم: الخراج ج١ ص ١٠ — ١١

أو العشر ، وكلها أسماء لضريبة واحدة . أما النصارى فلا يدفعون سوى الجزية والخراج وعشر التجارة (العشور) ، ولكنهم لا يدفعون شيئاً عن مواشيهم أو ثمارهم أو زرع أرضهم ، عدا نصارى بنى تغلب فيدفعون ضعف صدقة المسلم مقابل إعفائهم من الجزية(١)

وكان للصدقة (الزكاة) عمال يختصون بجمعها فى الولايات الإسلامية وكان لا يجوز أن يتولى عمال الخراج جبايتها ، لأنه لا يجوز اختلاط مال الخراج بمال الصدقات لأن لكل منهم مصرف خاص . ويشترط فى عامل الصدقات أن يكون حراً مسلماً عادلا عالماً بأحكام الزكاة وعليه أن يتولى الأموال الظاهرة التى لا يمكن إخفاؤها كالزرع والثمار والماشية ، أما الأموال الباطنة كالذهب والفضة وعروض التجارة فعلى أصحابها إخراج زكاتها طوعا(٢) . وعلى العامل أن يدعو أهلها إلى إخراجها ويرغبهم فى المسارعة فى ذلك تمييزاً لهم عن أهل الذمة فى أهل الجزية ، وإذا كتم الرجل زكاة ماله وأخفاها عن العمال أخذها العامل بالقوة ونظر فى سبب إخفائها . وكان جباة العشور (العاشرون) يتخذون أمكنتهم فى طرق التجارة البرية والنهرية ، كما كانوا ينصبون الحبال على ضفاف الأنهار ويوقفون السفن لفحص انواع التجارة ومعرفة أديان أصحابها لتحصيل نصيب بيت المال فيها . وكان التاجر يمنح إيصالا باستلام العاشر يظل ساريا لمدة سنة(٣) .

ثانيا : حضارة التربية والتعليم :

التربية والتعليم فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين

اهتم الإسلام بالعلم والدعوة إلى تحصيله وحرص الرسول على أن يتعلم

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٧٧

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١١٦

(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٧٩

الصحابة القراءة والكتابة . فعرض على كل أسير من أسرى بدر يجيد القراءة والكتابة ولا يستطيع أن يفدى نفسه أن يعلم عشرة من المسلمين ثم حث الصحابة على تعلم اللغات حين بعث دعاته ورسله إلى الملوك والأمراء فى خارج الجزيرة العربيـــــة ، فنصح زيد بن ثابت بأن يتعلم كتابة اليهود لأنه لا يأمن جانبهم .

ولم يختص الرسول الرجال بالعلم والتعليم ، بل إنه كان يحرص على أن يكون حظ المرأة من ذلك موفوراً . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وكان الرسول يحث الرجال على أن يعلموا أهلهم وذويهم ولم ينفرد الرسول وأصحابه ببث الدعوة وتعليم الناس فى المدينة ، بل كان يرسل دعاته ورسله إلى الجهات النائية من شبه الجزيرة ليعلموا الناس ويوضحوا لهم الطريق إلى ربهم ويقرئوهم القرآن الكريم (١)

لم تكن المدارس بالمعنى المعروف اليوم موجودة قبل الإسلام أو فى صدر الإسلام ويمكن اعتبار قيام أسرى بدر بتعليم المسلمين الأميين أول مدرسة فى العصر الإسلامى ، إن صح تسميتها مدرسة . وبطبيعة الحال فإن المقاييس التى نقيس بها (الرجل المتعلم) تختلف فى ذلك العهد عما هو عليه الآن . ففى كتاب (الأغانى) للأصفهانى ، أن المتعلم الكامل هو الشخص الذى يقرأ ويكتب ويسبح ويستعمل السلاح ، واقحام السباحة هنا يدل على على تأثير اليونانيين الذين كانت لهم مرافىء بحرية ، أوعرب جنوب الجزيرة العربية الذين برعوا فى ركوب البحر .

ألقت أفكار الرسول وتعاليمه بذورها فى تربة خصيبة فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدراً ، فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة . وهم وحدهم

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٤٩٥

الذين وعوها عن ظهر قلب ، وهم الحراس المتحمسون لحفظ كل ما روى عن النبي من كلام ووصايا ، والأمناء على تراث محمد الأدبى . ولقد تألفت من هؤلاء جماعة الإسلام المبجلة الذين انبثقت منهم يوما طبقة الأجلاء من أوائل الفقهاء والأصوليين والمحدثين فى المجتمع الإسلامى[1] .

ومما يلفت النظر فى دراسة تاريخ التربية والتعليم عند العرب فى صدر الإسلام أن الذين عنوا بشئون التربية لم يكونوا من رجال الحكم ، وإنما كانوا من أفراد الشعب الذين تطوعوا للتعليم والدرس ونشر المعارف . وفى المصادر التاريخية القديمة أن رسول الله أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن معلماً ومرشداً. وأرسل عمر بن الخطاب الصحابى عبد الله بن مسعود معلماً ومرشداً إلى الكوفة .

وهناك ظاهرة أخرى هى علاقة النظام التربوى الذى قام به المسلمون الأفراد لا الحكومة ، بالدين وتأثير الدين عليه ، فقد دعا القرآن إلى طلب العلم ، وحض محمد المسلمين على العلم ولو كان فى الأماكن البعيدة القاصية ، ودونه المشاق والمتاعب ، ولتنفيذ هذه الرغبة التى أيدها القرآن ودعا إليها محمد . نشأت مئات المدارس فى مختلف الأقطار الإسلامية القريبة والبعيدة . وفى ذلك يقول المؤرخ (هل) فى كتابه (الحضارة العربية) : « أما أن المسلمين قد أسسوا مدارس للتعليم العام فى بلاد العرب ، وفى البلاد المفتوحة فهذا شىء ثابت ، لا تستطيع الحضارات القديمة الأولى أن تباهى بشىء من مثله » . وكانت المدارس الابتدائية مقدمة للتعليم العالى الذى كان من مظاهره حرية الرأى والتفكير ، ونشر العلم والبحث عن الحقيقة .

كانت أول بعثة علمية أرسلت من الحجاز إلى الشام فى إمارة يزيد بن

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص ٤٣ ـ ٤٤

أبى سفيان ، فقد كتب يزيد إلى عمر بن الخطاب أن أهل الشام قد كثروا وملأوا المدائن واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، وطلب يزيد من عمر أن يبعث إليه برجال يعلمونهم ، فبعث عمر معاذا وعبادة وأبا الدرداء ، فرحل الأول والثانى إلى فلسطين ، ورحل الثانى إلى دمشق(١) .

تفرق العلماء من الصحابة فى الأمصار الإسلامية ، فقاموا فيها بحركة علمية والتف حولهم تلاميذ أخذوا العلم عنهم وأذاعوه بين الناس ، ولم يكن جميع هؤلاء من العرب ، بل كان بينهم كثير من الموالى .

كانت عناية المسلمين فى صدر الاسلام مقصورة على العلوم الدينية ، وهى القرآن وتفسيره والحديث وروايته ، واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يجد من مشاكل وما يعرض من أحداث(٢) .

التربية والتعليم فى العصر الأموى :

بعد قيام الدولة الأموية اختفى اللون الدينى الذى كان سائداً فى عهد الخلفاء الراشدين الأربعة ، وظهر نوع من السياسة الدنيوية التحتية . ولكن ، مهما كان الرأى ، كانت سياسة الأمويين عالية ، ومن الصعب على المؤرخ أن يجد بها أخطاء ، كما كان الأمويون ، بدون شك ، قادة للعلوم . وإن كان بعض الخلفاء الأمويين لم يهتموا بالتعليم وأساءوا أيضاً إلى الاسلام ، مثل الوليد الثانى ويزيد الثالث ومروان الثانى ، ولكن لكى نصدر حكماً صادقاً على الدولة الأموية ، فلا بد أن نستعرض جميع جوانب تاريخها . بل إننا نجد بين العباسيين خلفاء مثل المستنجد والمقتدر قد ألقوا ظلالا قاتمة على أمجاد عهود المنصور وهارون والمأمون . ومهما كانت الاتهامات الموجهة للأمويين ،

---

(١) كرد على . والحضارة العربية جـ ١ ص ١٧
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٤٩٦

فيكفيهم فخراً أنهم احتضنوا العلوم الإسلامية وهى ما زالت فى مهدها(١).

لم تكن التربية بمعناها المعروف الآن شائعة فى تلك الفترة من التاريخ الاسلامى ، كانت البادية أو حمراء الشام هى المدرسة التى يرسل إليها الأمراء الأمويون فى العهد الأول لتقوم ألسنتهم على العربية الخالصة وهم صغار ، ليتفقهوا فى الشعر . فإلى هذه البادية أرسل معاوية ابنه وولى عهده يزيد(٢) .

كان العامة يعتبرون الشخص متعلماً إذا كان يحذق القراءة والكتابة ، ويعرف الرمى بالقوس والنشاب ، ويتقن السباحة ، ومثل هذا الشخص يطلق عليه عندهم لقب الكامل(٣) أما المثل العليا للتربية الأخلاقية كما يتضح من كتب الأدب التى تعرضت للموضوع فكانت الشجاعة والصبر ومراعاة الجوار والمروءة والكرم وحسن الضيافة واحترام النساء والوفاء بالعهود .

بعد عصر الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان كانت وظيفته المؤدب والمعلم الخاص الذى كان فى الغالب من الموالى أو النصارى من الوظائف الهامة فى القصر الملكى . وقد تلقى مؤدب أبناء هذا الخليفة من أبيهم العبارة الآتية : « علمهم السباحة وعودهم النوم القليل » . وقد عاقب الخليفة عمر بن عبد العزيز أطفاله عقابا شديداً لخطئهم فى النحو ، وكان الخليفة يميل إلى العقوبات البدنية ، ومن التعليمات الهامة التى وجهها إلى مؤدبى أولاده قوله : ليكن أول درس تلقيه عليهم هو تبغيضهم إلى الملاهى لأنها تبدأ من الشيطان وتنتهى بغضب الله(٤) .

كان المسجد هو المدرسة الأولى فى الاسلام ، كما كان المكان الأول

---

(١) أنظر ترجمتنا لكتاب « الحضارة الاسلامية » لخودابخش ص ١٥٢
(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٣١٧
(٣) الأصفهانى : الأغانى ج ٦ ص ١٦٥
(٤) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٠٧

للجماعة الإسلامية. ولما كان المسجد للصلاة، وكان طلب العلم من جملة الواجبات المفروضة على المسلم كالصلاة مثلا، فقد فتحت المساجد أبوابها للدرس والتعليم. فكان الداخل إلى المسجد يرى فى طرف المسجد جماعة يصلون، وآخرين يقرأون القرآن، وفى ركن آخر جماعة من العلماء والأدباء يفسرون قصيدة من قصائد الشعر المعاصر أو الشعر الجاهلى، كما نجد فى ركن ثالث عالمًا جلس حوله تلاميذه وهو يشرح لهم بعض أصول الحديث، أو يفسر لهم آيات القرآن الكريم.

كانت عامة الناس الذين يرغبون فى تعليم أولادهم يبعثون بهم إلى المساجد حيث كانت تعقد حلقات لدراسة القرآن والحديث، وعلى ذلك فأقدم المعلمين فى الاسلام هم (القراء). وكان الخليفة عمر بن الخطاب يبعث بأمثال هؤلاء أولئك المعلمين إلى مختلف الجهات ويأمر الناس بأن يقابلوهم فى أيام الجمعة فى المساجد. وقد أرسل الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز إلى مصر يزيد بن أبى حبيب ليكون كبير القضاة بها. ويروى عنه أنه كان أول مدرس اشتهر هناك. ونقرأ عن رجل فى الكوفة يسمى الضحاك بن مزاحم كان يقوم على مدرسة أولية (كتاب) ولا يتعاطى من التلاميذ أجوراً عن تعليمهم. ونسمع فى القرن الثانى الهجرى عن رجل من أهل البادية كان يقيم فى البصرة ويدير مدرسة ويتقاضى من طلابها أجوراً(١).

كان التدريس فى المساجد يتم على نظام حلقات يجلس فيها الناس على الأرض فى ركن من أركان المسجد، ويأخذ الأستاذ مكانه فى أول الحلقة ويجلس المستمعون والتلاميذ حوله، ولما كانت اللغة العربية هى لغة التدريس، فقد كان كل قادم من أقصى البلاد العربية إلى المسجد يستطيع تفهم هذه

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣١٨

المحاضرات والدروس ، وكان هؤلاء المسافرون يحملون معهم عند عودتهم إلى بلادهم البعيدة خلاصة المحاضرات التى سمعوها ، والدروس التى حضروها ، فكانوا كالصحف والمجلات والكتب السيارة اليوم تنقل المعرفة من مكان إلى آخر . وكانت العادة المتبعة ، ليكون المرء عالما بالفرع الذى يريد التخصص فيه أن يستمع إلى محاضرات العالم الثقة فى الفرع المذكور ، ومتى أحسن الاستماع ونجح فى الامتحان أمام أستاذه ، أجازه هذا أو سمح له بتعليم الفرع الذى درسه وأتقنه .

اهتم العرب بطلب العلم ، وكان من بينهم من يترك بلاده وأسرته لطلب العلم ، أو الاستماع إلى عالم كبير ذاع صيته ، فيرحلون عدة شهور ،وقديتحملون المشاق فى سبيل الحصول على حديث نبوى واحد . وكان الشعراء والأدباءالذين كانوايرغبون فى الحصول على أكبر قسط من الفصاحة العربية ، كانوايذهبون إلى البادية طلباً للبيان والبلاغة . وكان العلماء الذين يبذلون جهدهم فى التعليم فى المساجد يقدمون علمهم بالمجان فلا يطلبون من تلاميذهم جزاء ولا شكوراً . وكان الأمر كذلك فى البادية ، فإن التعليم فيها أو طلب الفصاحة والبلاغة فيها لم يكن يكلف صاحبها مالا ، وإن كان يكلفهم شيئاً من العناء والمشاق(١)

وفى العصر الأموى ، ظهر المؤدب الخاص فى البيوت وكانت الأسر الغنية تكلف أحد الأساتذة بتأديب أولادها فى غرفة من غرف البيت مقابل أجر معين فى الشهر ، وكان على هذا الأستاذ أن يعلم الأطفال القراءة والكتابة والقرآن والشعر والأدب . واشتهر هؤلاء الأساتذة ، أو المؤدبون ، بسمو أخلاقهم وغزير علمهم وشدة ورعهم ، فكانوا يحرصون — كما تخبرنا المصادر القديمة — بأن ينشئوا فى طلابهم خصالا جيدة ، فيطلبون إليهم الاعتماد على

---

(١) عمر ابو النصر : الحضارة الأموية ص ٣٤٥ .

النفس والابتعاد عن الملاهى والمعازف والغناء ومراعاة سنن الاقتصاد ونبذ الصلف والعجب بالنفس ، ومؤازرة الغير ومساعدتهم . وكان هؤلاء الأساتذة يهتمون بالرياضة فيشجعون تلاميذهم على النزول فى ميادين السباق والفروسية ويمرنونهم على الصيد والقنص والمصارعة .

قال عتبة بن أبى سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده : « ... وعلمهم كتاب الله ، ولا تكرههم عليه فيملوه ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم روهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه ... وجنبهم محادثة النساء ، وروهم سيرة الحكماء . . . » . وقال الحجاج بن يوسف لمعلم ولده : « علم ولدى السباحة قبل الكتابة ، فإنهم يصيبون من يكتب عنهم ولا يصيبون من يسبح عنهم . » وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ساكنى الأمصار : « أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ، وروهم ما سار من المثل وحسن من الشعر[١] » . وأرسل الأمويون المعلمين إلى قبائل البدو الرحل ليعلموهم أمور دينهم وشيئاً من القرآن والكتابة ومبادىء الحساب .

أما البنات فكن يتعلمن القرآن ويحفظن الشعر فقد كانت مولاة لبنى الحجاج تحفظ شعراً وترويه وتنشده فتيات بنى الحجاج[٢] . وكان صغار البنات يحضرن الدروس فى المدارس الابتدائية بجانب الأطفال الذكور ، ولكن التعليم كان محدوداً ، فكان الأستاذ يعلم تلاميذه وتلميذاته القرآن وأصول الدين ، بعد تعليمهم القراءة والكتابة ، إلى جانب بعض الصرف والنحو . ولكن بعض المحافظين كانوا يتجنبون تعليم بناتهم اللهم إلا ما يتعلق بدينهم

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٢
(٢) القالى : الأعالى ج ٢ ص ٦٢

حتى قيل . « لا تعلموا بناتكم الكتابة ولا ترووهن الشعر وعلموهن القرآن ، ومن القرآن سورة النور »(١) .

ثالثا الثقافة العربية الإسلامية

الثقافة الاسلامية

عندما ظهر الإسلام ، كان من أهم ما دعا إليه القرآن طلب العلم والعمل على تحصيله ، وحث الحديث على طلب العلم ولو كان فى الصين . كما استعان رسول الله بأسرى حرب بدر على تعليم المسلمين إذا شاءوا افتداء أنفسهم ، كما حرص رسول الله على أن يكون حظ المرأة مثل حظ الرجل فى العلم . فحث الرجل على تعليم أهلهم وذويهم ، كما حث على تعليم العبيد من النساء ثم اعتاقهن والتزوج بهن ، وإذا كان هذا حظ الأمة فما بالك بالحرة المفروض فى وليها أن يعلمها ويؤدبها على الوجه الأكمل .

ويعتبر الفقهاء أن من أول حقوق الأمة على الخليفة « نشر العلوم والشريعة وتعظيم العلم وأهله ، ورفع مناره ومحله ، ومخالطة العلماء الأعلام الفصحاء لدين الإسلام ، ومشاورتهم فى موارد الأحكام ومصادر النقض والإبرام(٢)» .

استفاد كثيرون من الصحابة من صحبتهم للرسول ؛ فنبغ على بن أبى طالب فى القضاء ، ونبغ معاذ بن جبل فى العلم بالحلال والحرام ، وزيد بن ثابت فى تقسيم المواريث والأنصبة فى الغنائم وما إليها ، وأبى ابن كعب فى قراءة القرآن . ولما بدأت الفتوح تفرق هؤلاء العلماء من الصحابة فى الأمصار الإسلامية الجديدة فنزل بعضهم البصرة ، وبعضهم الكوفة ، وبعضهم ظل فى المدينة . وآخرون

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٢

(٢) بدر الدين بن جماعة : تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام المنشور فى المجلد الرابع لسنة ١٩٣٤ من مجلة الاسلام الألمانية ص ٦١

ذهبوا إلى الشام ، فأحدثوا فى كل هذه البلاد حركة علمية قوية ، والتفت حولهم التلاميذ يأخذون عنهم العلم ، وينشرونه بين الناس . ولم يكن جميع هؤلاء من العرب بل كان بعضهم من الموالى ، ولذلك كانوا بحاجة إلى تعلم العربية ، لغـة القرآن والحديث ، ومن هنا نشأت بعض الدراسات اللغوية كالنحو والصرف .

كانت عناية الجميع فى أول الأمر مقصورة على العلوم الدينية ، وما يتعلق بالقرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يجد من مشاكل خلقها تبدل الأيام وتقدم الفتوح . ولذلك كان أول ما انتشر من العلوم فى عهد الأمويين مرتبطاً بالدين ودراسة الدين ، مع بعض العناية بالترجمة والعلوم الفلسفية الأخرى .

ميز كتاب المسلمين بين العلوم التي تتصل بالقرآن الـكريم ، والعلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . ويطلق على الأولى العـلوم النقلية أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحـكمية ويطلق عليها أحياناً علوم العجم أو العلوم القديمة أو علوم الأوائل .

وتشمل العلوم النقلية : علم القراءات ، وعلم التفسير ، وعلم الحديث والفقه ، والنحو واللغة ، والأدب . بينما تشمل العلوم العقلية : الفلسفية والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والطب ، والسحر ، والـكيمياء ، والتاريخ والجغرافية(١) .

يقسم (جرجى زيدان)(٢) العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى صدر الإسلام إلى ثلاثة مجاميع :

(١) العلوم التى اقتضاها الإسلام ، وهى علوم القرآن والحديث والفقه واللغـة والتاريخ ، ويمكن تسميتها بالعلوم الإسلامية أو الآداب الإسلامية .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٤٩٦
(٢) تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٤٢

(٢) العلوم التى كانت فى الجاهلية وارتقت فى الإسلام ، وهى الشعر والخطابة ، ويمكن تسميتها بالآداب الجاهلية أو الآداب العربية .

(٣) العلوم التى نقلت إلى العربية من اللغات الأخرى كالطب والهندسة والفلسفة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضة ويمكن تسميتها بالعلوم الدخيلة أو الأجنبية .

ولكننا نفضل أن نقسم الدراسات التى اهتم بها العرب المسلمون فى الدولة العربية الإسلامية إلى ثلاث مجموعات : الدراسات الدينية ، والدراسات الأدبية ، والدراسات العلمية ، وقبل أن نتحدث عن هذه الدراسات المختلفة علينا أن نتناول دراسة بعض المواضيع التى تنير أمامنا الطريق .

العرب والثقافات الاجنبية .

كان ظهور الإسلام فى قلب الجزيرة العربية دافعاً إلى ازدهار الثقافة وترعرعها فيما بعد . حتى إذا فتح العرب المسلمون كثيراً من الأمصار التى كانت خاضعة للفرس والروم ، مثل الشام ومصر وأفريقية والعراق وفارس ، وهى الأمصار التى تألفت منها الدولة العربية الإسلامية ، بدأ العرب يغترفون من ثقافات هذه البلاد وشعوبها ، وتمثلوها ، وأنشأوا من ذلك كله ثقافة خاصة بهم . وكانت ثقافة هذه البلاد ذات طابع يونانى وسريانى وقبطى وفارسى ، ويرى (هل)[1] أنه يمكن أن نجمل وصفها بقولنا أنها ثقافة هيلينية مسيحية .

يرى (هل) أيضاً أن تمثل المسلمين لهذه الثقافات يعتبر أمراً هاماً للاسلام وللهيلينية كذلك ، إذ بعثت الثقافة الهيلينية وانتعشت بسبب تغير الظروف المحيطة بها ، ولاتصالها بالعرب واحتكاكها ثقافياً مع ديانة أخرى ، تتشابه

---

(١) الحضارة العربية ص ٥٨

معها فى التفكير والميول وبينما كان ذلك هو التأثير الذى أصاب الهيلينية ، فإن العرب من ناحية أخرى تأثروا بثقافة الأجناس التابعة لهم . فإذا كان العرب قد زودوا الهيلينية بلغتهم وهيأوا لهـا فرصا للانتشار الواسع ، فإن الهيلينية ردت ذلك الدين للرب بمنحهم ثروتها العلمية والفنية .

وقبل أن يلم العرب بالثقافة الهيلينية كانوا قد ألفوا منذ زمن طويل ، كما هو طبيعى ، الفن الهلينى وعمائره . ويستطيع المرء أن يتبين جليا التفاعل والتجاوب بين الإسلام والنصرانية فى ميدان الفن . ذلك أن جيوش الإسلام رأت فى المدائن ودمشق وبيت المقدس ومصر أعمال الفن من عمارة ونحت ، وشاهدت بدائع الصناعات كالنسيج والصياغة ، فأيقظ ذلك كله فى نفوس العرب الرغبة فى تقليدها وجلبها لأنفسهم . ذلك أن العرب على النقيض من الشعوب الهمجية تجنبوا التخريب ، وحافظوا على تلك الكنوز الغنية ، وأضفوا عليها طابع الخاص .

قام السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية ، وخاصة مذهب الأفلاطونية الحديثة . فى العراق وما حوله ، وأخذوا ينقلون الكتب اليونانية إلى لغتهم السريانية ، وهى إحدى اللغات الآرامية انتشرت فيما بين النهرين والبلاد المجاورة لها ، وكان من أهم مراكزها الرها ونصيبين ، وفوق هذا كانت هى لغة الأدب والعلم لجميع كتاب النصرانية فى أنطاكية وما حولها ، وللنصارى الخاضعين لدولة الفرس . وأنشئت فى هذه الأصقاع مدارس دينية متعددة كانت تعلم فيها اللغة السريانية واليونانية جميعا فى الرها وفى نصيبين وفى جنديسابور . وكانت مدينة حران (فى جنوبى الرها) مركزاً للثقافة اليونانية إلى ما بعد الإسلام ، فكانوا بعد الفتح الإسلامى يدرسون الرياضة والفلك والفلسفة على المذهب الأفلاطونى[1] .

حفظت اللغة السريانية بعض الكتب اليونانية التى فقد أصلها . وكانت

---

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٣٠

ترجمتهم لكتب. الفلسفة اليونانية هى الأساس الذى اعتمد عليه العرب والمسلمون أول أمرهم . وقد كانت الترجمة السريانية فى عهدها الأول ترجمة حرفية تقريباً ، ثم تحرر الكتاب المتأخرون من حرفية الترجمة .

ولما فتح المسلمون هذه البلاد فى القرن السابع الميلادى أسلم بعض السريانيين، وظل بعضهم محافظاً على دينه يدفع الجزية ، ولكن الآداب السريانية على الجملة أخذت فى الضعف ، ومع ذلك فقد نبغ كثير منهم فى العصر الأموى والعباسى ، وظلت المدارس السريانية مفتوحة فى عهد الدولة الأموية كما كانت . ولم يكن الخلفاء والأمراء يتدخلون فى شئونهم إلا عندما يحتدم النزاع الدينى بينهم فيلجأ بعضهم إلى الولاة يستنصرهم . واشتهر من هؤلاء فى العصر الأموى يعقوب الرهاوى ، وقد ترجم كثيرا من الالهيات اليونانية ، وليعقوب هذا أثر كبير الدلالة ، فقد أثر عنه أنه أفتى رجال الدين من النصارى بأنه يحل لهم أن يعلموا أولاد المسلمين التعليم الراقى ، وهذه الفتوى تدل من غير شك على إقبال بعض المسلمين فى ذلك العصر على دراسة الفلسفة عليهم ، وتردد النصارى أولا فى تعليمهم .

انتقلت الدراسات اليونانية إلى الحقل العربى عن طريق ثلاثة منابع . فمنذ أيام الاسكندرية ، خضعت الأرض الواقعة بين الفرات ودجلة تحت نفوذ الثقافة الهلينية . وفى الوقت الذى تناهت فيه أنباء موت (كراسوس) إلى أسماع بلاط الملك الفارسى (أورديس) كان هذا الملك يشاهد إحدى التراجيديات التى ألفها (أيور ببيدس) . وفى سنة ٥ م سمعنا عن كسرى خسرو أنو شروان أنه أسس أكاديمية فى (جنديا سابور) فى خوزستان ورغم سقوط الدولة الفارسية ، فقد استمرت الأكاديمية فى نشاطها طوال ثلاثة قرون انقطعت على نهاية الساسانيين وكان يدرس فى هذه الأكاديمية الفلسفة الإغريقية والطب .

وإلى جانب أكاديمية جنديا سابور ، نجد السوريان فى الجزيرة ينقلون إلى العرب فلسفة وطب الإغريق ، وقد تركت الفلسفة الإغريقية جذورها بينهم حتى أن اعتناقهم المسيحية لم يؤثر فيها إلا تأثيراً محدوداً . وقدرتهم على التحصيل معروفة لكل دارس للتاريخ البيزنطى . فقد درسوا إنتاج العلماء الرومان البيزنطيين واستفادوا من مؤلفات أرسطو الأطباء الإغريق ، وعلماء الطبيعة والرياضة . وفى البلاد الواقعة بين أنطاكية والموصل ، قام السوريان بترجمة الكتب الإغريقية إلى لغتهم . ويقول (موللر) إن من يجيد اللغتين يجد أنه من المستحيل أن يفرق بين الأصل والترجمة السوريانية (١) .

كان سكان حران — وقد انفردوا من بين أهل سوريا بالاحتفاظ بعقيدتهم — هم المنبع الرئيسى الذى استمد منه العرب معلوماتهم عن الثقافة والحضارة الإغريقية . وقد تفوقوا على الآخرين بمعرفتهم اللغة العربية ، ولذا كانت ترجمتهم أكثر دقة . وهكذا كانت أكاديمة جنديا سابور ، ورهبان الجزيرة ، وأهالى حران ، المصدر الذى استمد منه العرب معرفتهم بالعلوم الإغريقية .

ولكن العرب كانوا أكثر تأثراً بالثقافة الفارسية منه بالثقافة اليونانية فقد ذابت دولة الفرس فى الدولة الإسلامية وكانت حياة الفرس الإجتماعية تحت أعين العرب يعرفون عنها الكثير ، فاستطاعوا أن يتذوقوا شيئاً من ثقافتهم ، أما الحياة اليونانية فكانت بعيدة كل البعد عن معيشة العرب ، ولم تكن تحت أعينهم لينظروها : آلهة تخالف كل المخالفة تعاليم دينهم ، ونظم سياسية واجتماعية لاعهد لهم بها ، وأنواع من اللهو لم يألفوها . والثقافة هى صورة تعكس فيها الحياة الإجتماعية ، فكان لزاما ألا يتذوق العرب الثقافة اليونانية وخاصة الأدب اليونانى ويتأثروا به فمن العسير أن نعثر على معان يونانية فى

---

(١) انظر ترجمتنا لكتاب الحضارة الاسلامية لخودابخش ص ١٠٧

الشعر العربى ، أو على شاعر أصله يونانى أو رومانى ، بينما وجدنا كثيراً من الشعراء من أصل فارسى أصبحوا شعراء فى العربية ، ونجد مؤرخى المسلمين فى ذلك العهد تأثروا فى طريقة تدوين الحوادث بالنمط الفارسى لا بالنمط اليونانى (١) .

وخلاصة القول، كانت الثقافة العربية الإسلامية الجديدة مزيجاً من عقلية عربية لها طبيعة خاصة هى نتاج بيئتها ، وحياة إجتماعية خاصة يعيشها العرب فى جاهليتهم ، ودين إسلامى أتى بتعاليم جديدة ، ورسم للحياة مثلا أعلى يخالف المثل الذى كانت ترسمه تقاليد الجاهلية ، وفتح إسلامى مد سلطانه على فارس وماحولها ، وعلى مستعمرات رومانية كثيرة ، فأذاب ما كان للفرس من دين ومدنية وعلم ، وما كان للمستعمرات الرومانية من دين ومدنية وعلم ، فى الدولة الإسلامية جميعها ، وكون منها مزيجاً واحداً مختلف العناصر .

مراكز الثقافة فى الدولة العربية الاسلامية :

كانت البصرة والكوفة فى العراق ، ثم دمشق عاصمة الدولة الأموية بالشام ، أبرز مراكز الثقافة فى صدر الإسلام ، ثم يأتى دور المدينة ومكة بالحجاز . تم إنشاء الكوفة والبصرة فى خلافة عمر بن الخطاب ليكونا معسكرين للجنود العربية ، فنشأت الكوفة قرب مواطن الحضارة البابليونية القديمة ، وكأنها قامت مقام الحيرة عاصمة اللخميين ؛ وأصبحت مركزاً حضاريا عظيما وبلغ سكانها بعد إنشائها بقليل أكثر من مائة وخمسين ألف نسمة . أما البصرة فقد أصبحت سنة ٥٠ هـ تضم أكثر من ربع مليون نسمة ، وكان فيها مايزيد على ١٢٠ ألف قناة .

كان بالعراق مراكز عقلية أكثر مما كان فى الشام ، وأهم هذه المراكز

---

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٣٩

الكوفة والبصرة [١] ، ولم يكن فى القرن الأول الهجرى مدينة تستطيع منافستهما ، ففيهما وضعت علوم العقائد والفقة ، وفيهما نشأت مدرسة النحويين واللغويين . [٢] ولعل من الأسباب التى أدت إلى ازدهار الحياة العلمية والأدبية فى العراق فى العصر الأموى أن أهل العراق رأوا أن ينصرفوا عن السياسة حتى لا يتعرضوا لاضطهاد ولا تهم الأمويين ، فوجهوا إهتمامهم إلى الاشتغال بالعلوم والآداب. كما أن الموالى أرادوا أن يصلوا إلى مرتبة العرب فأقبلوا على تعلم اللغة العربية حتى إذا أجادوها بدأوا ينهلون من مناهل الأدب والعلم . [٣]

كانت مدن العراق تختلف تمام الاختلاف عن مدن العرب التجارية القديمة ، والتى لم تتأثر إلا قليلا بتغير الظروف ، إذ ترتب على حملات الفتوح هناك ظهور عالم جديد ، حيث أثار احتكاك العرب بالشعب الفارسى الموهوب مشاعر العرب ، وخلق منهم ، إذا صح القول ، جنساً جديداً له مميزاته الخاصة، ثم أن التطور السريع الذى أصاب هاتين المدينتين وتمثلهما للمؤثرات الفارسية أدى إلى قيام حركة ثقافية حية ، وغدا البصريون والكوفيون أوفر المسلمين نشاطاً ذهنياً . وكذلك أدى مركز البصرة والكوفة والجغرافى والثقافى ، وتوسطه بين المدينة ودمشق ، إلى إيقاظ الشعور بالشخصيــــة بين أهليهما ، وإستمسا كهما بالإستقلال. [٤]

وإذا كان أهل البصرة والكوفة قد استمسكوا فى الميدان السياسى بحرية إبداء آرائهم ، فإنهم تعلقوا كذلك بالإستقلال فى ميدان الثقافة والعلم ، ومن ثم بدأ هناك قبل أى مكان آخر الاهتمام بدراسة اللغة دراسة علمية. وكان الدافع

---

(١) Nicholsön : Lit. Hist. of the Arabs, p. 220

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٤٠

(٣) انظر كتابنا (تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى) ص ٣٢٩

(٤) هل : الحضارة العربية ص ٦٩ .

على ذلك النشاط اللغوى والفقهى الاتصال بين الفرس والعرب ، والاختلاف من ناحية أخرى بين لغة القرآن واللغة الدارجة . ولا يمكن أن نعرف على وجه التحقيق أولئك الذين بدأوا بدراسة فقه اللغة العربية ومن المحتمل أن الأجانب والفرس بصفة خاصة قاموا بوضع الأساس فى هذه الدراسات ، ولكن يجب أن نلاحظ على أية حال ، إن ذلك ما كان يتم لهم دون معونة صادقة من العرب .

ويستلفت نظرنا فى البصرة كذلك ، أوائل القرن الثانى الهجرى ، ظهور ناحية أخرى من النشاط العقلى . فكانت تعقـــد جلسات تنظر فيها وتناقش المسائل السياسية والعربية الجارية ، فتجـادلوا فى الإسلام والبوذية وفى مسألة القضاء والقدر . ووضع واصل بن عطاء أسس مدرسة عقلية .

وفى البصرة والكوفة ، بدأت الدراسة العلمية للغة العربية وقواعـــدها لمصلحة من اعتنق الإسلام من الأجانب . وكان الباعث الأول على هـــذه الدراسات هو الرغبة فى تزويد المسلمين الجدد باللغة التى يحتاجون إليها فى دراسة القرآن والوصول إلى مناصب الحكومة والتفاهم مع الغزاة كذلك كان من البواعث على القيام بهذه الدراسات ماوجد من الهوة الواسعة التى كانت تزداد إتساعاً يوماً بعد يوم فتفصل مابين لغة القرآن الفصيحة ولغة الكلام اليومية التى كانت تخالطها السريانية والفارسية وغيرها من اللغات واللهجات .(١)

وفى الوقت التى ظلت فيه العادات العربية القديمة والنظرة العربية للحياة جامدة فى مكة ، كانت الحياة فى المدن الجديدة بالعراق ونواحى النشاط فيهـا تعطى العروبة هنالك طابعاً جديداً ، إذ بدا أن جنساً جديداً ولد ، جنساً أبيـاً صريحاً بعيد النظر ، وشديد المرح بالعرب القدامى من أهل الحجاز . ولكن

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٠١

يفوقهم أيضاً فى مزاجه وطابعه العلمى . فطرح سكان البصرة والكوفة روح أجدادهم المحافظة ، تلك الروح التى كانت حتى ذلك الوقت مقياس الجودة التى لايمكن مهاجمتها ، واتجهوا نحو الأخذ بأسباب التقدم ومن ثم اجتمعت مميزات مكة وفضائل مدائن بلاد الرافدين فى عاصمة الأمويين ، التى جاء إليها عناصر جديدة كذلك زادتها شأناً وامتيازا .(١)

وفى الشام ، كان السكان الأصليون يتحدثون اللغة الآرامية ، وكانت العربية والآرامية لغتين من أسرة واحدة يجمع بينهما ماض بعيد وأصول عتيقة لكن الزمن غطى هذه الأصول الجامعة بطبقة كثيفة من الفروق ولذلك لم تلتق اللغتان لقاء إجتماع . وإنما التقتا لقاء صراع ، وكان طبيعياً أن ينتهى الصراع بتغلب العربية ، فقد كانت لغة الدين ولغة الدولة معاً .

تمثلت الصلات اللغوية من بلاد العرب وبلاد الشام فى وحدة اللغة العربية بين عرب الجزيرة وعرب الشام مرة ، وفى قرابتها من الآرامية مرة أخرى . أما اللغة اليونانية فلم تستطع البقاء ولم يكن لها قوة قبل الفتح إذ لم تعد أن تكون لغة الدواوين ، أو لغة المترفين (المتهلينين) وابتعاد اللغة اليونانية كان حداً لأطراف الخصومة وكان تقصيرا لأمد الصراع اللغوى وطياً لكثير من وجوهه التى تبدو فى اللغات المتخالفة . ووحدة لغة القبائل العربية مع لغة المهاجرين المسلمين كان تتويجاً لذلك وتمكيناً لعملية التعريب أن تسرع خطاها وتبلغ مداها وتحقق غاياتها .(٢)

تمتعت دمشق وحدها ، دون المدن الأخرى التى أصبحت مراكزا ثقافية بالعظمة التى اكتسبتها من وجود مقر الحكومة فيها . أما حكام العراق

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ٦٩
(٢) شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٦٩

ومصر فكان عليهم أن يقيموا فى المعسكرات التى أنشئت حديثاً إذ ذاك ، برغم ميلهم إلى سكنى المدن القديمة وإذا كانوا قد أخذوا الشىء الكثير من الوسط الذى أقاموا فيه ، فانهم برغم ذلك بدأوا كل شىء من جديد أما فى دمشق فقد احتك العرب الساميون بحضارة من نوع حضارتهم وهى الآرامية . ثم إنه وافق مزاجهم تلك المدينة الزاهرة ، القائمة على حافة الصحراء ، بجداولها وخرير مياهها وأما كنها الظليلة ، ولذا كثر عدد العرب الذين نزلوا بها فى سرعة عجيبة ولذا وصلوا فى سنة ٧١٠ م مائة وعشرون ألفاً . ولم يجد الأمويون الذين فطرت نفوسهم على حب السيادة ، والميل إلى الاستمتاع والمرح أكثر ملائمة لمزاجهم من دمشق ، إذ أمدتها بيزنطة بالكماليات ، ومكة بالموسيقيين ، والبصرة والكوفة بثمار الفكر . (١)

اجتذبت المدينه — بحياتها الهادئة وما أحاطها به المجتمع الإسلامى الأول من وقار — جمهور العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة ماضيها المقدس وجمع الأنظمة القانونية والدينية . ولما كانت المدينة تضم جثمان الرسول فإنها أصبحت مركزا لدراسة الحديث الإسلامى الذى تحول إلى علم فى الطبقة الأولى من الرقى بفضل أمثال أنس بن مالك وعبدالله بن عمر بن الخطاب .

أما مدرسة مكة فترجع شهرتها إلى عبد الله بن العباس الملقب بأبى العباس . وهو ابن عم النبى وجد الخلفاء العباسيين ، ولقد كان رجلا واسع الشهرة محبوباً لعلمه العميق بالحديث والفقه ولمهارته فى تفسير القرآن ، وهى أمور حملت الناس على أن يلقبوه بلقب يحسد عليه هو « حبر الأمة »

ظهر فى المدينة أولى مدارس التشريع الإسلامى البحت ، إذ عاش هناك الصحابة الذين أكنزوا كل كلمة بدرت من الرسول ، وتناقلوها بعناية لايشوبها

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ٧٠

الشك . وكان كل حديث من تلك الأحاديث كنز لا يقدر بثمن ، تواترته الأجيال خالفا عن سالف مع أسماء الرواة . وغدت تلك الأحاديث إلى جانب القرآن المنابع الأصلية للتشريع الإسلامى . وقد اختلطت الأحاديث الصحيحة أثناء تواترها على ألسنة الرواة مع أحاديث مكذوبة كثيرة .

ويعتبر ابن مسعود وابن عباس مؤسسى مدرسة المدينة . أما ابن مسعود فكان خبيرا بحياة النبى وآرائه ، على حين كان ابن مسعود خبيرا بميدان الآثار ، أى الأحكام الفقهية للخلفاء الأول ، وذلك مع تفقه كل منهما فى القرآن ويعد ابن مسعود كذلك واضع علم تفسير القرآن ، حيث ارتبط التشريع والفقه فى أول أمرهما مع الآخر أشد الارتباط . فكان القرآن مصدر كل تشريع وأحكام وأصبح أول شىء يحتاج إليه القاضى وطالب الدين كذلك هو معرفة نص القرآن وتفهمه بصفة عامة حتى غدا العالم بالقرآن فى ذلك العصر فقيها ومشرعا فى نفس الوقت ولذا كان مشرعو المدينة ، وهم من تلامذة مدرسة ابن عباس وابن مسعود يعدون فى الحقيقة فقهاء كذلك .[1]

رابعا : الدراسات الدينية والعقلية والأدبية والعلمية

الدراسات الدينية :

كان القرآن الكريم هو محور الدراسات الدينية خاصة ، والدراسات الإسلامية المنوعة عامة ، فى صدر الإسلام . حينما نزل القرآن الكريم بُغت العرب لما رأوه من بلاغة أسلوبه على غير المألوف عندهم ، لأنه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ، ولا نظم الشعراء المقفى الموزون ، وفى القرآن من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه فى لسان العرب ،

---

(١) حل : الحضارة العربية ص ٥٦

فسحروا بأسلوبه ، وبما حواه من الشرائع والأحكام والأخبار . فلما دان العرب بالإسلام أصبح همهم تلاوته ، وتفهم أحكامه . لأنه قاعدة الدين والدنيا ، وبه تتأيد السلطة والخلافة ، ثم أشكل عليهم بعض ما فيه ، واختلفوا فى تفسيره ، فعمدوا إلى ما أثر عن الرسول من قول أو فعل يستوضحون بها ذلك الأشكال، فأصبح همهم جمع الأحاديث ممن سمعها ، أو رواها عن سامعها بالإسناد المتسلسل. فرأوا تباينا فى الروايات ، فاشتغلوا فى التفريق بين صحيحها وفاسدها ، فرجعوا إلى درس الأسانيد واستطلاع أخبار أصحاب الحديث ، فجرهم ذلك إلى درس طبقات المحدثين والأحوال التى تناولوا تلك الأحاديث فيها (1) .

والنظر فى أحكام القرآن والسنة لا بد فيه من فهم العبارة وتدبرها ، فنشأ من ذلك علم التفسير ، وبإسناد نقله وروايته ، واختلاف القراء بقراءته تولد علم القراءات ، وبإسناد السنة إلى صاحبها ، والتفريق بين طبقات الحديث . ثم لا بد من استنباط هذه الأحكام من أصولها . على وجه قانونى يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط ، وهو علم أصول الفقه ، ثم الفقه ، فالعقائد الاسلامية ، ثم علم الكلام .

ولما عمدوا إلى تلاوة القرآن والحديث وتفسيرهما ، أشكل على غير العرب إعرابهما ، لأن ملكة اللغة غير راسخة فيهم ، فاضطروا إلى تدوين اللغة . وترتيب قواعدها ، وتعيين معانى ألفاظها ، ولذلك كان أكثر المشتغلين بعلوم اللغة من الأعاجم ، وتعيين معانى ألفاظها ، وضبط التلفظ بها دعاهم إلى البحث عن لغة قريش التى كتب بها القرآن وكان المرجع فى ذلك إلى الأشعار والأمثال فرحلوا إلى بادية العرب وخالطوا الأعراب ونقلوا أشعارهم وأقوالهم وأمثالهم ، ليعرفوها ويرجعوا إليها . فرأوا مشقة فى فهم معانى أشعارهم وأمثالهم إلا بالاطلاع

---

(1) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٤٣

على أنسابهم وآدابهم فلم يكن لهم بدٌّ من درس ذلك كله ، وهو ما يعبرون عنه بعلم الأدب . واختلفوا فى فهم الأشعار ، ووجدوا فى رواياتها اختلافاً وفى بلاغتها تفاوتاً ، فعمدوا إلى البحث فى طبقات الشعراء وأماكنهم وأشعارهم وأخبار قبائلهم .

وكان الراحلون فى التقاط اللغة والشعر من أفواه العرب فى مضاربهم يقفون على سائر علومهم ، كالنجوم والأنواء والخيل والأنساب وغيرها فلما عادوا لتدوين اللغة دونوا أيضاً كثيراً من تلك العلوم ؛ ولذلك كان أصحاب هذه العلوم غالباً من علماء اللغة ، وعثروا أيضاً على ألفاظ وأشعار يندر ورودها فألفوا النوادر(١) .

لا غرو إذا أهتم المسلمون بجمع القرآن وحفظه . لأن عليه يتوقف دينهم ودنياهم ، وأول أسباب حفظه تدوينه . والقرآن لم ينزل مرة واحدة ، وإنما نزل تدريجياً خلال عشرين عاماً على مقتضى الأحوال ، منذ ظهور الإسلام إلى قبيل وفاة الرسول ، بعضه فى مكة وبعضه فى المدينة . وكان المسلمون يدونون الآيات أو السور على رقاع من جلود . أو عظام عريضة كالأكتاف والأضلاع أو جريد النخيل . أو بعض الأحجار البيضاء . ولما توفى الرسول سنة ١١ ﻫ كان القرآن إما مدوناً بهذه الطريقة أو فى صدور القراء أى حفظة القرآن . ولما قتل عدد كبير من هؤلاء القراء فى حروب الردة أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر بجمع القرآن . فتردد أبو بكر لأن الرسول لم يقم بجمع القرآن . ولكن عمر أقنع أبا بكر بفكرته، فكلف زيد بن ثابت أحد كتبة الوحى بجمع ما كان مدوناً عند الصحابة وما فى صدورهم . وقام زيد بمهمته خير قيام . وظلت الصحف المجموعة عند أبى بكر حتى توفى سنة ١٣ ﻫ فلما توفى عمر تسلمها وظلت عنده حتى تولى عثمان سنة ٣٣ ﻫ .

---

(١) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٤٣

وفى خلافة عثمان أصبحت الدولة العربية الإسلامية عظيمة الاتساع ، وانتشر الإسلام فى الأمصار المفتوحة . وفى السنة الثلاثين من الهجرة « بلغ عثمان ما وقع فى أمر القرآن من أهل العراق . فإنهم يقولون : قرآننا أصح من قرآن أهل الشام لأننا قرأنا على أبى موسى الأشعرى وأهل الشام يقولون : قرآننا أصح لأننا قرأنا على المقداد بن الأسود وكذلك غيرهم من الأمصار . فأجمع رأيه ورأى الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذى كتب فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه وكان مودعاً عند حفصة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وتحرق ما سواه من المصاحف التى بأيدى الناس ففعل ذلك . . . وقال عثمان : إن اختلفتم فى كلمة فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزل القرآن بلسانهم »[١] ثم جمع عثمان المصاحف من جميع الأمصار « ثم سلقها بالماء الحار والخل وقيل أحرقها »[٢].

رضيت جميع الأمصار الإسلامية عما فعله عثمان إلا بلاد العراق ، وخاصة مدينة الكوفة ، فقد رفض عبد الله بن مسعود أن يسلم مصحف الكوفة إلى عبد الله بن عامر وإلى عثمان على الكوفة ، وخطب فى أهالى الكوفة قائلا : « أما بعد ، فإن الله قال : (ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة) ، وإنى غال مصحفى ، فمن استطاع منكم أن يغل مصحفه فليفعل »[٣] . فأرسل عبد الله بن عامر إلى عثمان من يخبره بأمر امتناع ابن مسعود « وكتب إليه عثمان : أن أشخصه إن لم يكن هذا الدين خبالا ، وهذه الأمة فساداً ، فدخل المسجد وعثمان يخطب ، فقال عثمان : إنه قد قدمت عليكم دابة سوء . فتكلم ابن مسعود بكلام

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ١ ص ١٦٧ — ١٦٨
(٢) اليعقوبى جـ ٢ ص ١٣٧
(٣) ابن العربى : العواصم من القواصم ص ٧٠

غليظ . فأمر به عثمان : فجر برجله حتى كسر له ضلعان . فتكلمت عائشة . وقالت قولا كثيراً[١] » . وغضب أهل العراق لمعاملة عثمان لعبد الله بن مسعود فقد كانوا يحترمونه ويجلونه . لأنه من أقدم أصحاب الرسول . وأحد الثقات الكبار فى القرآن . وكان هذا الحدث من الأحداث الهامة التى أدت إلى ثورة أهل العراق على حكم عثمان ثم مصرعه فيما بعد[٢] .

كان علم القراءات من العلوم التى اشتغل بها المسلمون . ويعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن ، وتتركز النواة التى بدأ بها هذا العلم فى القرآن ، وفى نصوصه نفسها ، وبعبارة أوضح فى قراءته ، ففى هذه الأشغال المختلفة نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير . ويرجع السبب فى ظهور القسم الأكبر من هذه القراءات إلى طبيعة الخط العربى ، فإن من خصائصه أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة قد يقرأ بأشكال مختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف أو تحتها . كما أن عدم وجود الحركات النحوية وفقدان الشكل فى الخط العربى يمكن أن يجعل للكلمة حالات مختلفة من ناحية موقعها من الإعراب فهذه التكميلات للرسم الكتابى ثم هذه الاختلافات فى الحركات والشكل ، كل ذلك كان السبب الأول لظهور حركة القراءات فيما أهمل نقطه أو شكله من القرآن . وقد ظهرت للقراءات سبع طرق كل طريقة منها تمثلها مدرسة معترف بها ترجع قراءتها إلى إمام وتستند فى أحاديث موثوق بها وعليها يجب أن يقتصر فى قراءات المصحف[٣] .

واهتم المسلمون أيضاً بعلم تفسير القرآن ، وكان المسلمون فى حياة الرسول يستفسرون منه عن معانى القرآن وحفظ صحابته عنه هذا التفسير ، وعنهم أخذ التابعون . ولما اتسعت الدولة العربية الإسلامية ، احتاج المسلمون إلى الأحكام

---

(١) اليعقوبى : جـ ٢ ص ١٤٧

(٢) انظر كتابنا « تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى » ص ٢٧

(٣) جولد تسيهر : المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن ص ٣٦

والقوانين ، فكان القرآن مصدر استنباطها ، فزادت العناية بتفسيره وأصبح القرآن والمفسرون مرجع المسلمين فى استخراج تلك الأحكام وكانوا يتناقلون التفسير شفاها إلى أواخر القرن الأول . فكان أول من دون التفسير فى الصحف مجاهد المتوفى سنة ١٠٤هـ ثم اشتغل فيه سواه وهم كثيرون حتى أنتهى ذلك إلى الواقدى سنة ٢٠٧هـ والطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ وغيرهما .

اتجه المفسرون فى تفسير القرآن اتجاهين : أولهما التفسير بالمأثور وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة ، وثانيهما التفسير بالرأى وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل . ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين فى صدر الإسلام ، اعتبر التفسير جزءاً من الحديث ، أو فرعاً من فروعه ، حتى أن التفسير فى ذلك العهد كان تفسير الآيات مبعثرة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات، إلا تفسير عبد الله بن عباس، ولو أن كثيرين يشكون فى نسبته إليه . أما الطريقة المنظمة فى تفسير القرآن فإنها لم تحدث إلا فى العصر العباسى[١] .

كانت دراسة القرآن والحاجة إلى تفسيره باعثا على ظهور علمين توأمين هما فقه اللغه (الفيلولوجيا Philology) وكتابة المعاجم (اللكسيكوجرافيا Lexicography) كما كانت باعثا على ظهور هذا العلم الهام الذى يتميز به النشاط الأدبى الإسلامى ونقصد به علم الحديث[٢] .

لما كان القانون فى الإسلام أعلق بالدين أكثر منه بأصول التشريع على نحو ما يفهمه الأوروبيون ، فقد أخذ المسلمون يدرسون الحديث ، ويدرسون فى الوقت نفسه تاريخ الرواة من المحدثين لاهتمامهم بأمر الحداث

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٥٠٤

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٠٢

وحرصهم على الوثوق من صحة رواية وأمانة رواته ، ولذلك كانوا فى حاجة إلى تعرف حال هؤلاء الرواة ودراسة تاريخهم وأخبارهم ، ومعرفة أنسابهم وقبائلهم ، فكان ذلك كله نواة صالحة وثروة غزيرة لعلم التاريخ والأخبار .

والحديث من مصادر التشريع الإسلامى ، وهو ما اثر عن الرسول من قول أو فعل أو تقرير لشىء رآه ، يأتى فى الأهمية بعد القرآن . وقد جمع البخارى ، على ما نعلم ، نحو ٧٢٧٥ حديثا بما فيها الأحاديث المكررة . فإذا حذفنا المكرر منها أصبح عددها نحو أربعة آلاف . وقد اختارها البخارى — على ما قيل — من ثلثمائة ألف حديث . وكانت هذه الأحاديث موضعا لجدل عنيف بين المسلمين ، فقد كان معظم العرب عند وفاة الرسول أميين ، وروى العرب الأحاديث النبوية بعضهم عن بعض ، فتأثرت بشىء غير قليل من التبديل والتحريف والغموض . حتى إذا جاء القرن الثانى الهجرى ، بدأ العرب يدونون الأحاديث النبوية ، وأتاحوا الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث الذين ظهروا فى العصر العباسى (١) .

اشتهر من رجال الحديث فى العصر الأموى الحسن البصرى ، وابن شهاب الزهرى ، وسعيد بن المسيب فى المدينة ، وربيعة الراى وهو شيخ الإمام مالك ، ابن أنس الذى نشأ فى أواخر عهد الدولة الأموية ومات سنة ١٨٩ هـ ، وهو صاحب كتاب الموطأ الذى جمع فيه ما يقرب من ١٧٠٠ حديث .

الدراسات العقلية والأدبية :

كان الإسلام صاحب الفضل الأول على الدراسات العقلية والأدبية والعلمية فى الدولة العربية الإسلامية . فبينما كانت الأمية متفشية بين العرب فى العصر الجاهلى ، بدأ العرب المسلمون بعد ظهور الإسلام يقبلون على تعلم القراءة

(١) حسن ابراهيم . تاريخ الاسلام ج ١ ص ٥٠٤

والكتابة ؛ وشجع الرسول — كما رأينا — على ذلك ، فكان فداء أسرى بدر تعليم كل منهم عشرة من المسلمين ، وحث الرسول أصحابه على تعلم اللغات الأخرى ، ولما فتح العرب الأمصار التى كانت خاضعة للفرس والروم ؛ وبدأ انتشار الإسلام بين السكان الأصليين أخذوا يتعلمون اللغة العربية لدينهم ودنياهم ، حتى اضطروا أن يتعلموا النحو لإصلاح لغتهم .

رفع الإسلام مستوى العرب العقلى ، ونشر بينهم كثيراً من أحوال الأمم الأخرى وتاريخها ، بإطناب أحيانا وبإيجاز أحيانا ، حسبما يدعو إليه موقف العظة ، فقص علينا قصة آدم ونوح وإبراهيم ويوسف وموسى ويونس وداود وغيرهم عليهم السلام ، وشيئا من أخبار أممهم ، فى أسلوب جذاب ؛ هيج النفوس إلى الاستزادة ، وتعرف ما عند الأمم الأخرى منها — كاليهود والنصارى — فكان فى ذلك نوع من الثقافة ، أفاد المسلمين ووسع مداركهم . ثم شرح الإسلام أحكاما فى الزواج والطلاق والشئون المدنية والجنائية ، كانت قانونا نظم أمور المسلمين فى معيشتهم الاجتماعية والاقتصادية . واتخذه الفقهاء والمشرعون مرجعهم يستنبطون منه الأحكام ، ويستهدونه فيما يعرض من حوادث جديدة خلقتها مدنيتهم فكان ذلك أساسا لحركة تشريعية واسعة[1] .

سلك الإسلام فى دعوته إلى الإيمان بالله وصفاته من علم وقدرة ووحدانية ، مسلكا يثير العقل ، وهو الدعوة إلى النظر إلى ما فى العالم من ظواهر من سماء وأرض وكواكب واختلاف ألوان البشر وألسنتهم ، وهذا النوع من الآيات بعث العقل على النظر فى الكون ؛ وكان له أثر فى نمو الحياة العقلية .

وإذا أردنا الحديث عن علم التاريخ عند العرب فى الجاهلية ، وجدنا أن

---

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٤٤

معارف العرب قبل الإسلام فى التاريخ كانت ساذجة جدا ؛ ولكنهم كانوا لغلبة الأمية عليهم يتذاكرون أيامهم وأحداثهم عن طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار مقصدة أو أخبار متفرقة . وشذ عن هذه القاعدة الحضر ممن نزلوا حواجز الجزيرة العربية وخاصة أهل اليمن ، وأهل الحيرة ، فقد نقش اليمنيون بالخط المسند على مبانيهم بعض أخبار ملوكهم وأحوالهم العامة ، ودون الحيريون بخطهم أخبار مملكتهم وأودعوها أديرة الحيرة وكنائسها .

ولما ظهر الإسلام ، وقامت بظهوره الدولة العربية الإسلامية ومست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربى وأحواله استقضاء للسنة ، توفر رجال على جميع أخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب فى الإسلام بالتاريخ ، وإن كان التاريخ يومئذ لا يخرج عن كونه نوعا من أنواع الحديث .

كانت رغبة الخلفاء الأوائل فى الوقوف على أخبار الملوك والحكام السابقين لعصرهم ، واهتمام المسلمين بجمع السير القديمة للرسول وصحابته التى أصبحت فيما بعد الأساس الذى بنيت عليه كتب السير والمغازى ، وضرورة تحرى أنساب العرب المسلمين لتحديد عطاء كل مسلم ، وشرح ما ورد فى الشعر العربى ، ومعرفة الأشخاص والأماكن التى ورد ذكرها فى الكتب الدينية ، وحرص الشعوب غير العربية فى الأمصار الإسلامية على تدوين أخبار أسلافها ، كل هذه العوامل أدت إلى البحث التاريخى (١) .

وفى الوقت الذى كان يجمع فيه الحديث ، كان يوضع التاريخ ، وكان عبيد بن شربه صاحب معاوية بن أبى سفيان أول من ألبس هذا النوع الذى يسمى قبله قصصاً ثوب التاريخ ، وقد ألف لمعاوية كما يقال كتاب (الملوك وأخبار الماضين) ويذكر المسعودى أنه رأى هذا الكتاب وقد روى أن عروة

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٢٠٤

ابن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ هو أقدم من ألف فى السيرة النبوية ، وكذلك أبان ابن عمر المتوفى سنة ١٥٥ هـ ، وقد جمع تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة كتابه فى سيرة الرسول . وكذلك رووا أن ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ جمع كتابا فى المغازى ، وقبله موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ . ومن المشهورين فى علم التاريخ ، وهب بن منبه ، وهو من مدينة صنعاء ؛ يهودى يمنى من أصل فارسى ؛ اعتنق الإسلام ، ولكن أخباره غير موثوق بها تماماً ؛ وله كتاب طبع فى حيدر أباد الهند .

وهناك كعب الأحبار ، وأخباره التاريخية أيضاً لايوثق بها كثيراً وهو يهودى يمنى أسلم ، وكان من مستشارى معاوية بن أبى سفيان على قول بعض المؤرخين . وبواسطة هذين الرجلين (ابن منبه وكعب الأحبار) وغيرهما من اليهود دخلت إلى التاريخ الإسلامى أخبار يهودية عن الحوادث السالفة للاسلام يغلب عليهم الضعف .

وكان الباعث الأقوى على تدوين أخبار الفتوح رغبة ولاة الأمور فى معرفة ما فتح من البلدان صلحاً ، وما فتح عنوة ، وما فتح بعهد ، لأن لكل حكما خاصا من حيث الجزية والخراج فلما دون ذلك كله وجد إلى جانب السيرة فرع آخر من الرواية التاريخية موضوعه أخبار الماضين ، وأحوال الجاهلية وحوادث الإسلام وقد أطلقوا على ذلك كله لفظ « الأخبار »،وعلى المتخصص فى روايته « الأخبارى » كما عرف المتخصص فى رواية الحديث بلفظ «المحدث» ونرى رجالا يجمعون بين الحديث والأخبار مثل ابن اسحق والواقدى — الذى أخذ عنه ابن سعد — والمدائنى (المتوفى سنة ٢٢٥ هـ) . فكل من هؤلاء كان محدثا وإخباريا معا ، كما نلحظ بداية التخصص فى الأخبار فنرى من المتخصصين محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ هـ ، وكان مقدما فى علم

الأنساب ، وعوانة ابن الحكم المتوفى سنة ١٤٧ هـ وقد جمع أخبار بنى أمية ، وأبى مخنف المتوفى عام ١٥٧ هـ وله كتب فى الردة ووقعة الجمل ووقعة صفين وأخبار الخوارج . وسيف الدين بن عمر المتوفى عام ١٧٠ هـ وله كتاب كبير فى الفتوح . وهشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ وله أخبار فى الأوائل وأيام العرب وأنسابهم .

وأخبار الإسلام كتب كثيرة ذكرها ابن النديم فى كتابه (الفهرست) وقد طبع منها كتاب الأصنام . ثم ظهر نوع من التخصص فظهر متخصصون فى جمع أخبار كل مصر من الأمصار الاسلامية، فاختص أبو مخنف بأخبار العراق، واختص المدائنى بأخبار خراسان والهند وفارس ، واختص الواقدى بأخبار الحجاز والسيرة النبوية وفتوح الشام[١] .

كان المحدث أسمى منزلة بين المسلمين من الأخبارى ، وذلك يرجع إلى منزلة الأحاديث النبوية فى قلوب المسلمين من جهة . وإلى تعرض الأخبار خاصة قديمها إلى التغيير أو الاختلاق ، وكان مما يضعف منزلة المحدث اشتغاله بالأخبار ، وقد حدث مثل هذا الأمر لمحمد بن اسحق ، وكان أصلا راوية للحديث ، ثم صار ينقل عن أهل الكتاب ويسميهم أهل العلم الأول .

وخلاصة القول فى علم التاريخ فى الدولة العربية الاسلامية ، أنه ابتدأ فرعا من علم الحديث ، فكان متأثراً بطريقة المحدثين فى جمع الرواية التاريخية ونقدها وكان أهل السيرة والمغازى والأخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونوها مع إسنادها إلى مصادرها الأصلية ، بمعنى أنهم لم يكونوا يحاولون نقد الخبر نفسه ، وإنما كانوا ينقدون ناقل الخبر ، الذى كان وقت الحادث فى المكان الذى وقع فيه الحادث ، أو نقل عن الشخص الذى شاهد الحادث ، وهذه الطريقة ضمنت

(١) أنظر كتاب « الفهرست » لابن النديم .

للعرب صحة الأخبار المتصلة بالقسم التاريخى من السيرة ، وحوادث الدولة الإسلامية ، ولكنها عجزت عن أن تضمن لهم ذلك فى أخبار القدماء ، والعرب قبل الإسلام ، والقسم الأول من السيرة . والحق أن هذه الموضوعات الأخيرة ما زالت أغمض المواضع فى كتب التاريخ العربية الإسلامية .

ويتصل بعلم التاريخ فى الدولة الإسلامية ما يعرف فى ذلك العهد بالقصص ، وقد استحدث فى صدر الإسلام . وكان من قص فى مسجد الرسول فى المدينة (تميم الدارى) فقد استأذن عمر بن الخطاب أن يذكر الناس ، فأبى عليه ذلك فى أول الأمر ، ثم سمح له بذلك فى أواخر خلافته ، فكان يذكر الناس فى يوم الجمعة ثم استأذن تميم الخليفة عثمان بن عفان ، فأمر له أن يذكر الجمعة . وتميم هذا كان مسيحياً من اليمن،أسلم سنة ٩هـ . ويذكر المؤرخون أنه أول من أسرج السراج فى المسجد ، كما كان أول قاص .

كان القاص يجلس فى المسجد وحوله الناس . فيذكرهم بالله . ويقص عليهم حكايات وأحاديث ، وقصصاً عن الأمم الأخرى وأساطير ، ونحو ذلك لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب .

يقسم الليث بن سعد القصص إلى نوعان : قصص العامة ، وقصص الخاصة ؛ « فأما قصص العامة : فهو الذى يجتمع إليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم ، فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه . وأما قصص الخاصة : فهو الذى جعله معاوية . ولى رجلا على القصص ، فإذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ،ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة ».

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٥٣ .

أقبلت العامة على سماع القصص . مما جعل القصاص يسرفون فى الـكذب والاختلاق إلى حد أن طردهم على بن أبى طالب من المساجد عدا الحسن البصرى لتحريه الصدق. ثم أصبحت القصص وسيلة من وسائل الدعاية السياسية فى خلافة معاوية بن أبى سفيان . فقد أمر رجلا يقص بعد الصبح وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام . وارتفع شأن القصص حتى رأيناه عملا رسميا يعهد به إلى رجال رسميين يعطون عليه أجراً. وكان بعض القضاة يعينون قصاصا أيضاً. وأدخل هـــذا القصص على المسلمين كثيراً من أساطير الأمم الأخرى كاليهودية والنصرانية . كما كان بابا دخل منه على الحديث كذب كثير، وأفسد التاريخ بما تسرب منه من حكايات ووقائع وحوادث مزيفة(١).

النحو بمعناه الحقيقى طبيعى على كل لسان كل متكلم يتلقنه من موضعه . لأن الإنسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق إذ بدونه لا يحسن التعبير عن أفكاره ، أما إذا أراد أن يتعلم لسانا غير لسانه فدرس قواعد النحو يسهل عليه تناوله . ولذلك فالأمة قد تقضى قروناً متطاولة وهى تتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل أن تدون قواعد النحو وتجعله علماً . وهكذا العرب فقــد نظموا الشعر وألقوا الخطب وتناشدوا وتراسلوا قبل تدوين النحو ، لأن ملـكة اللغة كانت طبيعية فيهم . على أنهم اضطروا إلى ضبط تلك القواعد وتدوينها بأسرع مما اضطر إليه اليونان والرومان ، التماساً للدقة فى ضبط معانى القرآن ، فلم يمض على دولتهم نصف قرن حتى شعروا بالحاجة إلى النحو . (٢)

اتسعت الدولة العربية الإسلامية ، فشملت كثيرا من الأمصــار تسكنها أجناس كثيرة تتحدث لغات عديدة ، وتأثرت اللغة العربية بهذه اللغات ، كما

---

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٦٠.

(٢) جرجى زيدان : تاريخ التمدن ج ٣ ص ٨٤.

تأثرت هذه اللغات بالعربية ، وكان عمر بن الخطاب بعيد النظر حين نهى العرب عن الاختلاط بالأعاجم حرصاً منه على سلامة اللغة العربية من الشوائب [١] وقد حدث ما كان يخشاه عمر فقد تأثرت اللغة العربية بهذا الإختلاط ، وانحرفت الألسنة وخرجت عن قواعدها ، وفشا اللحن بين العرب . كما أدى الأختلاط بين اللغة العربية واللغات الأخرى إلى ظهور فرق واضح بين لغة القرآن واللغة العامية مما أدى إلى البحث عن حل لهذه المشكلة ، وقد وجدوها أخيرا فى دراسة النحو واللغة التى قام بها الفرس بمساعدة العرب [٢]

صارت البصرة والكوفة مركزين نشيطين للحياة العلمية ، ولم يكن فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) مدينة تستطيع منافستهما ، ففيهما وضعت علوم العقائد والفقه ، ثم نشأت فى كلتا المدينتين مدرسة النحويين واللغويين [٣] .

كان يقيم فى هاتين المدينتين جالية تنسب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة ، وآلاف من الصناع والموالى الذين كانوا يتكلمون اللغة الفارسية ، ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة إلى التحريف واللحن ، ودعت الضروة إلى تقويم اللسان العربى . وكان أبو الأسود الدؤلى أول من اشتغل بالنحو فى العصر الأموى ، وقيل أنه تلقى أصول هذا العلم على علىّ بن أبى طالب ، وهومؤسس مدرسة البصرة ، وأتم علم النحو من جاء بعده من علماء .

الأدب واللغة : لما بدأ المسلمون تفسير القرآن احتاجوا إلى ضبط معانى ألفاظه وتفهم أساليب عباراته ، فجرهم هذا إلى البحث فى أساليب العرب

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٦

(٢) Hell : The Arab Civil p. 60

(٣) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٧٠

وأفوالهم وأشعارهم وأمثالهم ، ولا يكون ذلك سالماً من العجمة أو الفساد إلا إذا أخذ عن عرب البادية الذين كانت قريش فى الجاهلية تتخير من ألفاظهم وأساليبهم ، فعنى جماعة كبيرة من المسلمين بالرحلة إلى بادية العرب والتقاط الأشعار والأمثال ، وسؤال العرب عن معانى الألفاظ وأساليب التعبير ،وسموا الاشتغال بذلك مع مايتبعه من صرف ونحو وبلاغة بعلم الأدب . (١)

كان أبرز مظاهر النشاط الأدبى فى الدولة الإسلامية هو الشعر . وقد ظن بعض المستشرقين أن الدين قلل من أهمية الشعر حتى لايطغى على القرآن ،وهذا الزعم لا أساس له ، لأن القرآن ليس من الشعر فى شيء ، ولا يصح أن يكون نموذجا له . ولو أن القرآن الكريم قد غض من شأن بعض الشعراء ، فلأنهم كانوا من أعداء الإصلاح ومن دعاة الفوضى . قال تعالى : (الشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون)(٢) . على أن الشعر قد أعلى من قدر هؤلاء الذين قاموا بنصرة المبادىء القويمة ودافعوا عنها فأحلهم المحل اللائق بهم من الشرف ، كما شجعهم الرسول وأجزل لهم العطايا ، واعتبر هذا نوعا من الجهاد فى سبيل الله والانتصار للحق ، وأحسن مثل لذلك الشاعر المخضرم حسان بن ثابت الذى قربه الرسول إليه (٣) .

تأثر الشعراء المسلمون فى صدر الإسلام بالشعر الجاهلى ، فكانت قصائد هؤلاء الشعراء سواء فى مدح الرسول أو رثاء قتلى المسلمين أو هجاء المشركين ، تشبه القصائد التى كان ينظمها شعراء الجاهلية فى مدح شيوخ القبائل أو هجائهم ، وإن كان الشعراء المسلمون قد أدخلوا بعض الألفاظ والعبارات الجديدة . التى

---

(١) جرجى زيدان : تاريخ التمدن ج ٣ ص ٨٧ .

(٢) سورة الشعراء ٢٦ : ٢٢٤-٢٢٦ .

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٥٠٦ .

تتحدث عن البعث والنشور، والثواب والعذاب والجنة والنار، وغير ذلك من المواضيع الدينية التي يخلو منها الشعر الجاهلي . بل أن الشعراء المناهضين للرسول والإسلام تأثروا بالقرآن وما فيه من معاني دينية .

بدأت بقيام الدولة الأموية نهضة شعرية ، فقد غلبت الصبغة الدنيوية على الصبغة الدينية التي تميزت بها فترة حكم الخلفاء الراشدين . فظهر الشعر الغزلي لأول مرة في اللغة العربية ، وإن كنا نرى كثيرا من الشعراء في عصر ما قبل الإسلام يستفتحون قصائدهم الطوال بأبيات قلائل من الشعر ذو الطابع الغزلي، إلا أننا لا نجد واحدا منهم يمكن أن يقال إنه خصص نفسه للشعر الغزلي . ومن هذا النسيب الذي كانت تفتتح به القصائد الأولى ظهر الشعر العربي الغنائي تحت تأثير المغنين الفرس واحتذى الشعراء فيه مثالهم . وكان أشهر شعراء مدرسة شبه الجزيرة هو عمر بن أبي ربيعة الذي يطلق عليه الأوربيون إسم (أوفيد Ovid بلاد العرب)[1] . وهو قرشي من أم مسيحية ، وقد اشتغل بالغزل في الغيد الحسان من أهالي الحجاز أو القادمات للحج ، وكانت نساء العراق يرحلن إلى الحجاز لسماع غزل ابن أبي ربيعة الذي أدرك هذه الحقيقة فرحل إلى البصرة حيث أقام بها فترة[2] .

وإذا كان عمر يمثل الحب الطلق في الشعر ، فإن معاصره جميل بني عذرة — وبنو عذرة قبيلة مسيحية من أصل يمني سكنت الحجاز — يمثل الحب الخالص البريء أو الحب الأفلاطوني ، وكانت كل قصائد جميل موجهة إلى حبيبته بثينة التي كانت تنتمي إلى نفس قبيلته. وشعره يذوب رقة لم يتسام إليها واحد من شعراء ذلك العصر ، وتغنى المطربون بقصائده .

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣١٤ .
(٢) الأصفهاني : الأغاني ج١ ص ٨٦.

وهناك الشعر السياسى ، فقد ظهرت أحزاب مختلفة تتصارع وتتنافس وتبغى الوصول إلى الحكم والسلطة ، فاتخذت من الشعر وسيلة للدعاية والإعلام . وأراد الخلفاء وولاتهم أن يبعثوا الاحترام والرهبة فى قلوب رعاياهم ، فشجعوا الشعراء على نظم قصائد الثناء والمديح ، وأجزلوا لهم العطاء . بدأ الشعر السياسى حينما طلب إلى مسكين الدرامى أن يؤلف قصيدة يخلد فيها ذكرى اعتلاء يزيد عرش الخلافة وينشدها علنا .

اشتهر فى العصر الأموى عدة شعراء أبرزهم الفرزدق وجرير والأخطل وقد ولدوا جميعا ونشأوا فى العراق ، وجمعوا بين المدح والهجاء . وكان الفرزدق شاعر عبد الملك بن مروان وأولاده الوليد وسليمان ويزيد ، أما جرير فكان شاعر الحجاج ، بينما الأخطل شاعر مدينة دمشق حاضرة الأمويين .

اتخذ جرير والفرزدق والأخطل وراعى الإبل حلقة بأعلى مربد البصرة ويجلس الناس حولهم(١) . وشغل الشعراء الأربعة بالتفاخر بين قبائلهم ، وكان راعى الإبل يتحيز أحيانا للفرزدق على جرير(٢) . وسمع الأخطل فى الشام بتهاجى الفرزدق وجرير بالمربد فقصد إلى العراق حيث بدأت سلسلة جديدة من تهاجى الأخطل وجرير(٣) . وكان الفرزدق أثناء هذا التهاجى يركب بغلة ويرتدى حلة جميلة ، بينما يركب جرير فرسا ويلبس درعا وحلة تسمى « بيضة » ويتقلد سيفا(٤) . والحقيقة أن هؤلاء الشعراء كانوا يتخذون من إشعال نار هذه العصبيات وسيلة للهو واللعب وكان أهل العراق يقبلون على هذه الحلقات للتفرج والتسلية . وكانت كل قبيلة تحاول أن تستخرج من شاعرها أحد ما فى جعبته

---

(١) الأصفهانى : الاغانى ج ٢٠ص ١٦٩ .

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ٧ ص ٤٦ .

(٢) المرجع السابق ج ١٠ص٢.

(٣) ابن المثنى : النقائض بين جرير والفرزدق ج ٢ ص ٢٧ .

من سهام ، وتمضية أوقات الفراغ أكثر من اهتمامهم بالعصبيات القبلية ، فكانوا يصفقون لهذا تارة ولذاك أخرى ، وكان يكثر بينهم المرج والتصفير والتصفيق على نحو ما يفعل الناس الآن فى المسارح ، وكان أهل العراق يجدون فى هذه النقائض والمناظرات عوضا عن تأخر الغناء بالعراق [1] وكان المربد مقصدا مقصدا لشعراء الأمصار الإسلامية ، فقد قصد الكميت الفرزدق ليعرض عليه الهاشميات ، وهناك دارت المفاخرات العصبية بين الكميت الذى تعصب للنزارية ، ودعبل الذى تعب للقحطانية [2] .

وكما ارتقى الشعر ، فقد ارتقت الخطابة إلى درجة كبيرة فى العصر الأموى ، فكان الخطيب يلجأ إليها كوسيلة من وسائل الدين عند صلاة الجمعة ، كذلك كان يلجأ إليها القائد كوسيلة لإثارة الحماس العسكرى فى جنوده ، كما كان يعتمد عليها حكام الأقاليم فى بث روح الوطنية بين رعاياهم . ونبغ فى العرب خطباء عظماء أمثال زياد والحجاج وعتبة بن أبى سفيان ، وخطباء الخوارج وعد الجاحظ [3] الخطباء من بين الخلفاء الأمويين : معاوية ويزيد وعبدالملك ومعاوية ابن يزيد ومروان وسليمان ويزيد بن الوليد، والوليد بن يزيد والوليد بن عبدالملك وعمر بن عبد العزيز .

تطورت الإدارة الحكومية وتعددت حاجاتها مما دعا إلى إنشاء الدواوين . ومن هذه الدواوين وأقربها اتصالا بالحياة الأدبية . ديوان الإنشاء والرسائل الذى أوجد نوعا من النثر لم يكن للعرب به عهد وهذا ما يسمى بالنثر الفنى ، ويقصدون به تلك الرسائل التى كانت تحرر باسم الخليفة وتصدر إلى ولاته وعماله فى الأقاليم . وقد بدأ هذا النوع من النثر فى ذلك العصر ونما ، حتى

---

(١) شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٨٢ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص١٠٩ .
(٣) أنظر كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ .

ظهر فى آخر عهد الدولة الأموية عبد الحميد الـكاتب الذى يعد بحق مؤسس الـكتابة الفنية وواضع أصولها وقواعدها .

الدراسات العلمية .

كانت العلوم عند العرب تقسم إلى قسمين : ما يتعلق بالدين ، وما يتعلق بالجسم . أما ما يتعلق بالدين فقد عرضنا له فى مكان آخر من هذا الـكتاب . أما ما يتعلق بالجسم فهو الطب وكان الطب فى شبه الجزيرة العربية مبدئيا ، فـكان عبارة عن بعض الشعوذات ، مع بعض النصائح باستعمال العقاقير والنباتات وغـيرها ينصحون باستعمال العسل فى بعض الأمراض ، وفصد الإنسان ، وسحب الدم الفاسد منه .

أما الطب العربى العلمى فمأخوذ أكثره عن اليونان ، وبعضه عن الفرس . والحقيقة أن كثيرا من العلوم والمعارف العربية القديمة لا تزال ضائعة متفرقة فى دور الـكتب فى أرجاء العالم ، ولم ينشر إلا أقلها .

وفى ذلك يقول دكتور (جورج سارتون) فى كتابه (مقدمة لتـاريخ العلم) . « أن درس اللغة العربية والآثار العربية ضرورى لتفهم نزعـة الفـكر وتطوراته فى القرون الوسطى ، وسبب ذلك أنه منذ منتصف القرن الثامن إلى آخر القرن الحادى عشر ، كانت اللغة العربية لغة العلم والأدب والمعارف فى العالم كله ، بحيث أن من يريد المعرفة وطلب العلم فى ذلك العهد السحيق كان مفروضاً عليه درس العربية ، كما هو حال الشرقى اليوم إذا ما أراد طلب المعرفة فإن عليه درس إحدى اللغات الأوروبية المعاصرة كالإنجليزية والألمانية والفرنسية . وأما فى القرن الثانى عشر ، والثالث عشر ، فقد خسرت اللغة العربية بعض قوتها ونفوذها ولـكنها كانت ماتزال ضرورية لطلاب المعرفة » .

يصف المؤرخ الهندى (خودابخش) (١) الأمويين بأنهم كانوا « قادة العلوم » ، ويذكر أنه كان لمعاوية — مؤسس الدولة — قلب كبير وعقل متحرر ، فقد كان اهتمامه بالعلوم المسيحية يجعله على نقيض من القياصرة البيزنطيين المتعصبين ضيقي الأفق. فنجد معاوية يرحب فى بلاطه بالطبيب المسيحى ابن أثال الذى ترجم لمعاوية كثيراً من كتب الطب إلى اللغة العربية ، واصطفى معاوية ابن أثال فكان يؤمن بمقدرته ويحب ملازمته ليلا ونهارا .

كان خالد بن يزيد أول من عنى بنقل الطب والكيمياء إلى اللغة العربية، فدعا جماعةمن اليونانيين من مدرسةالاسكندرية حيث راجت صناعةالكيمياء وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيرا من الكتب اليونانية والقبطية التى تناولت البحث فى صناعة الكيمياء العسلية ، وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء ، كما طلب إليهم أن يترجموا له كتب جالينوس فى الطب ، ووضع بذلك أساس التعاليم الطبية .

كلف خالد بن يزيد (أسطفانوس) و (ماريانوس) وغيرهم بترجمة الكتب إلى اللغة العربية . وبفضلها ترجمت الكتب اليونانية والقبطية ، واستطاعت عامة العرب قراءتها . وكان خالد نفسه مؤلفاً ، وقد أعطانا ابن النديم (٢) قائمة بالكتب التى ألفها كما تحدث ابن أبى أصيبعة عن خالد فأشاد بثقافته الواسعة .

اهتم عمر بن عبد العزيز بالدراسات اليونانية أثناء حكمه لمصر فى خلافة سليمان بن عبد الملك . وفى مصر تعرف بابن أبجر مدرس الفلسفة اليونانية فى الاسكندرية . وقد استمرت الصداقة طويلا ، وحينما تولى عمر بن عبد العزيز

---

(١) الحضارة الاسلامية : « ترجمة المؤلف » ص ١٠٣.
(١) أنظر كتاب « الفهرست » لابن النديم .

الخلافة ، انتقلت الدراسات اليونانية من مصر إلى أنطاكية وحران ومنها إلى سائر الإمصار الأسلامية . وبذلت جهود أخرى من أجل ترجمة الكتب إلى اللغة العربية من اللغات الأجنبية ، وظهرت طبقة من الرجال يجيدون اللغة العربية مثلما يجيدون اللغات الأجنبية ، مثل صالح بن عبد الرحمن وعبدالله بن عبد الملك . (١)

يعتبر لقمان الحكيم أقدم أطباء العرب . وكان الحارث بن كلدة الذى ولد فى الطائف فى القرن السادس أشهر أطباء عصره ، وقد درس الطب بكلية جنديسابور ببلاد الفرس ، ثم أصبح طبيب خسرويه كسرى فارس . وقد تخصص الحارث فى علم الصحة ، أوصى بعدم الإفراط فى الطعام وعدم الإستحمام بعد تناوله ، كما أوصى بالحجامة والحقن . ولما ظهر الإسلام قربه الرسول إليه ، وظل محل ثقة العرب حتى مات سنة ٣٣ هـ . وقد تلقى النضر الطب عن أبيه الحارث وذاعت شهرته ، واخترع حبوبا مسهلة نسبت إليه ، وكانت تستعمل فى أمراض الصفراء ، واشتغل بن أبى رسته التميمى بعلم التشريح .

اهتم المسلمون بنشر الثقافةالطبية بترجمة كتب الأقدمين ، وأسسوا المعاهد العلمية لتخريج الأطباء . وكان‌هناك نوعان‌من الكليات‌الطبية هما:البيمارستانات أو الكليات العملية للطب ، والمدارس النظرية . وقد قيل أن أول البيمارستانات فى الإسلام كان تلك الخيمة التى ضربها الرسول فى المدينة يوم « الخندق » وجعل فيها امرأة تدعى (رفيدة) تقوم بخدمة الجرحى . وذهب المقريزى إلى أن الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ) كان أول من بنى البيمارستان فى الإسلام ، وذلك فى سنة ٨٨ هـ ، وجعل فيه الأطباء ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وأمر بمنع المجذومين عن سؤال الناس ، وخصص لهم

---

(٢) أنظر ترجمتنا لكتاب « الحضارة الاسلامية » لخودابخش ص ١٥٤ .

الأعطيات ، كما أعطى كل مقعد خادما يهتم بأمره ، وكل ضرير قائداً يسهر على راحته . (١)

يعترف كرد على (٢) بفضل الأمويين على العلوم ، وأنهم أخرجوا العرب من غضاضة البداوة إلى نضارة الحضارة وتسربت العلوم إلى العرب من بقايا علوم القبط واليونان والسريان ، بعد أن توطد أمر الخلافة وأخذت الجيوش تتقدم فى أفريقية إلى الأندلس ،وفى الشرق إلى ماوراءالسند وسمرقند . وكانت فى أنطاكية والرها ونصيبين وحران أول الفتح مدارس عامرة تشبع أساتذتها بالثقافة اليونانية وفلسفة أرسطو والعلوم والطب المعروفة عند القدماء .

قال (ليبون):« إن حماسة المسلمين فى دراسة الحضارة اليونانية واللاتينية مدهشة حقيقة ، وقد ضاهت العرب شعوب كثيرة ، وربما لم يقم من الشعوب من تقدمهم فى هذا السبيل » . وقال (لكرك) : « كان كل مافى أيدى العرب من العلوم فى آخر القرن الثامن للميلاد ترجمة مؤلفات فى الطب والكيمياء ، وما كاد ينصرم القرن التاسع عشر حتى كان العرب قد امتلكوا ناصية جميع علوم اليونان وثقافة الأقدمين» . وقال (نوبرجر) : « فاقت الحضارة العربية فى أوج إمبراطورية الإسلام حضارة روما القديمة فى حيويتها وتنوعها على حين كان لحضارة الإسلام فى الأندلس مركز يشابه من عدة وجوه حضارة اليونان القديمة ». وقال (دوسن) «إن الحضارة الأوروبية ، بل الحضارة الغربية كلها مدينة للمسلمين بميراث حكمة الأقدمين ، وأن فتوحات العرب فى إمبراطورية الإسلام من القرن السابع إلى الخامس عشر ، لتعد إحدى عجائب التاريخ . ومن المدهش أن يصبح العرب . وكان أول أمرهم على الفطرة — عنصرا فاتحا

---

(١) حسن ابراهيم : ج ١ ص ٥١ .

(٢) الاسلام والحضارة العربية ج ١ص ١٧٢.

ويغدوا سادة نصف العالم فى مائة عام ، ومن أشد العجب حماستهم العظيمة ، وسرعتهم البالغة فى تحصيل العلوم ، وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم ، حتى وصلوا إلى مستوى عال فى مائة سنة . بينما نرى الجرمان لما فتحوا الإمبراطورية الرومانية قضوا ألف عام ، قبل أن يقضوا على التوحش وينهضوا لإحياء العلوم [٣] » .

خامسا : الفنون العربية والإسلامية :

أسس الفن العربى الاسلامى

تميز عصر الرسول والخلفاء الراشدين بتغلب الصبغة الدينية ،والبساطة والزهد والتقشف ، وانشغلوا فى نشر الإسلام ، ولذا لم يكن هناك مجال كبير لنهضة الفنون الجميلة بأنواعها . ولكن ما كادت الفتوحات العربية الإسلامية تأتى إلى مرحلة الانتهاء ثم الإستقرار ، وأصبحت الدولة العربية الإسلامية تضم بلادا كانت خاضعة للفرس والروم ، حتى بدأ العرب المسلمون يجمعون مختلف الأساليب الفنية القديمة ويطبعونها بطابع دينهم الجديد .

اقتبس الفن الإسلامى كثيرا من عناصره من الحضارات التى سبقته والأمم التى سادت قبله ، ولكن هذه العناصر فقدت شخصيتها واندمجت فيه فأصبحت عربية إسلامية فى شكلها وروحها وأوضاعها المختلفة . واتسع أفق الفن أمام العرب ، ونجحوا فى أن يخرجوا صورا فنية جديدة لاتخرج عما رسمه الدين الإسلامى . على أن الأمر الذى يسترعى النظر ، أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير المجسم عنايتهم بالبناء والزخرفة ، لأنهم رأوا فى ذلك تشبها

---

(١) أنظر كتاب « الإسلام والحضارة العربية » لكرد على ج ١ ص ١٧٤.

بعبدة الأوثان ، لهذا كان العنصر الأساسى فى زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية . (١) .

والفن العربى الإسلامى يعبر عن شعور خاص يشعر به المؤرخ المعاصر ومن السهل أن نلاحظ أن العبقرية الإسلامية فى الفن كانت تميل بالفطرة إلى تجريد الموضوعات الزخرفية وإلى تهذيبها وتنسيقها ، والبعد بها عن أصولها الطبيعية ، وقد نجحت فى الجمع بين موضوعات زخرفية لم تكن من مستحدثاتها نجاحاً كان يتفاوت مداه باختلاف الطرز الفنية والدولة الحاكمة ومبلغها من الثروة .

من المؤكد أن ظهور الإسلام كان إيذاناً بتكون فن جديد يحق لنا أن نطلق عليه اسم الفن العربى الإسلامى ، لأنه ظاهرة من ظواهر الحضارة الإسلامية وجزء من الأساليب الصناعية والنظم الحكومية والعقائد المدنية التى اشترك فيها المسلمون فى أنحاء العالم .

ومن المؤكد أيضاً أن الفنانين العرب كانوا يستمدون الوحى ويقتبسون شتى فنون الحضارات القديمة التى ازدهرت فى العالم القديم قبلهم ، فلجأ الأمويون إلى بلاد الروم والفرس للاستعانة بهما والاقتباس منهما فكان الفن العربى الإسلامى امتداداً للفنين البيزنطى والفارسى مع بعض التعديل .

وإذا ذكرنا أن الإسلام سير النزعات والميول الفنية والزخرفية فى اتجاه معين لم يكن باستطاعتها أن تسلك غيره ، فقد اضطر فنانو العرب إلى توجيه الفن العربى فى سبيل لا يخالف التعاليم الإسلامية دون أن يؤثر هذا فى عناصر الزخرفة ذاتها فيجعلها قلقة مضطربة . وكان إدخال الحروف العربية فى الفن

---

(١) أنظر كتاب « فنون الإسلام » للدكتور زكى محمد حسن .

عنصراً من عناصر الزخرفة ، فكان من أثر هذه الرشاقة فى الفن العربى التى جمعت بين الأناقة والرشاقة والجدة .

ولما كان الإسلام يحرم الصور والتماثيل ، فقد كان لهذا أثره فى الفن العربى الإسلامى إذ جعل الفنان حبيس نفسه ، وفرض عليه إخراج التحفة الفنية دون أن يتلقى الوحى والإلهام من الكائنات وحوله فخرجت آثاره والحالة هذه تصور العصور التى ترجع إليها دون أن تصور لنا نفسية الفنان وروحه .(١)

ذكر (هل)(٢) أن الأمويين رأوا أنه لا يمكنهم المضى فى طريقهم على حساب غيرهم فحسب ، ولكن لا بد من أن يبتكروا أشياء جديدة بأنفسهم . ولذا اتجهت جهود الأمويين إلى الابتكار وعدم الاكتفاء بما يأخذونه عن غيرهم . أما فى ميدان الابتكار الفنى فلم يجدوا إليه سبيلا ، إذ أن شعورهم بأنفةالسيادة حال بينهم وبين اتباع غيرهم ، حين منعتهم بداوتهم من أن يألفوا شيئاً من ذلك الميدان أو يتعلموه . ومن ثم قنعوا بالإعجاب فقط ببدائع الفن البيزنطى، وأخذوه دون أن يغيروا منه شيئاً كما أدخلوا عمالا بيزنطيين فى خدمتهم فأمر الخليفة عبد الملك ببناء قبة الصخرة على مسجد عمر ، الذى يعد بفضل التعديلات التى أدخلت عليه فيما بعد من أجمل الآثار المعمارية فى العالم . ثم إن الخليفة الوليد لم يستطع مقاومة دوافعه نحو كنيسة القديس يوحنا التى اقتسمها المسلمون إذ ذاك بالتساوى مع المسيحيين ، فاشترى من المسيحيين حصتهم ، وحول البناء إلى مسجد رائع .

على أننا نجد فى تلك المبانى اختلافاً وابتعاداً عن النماذج الهيلينية ، مما يدل

---

(١) عمر أبو النصر : الحضارة الأموية ص ٣٧٢.

(٢) الحضارة العربية ص ٧ .

على ظهور فن إسلامى جديد بحت . ولكن كيف حدث ذلك ، ولا سيما أن جميع أعمال العمارة كانت فى أيدى أناس من رعايا الشعوب التابعة للدولة الإسلامية ؟ إن ذلك أمر لا يزال سراً لم يعرف بعد . غير أن دراسة أوراق البردى أوضحت أن العمال الأجانب استخدموا على نطاق واسع فى إقامة شتى المرافق الدينية . ويمكن أن نتبين من ذلك أصول المنشآت الأموية ومميزاتها ، ومدى اتصال الطرز التى استعملت فيها بالطرز القديمة ، ودخول عناصر جديدة شرقية وغربية على الزخارف .(١)

ولكن على الرغم من أن العرب استعانوا بمهرة الصناع فى البلاد التى دخلت تحت سلطانهم ، احتفظت العمارة الإسلامية بطابعها الجديد ، وأصبحت تمتاز بمزايا خاصة بها . وقد تمثلت العمارة العربية أول الأمر فى المساجد . وكان مسجد قباء الذى أسسه الرسول عليه الصلاة والسلام النموذج الأول لسائر المساجد الإسلامية من حيث الشكل العام . ومما لا شك فيه أن اختلاف الحجاج إلى مكة المكرمة وإلى المدينة المنورة فى كل عام ، وأداءهم الصلاة فى المدن والقرى التى كانوا يمرون بها ، ساعد على محاكاة مساجد الحجاز(٢) .

فن العمارة :

كان فن العمارة فى صدر الإسلام غاية فى البساطة والسذاجة ، فلم يكن فى مكة إلا معابد قليلة ، وكانت منازل الأغنياء تبنى بالحجارة أو اللبن بينما كانت معظم مبانى المدينة من اللبن الذى كان يتهدم بسرعة . وكانت المنازل فى الغالب طبقة واحدة ولها فناء ، وفى وسطها بئر ؛ فلما اتسعت الفتوح الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب وزادت الثروة أقبل على المدينة عاصمة

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ٧١ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٥١٥ .

الدولة أصحاب صناعة فن العمارة من الأجانب فارتقى فن العمارة ، وشيد مشاهير العرب فى مكة والمدينة الدور الواسعة من الحجارة والرخام ويقال أن الدار التى بناها عثمان كانت غاية فى العظمة والروعة .

لما استولى العرب على الشام وفارس اتخذوا لأنفسهم طرازاً خاصاً للعمارة يتناسب مع طبيعتهم وذوقهم ، وقد فاق هذا طراز الفن البيزنطى والفارسى من حيث الرقى وجمال التنسيق والإتقان ، والعرب إلى ذلك مقلدون من الطراز الأول ، فهم يأخذون ماعند غيرهم ويزيدون من روحهم وعليه .

والعمارة العربية تمتاز بالأعمدة والمنحنيات والمآذن والقباب ، وهى تماثل النخيل الذى هو أعز شىء عند العرب ، ولذلك نرى روحهم ونفسيتهم ظاهرة حتى فى تخطيط المدن التى كانوا يحيطونها بأسوار منيعة للدفاع عنهم ، ولما كانوا يكرهون المركزية ، فقد خلقوا فى المدينة ماألفوه فى البادية ، وراحوا يعيشون فيها كما كانوا يعيشون فى البادية ، قبائل مستقلة ، لكل قبيلة حيها ومنازلها ومسجدها وسوقها ومقابرها ، وكان لكل حى أبواب منيعة تفصله عن الأحياء الأخرى ، بحيث أصبحت المدينة مجموعة مدن صغيرة ؛ وهذا التقسيم يلائم ما درجوا عليه من حب الحرية والأنفة من الخضوع لغير زعيم القبيلة وإذا ما قامت ثورة أو اضطراب فى المدينة كانت تغلق الأبواب فتقطع المواصلات بين أجزاء المدينة المختلفة .

إن قصور اللهو التى اتخذها الخلفاء الأمويون فى الصحراء ، وسموها البوادى ، والتى اكتشف واحداً منها وهو « قصر عمرة » ، إن هذه القصور فى رأى (هل)[1] مثالا لاستخدام الأمويين لكل ماعرف فى زمانهم من الفن والعلم حتى تصير مساكنهم جديرة بهم ، ومستوفية لشروط الراحة على قدر

---

(١) الحضارة العربية ص ٧١ .

المستطاع . وبين أيدينا نص لأحد رواة العرب ، تتبين منه الطرز الأولية لكل القصور العربية التى بنيت بعد ذلك حتى بناء قصر الحمراء ، فقال : « لقد جئنا إلى قصر عظيم ، كسيت أرضه بالمرمر الأخضر وفى وسط الفناء حوض كبير به مياه جارية تروى الحديقة ، التى تشمل جميع أنواع النباتات الجميلة والأشجار الظليلة والطيور التى تغرد بأعذب الأنغام » .

وصف السيد أمير على[1] دور الأغنياء فى دمشق فقال : لم يتغير طراز البيوت وزينتها فى دمشق عما كان عليه فى عهد الأمويين على الرغم من مرور مئات السنين ، فترى البواب جالساً على مقعد خشبى أمام الباب كما تراه الآن فى منازل الأغنياء ، وترى على باب بيوت الفقراء قطعة من المعدن أو الحديد تستخدم مطرقة للباب . وفى داخل الدار فناء مستطيل على جوانبه أروقة من الأعمدة وأرضه من الحجارة والرخام ، وممشى مرصوف بالحجارة أو الحصباء على أشكال هندسية منتظمة ، وفى الفناء نافورة يحيط بها حديقة صغيرة بها الأزهار الزكية وتظللها أشجار البرتقال والليمون ، وعلى جانب الفناء يقوم الايوان وهو عبارة عن صالة قد رصعت بالرخام والبلاط الملون ، وتستعمل قاعة للاستقبال وقت الحر وقبالة الباب كانت تقوم أو تقام عادة كوة مقفلة ، تزخرف بالأعمدة الرخامية ، ويوضع فوقها الطشت والابريق للوضوء .

وكانت قصور الأغنياء مكونة من طابقين أحياناً ، وعلى يمين ويسار الصالات أبواب تكسوها ستور كثيفة تؤدى إلى الصالات والحجرات الأخرى . وفى الشتاء كانت تكسى أرض الأيوان الرخامية ، وكذلك الحجرات بالسجاد الثمين وتدفأ الحجرات بالمواقد . أما فى الصيف فكانت النافورات والنوافذ كفيلة بتلطيف حرارة الجو وكانت سقوف الدار مزدانة

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى .

بنقوش على الطراز العربى ، ومطلية بالذهب ، ولم تكن هناك مقاعد ، فإذا كان صاحب الدار من أصحاب المراكز السامية وضعت السجاجيد بعضها فوق بعضها لتكون بمثابة مقعد مرتفع له .

وخلاصة القول ، لقد ولد فن العمارة الإسلامية فى العصر الأموى ، ولكنه سرعان ما نما وترعرع ، فكانت من آثار الطراز الأموى عمائر يبدو فيها أن المسلمين أفادوا من فتوحاتهم ووجدوا كثيرا من العناصر الفنية فى أجزاء دولتهم وألفوا منها طرازاً ممتازاً[1] .

المساجد :

كان المسجد بالنسبة للعرب المسلمين هو كل شىء فى حياتهم ، فهو مركز الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ومقر الحكومة والإدارة ودار الندوة ، إلى جانب وظيفته الدينيـــة المعروفة ، فلا عجب أن اهتم العرب المسلمون ببناء مسجد جامع فى كل مدينة إسلامية باعتباره رمزاً لسيادة الإسلام .

العمارة هى أول وأثبت آثار الفنون صبراً على الزمن ، وهى بهذا الوصف تعتبر مع ما يعتريها من تغييرات يسببها الدين أهم ممثل لفن البناء والمعبد هو أول بناء يحاول أتباع الدين أن يوفروا له من الوسائل المادية أكثر مما يوفر للساكن العادى من بنى الإنسان . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقرر أن الفن العربى الإسلامى كان أحسن ما يكون رقياً فى العمارة الدينية ، وقد أقام المهندسون المسلمون أو الرجال الذين استخدموهم طريقة للبناء بسيطة وموقرة احتذوا فيها النماذج القديمة ولكنها كانت تعبر بطريقة فذة عن روح الدين الجديد ، وعلى ذلك فإنا نجد فى تطور المساجد سجلا تاريخياً عن تطور الحضارة

---

(١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤٣ .

الإسلامية التى بسطت نفوذها وعلاقاتها مع مختلف الأجناس والأمم . وإذا بحثنا عن مثل واضح يبين لنا التبادل الثقافى بين المسلمين وجيرانهم فإنا لن نجد هذا المثل أوضح فى شىء منه فى المسجد(١) .

المدن الاسلامية :

ما كادت الفتوح العربية فى الأمصار المفتوحة تنتهى ويستقر الجند العرب حتى شعروا بحاجاتهم إلى إقامة المعسكرات ، فقد كان لابد من هذا الاستقرار لتوطيد أركان السيادة العربية ، فقد خافوا تمرد الفرس أو الروم ولم يكن أكثرهم قد أسلم ، وكانت ظاهرة بناء المدن وتمصير الأمصار تتفق تماماً مع ظروف المجتمع الجديد ، فقد مل العرب حياة القبيلة ورنوا إلى حياة أسمى من حياة شبه الجزيرة ، كما تطلعوا إلى الامتزاج بعناصر البيئة الجديدة(١) .

أراد عمر بن الخطاب أن تكون المدن الجديدة (البصرة الكوفة والفسطاط) معسكرات لجنده لا مدن عامرة ، فأمرهم بالبناء بالقصب ، ولكن سرعان ما أتت النيران على هذا القصب فاستأذن العرب فى البناء باللبن فوافق عمر مضطراً ولكن بشروط ، فقال : « افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا فى البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة(١) » وكان البناء باللبن هو الخطوة الأولى نحو الاستقرار وتحويل البصرة والكوفة والفسطاط من معسكرات إلى مدن(٢) . فقد كانوا قبل البناء باللبن إذا خرجوا للغزو « نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه فى مكان حتى يرجعوا من الغزو فيعيدون بناءه » وعلى الرغم من ميل عثمان إلى تعمير هذه المدن فإن المسلمين عابوا عليه سماحه بالتطاول فى البناء . ولكن صيحاتهم لم يكن لها أثر يذكر ، فسرعان ماسارت

---

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية ص ٨٩ .
(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٢٣ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٥٤ .

ســنة التطور فى طريقهــا ، فتطور البناء من اللبن إلى الجص والآجر والساج ، وأصبحت هذه المدن من أعظم مراكز الإسلام إزدحاماً بالسكان(١) .

فن النحت والتصوير والزخرفة :

وجه الإسلام الميول الفنية فى اتجاه معين لم يكن باستطاعتها أن تسلك غيره ، فقد اضطر فنانو العرب إلى توجيه الفن العربى فى سبيل لا يخالف التعاليم الإسلامية دون أن يؤثر هذا فى عناصر الفن ذاتها فيجعلهــا قلقة مضطربة مملة .

كان المسلمون فى صدر الإسلام يعتبرون التماثيل ضرباً من ضروب الوثنية وإحياء لعبادة الأصنام ولذا حرصوا على تحطيم جميع التماثيل الفنية التى ورثهــا العرب عن الأمم الأخرى وخاصة الفرس والروم ، فقد أمر يزيد بن عبد الملك الخليفة الأموى سنة ١٠٤ هـ (٧٢٢ م) بتحطيم جميع التماثيل فى جميع أرجاء الدولة العربية الإسلامية ، فتحطمت تماماً وخاصة فى مصر(٢) .

ومما لا شك فيه أن تحريم التصوير خوفاً من الاشراك فى الدين وعبادة الأصنام ، وكون العرب لايزالون فى صدر الإسلام ، قد منع العرب من إظهار عبقريتهم فى هــــذا الفن ، فلا تجد اليوم صورة الإنسان أو نصب لشخص فى الآثار الإسلامية . وكل ما قام به المسلمون هو تصوير بعض الحيوانات للزينة ، واستعمال بعض الخطوط الهندسية للزينة أيضاً ، وقد نجح العرب فى هذه الناحية نجاحاً عظيماً أطلق على فنهم هذا فيما بعد كلمة (الفن العربى) إذ كان خاصاً بهم دون غيرهم(٣) .

---

(١) Hell ; The Arab Civil p. 60.

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧١ — ٧٢ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧١ — ٧٢ .

أجاد العرب فن الزخرفة (الأرابسك) ، وإن كانوا قد اقتبسوا بعض زخرفة الفرس والرومان إلا أن عبقرية العرب وقدرتهم على الخلق والابتكار بدت واضحة ، إلى جانب إجادة استثمار ما اقتبسوه . كما أجاد العرب استعمال النقوش الخطية العربية . فكثيراً ما نرى آية من آيات القرآن الكريم أو بيتاً من الشعر أو عبارة من عبارات التحية والتهنئة ، تدور حول حافة التحف الأثرية ؛ أو تكون شريطاً زخرفياً على أثر من الآثار .

وقد ازدهر فى عهد الأمويين فن النقش على الجدران ، ولا يزال بعض بقاياه ماثلا فى « قصير عمرة » هو قصر صغير للصيد شرقى البحر الميت على بعد خمسين ميلا شرقى عمان ، ويتجلى فى طرازة مزيج من الفنون الشرقية واليونانية ويذهب علماء الآثار إلى أنه شيد فى عهد الوليد بن عبد الملك الأموى . ويشتمل على قاعة استقبال مستطيلة الشكل ذات عقدين يقسمانها إلى ثلاثة أروقة لكل رواق منها سقف من قبو نصف دائرى[1] .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٥١٥ .

٧ — الحضارة العربية في العصرين العباسي والعثماني

مظاهر الاصلاح والعمران فى العصر العباسى :

اهتم العباسيون بالإصلاحات والإنشاءات . فقد حفل العصر العباسى ، بضروب مختلفة متنوعة من العمران والإنشاء ، وانتشر الرخاء فى أرجاء الدولة العباسية ، مما أدى إلى ازدهار الحضارة والمدنية .

نال البريد اهتماماً من العباسيين ، فقد اتسعت الدولة العباسية ، وأصبحت إمبراطورية كبرى تمتد من جبال طوروس شمالا إلى السودان جنوباً ، ومن حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، وشملت أقطاراً فى آسيا وأفريقية وأوروبا . ولذا كانت هذه الدولة فى حاجة إلى تنظيم البريد بين ولاياتها المختلفة ، للربط بينها ، وتسهيل وصول قرارات الخلافة وأوامر الخليفة إلى ولاته فى وقت قصير . إلى جانب حمل رسائل عامة الناس إلى أقاربهم وأسراتهم وضمان قضاء مصالحهم .

أقام المهدى البريد بين بلاد العراق وبلاد الحجاز ، فكان كما قال الذهبى : « أول من عمل البريد من الحجاز إلى العراق » . فأقام البريد من المدينة المنورة واليمن ومكة ، إلى العراق . واستخدم فى البريد البغال والإبل ، وأقام محطات البريد على طول الطريق بين العراق والحجاز ، وأمدها بالرجال والحيوانات اللازمة لهذه الخطوط البريدية[1] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٢٦ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣ .

كان للبريد ديوان كبير فى بغداد له محطات على طول الطريق وقد ظل حمام الزاجل مستخدماً فى نقل الرسائل حتى عهد الخليفة العباسى المستعصم. وساعدت معالم الطرق التى أقامتها الدولة التجار فى أسفارهم، كما كانت أساساً للبحوث الجغرافية. وكان صاحب البريد يراقب العمال، ويتجسس على الأعداء، ويقوم بأعمال إدارات المخابرات فى الدول الحديثة الآن، وكانت مهمة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله فى الأقاليم، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عينا للخليفة، ينقل أوامره إلى ولاته، كما ينقل أخبار ولاته إليه.

وقد استخدم أبو جعفر المنصور عمال البريد الذين كانوا عيونا له وعونا على الإشراف على أمور دولته، وبواسطتهم كان يقف على أعمال الولاة وعلى مايصدره القضاة من الأحكام، ومايرد بيت المال من الأموال، وما إلى ذلك. كما كان ولاة البريد يوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب ومأكولات وغيرها. وبلغ من انتظام إداوة البريد فى عهده أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين فى كل يوم. وإذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار وإذا صلى الصبح كتبوا اليه بما جرى فى الليل من أمور. وبهذا كان يقف المنصور على كل مايحدث فى الولايات الإسلامية، لذا كان شديد الاتصال بولاته، فيوقف القاضى عند حده إذا ظلم، ويرجع السعر إلى حالته الأولى إذا غلا، وإن رأى تقصيراً من أمير وبّخه ولامه أو عزله من عمله مهانا [1]

واتبع المهدى سياسة أبيه، فأعطى البريد أهمية خاصة، وطوّر نظامه وتوسع فيه، وأنشأ طرق البريد ومحطاته، وأنفق فى سبيل ذلك أموالا طائلة. فقد أمر المهدى ببناء القصور فى طريق مكة، أوسع من القصور التى كان

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٠٦.

أبو العباس بناها من القادسية الى زبالة ، وأمر بالزيادة فى قصور أبى العباس ، وترك منازل أبى جعفر التى كان قد بناها على حالها ، وأمر باتخاذ المصانع فى كل منهل ، وبتجديد الأميال والبرك ، وحفر الركايا مع المصانع ، وولى ذلك يقطين بن موسى (١) .

اهتم الخلفاء بالتعمير فبنى المهدى بعيسا باذ قصراً من لبن ، الى أن أسس قصراً آخراً بناه بالآجر وسماه (قصر السلامة) ، وكان تأسيسه إياه يوم الأربعاء فى آخر ذى العقدة . وفى هذه السنة ، شخص المهدى حين أسس هذا القصر إلى الكوفة حاجا ، فأقام برصافة الكوفة أياما ، ثم خرج متوجها إلى بلاد الحجاز للحج ، حتى انتهى إلى العقبة . وأصيب المهدى بالحمى ، وعانى الحجاج من قلة الماء فى الطريق ، فأبدى المهدى غضبه على عامله يقطين بن موسى الذى عهد اليه بالإشراف على توفير الماء فى الطريق بين الحجاز والعراق ، ولم يتمكن المهدى من إكمال رحلته إلى مكة للحج ، فعهد إلى صالح بن أبى جعفر المنصور ليحج بالناس بدلا منه (٢)

وفى سنة ١٦٦ هـ ، رحل المهدى إلى عيسا باذ ، فنزل القصر الذى بناه وسماه قصر السلامة ، ونزل الناس حوله ، وابتنوا لهم دوراً . وضرب المهدى بها الدنانير والدراهم . وحفلت بغداد فى عهد الرشيد والمأمون بالقصور .

معالم الرخاء الاقتصادى فى العصر العباسى :

اهتم العباسيون بشئون الزراعة والتجارة والصناعة وقد قام المنصور بمشروعات عمرانية كثيرة ، مثل بناء المدن ، وحفر الأنهار والترع ، وإنشاء الطرق واستصلاح الأراضى ، وأكمل المهدى كثيراً من هذه المشروعات التى لم تمهل الحياة للمنصور

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٦٨ .

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ .

ليكملها . كما جنى المهدى ثمار جهود أبيه المنصور فى الميادين الاقتصادية . وسار المهدى على منوال أبيه فى إصلاح مرافق الدولة والعناية بتنمية مواردها الاقتصادية .

امتلأت خزائن بيوت الأموال فى الدولة العباسية فى عهد المنصور بالأموال ، فقد كان حريصاً مقتصداً فى النفقات ، ولذا خلف للمهدى أموالا طائلة ، أنفقها المهدى فى ردّ المظالم وفى القيام بالمشروعات العمرانية ، وفى تحقيق الرخاء الاقتصادى فى الدولة العباسية ، الذى بدأ واضحاً فى عهد الرشيد .

أمدتنا المصادر التاريخية بمقدار الجباية فى العصر العباسى . فقد بلغت أموال الجباية فى عهد الرشيد أكثر من اثنين وأربعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينية التى كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب . حتى قيل أن الرشيد كان يستلقى على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول : « اذهبى حيث شئت يأتنى خراجك » (١) . وبلغ دخل الدولة العباسية فى عهد الرشيد ٢٧٢ مليون درهم وأربعة ملايين ونصفاً من الدنانير فى السنة .

وأدى هذا الرخاء الاقتصادى إلى انخفاض الأسعار فى العصر العباسى حتى كان الكبش يباع بدرهم ، والحمل بأربع دوانق (دالدانق سدس درهم) ، والتمر ستين رطلا بدرهم ، والزيت ستةعشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم ، وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ، ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم (٢).

اهتمام العباسيين بالزراعة :

لقيت الزراعة اهتماماً كبيراً فى عهد الخلفاء العباسيين الأوائل ، لأن

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ص ٢٧٠ .

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠ .

عاصمتهم ، بغداد ، كانت تقع فى أحسن البقاع من ذلك السهل الخصيب المعروف باسم السواد . وفطن العباسيون إلى أن الزراعة هى أهم مورد من موارد الدخل فى الدولة . وكانت فلاحة الأرض يقوم بها السكان الوطنيون الذين تحسنت حالتهم إلى حد كبير فى ظل الدولة العباسية[1] .

قام الخليفة المنصور ببناء مدينة بغداد ، ومدها بالأنهار والترع ، حتى إذا تولى المهدى الخلافة قام بدوره بحفر المجارى المائية . وحفر الرشيد كثيراً من الأنهار وأصبح عهده من العهود الذهبية للفلاح .

وكانت الأراضى الواقعة بين نهرى دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية ، وكانت الحكومة تشرف على إدارتها إشرافاً مباشراً ، وتعمل على النهوض بمحصولاتها وتنمية مواردها . وأمدها المنصور ثم المهدى بشبكة من الترع والمصارف ، زادت من خصوبتها ، واتسعت المزارع والبساتين .

ولما كان ماء الفرات لا يكفى وحده لرى أراضى السواد ، عمل المنصور والمهدى والرشيدعلى تنظيم وسائل الرى ، بحفر الترع والجداول ، على حين أمكن الاحتفاظ بماء دجلة لرى الأراضى الواقعة على شاطئه الغربى وعلى ساحل الخليج الفارسى (الخليج العربى الآن) ، وأمكن بذلك رى جميع الأراضى الممتدة بين الصحراء العربية وجبال كردستان ، وتحويلها إلى أرض خضراء ، تنتج محصولات وفيرة .

اهتم الخلفاء العباسيون ، وخاصة المنصور والمهدى والرشيد ، بالزراعة وفلاحة البساتين التى قامت على دراسة عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية التى كان لها أثر كبير فى إنارة عقول المسلمين ، فتوسعوا فى البحث النظرى ،

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٤٢٩ .

ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات(١) .

وقد اتبع الخلفاء العباسيون سياسة حكيمة ترمى إلى تخفيف أعباء الضرائب عن الفلاحين واهتم بعض هؤلاء الخلفاء بوضع قواعد ثابتة لأنواع الخراج بحسب نوع المحصول وجودة الأرض ، وراعوا خفض الضرائب إذا قل المحصول نتيجة آفة أو فيضان . وقد ألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التى كانت تفرض على الحنطة والشوفان ، واستبدلها بنظام المقاسمة ، وهو دفع الضرائب نوعاً بنسبة خاصة من المحصول ، على أن النظام القديم قد ظل على النخل والفواكه وأشباهها .

وتوسع الخليفة المهدى فى تطبيق النظام الذى ابتكره المنصور ، فعممه ، وجعل الضرائب تجبى دائماً بالنسبة للمحصول ، وإذا كانت الأرض ممتازة الخصب ولا تحتاج إلى عمل كثير ، كان على المزارع أن يقدم إلى الحكومة نصف غلة أرضه ، وإذا صعب عليه إرواؤها ، دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعاً لحالة الأرض أما الكروم والبساتين والنخيل فكانت غلتها تقوم بالمال ، ويدفع عنها النصف أو الثلث . ويسمى هذا النظام (المقاسمة) تمييزاً له عنى النظام القديم الذى كان يعرف بالمحاسبة ، والذى كان يقضى بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض(٢) .

واهتم المهدى بتخفيف الأعباء عن المزارعين ، بتخفيض الضرائب وتنظيم جبايتها . فقد كان الناس فى صدر الإسلام يؤدون ما فى أيديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبة على وزن كسرى وقيصر ، لا يفرقون فى الأوزان ،

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٢٧ .
(٢) المصدر السابق .

فلما ساد فيهم العمران وأفسدهم التجار والصيارفة صاروا يؤدون الدينار الطبرى ، الذى هو أربعة دوانيق ، ويمسكون الوافى ، الذى هو مثقال ، فلما تولى زياد ابن أبيه صار يطلب الوافى ، ثم تولى الحجاج بن يوسف الثقفى فطلبه كذلك ، حتى إذا تولى الخليفة أبو جعفر المنصور أزال الخراج عن الحنطه والحبوب ، وصيّره على الناس مقاسمة ، ولكن من غير أن يُسقط الكسور . فلما تولى الخليفة المهدى قال : معاذ الله أن ألزم الناس ظلماً فى ذلك ، فقيل له إن أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أمواله فى السنة ١٢ مليون درهم ، فقال : علىّ أن أقرر حقاً وأزيل ظلماً ، لأن العدل موفّر للجباية ، كفيل بعمران الأمصار(١)

ويعلق أحد الكتاب(٢) على سياسة المهدى فى الضرائب الزراعية فيقول : وقد أعظمت للمهدى هذه المأثرة التى أحسبها من أجمل آثار العدل وأحسن سياسة الرفق ، فإن لنا فى سقوط الدول التى قامت فى هذا المكان نفسه من النبط والكلدان وغيرهم ما يدلنا على أن الظلم يقتل العباد والبلاد جميعاً ، فإنما كان غرض الناس من الاجتماع تحت لوائهم القيام بأعمال الزراعة والمقام فى بلدان الخصب ، لما يتسع بين أيديهم من أسباب الكسب والارتزاق ، وقد تناسلوا فى ظلال العدل ، وبلغوا من الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا إذا اجتمعوا لحرب أو غزوة بلغوا ألوفاً من الخلائق ؛ ثم لما غفلت الدولة عن مصلحتهم ؛ وأوقعت عليهم المكوس الفادحة لسد مادعتها إليه مطالب الترف ، لم يبق فى نفوسهم شىء من حب البلاد ، وهم لا يبتغون منها إلا تحصيل القوت الذى يأتيهم على إجهاد النفس ، فضعفت فيهم أسباب الهمة ، ولم يكن للدولة طاقة على مرد العدو بهم ، وقد ماتت نفوسهم من الظلم ، فخلت البلاد منهم ، والله يرث الأرض ومن عليها .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧ .

(٢) المدور : حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٦٩ .

وكان أبو جعفر المنصور قد أقطع بعض رجالات دولته قطائع من الأرض، يعمرونها ويسكنونها مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات جليلة . وكان المنصور قد استرد بعض هذه القطائع من بعضهم ممن غضب عليهم لأسباب سياسية ، فأعادها المهدى إلى أصحابها مرة أخرى ، فعادوا إلى بذل جهودهم لتنمية إنتاجها مما أدى إلى وفرة المحصولات وازدياد الرخاء الاقتصادى .

وحفر المهدى عدداً من الأنهار والترع ، نذكر منها نهر الصلة . كما أعاد حفر كثير من الأنهار التى كانت موجودة فى عصر البابليين ثم اندثرت وعفى عليها الزمان واهتم الرشيد بالضرائب المفروضة مع الأرض ، وخاصة الخراج ، فكلف قاضيه المشهور أبا يوسف بوضع كتاب عن الخراج .

وكانت حاصلات العراق الرئيسية فى العصر العباسى، تتكون من الشعير والقمح والأرز والبلح والسمسم والقطن والكتان . وكان السواد ، وهو السهل المغطى بالغرين إلى الجنوب ، خصباً وينتج كميات عظيمة من الفاكهة والخضر مما تنتجه المناطق الباردة والحارة على السواء ، وكانت هذه الأراضى تنتج بكثرة البندق والبرتقال والباذنجان وقصب السكر والترمس عدا الأزهار كالورد والبنفسج[1] .

عناية العباسيين بالتجارة :

وكما اهتم العباسيون بالزراعة ، فقد نالت التجارة جانباً عظيما من عنايتهم ورعايتهم فقد اتسعت الدولة العباسية ، وأصبحت أعظم دول العالم فى ذلك الحين، وشملت أقاليم متنوعة البيئات والمناخ . وأدى هذا التنوع إلى تنوع فى المحصولات الزراعية واختصاص كل إقليم بأنواع خاصة من المصنوعات ،وقامت حركة تبادل

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٤٤٠ .

على نطاق واسع بين ولايات الدولة العباسية تحقيقاً لسياسة الاكتفاء الذاتى . كما قامت حركة تجارية عالية ، ترمى إلى تبادل أنواع التجارة المختلفة مع دول العالم .

توغل التجار المسلمون فى الشرق حتى وصلوا إلى الصين التى تقول الروايات العربية : أنها كانت تدرك من البصرة منذ أيام الخليفة أبى جعفر المنصور . وكانت هذه التجارة عمادها الحرير ، وهو أقدم هدايا الصين الفاخرة إلى الغرب . وكانت المتاجر تتبع ما يسمى فى الغالب باسم « طريق الحرير الأعظم » وهو يمر بسمرقند والتركستان الصينية ، وهى منطقة لا يطرقها أحد من العالم المتمدين فى أيامنا هذه وكانت البضائع تحمل على التتابع إذ قل من القوافل ما كان يقطع المسافة كلها . أما فى الغرب فقد توغل هؤلاء التجار المسلمون حتى وصلوا إلى المغرب الأقصى وأسبانيا العربية .

وقد جاوز العرب فى العصر العباسى الأول جزيرة سيلان وبعد أن كان الصينيون حتى أوائل العصر العباسى الأول يجوبون بكثرة البحر الواقعة على ساحل الهند وفى الخليج الفارسى ، أصبح من النادر وجودهم فى الخليج الفارسى ، لأن العرب أخذوا يقومون برحلات طويلة ، حتى أنهم وصلوا إلى بلاد الصين . وقد اتخذ ميناء سيراف مرسى لهذه السفن ، التى كانت تعود محملة بالسلع الواردة من البصرة وعمان وغيرها من هذه الجهات وتنقل تجارة العرب والفرس إلى بلاد الصين[1] .

بعث العباسيون جيوشهم لغزو الهند ، مما فتح الطريق أمام التجارة العباسية . وأنشأ العرب على سواحل الهند وفى بعض مدنها جاليات عربية ، كما استولى العرب على بلاد السند ، واعتنق بعض أمراء ملبار الإسلام . وكانت سفن العرب

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٣٤ .

والفرس تعرج على الهند فى طريقها إلى الصين، وتعود حاملة محصولاتها. وكانت عناية سائر الخلفاء العباسيين بالتجارة، وحرصهم على تبادلها وتيسير طرقها البرية والبحرية، كان لها أكبر الأثر فى ترقية التجارة التى تقوم على تبادل المحاصيل، كما مهد السبيل أمام الرحالة والكاشفين، فكثرت رحلاتهم فى هذا العصر كثرة تدعو إلى الإعجاب، فوصفوا البلاد المختلفة وصفاً دقيقاً مبنيا على المشاهدة.

ازداد الرخاء فى بغداد فى العصر العباسى، وكثرت الأموال فى أيدى الناس فأقبلوا على شراء الحاجات الضرورية والكمالية، مما أدى إلى رواج تجارى واسع النطاق. وأصبحت بغداد مركزاً للتجارة العالمية. كما كانت دمشق مركزاً هاما للقوافل القادمة من آسيا الصغرى أو من أقاليم الفرات إلى الجزيرة العربية أو مصر. وكان الفرات ودجلة طريقين تجاريين عظيمين. وحفر المنصور عند بنائه بغداد قناة للملاحة تبدأ عند نهر الفرات، وتخترق أراضى العراق حتى بغداد، وربطت هذه القناة بغداد بآسيا الصغرى والشام والجزيرة العربية ومصر بطريق مائى إلى جانب طرق القوافل العديدة التى كانت تربط بغداد بالأطراف الشرقية للدولة العباسية.

اهتم العباسيون بتنظيم أسواق بغداد، ونقلوا معظمها إلى الكرخ، وجعل لكل حرفة سوقاً خاصة بها، منها سوق العطارين، وسوق القصابين، وسوق البزازين، وسوق الرياحين، وسوق الحدادين، وسوق النجارين.

وكان حرص العباسيين على التيسير على أهل الحجاز وتنمية مواردهم عاملا على عودة النشاط التجارى إلى بلاد الحجاز، وخاصة فى مكة والمدينة، فى موسم الحج. كما أدى اهتمام العباسيين بأنشاء الطرق بين بلاد العراق والحجاز واليمن، ومدها بالماء والاستراحات إلى رحيل قوافل التجارة فى أمن وطمأنينة.

ارتبط الرشيد بصلات صداقة وطيدة مع الإمبراطور شرلمان إمبراطور

دولة الفرنجة ، فعرفت التجارة العباسية طريقها إلى القارة الأوروبية .

اهتمام العباسيين بالصناعة :

وشملت النهضة الإقتصادية فى العهد العباسى ، نهضة الصناعة . وهذا النشاط الكبير الذى لمسناه ما كان ليقوم إلا إذا أعتمد على إنتاج زراعى وصناعى وفير .

استخرج الخلفاء العباسيون كثيراً من المعادن ، وخاصة الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان ، والحديد من مناجم قرب بيروت ، والخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمالى فارس ، والقار والنفط من بلاد الكرج . وأصبحت هذه المعادن أساساً لصناعات معدنية كثيرة .

اشتهرت بلاد الشام بصناعة السجاجد والطنافس والحرير والقطن والمنسوجات الصوفية والديباج ، وأوانى الطهى . ونبغ أهل الشام فى صناعة الزجاج ونقشه بالذهب والألوان الزاهية ، وبرعت دمشق فى المنسوجات الحريرية (الدمقس) .

وامتازت بلاد العراق بصناعة المنسوجات المختلفة ، وخاصة الحرير والأطلس ، والسجاجيد ، والورق ، وبنى الخلفاء العباسيون دور الطراز فى فارس لعمل الملابس اللازمة لجندهم ورجال قصورهم ، ونقش أسماء الخلفاء عليها . واشتهرت خراسان بصناعة المنسوجات الصوفية والبسط والستور . واشتهرت مصر بصناعة المنسوجات والورق والمراكب النيلية .

أصبحت بغداد فى العهد العباسى مركزاً لكثير من الصناعات والأدوية والعقاقير والصياغة ، فقام بها عدد كبير من دور الصناعة ، فكان بها أربعمائة رحا مائية ، وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج ، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف [1] .

---

(١) أمين زكى : كتاب عمران بغداد ص ٥٠ ، حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام ج٢ ص ٢٣١ .

وارتقت الصناعة فى عهد الرشيد ،فقد أبدى الإمبراطور شرلمان ومواطنوه دهشتهم حينما شاهدوا الساعة المائية الدقيقة التى بعثها الرشيد ضمن هداياه إلى شرلمان .

تطور بغداد والرصافة والكرخ :

قامت بغداد فى عصر المنصور ، وأكمل المهدى ، عند توليه الخلافة ، معظم القصور والمبانى والأسواق التى بدأ المنصور بناءها ، ومات قبل إتمامها .

بدأ المنصور بناء قصر الخلد ، ومدينة الكرخ ، فى سنة ١٥٧ هـ ،وتوفى المنصور قبل الفراغ من البناء ، فتولى المهدى ذلك . كما عمل المهدى على تطوير منشئات أبيه ، وإضفاء الجمال والفخامة عليها ، حتى أصبحت دليلا على عظمة الدولة العباسية . فقد كان المنصور حريصاً على الأموال ، مقتراً ، فكان يهتم بالجوهر أكثر مما يهتم بالمظهر ، بينما كان المهدى كريماً سخياً ، فاهتم بالزخرفة والفنون الجميلة ، ولذا تحولت مبانى بغداد إلى قطعة فنية رائعة .

بدأ المنصور بناء حاضرته الجديدة ، بغداد ، فأحضر المهندسين والبنائين والعمال من الشام والموصل والجزيرة والكوفة وواسط وبلاد الديلم ، وبلغ عددهم مائة ألف درهم ، واختار جماعة ممن يثق بفضلهم وعدالتهم وعلمهم وأمانتهم ومعرفتهم بالهندسة والحساب ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وأمر بضرب اللبن وطبخ الآجر . ووضع أساس بغداد فى الوقت الذى اختاره المنجمون ، وأحتفل بوضع الحجر الأساسى لبناء بغداد احتفالا شائقاً شهده رجال الدولة العباسية من الأمراء والوزراء والقواد والأعيان . وجعل المنصور حاضرته الجديدة مدورة ، وجعل داره وجامعه فى وسطها ، حتى لايكون أحد أقرب اليه من الآخر ، وهو نوع جديد فى بناء المدن عند المسلمين ، ويبدو أنهم اقتبسوه من الفرس[١] .

---

(١) أنظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ١ ص ٧٦ ،وتاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٧٦ .

توقف البناء فى بغداد ، فقد تفرغ المنصور للقضاء على ثورة عنيفة قام بها محمد النفس الزكية زعيم البيت العلوى فى بلاد الحجاز ، وأخوه ابراهيم فى البصرة سنة ١٤٥ هـ . حتى إذ أخمد المنصور الثورة العلوية وقضى على الأخوين عاد إلى معاودة بناء حاضرته الجديدة .

بنى المنصور لبغداد سورين ، سور داخلى وآخر خارجى وحوله خندق عميق ملأه بالماء . وكان بالسور الخارجى أربعة أبواب ، باب الكوفة فى الجنوب الغربى ، وباب البصرة فى الجنوب الشرقى ، وباب خراسان فى الشمال الشرقى على نهر دجلة ، وكان يسمى باب الدولة ، لأن خراسان هى عماد الدولة العباسية ، وباب الشام فى الشمال الغربى . ونقل المنصور بعض أبواب مدينة واسط التى كان قد بناها الحجاج بن يوسف الثقفى فى العصر الأموى . وبنى المنصور قصراً له سماه (قصر الذهب) ، وبنى جامعاً فى مواجهته ، وأصبح القصر والجامع مركزاً للدائرة . وازدحمت بغداد بالأهالى وأرباب الحرف والتجار والصناع ، حتى ضاقت بسكانها ، ورأى المنصور أن يقيم خارج أسوار بغداد ، فبنى لنفسه سنة ١٥٧ هـ قصر أسماه قصر الخلد ، وقد أكمل المهدى بناءه .

قسم المنصور أرباض بغداد أربعة أقسام ، جعل على كل منها رئيساً ، وعهد إلى كل رئيس منهم بإقامة سوق فى القسم الذى يصرف عليه ، كما أمر أن تخطط الشوارع والدروب بحيث تكون المبانى منتظمة ، وأن يسمى الشارع أو الدرب بأسم القائد أو الرجل النابه الذكر الذى يقيم به ، كما تفعل المجالس البلدية الآن وسرعان ما عمرت الأرباض وكثرت فيها المساجد والحمامات (١) .

(١) تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٨١ .

أما الرصافة ، فقد كان المهدى سبباً فى ظهور فكرة بنائها ، وبدأ المنصور فى إقامتها ، ولم يتم بناؤها إلا فى خلافة المهدى .

فقد كان المهدى قد خرج إلى خراسان لإخماد عدة ثورات قامت بها ، حتى إذا قضى عليها ولاه أبوه المنصور حكم خراسان ، فأقام بها سنوات قليلة ، ثم عاد على رأس جيشه إلى بغداد ، ففكر المنصور فى أن يبنى الرصافة ليقيم فيها المهدى مع جيشه .

روى الطبرى(١) : « أن المهدى لما قدم من خراسان أمره المنصور بالمقام بالجانب الشرقى ، وبنى له الرصافة ، وعمل لها سوراً وخندقاً ، وميداناً وبستانا وأجرى له الماء فكان يجرى من نهر المهدى إلى الرصافة » .

حقق بناء بغداد الغرض الذى قصده المنصور وهو منع الوصول إليه ، إلا أنه لم يحل دون ماقد يحدث إذا شغب الجند عليه . وقد مر المنصور بتجربة قاسية ، فقد ثار عليه بعض جنده وحاربوه عند باب الذهب ، وهو أحد أبواب بغداد ، ولذا نصحه أحد رجاله ببناء مدينة جديدة يقيم فيها جنده ليكون بمأمن من شغبهم وثورتهم .

التقى قثم بن العباس بن عبيدالله بن العباس ، وهو يومئذ شيخ كبير مقدم عند القوم ، بالمنصور ، فقال المنصور له : أما ترى مانحن فيه من التياث الجند علينا ، قد خفت أن تجتمع كلمتهم فيخرج هذا الأمر من أيدينا ، فما ترى ؟ فقال قثم : يا أمير المؤمنين ، عندى فى هذا رأى ، إن أنا أظهرته لك فسد ، وإن تركتنى أمضيته صلحت لك خلافتك وهابك جندك . ثم تقدم قثم بنصيحة للمنصور فقال : قد فرقت بين جندك وجعلتهم أحزاباً كل حزب منهم يخاف أن

---

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٢٩٢ .

يحدث عليك حدثاً فتضرب به بالحزب الآخر ، وقد بقى عليك فى التدبير بقية . فسأله المنصور : ماهى ؟ فقال قثم : أعبر بابنك — أى المهدى — فأنزله فى ذلك الجانب قصراً وحوله وحول من جيشك معه قوما فيصير ذلك بلداً وهذا بلداً فإن فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب ، وإن فسدت عليك مضر ضربتها باليمن وربيعة والخراسانية ، وإن فسدت عليك اليمن ضربتها بمن أطاعك من مضر وغيرها (١) .

وهكذا اتخذت الرصافة فى بداية أمرها ثكنات للجند ، وسُميت (رصافة بغداد) أو (بغداد الشرقية) لوقوعها فى شرق بغداد . وتم بناؤها فى سنة ١٥٩ هـ فى خلافة المهدى . وتطورت الرصافة فى عهد المهدى والرشيد فأصبحت مدينة عامرة . تضاهى بغداد فى اتساعها وعمرانها ، وتكاد تكون مدينة مستقلة ، وقامت فيها الميادين المتسعة ، والمبانى الفخمة ، وانتشرت فيها الحدائق والمتنزهات .

أما مدينة الكرخ ، فقد شرع المنصور فى بنائها ، وتم تشييدها فى عصر ابنه المهدى . وكان المنصور قد أقام أسواق بغداد داخلها ، ثم حدث أن قدم عليه أحد بطارقة الروم ، فطلب المنصور من حاجبه الربيع بن يونس أن يطوف بالضيف فى بغداد ، ليرى معالمها وأسوارها ، وأبوابها وأسواقها . حتى إذا عاد البطريق من جولته أراد المنصور أن يقف منه على رأيه فى حاضرته الجديدة ، فأجاب البطريق فى صراحة : يا أمير المؤمنين إنك بنيت بناء لم يبنه أحد كان قبلك ، وفيه ثلاثة عيوب : أما أول عيب فيه فبُعده عن الماء ، ولابد للناس من الماء لشفاههم ، وأما العيب الثانى فان العين خضرة وتشتاق إلى الخضرة ، وليس فى بنائك هذا بستان ، وأما العيب الثالث فان رعيتك معك فى بنائه ، وإذا كانت الرعية مع الملك فى بنائه فشا سره .

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

وكان المنصور معجباً بحاضرته الجـديدة ، ويعتقد أنها بلغت الـكمال فى الإنشاء والتشييد ، ولذا دافع عن بغداد فقال للبطريق : أما قولك فى الماء فحسبنا من الماء ما بلّ شفاهنا ، وأما العيب الثانى فإنّا لم نُخلق للهو واللعب ، وأما قولك فى سرى فما لى سر دون رعيتى ! ولـكن المنصور أدرك حقيقة العيوب التى كشفها له هذا البطريق ، ولذا ما كاد يغادر مجلسه حتى دعا باثنين من رجاله وأمرهما بإصلاح العيوب ، فقال لهما : مدا إلىّ قناتين من دجلة ، واغرسا لى العباسية ، وانقلا الناس إلى الـكرخ [١]

وأمر المنصور حاجبه الربيع بن يونس ببناء الـكرخ سنة ١٥٧ هـ ، وأن ينقل اليها أسواق بغداد ، ووضع له تصميماً للـكرخ على رقعة قماش ، وحدد له الأمكنة الجديدة للأسواق ، وأمره ببناء مسجد ومساكن لأهل الأسواق حتى لا يدخلوا بغداد .

بدأ الربيع فى تنفيذ أوامر الخليفة فى إقامة الـكرخ ، ولـكن المنصور مات سنة ١٥٨ هـ قبل أن يتم البناء ، وقام ابنه الخليفة المهدى بإتمام تشييد الـكرخ من أمواله الخاصة ، وعهد إلى الربيع بن يونس الذى أصبح حاجب المهدى أيضاً ، بأن يتم ما شُرع فى بنائه فى عهد أبيه .

وكانت الفـكرة الأولى فى عهد المنصور أن تصبح الـكرخ مقراً لأسواق بغداد ، ولـكن الـكرخ تطورت فى عهد الخليفة المهدى فأصبحت مدينة عامرة ، وبعد أن كانت منطقة محـدودة تقع جنوب بغداد بين الصراة ونهر عيسى ، اتسعت فى عهد المهدى والرشيد وامتدت حتى أصبحت فى وسط بغداد .

وصف ياقوت الحموى [٢] مدينة بغداد فقال : « بغداد جنة الأرض ،

---

(١) ياقوت : معجم البلدان (لفظ بغداد) .

(٢) معجم البلدان (لفظ بغداد) .

ومدينة السلام ، وقبة الإسلام ، ومجمع الرافدين ، وغرّة البلاد ، وعين العراق ، ودار الخلافة ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الظرائف واللطائف وبها أرباب الغايات فى كل فن ، وآحاد الدهر فى كل نوع » .

وأنشد طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن هذين البيتين ، يصف فيهما مدينة بغداد وقصر الخلد ، ومدينة الكرخ :

سقى الله سقى الغاديات محـلة
ببغداد بين الخلد والكرخ والجسر
هى البلدة الحسناء خصت لأهلها
بأشياء لم يجمعن مذ كن فى مصر

حضارة بغداد :

أصبحت بغداد ، عاصمة الدولة العباسية ، مركزاً من مراكز الحضارة فى فى العالم . فقد استقرت الأحوال الداخلية فى الدولة ، وبدأ المهدى والرشيد يجنيان ثمار جهود المنصور وأبى العباس ، فانتشر الرخاء والأمن والسلام ، وارتقت الفنون والآداب والعلوم ، وحفلت بغداد فى عهد الرشيد بالشعراء والأدباء والعلماء والموسيقيين والمطربين، وتبارى وجوه بغداد فى إنشاء القصور الفخمة وجذب الشعراء إليهم ليمتدحوهم بقصائد عصماء .

كان المهدى يتنقل بين قصر الذهب الذى أنشأه المنصور فى وسط بغداد ، وبين قصر الخلد الذى أتم المهدى بناءه على الشاطىء الغربى لنهر دجلة ، واهتم المهدى بزخرفته وتجميله ، وسمّاه (الخلد) تشبيهاً له بجنة الخلد . وبنى وجوه بغداد حوله قصورهم ، حتى قامت ضاحية تسمى (الخلد) . وأقام المهدى فى القصر عرشاً سمّاه (مجلس الأمير) قامت فيه أعمدة الرخام المجزع ويحيط بها قضبان من ذهب . وفرش المهدي هذا المجلس بالبسط والديباج ، وقد نقش عليها

أبياتاً من الشعر تمدح الخليفة . وحول العرش اصطفت مقاعد مرصعة باللؤلؤ يجلس عليها رجالات الدولة . وكان الخليفة يجلس على عرشه داخل قبة مفروشة بأفخر أنواع الحرير المطعم بالخيوط الذهبية .

اتبع العباسيون فى مبانيهم الطراز الفارسى غالباً ، والطراز الرومانى الذى شهدوه فى بلاد الشام أحياناً . وكان البناء بالآجر المغطى بالكلس . وكانت قصور الأغنياء تشمل ثلاثة أقسام هى : مقاصير الحرم ، وحجرات الخدم ، وأماكن للضيافة ، ويحيط بالقصور حدائق يانعة ، تحفل بالأزهار والفاكهة . وزيّنوا أسطح قصورهم بقباب مرفوعة على عمد دقيقة فتظهر للعين كأنها معلقة فى الفضاء ، ويحيط بكل قصر سور واحد . أما دور العامة فكانت تشرف على الشوارع مباشرة دون أن يحيط بها سور . وحفلت بغداد بالمبانى الشاهقة التى تتألف من عدة طوابق ، وفرشت بأثمن الأثاث والرياش التى جلبت من كل مكان فى العالم . وكانت قصور البرامكة فى عهد الرشيد من أجمل قصور بغداد ، واشتهر القصر الذى بناه محمد بن سليمان فى البصرة وذاع صيته بين الناس. وكان العباسيون يقلدون الفرس فى تخفيف حرارة الشمس فى الصيف فيعملون لبيوتهم سقوفاً من الطين يجددونها فى كل يوم يقضى الخليفة القيلولة فيه (١) .

كان قصر الخليفة بما يحيط به من ملحقات للحريم والخصيان وموظفى الخاصة يشغل ثلث بغداد . وكانت قاعة الاجتماعات بما فيها من بسط وستور ووسائد من أحسن ما أنتجه الشرق ، ذات تأثير خاص فى النفس ، ولها روعة كبيرة . وكانت بغداد تأخذ زينتها ويبدو ثراؤها فى المناسبات ، وخاصة فى الاحتفالات كالاحتفالات بتولى الخليفة أو حفلات الزواج أو الحج أو استقبال السفراء الأجانب . وكان يلى الخليفة فى حياة البذخ أفراد الأسرة

---

(٢) الدورى : حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٩٢ وما بعدها .

العباسية والوزراء والرؤساء والموظفون وغيرهم من الأتباع الذين كانوا يملأون قصر الخلافة . وكان أفراد البيت الهاشمى ، الذى ينتمى إليه العباسيون ، يتلقون بانتظام من خزانة الدولة أعطات ، وظل الحال كذلك حتى عهد المعتصم(١) .

واهتم العباسيون بتنظيم بغداد ونظافة شوارعها وطرقها ، فكانت الرحاب تكنس كل يوم ، ويحمل التراب إلى خارج المدينة .

كان العباسيون يعنون بتنويع الطعام . وكان أبو جعفر المنصور يقبل على الطعام ولا يستمع إلى نصيحة أطبائه مما أدى إلى ضعف صحته وموته . كما اهتم المهدى بنصب الموائد الفاخرة فى المناسبات العامة ، واستضافة كثير من رعاياه فى كرم وسخاء . وقد تحدثت المصادر التاريخية عن الموائد التى نصبها المهدى لوجوه مكة ، وقد حفلت بأنواع الطعام الفاخر ، وخاصة بالطيور وخبز السميذ ، وجلب المهدى لضيوفه الثلج من بلاد الشام لأول مرة إلى مكة . كما اشتهرت موائد الرشيد الحافلة بأطاييب الطعام والشراب .

انتشرت الأزياء الفارسية فى مدينة بغداد منذ مطلع الدولة العباسية ، حتى أصبح اللباس الفارسى لباس البلاط الرسمى ، فقد قرر أبو جعفر المنصور لبس القلانس ، وهى القبعات السود الطويلة المخروطة الشكل ، بصفة رسمية ، كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة وحذا المهدى والرشيد حذو المنصور .

وكان لباس الخليفة العباسى فى المواكب القباء الأسود أو البنفسجى الذى يصل إلى الركبة ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجواهر عالية . وكان الأمراء والنبلاء يقلدون

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٧٧ .

الخلفاء فى ملابسهم . أما الخلفاء والقضاة فكانوا يلبسون العمامة والطيلسان ، مقتدين فى ذلك بالرسول صلى الله عليه وسلم ، كما كانوا يلبسون قلنسوة طويلة ، حولها عمامة ذات لون أسود ، وهذا اللون هو شعار العباسيين . وكان اللباس العادى للطبقة الراقية فى العهد العباسى يشتمل على سروالة فضفاضة ،وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة . أما لباس العامة فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام ، وكانوا ينتعلون الأحذيةمن النعال[1] .

أما ملابس النساء ، فتتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة يحليه رداء قصير ضيق يُلبس عادة فى البرد . وكانت المرأة العربية إذا خرجت من بيتها ترتدى ملاءة طويلة تغطى جسمها ، وتقى ملابسها من التراب وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة . وقد تطورت ملابس النساء فى العهد العباسى تطوراً كبيراً عما كانت عليه فى العصر الأموى ، إذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس (البرنس) مرصعاً بالجواهر ، محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى علية بنت المهدى[2] .

شهدت طرقات بغداد مواكب الخلفاء العباسيين ، وقد فاقت مواكب الخلفاء العباسيين أسلافهم الخلفاء الأمويين . فى أيام الجمع يبدأ الموكب بسير حراس الخليفة حاملين الأعلام . ثم يليهم أمراء البيت العباسى على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة ممتطياً جواداً شديد البياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة . وكان الخليفة يلبس فى تلك المواكب القباء الأسود ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية ، وبيده قضيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخاتم الخلافة ، ويتدلى على صدره

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣١١ .
(٢) المصدر السابق .

سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر النفيسة . وكان من مظاهر سيادة الخليفة فى بغداد أن يضرب على باب قصره بالطبول والدبادب والأبواق فى أوقات الصلاة . ومن أعظم مواكب الخليفة العباسى موكبه عند خروجه إلى الحج ، حيث يجتمع ببغداد الحجاج من مختلف الأقطار الإسلامية الشرقية ، وخاصة أهل العراق وفارس وخرسان وغيرها .

وكان المهدى يحمل معه فى موكبه بِدَر الدراهم والدنانير ، فلا يتعرض له أحد إلا أعطاه ، فكان أرباب الدولة يخافون نفاد ما فى بيت المال ، وخاصة أن المهدى أمر بتخفيف الضرائب مما أدى إلى نقص إيرادات بيت المال . وكثيراً ما يتوقف موكب الخليفة للاستماع إلى شكوى أحد رعاياه . وكان الرشيد يحج سنة ويغزو سنة ، وإذا حج كان يحج ماشياً .

اهتم الخلفاء العباسيون بحفلات الزواج ، وشهدت بغداد ليلة حافلة ، حينما احتفل الخليفة المهدى بزواج ابنه هارون الرشيد بالسيدة زبيدة ، فقد أقام يوم زفافهما وليمة لم يسبقه إليها أحد فى العصر الإسلامى ، ووهب للناس فى هذا اليوم أوانى الذهب مملوءة بالفضة ، وأوانى الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر ، وزين العروس بكثير من الحلى والجواهر ، حتى أنها لم تقدر على المشى لكثرة ما عليها من هذه الحلى والجواهر . وأنفق المهدى على احتفاله بزواج هارون مليوناً و ٣٨٨ ألف دينار من أمواله الخاصة ، عدا ما أنفقه هارون . أما السيدة زبيدة فقد قدرت نفقات ليلة الاحتفال بزواجها من الرشيد بمبلغ يتراوح بين ٣٥ و ٣٧ مليون دينار .

احتفل الخلفاء بالأعياد الإسلامية احتفالا دينياً ، فكان الخليفة يؤم الناس فى الصلاة ، ويلقى خطبة بليغة فى فضائل العيد ، فيحث المسلمين على التمسك بتعاليم الإسلام ، فقد اشتهر الخلفاء الأوائل بالورع . وكانت بغداد تسطع

بالأنوار فى ليالى العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير ، وتزدحم دجلة بالزوارق المزينة بأبهى الزينات ، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل . وتتلألأ الأنوار الساطعة من قصور الخليفة ، وخاصة قصر الذهب وقصر الخلد .

كما احتفل الخلفاء العباسيون بالأعياد الفارسية مجاملة لرعاياه من أهل فارس وخراسان ومشاركة لهم فى أعيادهم ، فقد كانت الدولة العباسية تعتمد على الفرس والخراسانيين . ومن أشهر هذه الأعياد النوروز والمهرجان . أما النوروز فهو أول أيام السنة عند الفرس ، ويقع عند أول الربيع ، أما المهرجان فهو آخر السنة الفارسية ، ويوافق غالباً أول الشتاء . وظهرت بهجة هذه الأعياد واضحة فى عهد الرشيد .

نظام الخلافة فى العصر العباسى :

كان الخليفة العباسى يقوم على رأس الحكومة باعتباره مصدر كل السلطات. وقد كان من حقه أن يعهد بممارسة سلطته المدنية إلى وزير ، وسلطته القضائية إلى قاض ، ووظيفته الحربية إلى قائد أو أمير . ولكن الخليفة نفسه رغم كل هذا العهد ، كان يظل أبدا الملجأ الأخير فى كل شئون الحكومة . وقد اقتفى خلفاء بغداد الأول فى وظيفتهم وسلوكهم أثر الفرس القدماء(١) .

وضع أبو جعفر المنصور أساس النظام السياسى الذى سارت عليه الدولة العباسية فى العصر العباسى الأول ، وهو النظام الذى كان منتشراً فى الشرق ، وكان مألوفا عند الفرس منذ أيام (اكزركيس) ، وبذلك تمكن العباسيون من أن يحكموا البلاد على النحو الذى كان يحكم به آل ساسان من قبل .

---

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٣٩٥ .

وبقيام الدولة العباسية تطور نظام الخلافة . فإن تلك الدولة قامت على كواهل الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم تسويتهم بالعرب فى الحقوق السياسية والاجتماعية ، مع منافاة ذلك لحق المساواة الذى أقره القرآن والسنة بين البشر . وقد حذا العباسيون حذو الأمويين فى تولية العهد لأبنائهم .

وكان الفرس يقولون بنظرية الحق الملكى المقدس[١] ، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مغتصباً لحق غيره . لذلك أصبح الخليفة العباسى فى نظرهم يحكم بتفويض من الله لا من الشعب ، ويتجلى هذا واضحاً فى قول أبى جعفر المنصور : « إنما أنا سلطان الله فى أرضه » . وذلك ما يخالف ما كان عليه الخلفاء الراشدون الذين استمدوا سلطانهم من الشعب . يدل على ذلك قول أبى بكر عقب توليته الخلافة : « إن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى » . وقول الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز : « لست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا »[٢] .

تحدث السيد أمير على عن نظام الخلافة فى العصر العباسى الأول إلى عهد الرشيد ، فقال : لقد ظل نظام الحكم فى الدولة العباسية استبدادياً إلى عهد الرشيد ، وعلى الرغم من أن أصحاب الدواوين أو البارزين من أفراد البيت العباسى كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجعاً لكل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة[٣] .

استفاد العباسيون من حركة الرجعية التى قامت ضد بعض الخلفاء الأمويين غير الأتقياء ، فطبع الخلفاء العباسيون من أول خلافتهم أنفسهم بالطابع الدينى ،

---

(١) The Divine Right of Kings.
(٢) حسن إبراهيم : النظم الاسلامية ص ٢٠٥ .
(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب .

وأحاطوها بالوقار الذى تستلزمه مظاهرهم باعتبارهم أئمة[١] .

صبغ الخلفاء العباسيون خلافتهم بصيغة دينية . ورأينا النزعة الدينية عند الخلفاء العباسيين الأولين واضحة جلية ، ورأينا اتصال الخلفاء بالعلماء ورجال الدين أقوى وأوضح ، فأبو جعفر المنصور يقرب العلماء والفقهاء ويصلهم ، والمهدى يشتد على الزنادقة وينشىء ديواناً للتنكيل بهم وعقابهم ويهتم بالأماكن المقدسة فى الحجاز ، ويروى الأحاديث النبوية وكان الرشيد يحج سنة ويغزو سنة ويصلى كل يوم مائة ركعة .

وحرص الخلفاء العباسيون على ارتداء بردة الرسول صلى الله عليه وسلم عند تولى الخلافة ، أوفى الحفلات الدينية ، باعتبار الخليفة نائباً عن الرسول فى حكم المسلمين . كما تلقب الخليفة العباسى بلقب (إمام) توكيداً للمعنى الدينى فى خلافة العباسيين ، بعد أن كان يطلق هذا اللقب فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين على من يؤم الناس فى الصلاة ، على حين كان الشيعيون يطلقونه على أفراد البيت العلوى الذين كانوا يعتقدون أنهم أحق بالخلافة من سواهم . وبعد أن صارت الخلافة العباسية تستند إلى نظرية الحق الإلهى ، قرب الخلفاء إليهم العلماء ورجال الدين لينشرون بين الناس هذه النظرية التى أصبح لها شأن فى الحياة السياسية فى الدولة العباسية[٢] .

نظام ولاية العهد فى العصر العباسى :

تحولت الخلافة فى عهد الأمويين من نظام الشورى والانتخاب إلى النظام الملكى الوراثى ، فقد بايع معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد بولاية العهد دون أبناء الصحابة مثل الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله بن

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٩٤ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١٩٥ .

العباس ، وغيرهم . وكان الخلفاء الأمويون يولون العهد أحياناً لأكثر من واحد .

واتبع العباسيون هذا النظام وغالوا فيه ، فقد عهد أبو العباس السفاح (١٣٢ — ١٣٦ هـ) بالخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) ، ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن على بن عبد الله بن عباس . فلما تولى المنصور خلع عيسى بن موسى ، وبايع لابنه المهدى، ثم لعيسى من بعده ، ولما تولى المهدى الخلافة (١٥٨ — ١٦٩ هـ) خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، وولّى ولديه الهادى ثم هارون الرشيد . كذلك أراد الهادى (١٦٩ — ١٨٠ هـ) خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، مثلما فعل المهدى مع عيسى بن موسى ، لولا أن مات الهادى قبل أن يضع مشروعه حيز التنفيذ . كما حاول الأمين خلع أخيه المأمون والبيعة لابنه مما أدى إلى صراع الأخوين .

ويعلق الدكتور حتى[٣] على نظام ولاية العهد فى العصر العباسى فيقول : ولقد حذا العباسيون حذو الأمويين فى نظام الوراثة غير الواضحة المعالم ، وكانت نتيجته سيئة عليهم ، كما كانت سيئة على أسلافهم الأمويين . وكان الخليفة المتولى الحكم يعين أحد أبنائه ، ممن كان يحبهم أو يرى فيهم الكفاية ولياً للعهد من بعده ، كما كان فى بعض الأحيان يعين أحد أقربائه ولياً للعهد إذا كان يرى أن صفاته تؤهله لذلك .

نظام الوزارة فى العصر العباسى

كانت كلمة (وزير) معروفة للعرب قبل الفتوحات الإسلاميه ، ففى القرآن الكريم على لسان موسى : (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى) . وفى حديث السقيفة : « نحن الأمراء وأنتم الوزراء » . وفى طبقات ابن سعد :

---

(٣) حتى : تاريخ العرب ص ٣٩٤ .

« أن أبا بكر كان وزيراً للنبي صلى الله عليه وسلم » . وفى الدولة الأموية كان اللفظ مستعملا ، يقول الطبرى : « إن زياداً كان يسمّيه معاوية وزيراً » .

ولكن الكلمة فى كل المواضع لم تستعمل فى المعنى الإصطلاحى الذى نعرفه الآن من كلمة الوزير . وإنما هى بمعنى المؤازر المناصر . قال ابن خلكان : « وقد اختلف أرباب اللغة فى اشتقاق الوزارة على قولين : أحدهما أنها من الوزر وهو الحمل ، فكأن الوزير قد حمل عن السلطان الثقل ، وهذا قول ابن قتيبة . والثانى أنها الوَزَر وهو الجبل يعتصم به ليُنجى به من الهلاك ، وكذلك الوزير معناه : الذى يعتمد عليه الخليفة أو السلطان ، ويلتجىء إلى رأيه ، وهو قول ابن إسحاق الزجّاج .

ويرجح المرحوم الأستاذ أحمد أمين(١) أن أصل الكلمة عربى ، ولا يوافق على ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن أصل الكلمة فهلوى مأخوذ من فيشيرا Vi-chirs) ومعناه الأمر أو التقرير .

لم تكن كلمة وزير بدعاً فى العصر العباسى ، إنما المبتدع هو إنشاء هذا المنصب وإعطاء صاحبه السلطة الرسمية ؛ وتلقيبه بهذا الاسم ، وهذا المنصب فارسى ولم يكن معروفاً قبل العباسيين .

قال ابن خلكان فى ترجمة أبى سلمة الخلال : أن أبا سلمة أول من وقع عليه اسم الوزير ، وشهر بالوزارة فى دولة بنى العباس ، ولم يكن قبله من يُعرف بهذا الاسم ، لا فى دولة بنى أمية ولا فى غيرها من الدول .

اقتبس الخلفاء العباسيون نظم الحكم فى دولتهم عن الفرس ، ومنها الوزارة

---

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص ١٧٢ .

وكان الوزير فى عهدهم ساعد الخليفة الأيمن ، يقضى باسمه فى جميع شئون الدولة فكان له الحق فى تنصيب العمال والإشراف على الضرائب ، فكان بذلك ينوب عن الخليفة فى حكم البلاد ، ويجمع فى شخصه بين السلطتين المدنية والحربية ، بجانب الواجبات العادية من نصح الخليفة ومساعدته[1] .

تحدث المؤرخ ابن طباطبا عن نظام الوزارة فى العصر العباسى الأول ، فقال : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون فى طبعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة ... والوزارة لم تتمهد قواعدها ، وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس . فأما قبل ذلك فلم تكن متفننة القواعد . ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوى الحجا والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمى الوزير وزيراً ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً »

وفصل ابن خلدون[2] واجبات الوزير وأعماله فى العصر العباسى فقال : « فلما جاءت دولة بنى العباس ، واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد ، وتعينت مرتبته فى الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر فى ديوان الحسبان ، لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات فى الجند . فاحتاج إلى النظر فى جمعه وتفريقه ، وأضيف إليه النظر فيه ، ثم جعل له النظر فى القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور . وجعل

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ١٩٦ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧ .

الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ، ودفع إليه ، فصار اسم الوزير جامعاً لخطتى السيف والقلم ، وسائر معانى الوزارة والمعاوية .

كان معظم وزراء الخلفاء العباسيين من الفرس ، فأبو سلمة الخلال أول وزير عباسى ، مولى فارسى ، وأبو أيوب الموريانى وزير المنصور فارسى من (موريان) وهى قرية من قرى الأهواز . ويعقوب بن داود وزير المهدى مولى كذلك . وكذلك كان البرامكة . وكان الوزير قائماً مقام الخليفة فى كل الشئون ، فينظر فى الشئون الحربية ، وفى الشئون المالية ، ويكتب الرسائل إلى الجهات المختلفة ، ويوقع على ما يرفع إليه من أوراق ، ولم يتعدد الوزراء فى الدولة العباسية بتعدد الأعمال ، فيجعل للحرب وزير ، وللمال وزير ، وهكذا وإنما كان تعداد الوزراء بتعداد الأعمال ، من نظام الدولة الأموية بالأندلس ، ولكن العباسيين جمعوا بين السيف والقلم(١) .

وكان الوزراء فى العصر العباسى الأول يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم ، فكان كل منهم يتجنب أن يسمى وزيراً بعد أن مات أبو الجهم على يد المنصور . وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ، ويأبى أن يسمى وزيراً ، على الرغم من علو منزلته عند الخلفاء .

استوزر الخليفة المنصور بعد خالد البرمكى أبا أيوب الموريانى اشتراه المنصور صبياً قبل أن يلى الخلافة ، فثقفه وعلمه ، واتفق أن أرسله مرة إلى أخيه الخليفة أبى العباس السفاح ومعه هدية له ، فلما رآه أعجب بهيئته وفصاحته فأبقاه عنده وأعتقه ، وجعله من أخص رجاله المقربين إليه ، وأدر عليه عطاءه وصلاته ، وظل على ذلك حتى ولى المنصور الخلافة ، فقلده الوزارة ، وكان نصيبه نصيب من سبقه من الوزراء إلا خالد بن برمك .

---

(١) ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٧٣ .

تحدث المؤرخ ابن طباطبا[1] عن الوزارة فى عهد المهدى فقال : « فى أيامه ظهرت أبهة الوزارة بسبب كفاءة وزيره أبى عبد الله معاوية بن يسار ، فإنه جمع له حاصل المملكة ، ورتب الديوان وقرر القواعد ، وكان كاتب الدنيا ، وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة » .

وقد اختار معظم الخلفاء العباسيين أحسن الوزراء سيرة وعدلا ودراية بشئون الدولة ، وأثبتوا كفاءة واضحة . ورغم ذلك ، فقد كان الخليفة يشاركهم أعباءهم ومسئولياتهم وكان أشهر الوزراء فى العصر العباسى الوزراء البرامكة الذين برزوا فى عصر هارون الرشيد واستأثروا بالنفوذ دون الخليفة مما أدى إلى نكبتهم . كما ازداد نفوذ الفضل بن سهل فى عهد المأمون مما جعل المأمون يتخلص منه بقتله إذ خاف أن يحول الخلافة من العباسيين إلى العلويين .

النظم الحكومية فى العصر العباسى :

كان الوزراء الظاهرون فى العصر العباسى من الموالى الفرس ، فأبو سلمة الخلال أول وزراء العباسيين مولى فارسى، وأبو أيوب الموريانى وزير المنصور فارسى ، ويعقوب بن داود وزير المهدى مولى كذلك ، وكذلك كان الوزراء البرامكة فى عصر المنصور والمهدى والرشيد ، وكذلك وزراء المأمون مثل الفضل بن سهل .

وكان الوزير يجمع إلى الإدارة الحربية والمالية خطة القلم، أى انفاذ الرسائل إلى الجهات ، والتوقيع على ما يعرض عليه من مطالب ورسائل ، ولذا كان من شروط تولية الوزير أن يكون عالما مطاعا ، كاتبا بليغا ، وتاريخ الوزراء

---

(٢) الفخرى ص ١٦٣ .

العباسيين ، يدلنا على أن أكثر من اختير للوزارة لوحظ فى اختيارهم الكفاية العلمية والبلاغة .

وقد أحسن الخلفاء العباسيون الاختيار ، فكان وزراؤهم على جانب كبير من الكفاءة والصلاحية وخاصة الوزراء البرامكة .

وهذه القدرة الكتابية التى كان يشترطها الخلفاء فى الوزير ، كانت من أكبر الأسباب فى قصر الوزارة على الفرس — غالباً — فالعرب كانوا أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية . ولعل هـذا هو السبب فى أنهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان ، فقالوا رجل لسن إذا كان ذا بيان وفصاحة ، ولم يشتقوا مثل ذلك من الكتابة (١) .

لما كثرت أعمال الوزارة فى العصر العباسى الأول أصبح من الضرورى تعيين موظفين يعاونون الوزير للاشراف على الدوادين المختلفة وإدارة شئونها . ومن أشهر الكتاب فى هذا العصر كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة . وقد حرص الخلفاء على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ ، كما حرصوا على اختيار كتابهم من رجال الأدب من أعرق الأسر ، وممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب (٢) .

وكانت طائفة الكتاب تؤلف وحدة على رأسها الوزير . بل وتتدرج فى الرقى إلى الوزارة ، معتمدة على كفايتها وبلاغها ، وكان لهؤلاء الكتاب أثر كبير فى نشر نوع من الثقافة خاص ، ذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم ، وكانت معارفهم ودائرة إطلاعهم واسعة شاملة ، لأنهم — بحكم مناصبهم — مضطرون أن يعرفوا أحوال الناس الإجتماعية وتقاليدهم ،

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٢) حسن إبراهيم : النظم الاسلامية ص ١٨٠ .

وأن يعرفوا من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والجغرافية والتاريخ طرفا، لأن كثيرا من مواقفهم يحتاج إلى ذلك؛ وقد تعرض للخليفة أو الوالى مسائل من هذا القبيل ويضطر الكاتب إزاءها أن يكون ملما بجميع ذلك، إذ هم الذين كانوا يعرضون على الخلفاء مايرد عليهم ويحررون مايصدر منهم (١).

كان الخلفاء الراشدون لايحتجبون عن رعاياهم، فكانوا يجلسون يومهم فى مسجد الرسول بالمدينة، ويلتقون بالمسلمون على إختلاف مراتبهم بدون حجاب ثم احتجب معاوية بن أبى سيفان عن الناس بعد مصرع على بن أبى طالب ومحاولة اغتيال معاوية، وازدحام الناس على أبواب قصره فى دمشق، وحذا الخلفاء الأمويون حذو معاوية فى الإحتجاب عن الناس.

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء فى العصر الحديث، وكان يقوم بإدخال الناس على الخليفة حسب مراتبهم ومراكزهم فى المجتمع. واتخذ الخلفاء العباسيون الحجاب، فلم يقابلوا رعاياهم إلا من قدم لأمر خطير. وصار بين الناس وبين الخليفة داران: دار الخاصة، ودار العامة، يقابل الخليفة كل طائفة فى مكان معين، كما يحدده الحاجب. وكان الحاجب من كبار الموظفين، وموضع ثقة الخليفة، فكان يستشيره فى مهام الأمور، ومرتبته بعد الوزير مباشرة.

اشتهر أمر الربيع بن يونس حاجب المهدى. وكان يتولى الحجابة أيضاً فى عهد أبيه المنصور. وقد اشتهر الدور الهام الذى قام به الربيع بعد وفاة المنصور قرب مكة، فقد أخفى نبأ موت المنصور حتى أخذ البيعة للمهدى. كما اشتهر الدور الكبير الذى قام به الربيع للخلاص من الوزير معاوية بن يسار، فعزله المهدى بسعى من الربيع، ثم رشح الربيع للمهدى يعقوب بن داود ليتولى الوزارة. وهكذا تدخل الحجاب فى تعيين الوزراء.

---

(١) ضحى الاسلام ص ١٧٧.

كان النظام الإدارى فى العصر العباسى نظاماً مركزياً ، وأصبح العمال على الإقليم مجرد عمال لا ولاة مطلقى السلطة ، على عكس ولاة الأمويين الحجاج ابن يوسف الثقفى وزياد بن أبيه . كما أنهم لم يكونوا من الشخصيات البارزة ، ولذلك استحال النظام اللامركزى إلى نظام مركزى ، مما يشعر بتقلص نفوذ العمال . وكان من أهم الموظفين فى الولايات الإسلاميه فىالعصر العباسى الأول : صاحب بيت المال ، وصاحب البريد ، والقاضى ، واقتصر عمل الوالى على الصلاة وقيادة الجند .

اهتم الخليفة العباسى فى هذا العصر بأن يختار عمال الأقاليم بنفسه لإدارة شئونها . بيد أن سلطتهم المدنية والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد ، فلم يترك العامل فى ولايته زمناً طويلا . وإذا عزل عن منصبه طلب منه أن يقدم بياناً مفصلا عن شئون ولايته : وكان أقل شك فى صدقه كافياً لمصادرة أملاكه جميعاً[1] . وفى أيام المنصور والمهدى ، لم تكن مهمة الولاية أكثر من وظيفة صورية ، واهتم المهدىباختيار ولاته ، ولم يترك الوزراء يستبدون بتعيين الولاة ، فقد استشار الوزير يعقوب بن داود المهدىفى اختيار اسحاق بن الفضل لولاية مصر ، ورفض المهدى هذا الاختيار . وكان الخلفاء العباسيون يولون أولادهم حكم الولايات الهامة . فقد ولى المنصور ولى عهده المهدى حكم خراسان ، وولى الخليفة المهدى ولى عهده الهادى حكم جرجان ، وولى ابنه الثانى هارون الرشيد حكم البصرة ثم مصر ، كما قسم الرشيد الدولة بين أولاده .

وكانت الدولة العباسية فى العصر الأول تنقسم سياسياً إلى عدة ولايات هى : (١) الكوفة والسواد . (٢) البصرة وإقليم دجلة والبحرين وعمان . (٣) الحجاز واليمامة . (٤) اليمن . (٥) الأهواز ويشمل : خوزستان

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٠٣ .

وسجستان . (٦) فارس . (٧) خراسان . (٨) الموصل . (٩) الجزيرة . (١٠) أرمينية وأذربيجان . (١١) سورية . (١٢) فلسطين . (١٣) مصر وأفريقية . (١٤) السند .

وقد جرت العادة أن يولى الخفاء العباسيون الولايات الإسلامية البعيدة بعض أفراد البيت العباسى وأكابر القواد ، وخاصة خراسان ومصر .

وقد ظل نظام الحكم فى الدولة العباسية كما وضعه المنصور إلى عهد الرشيد على الرغم من أن أصحاب الدواوين وأبناء البيت العباسى كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة . ولكن ظهر بتوالى الأيام إلى أن هذه الأعباء كانت مرهقة لا يستطيع القيام بها رجل واحد ، ومن ثم أصبح من الضرورى تعيين موظفين يعاونون الوزير فى الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها[١] .

تحدث السيد أمير على عن الإدارة فى الدولة العباسية فقال : أما الإدارة فكانت قائمة على قواعد محدودة مماثلة للنظم الحديثة فى الأمم المتحضرة . فكانت كل مناصب الدولة ، كما كان الحال فى الدولة العثمانية ، مفتوحة أمام كل من المسلمين واليهود والنصارى على السواء[٢] .

وكان النظام الإدارى فى العصر العباسى من حيث توزيعه العمل ، يعادل خير النظم الحديثة . وهذه هى أهم دواوين الدولة التى كانت تشبه الوزارات فى العهد الحاضر : ديوان الخراج ، وديوان الدية ، وديوان الزمام ، وديوان الجند ، وديوان الموالى والغلمان (وتسجل فيه أسماء موالى الخليفة وعبيده) ، وديوان البريد ، وديوان زمام النفقات ، وديوان الرسائل ، وكانت مهمة صاحبه إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة ، وديوان

---

(١) المصدر السابق .

(٢) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى .

النظر فى المظـالم ، وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء ، وديوان الحوائج ، وديوان الأحشام ، وديوان المنح أو المقاضاة ، وديوان الأكره وكان يشرف على الترع والجسور وشئون الرى .

أنشأ الخليفة المهدى ديوانًا جديداً ، هو ديوان الأزمة أو الزمام ، ويشبه ديوان المحاسبة اليوم ، وأصبح أهم دواوين الدولة . وكانت مهمة صاحب هذا الديوان جمع ضرائب بلاد العراق وهى أغنى أقاليم الدولة العباسية ، وتقديم حساب الضرائب فى الأقاليم الأخرى . ومن اختصاص صاحب هذا الديوان جمع الضرائب النوعية المسماة بالمعادن ، التى كانت تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان ، فيتخذ دواوين الأزمة ويولى على كل منها رجلا .

ولم تـكن الحـكومة العباسية تتدخل فى شئون الجماعات إلا بمقدار ، بل كانت كل بلدة أو قرية تدير شئونها الخاصة بنفسها ، ولا تتدخل الحـكومة إلا فى حالة نشوب الفتن أو الامتناع عن دفع الضرائب ، غير أنها — مع ذلك — كانت تقوم بالرقابة الفعلية على جميع الشئون التى تتصل بالزراعة والرى من بناء القنوات وترميمها[١] .

اهتم الخلفاء العباسيون بالبريد ، وقد أقام المهدى محطات البريد بين بلاد اليمن وبلاد الحجاز وبلاد العراق ، فمهد الطرق بين هذه البلاد ، وأنشأ المنازل ، وأمدها بالمياه . وتحدث المؤرخ (فون كريمر) عن نظام البريد فى الدولة العباسية، فقال . كان على رأس كل مصلحة فى الولايات الإسلاميه عامل بريد ، مهمته موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة والإشراف على أعمال الولاة ، كما كان بعبارة أخرى ، مندوباً أولته الحـكومة المركزية ثقتها .

أولى الخلفاء العباسيون الجيش العباسى اهتمامهم . فأصبح يضم مئات الألوف

(٢) النظم الاسلامية ص ١٢٢ .

من الجند من مختلف أجناس الدولة . وقام الجيش فى عهد المهدى بأعمال حربية كبيرة.. فقد بعث بجيش كثيف بقيادة ابنه هارون الرشيد لغزو بلاد الروم . ووفر له الإمدادات والتموين . وكان هجوم الجيش العباسى مستمراً على الأراضى الرومانية . صيفاً وشتاء . وأثبت جيش المهدى كفاءته فى قتاله للروم . وانتصر انتصارات رائعة . كما بعث المهدى بجيش كبير لغز بلاد الهند بطريق البحر . كما كان الجيش العباسى مستعداً دائماً للقضاء على ما يقوم من فتن أو ثورات يقوم بها أعداء الدولة العباسية . وخاصة الحزب العلوى . ونجح المهدى فعلا فى إخماد بعض الثورات الصغيرة التى قامت فى عهده . كما نجح فى القضاء على جيش المقنع والزنادقة . واشتبك الرشيد والمعتصم فى عدة حروب مع الروم ، وحازا انتصارات رائعة .

وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده . فمنهم الحربية ، وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح وهم جند العرب ، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين . وكان الجيش الأموى يعتمد على الجند العربى . حتى إذا قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس . أصبحت العناصر الفارسية تمثل غالبية الجيش العباسى . ولم يكن اعتماد الخلفاء على الفرس راجعاً إلى مساعدة هؤلاء لهم فى إقامة دولتهم . بل كان راجعاً أيضاً إلى العصبية التى كانت متفشية بين الجنود العرب . فقد انقسموا إلى عرب يمنية وعرب مضرية . وكانت هـذه العصبية من عوامل إخفاق الجيش الأموى أمام الجيش العباسى بقيادة أبى مسلم الخراسانى مما أدى إلى سقوط الدولة الأموية . ولذا فكر الخليفة المنصور فى إنشاء الكرخ فى جنوب بغداد . ليقيم فيها الجند العرب . وليصبح بعيداً عن الصراع الناشب بينهم . كما أقام المنصور مدينة الرصافة ليقيم فيها ابنه المهدى وجيشه بعد عودتهم من خراسان بعد إخماد الثورات التى قامت هناك . وقـد اهتم كل من المنصور والمهدى والرشيد باستعراض الجيش فى المناسبات .

اهتم الخلفاء العباسيون بشئون الضرائب ، وعملوا على تخفيف أعباء رعاياهم فقد رأينا المهدى يغير نظام الخراج الذى اتبعه أبو العباس والمنصور ، وأمر باتباع نظام المقاسمة ، وهو نظام عادل أبدى الناس إرتياحهم له ، كما وضع وزير المهدى يعقوب بن داود أول كتاب عن الخراج ، وسار خلفاؤه على نهجه ، فوضع أبو يوسف بعد ذلك كتابه المشهور عن الخراج بتكليف من الرشيد .

ونال القضاء اهتمام العباسيون ، فقد حرصوا على تحقيق العدل. وكان المهدى أول الخلفاء الذين يجلسون للنظر فى المظالم ، فقد أطلق سراح المسجونين السياسيين الذين سجنهم المنصور ، ورد إليهم أموالهم المصادرة . وكان يسمح للناس بالدخول عليه وعرض مظالمهم ، ولو كانت الشكوى منه شخصياً . ويقول ابن طباطبا [١] عن المهدى : وكان يجلس فى كل وقت لرد المظالم . روى عنه أنه كان إذا جلس للمظالم قال: « أدخلوا على القضاة ، فلو لم يكن ردى للمظالم إلا للحياء منهم لكفى » . وظهر منصب (قاضى القضاة) فى عهد الرشيد ، وتولاه القاضى أبو يوسف صاحب كتاب الخراج ، فأصبح بمثابة وزير العدل فى العصر الحاضر ، فكان يتولى تعيين القضاة فى الأمصار الإسلامية .

وضح الماوردى [٢] الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء . ومن أهم الفروق ، أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ماليس للقضاة مايكف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب ، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الأمارات والشواهد مايصل به إلى معرفة الحق من المبطل ، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا اتصلوا إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراض. وليس للقاضى ذلك إلا عند رضاء الخصمين برد ، وأنه يجوز له إخلاف الشهود عند ارتيابه بهم والاستكثار من عددهم ، ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء

---

(١) الفخرى ص ١٦١ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧٣ وما بعدها .

الشهود وسؤالهم عما عندهم ، وعادة القضاة تكلف المدعى إحضار بينة ، ولا يسمعون البينة إلا بعد سؤاله » كان الخليفة المهدى أول من جلس بنفسه للنظر فى المظالم . وفى بداية الأمر ، كان لا يسمح لأصحاب المظالم بالدخول على المهدى والإكتفاء بعرض مظالمهم فى رقاع من الورق ، فينظر المهدى فى كل رقعة بعناية واهتمام ، وإلى جانبه قضاته يرجع إليهم فيما أشكل عليه من أمور . ثم علم المهدى أن بعض أتباعه يأخذون رشوة من أصحاب المظالم فى مقابل عرض مظالمهم على الخليفة . فأمر المهدى بفتح شباك من حديد فى قصره فيلقى كل صاحب مظلمة بالورقة التى عرض فيها مظلمته من هذا الشباك إلى داخل القصر ، ثم كان المهدى يسمح بدخول المظلومين إلى مجلسه يعرضون عليه مظالمهم .

وكانت محكمة المظالم تختص بالنظر فى كثير من القضايا ، أبرزها :

(١) النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف ، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا فى جمع الضرائب، أو كتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

(٢) النظر فى تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم .

(٣) تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام .

(٤) مراعاة إقامة العبادات ، كالحج والأعياد والجمع ، والجهاد [1] .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٨٠ ؛ تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٢٤ .

ملامح الحضارة العربية فى العصر العثمانى

قامت الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى ، وبدأت تتوسع على حساب الإمارات التركية السجلوقية ، ثم على حساب الدولة البيزنطية ، وتتوسع سلاطينها فى البلدان الأوروبية المسيحية وخاصة فى البلقان ، فكانوا يعتبرون التوسع على حساب الأراضى المسيحية نوعاً من الجهاد الدينى ، وكانوا يجدون حرجاً فى الإشتباك مع قوات إسلامية . ولم تشرع الدولة العثمانية فى الإستيلاء على العالم العربى إلا بعد قرنين من قيامها ، وفى عهد سلطانها التاسع سليم الأول . وقد خضع العرب قبل الفتح العثمانى لدولتين إسلاميتين كبيرتين غير عربيتين . فخضعت بلاد العراق للدولة الصفوية الإيرانية ، وخضعت مصر والشام والحجاز لدولة المماليك . وقضى سليم الأول على الدولة المملوكية وانتزع مصر والشام والحجاز ، ثم أكمل سليمان القانونى مابدأه سليم فسيطر على العراق واليمن وشمال أفريقية . واستمر الحكم العثمانى للعالم العربى أربعة قرون ، منذ أوائل القرن ١٦ (١٥١٠ م) إلى انهيار الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ —١٩١٨) حيث اقتسمت دول الحلفاء ممتلكاتها .

قبل الفتح العثمانى ، عانى العرب كثيراً من ضغط المغول والصليبيين ، واضطروا إلى أن يسلموا زمام الحكم والحرب لطوائف من الأكراد والجركس والترك وأخلاط المماليك ، وقنع العرب بفلاحة الأرض والصناعة والتجارة تاركين الحكم والحرب لغيرهم من الطوائف التى طرأت على المجتمع العربى منذ العصور الوسطى . ولما تولى العثمانيون حكم العالم العربى ، وكانت الأخطار التى تعرض لها المجتمع العربى فى العصور الوسطى قد أدت إلى ضعفه ، اضطر العرب إلى أن

ينزلوا عن مكان الصدارة فى بلادهم ويقنعوا بأن يكونوا أدوات للانتاج فى حكومات غريبة عنهم .

وإن كان الحكم العثمانى حكما إسلامياً إلا أنه كان يختلف كثيراً عما سبقه من حكم العرب والمسلمين فى القرون الماضية فقد أهمل العثمانيون تماما كل إصلاح يتناول النواحى الإجتماعية أو الإقتصادية أو الثقافية ، ولم يهتموا إطلاقا بإصلاح المرافق العامة . وقد تحولت التجارة قبيل الفتح العثمانى إلى رأس الرجاء الصالح مما أدى إلى خسارة مالية كبيرة لحقت بالعالم العربى ، ولو أن العثمانيين لم يكن لهم دخل مباشر فى تلك الحالة الطارئة ، إلا أنهم انتهزوا فرصة الكساد وعملوا على محو كثير من الصناعات التى كانت مزدهرة فى مصر ، إذ نقلوا كثيراً من الصناع المهرة إلى القسطنطينية ، فحرموا مصر من الأيدى العاملة الفنية كما استولوا على كثير من الأموال والخامات العربية التى لا يستغنى عنها فى النهضة الصناعية . وأهمل العثمانيون تطهير الترع حتى جفت ، وترميم الجسور حتى انهارت وأوقع نظام الالتزام أعباء كثيرة على الفلاحين فساءت أحوالهم الإجتماعية .

وأهمل العثمانيون المرافق الصحية فانتشرت الأمراض والأوبئة . ولم يجد العرب ملاذاً إلا فى الأولياء وأرباب الطرق فعظم نفوذهم ، وكان على الشعب الجاهل أن يكفلهم ويقوم بسداد حاجتهم ويكرمهم بإحياء الموالد ويحيى ذكراهم بالأدعية والولائم . وأغلق العثمانيون المدارس واقتصر التعليم على الأزهر والكتاتيب ، وانتشر الجهل والخرافات ، واضطرب الأمن ، فكان الجنود حفظة الأمن والنظام يعتدون على الأرواح والممتلكات . ولم يجد الفلاح العربى أمامه إلا الاستكانة والصبر على المكاره والدعاء لله بأن ينقذه من العثمانيين .

أقام العثمانيون حكمهم على أساس ألا يتدخلوا فى حياة الناس ونظمهم الاجتماعية ، إلا بقدر ، فما دام العرب على ولائهم وخضوعهم منصرفين إلى

حياتهم المألوفة ويقدمون الأموال التى تطلب منهم ، طلوا بمأمن من سلطان الدولة لا تمتد إليهم أيدى عمالها .

وقد حفظت هذه الطريقة للعرب قوميتهم وكيانهم ونظمهم وتقاليدهم الإجتماعية ، وتركت قدرا كبيرا من الحرية لكل طائفة لتنظم شئونها بنفسها وترعى مصالحها بنفسها . فالفلاحون فى كل قرية متضامنون فيما بينهم فى السراء والضراء ، لا يعرفون إلا الملتزم حين يقدم عليهم يطالبهم بالضرائب ، ومن النادر أن يضطروا إلى التردد على دواوين الحكومة . وظل أهل الصناعة والتجارة فى المدن تنتظمهم طوائف الحرف ، لكل حرفة طائفتها ولكل طائفة نظامها وتقاليدها ، ورؤساء الطائفة ينظمون العلاقة بين أفراد الحرفة ، ويقومون على رعاية تقاليدها وتمثيلها فى دوائر الحكومة .

أدت الطريقة التى سار العثمانيون عليها — نحو ترك العرب يحيون نفس الحياة الإجتماعية التى عاشوها قبل الفتح ، إلى الجمود والركود. فالحياة الإجتماعية مثلها مثل أى حياة أخرى ، فى حاجة إلى دماء جديدة تغذيها وتنعشها وتحفظ لها حيويتها ، وظل العرب يعيشون القرون الأربعة من السادس عشر إلى العشرين كما كانوا يعيشون فى العصور الوسطى . هذا بينما كانت هذه القرون فى أوروبا هى عصور النهضة ، حيث شهدت القارة الأوروبية كثيراً من النظم الأوروبية الراقية . وحرص العثمانيون على أن يضعوا حاجزاً منيعاً يفصل بين العرب وأوروبا إذ كانوا يخشون أن تمتد الأطماع الأوروبية إلى العالم العربى ، وأدى هذا الحجاب الكثيف إلى حرمان العرب من الاقتباس من النظم الأوروبية الراقية .

٨- أثر الحضارة العربية فى الحضارة الأوروبية

طريق الحضارة العربية الى أوروبا :

كان ظهور الإسلام إيذانا بمولد الدولة العربية الإسلامية ، وأصبح العرب رسل الحضارة الإسلامية ، وبدأوا يدخلون التاريخ من أوسع أبوابه . وعملت الدولة الوليدة على نشر الإسلام والعروبة ، فكانت الفتوحات العربية الإسلامية فى عهد الخليفتين الأولين أبى بكر وعمر بن الخطاب ، فتم القضاء على الدولة الفارسية ، واستولى العرب المسلمون على الشام ومصر من الدولة البيزنطية ثم توالت الفتوح فى العصر الأموى ، فاستولى العرب على بقية شمال أفريقية ، ثم غزوا القارة الأوروبية ، فاستولوا على شبه جزيرة ايبريا ، وجنوب فرنسا ، واستمر العرب فى غزو أوروبا حتى استولوا على جزر البحر المتوسط الأوروبية، وإيطاليا ، ونجحوا فى تثبيت أقدامهم ونشر دينهم وحضارتهم فى أرجاء كثيرة من القارة الأوروبية .

وكانت أوروبا قبل الفتوح العربية ـ باعتراف جميع المفكرين الأوروبيين ـ تسبح فى دياجير الظلام ، وتعانى من التأخر والفوضى ، فنشر العرب فيها حضارتهم ، وأبدلوا ظلام أوروبا بنور من العلم والعرفان والمدنية . وأرسوا قواعد حكومة عادلة ، تحرص على تحقيق الحرية والمساواة ، وتعمل لصالح رعاياها من الأوروبيين . وأصبح العرب أساتذة للأوروبيين ، يلقنوهم أسس الحضارة العربية الزاهرة .

مكث العرب فى صقلية وجنوب إيطاليا ثلثمائة سنة تقريباً ، فاستعرب أهل تلك المناطق وأصبحوا يتكلمون اللغة العربية ويدينون بعادات العرب .

واستولى العرب على نصف فرنسا المعاصرة وتركوا أثراً عميقاً فى اللغة والدم . أما تاريخ العرب فى أسبانيا فهو معروف ، فقد كتبت أسبانيا العربية الإسلامية صفحة من أروع صفحات التاريخ الحضارى والعقلى لأوربا فى العصور الوسطى وكانت الشعوب المتكلمة باللغة العربية فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر حملة مشاعل الثقافة والحضارة فى ربوع العالم أجمع . وكانت الحضارة العربية أساس النهضة فى أوروبا . وأوفدت دول أوروبا بعثات علمية إلى الأندلس العربية لتتلقن العلوم والأفكار العربية مثلما ترسل الدول العربية اليوم بعثاتها إلى أوروبا وأمريكا .

ثم تقلص نفوذ العرب السياسى عن معظم أرجاء أوروبا ، ولكن ذلك لم يكن يعنى نهاية الحضارة العربية فى أوروبا ، فقد ظلت التأثيرات العربية باقية ، واستمر الطابع العربى قائماً فى كل مكان فى القارة ، وأصبحت حضارة العرب أساساً أقام الأوروبيون عليه حضارتهم الحديثة . وإذا كان الأوروبيون يفخرون الآن بحضارتهم الزاهرة ، فإننا نحن العرب نفخر أننا الذين وضعنا أسسها ، واللبنات الأولى فى بنائها ، وأخذنا بأيدى الأوروبيين حتى أصبحوا فيما هم عليه الآن من رقى وتمدن .

الحكم العربى لجزيرة صقلية :

كان الأمير فى صقلية فى أول الأمر يتولى سلطته من قبل الأغالبة فى القيروان ، حتى تحطمت سلطة الأغالبة فى سنة ٩٠٩ على أيدى الدولة القوية الجديدة الوليدة أى الدولة الفاطمية التى أصبحت جزيره صقلية من ممتلكاتها . وبعد ذلك بأربع سنوات حاول عرب صقلية بزعامة أحمد بن قرهب (٩١٢ — ٩١٦ م) الاستقلال عن الدولة الفاطمية ، واعترفوا بسيادة الدولة العباسية . ولكن الفاطميين نجحوا فى استعادة سيادتهم على صقلية وأصبحت قاعدة حربية

يبدأ الفاطميون منها غاراتهم على إيطاليا وخاصة مدينة جنوة التى تكررت اغارات العرب عليها .

وفى سنة ٩٤٨ عين الخليفة المنصور ، ثالث الخلفاء الفاطميين ، الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى حاكما على صقلية ، فوضع هناك أسس حكومة مستقلة ثابتة . وفى عهده وعهد خلفائه من أمراء الدولة الكلبية بذرت بذور الثقافة العربية ونمت فى تلك الجزيرة المتعددة اللغات . وعاش الأمراء الكلبيون فى ترف ورخاء[١] .

ترك العرب لأهالى صقلية الأصليين عاداتهم وقوانينهم وحريتهم الدينية المطلقة ، واكتفوا بجباية قليلة ، وكان مقدارها أقل مما كانت عليه على عهد اليونان ، وأعفوا منها الرهبان والنساء والأولاد ، وحافظوا على جميع الكنائس التى وجدوها ، واهتموا بالزراعة والصناعة ، وأدخلوا أنواعاً من المزروعات مثل البردى والمران ، وأنشأوا مصانع الورق وامتدت هذه المصانع من صقلية إلى إيطاليا ، واستخرج العرب الذهب والفضة والحديد والرصاص والنوشادر وعلموا أهالى صقلية صناعة الحرير ، كما اهتموا بالتجارة وإنشاء الأساطيل التجارية .

أشاد (ديبل) بالحكم العربى فى صقلية فقال : إن العرب حملوا معهم إلى جزيرة صقلية مظاهر فنهم ، وقناطرهم العالية الجميلة ، وفسيفساءهم المعمولة من الرخام الملون، وصورهم الجميلة وبهيج صناعاتهم وليدة علمهم، وكلها أعمال خاصة بالمترفين وأرباب النعيم. وكانت المصانع العربية مثلاً يحاكيه النورمان فيما بعد . ولما سقطت بلرم فى أيدى العرب سنة ٨٣١م لم يكن فيها سوى ثلاثة آلاف

---

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٧٨٥ .

نسمة ، فلما غدت عاصمة أمراء العرب المسلمين برزت حضارتها وفنونها فأصبح لها حكومة ذات مجد ورقى [(١)] .

وتحدث (آمارى) فى كتابه (المسلمون فى صقلية) عن الحكم العربى لصقلية فقال : أن من غلبوا على أمرهم من سكان الجزيرة كانوا فى راحة وسرور على عهد الأمراء العرب المسلمين وكانت حالتهم أحسن بكثير من حالة إخوانهم الإيطاليين الذين كانوا يرزحون تحت نير اللنجورمانيين والفرنجة .

اهتم الولاة العرب بالإصلاحات ونشروا ألوية العدل ، وعنوا بحفر الترع وترقية الزراعة فزادت ثروة سكانها وعمت فيها الخيرات وأفتن أهلها فى ضروب الترف والنعيم . وظل العرب المسلمون لا يمتازون عن الأهالى الأصليين فى شىء فكل منهم يمارس شعائر دينه ويتبع أسلوب معيشته . بل إن نساء صقلية تشبهن بنساء العرب ، فانتقبن النقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة ولبسن الحرير الموشى بالذهب، وتزين بكل ما يتزين به المسلمات . ولم يرهق الفاطميون أهالى صقلية بالضرائب بل اكتفى بأخذ جزية عادلة : دينارين من أغنيائهم ، ودينار واحد من أرباب الحرف والصناعات .

ظل ولاة صقلية من قبل الفاطميين منذ أوائل القرن الخامس الهجرى فى نزاع متصل مع الروم وكان لهذا أثره فى إضعاف نفوذ الفاطميين فى هذه الجزيرة واستنجد أهالى صقلية بالمعز بن باديس الصنهاجى أمير أفريقية ليخلصهم من تهديدات الروم فاستجاب لندائهم . وفى عهد ابنه تميم بن المعز عاود الروم غاراتهم على صقلية ، كما قامت اضطرابات داخلية . وانتهز النورمنديون هذه الفرصة وأخذوا يعملون على الاستيلاء على جميع بلاد الجزيرة وثغورها وضيقوا الخناق على العرب المسلمين حتى ضاقت بهم سبل المعيشة . وظلت الحرب مشتعلة

---

(١) كردعلى : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٢٨٠ .

بينهم وبين النورمنديين زمناً طويلاً حتى اضطر العرب المسلمون إلى التسليم وتم لروجر النورمندى الاستيلاء على الجزيرة سنة ٤٨٣ ه[1] .

ولم يكن استيلاء النورمنديين على صقلية نهاية لآثار العروبة فى الجزيرة . فقد استمر العرب يقيمون فيها ، واعتمـــد الأمراء النورمنديون على العناصر العربية فى السياسة والاقتصاد ، فقد كانوا على جانب كبير من الحضارة والرقى والخبرة ، فقد كانوا عناصر نشيطة منتجة . وقد مرّ الرحّالة ابن جبير بجزيرة صقلية سنة ٥٨٠ ه أى بعد ست وتسعين سنة من إنتهاء الحكم العربى لصقلية . فتحدث عن اعتماد الأمير النورمندى (غليام) على العناصر العربية الإسلامية فقال : « أنه عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين وأنه كثير الثقة بهم ، وساكن اليهم فى أحواله ، والمهم من أشغاله ، وله الأطباء والمنجمون ، وهو شديد الحرص عليهم » .

واستمر روجر الثانى وابنه وغليام على الإستعانة بالعرب جرياً على خطة روجر الأول ، فتركوا لهم حريتهم ، ينعمون بضياعهم وأموالهم ومتاجرهم ومصانعهم . وكان هؤلاء الملوك يحسنون العربية ويطربون لشعرها وأدبها ، وكان فردريك الثانى كثير العناية باللغة العربية وآدابها ، وقد ضرب فيها بسهم وافر ، وظلت اللغة العربية فى صقلية اللغة الرسمية ، وكان من العرب معلمون وأساتذة وعلماء مهرة ، ولا تزال براءات ملوك النورمانديين مكتوبة بالعربية واللاتينية واليونانية ، وكانت العربية إحدى اللغات التى تضرب بها نقودهم ، بل نقش عليها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وكان القاضى جمال الدين بن واصل ، الفيلسوف المؤرخ ، قد رحل إلى صقلية سفيراً للسلطان المملوكى الظاهر بيبرس فى سنة ٦٥٩ ه ، فتحدث عن الأمير

---

(٢) آمارى : المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٢؛ حسن ابراهيم: الدولة الفاطمية ص ٢٥٦ .

النورمانى فذكر أنه كان يقرب العرب المسلمين ، كما تحدث عن مدينة (لوجاره) فذكر أن معظم أهلها من العرب المسلمين ، وتقام فيها صلاة الجمعة ، وأن معظم أصدقاء الأمير من المسلمين وأنه يعلن بالآذان والصلاة فى معسكره ، وأن هذه التصرفات أثارت غضب البابا على الأمير .

أخرجت صقلية جملة من العلماء والمحدثين والفقهاء والأدباء والأطباء والفلاسفة وكان فى طليعتهم أسد بن الفرات ، وهو من أصحاب مالك ، وأسد ابن الحرث صاحب الأسديات فى الفقه ، والقاضى ميمون بن عمر ، وابن حمديس الصقلى الشاعر المبدع وهو القائل عند الجلاء يذكر صقلية :

ذكرت صقليـة والأسى
يهيـج للنفس تذكارها
فإن كنت أخرجت من جنة
فإنى أحـدث أخبارها
ولولا ملوحـة ماء البكا
ء حسبت دموعى أنهارها
ضحكت ابن عشرين من صبوة
بكيت ابن ستين أوزارها

ومن رجال صقلية أبو عرب الصقلى ، وابن بشرون ، وابن الفحام ، والشريف الأدريسى ، وابن ظفر ، وابن القطاع صاحب الدرة الخطيرة ، والحسن ابن يحيى المعروف بابن الخزاز وهو صاحب تاريخ صقلية ، وابن سابق ، وعيسى ابن عبد المنعم ، وهو من أهل العلم بالهندسة والنجوم والحكمة ، وأبو عبدالله الصقلى الفيلسوف ، وعبد العزيز الأغلبى الكاتب ، والمازرى صاحب التآليف المشهورة ، وغيرهم كثير .

الحضارة العربية فى صقلية :

ترك العرب فى جزيرة صقلية كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم التى لاتزال باقية حتى الآن . كما تركوا ألفاظاً عربية كثيرة فى اللغة الصقلية والإيطالية ، ولا تزال مدن وأماكن كثيرة فى صقلية تحمل أسماء عربية ، ولا سيما أسماء القلاع والمراسى والشوارع ، وتبدأ أسماء القلاع بلفظ (قلتا) أى قلعة ، ومنها ما أصبح اليوم مدناً . وفى بالرمو الآن قصران جليلان من مبانى العرب أحدهما قصر القبة والآخر قلعة العزيزة .

تحدث (رينالدى) عن التأثيرات العربية فى جزيرة صقلية فقال : أن الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية فى الإيطالية التى تفوق الحصر دخلت اللغة الإيطالية لا بطريق الإستعمار العربى بل بطريق الحضارة التى كثيراً ماتؤلف بين مظاهر الحياة المختلفة . وقد اضطرت مدينة جنوة أن تؤسس سنة ١٢٠٧ م مدرسة لتعليم اللغة العربية، ويدل على ذلك وجود كلمات عربية فى لغة هذه المدينة، وفى اللغات العامية فى جميع المدن الإيطالية التى كانت تتجر مع الشرق وصقلية، وقد دخلت إليها مع التجارة العربية ، ولاتزال معاجم لغتهم تحفظ كثيراً منها . والهندسة الغوطية هى فى الحقيقة الهندسة العربية . كما أن أسماء الموازين والمكاييل والألفاظ البحرية فى اللغة الإيطالية من أصل عربى .

وأثبت (آمارى) المستشرق الصقلى ، أن صقلية مدينة للعرب بحضارتها ، كما أن إيطاليا مدينة لصقلية باقتباس معالم الحضارة العربية . وقد أدى هذا إلى ابتكار الشعر الوطنى، ومنذ ذلك الحين بدأت العناية بقرض الشعر مما أدى إلى نهوض الشعر الإيطالى ويكمل (رينالدى) هذا الحديث فيقول : لم يساعد العرب فقط على إنهاض الشعر الصقلى والإيطالى ، بل أنهم أمدوا قصصنا بشكلها ومادتها وهذا يؤيد مايذهب إليه بعض المفكرين من أن دانتى الشاعر الإيطالى إقتبس

موضوع رواية الكوميديا الإلهية من رسالة الغفران للمعرى [1] .

إن النغمة العربية التى هبت نسماتها الزكية على ديار الإيطاليين علمتهم كيف يحترمون الواجبات بعد كان معظمهم يشتغل بقطع الطرق والنهب والسلب ، وعلمت أبناءهم القراءة والكتابة وشتى العلوم بعد أن كانوا أميين يفتك الجهل المدقع فى صفوفهم . وعلمتهم الصناعات المختلفة وأصول الزراعة والحياكة ، وشاركهم العرب فى ضروب التجارة التى درت عليهم الثروات المختلفة بعد فقر وشقاء .

والزائر اليوم للمكتبة الكبرى فى الفاتيكان بمدينة روما بإيطاليا ليجد الألوف المؤلفة من الكتب الخطية القديمة وهى كلها من تأليف علماء العرب .

وفى بالرمو أنشأ العرب أول مدرسة للطب ، وماعهد مثلها فى جميع أوروبا ، بل أن مدارس الطب فى الغرب أنشئت بعد مدرسة صقلية العربية بأعوام ، ومنها انتشر الطب فى بلاد إيطاليا ؛ وساعد على ذلك أن البابوات كانوا قد رحلوا إلى أفينيون من أرض فرنسا فخلا الجو للعلم العربى ، وامتد فى أرجاء إيطاليا .

شاهدت صقلية فى عهد النورمنديين إزدهاراً للثقافة العربية الإسلامية . ولقد كان يتدفق إلى الجزيرة خلال الحكم العربى لها ، وهى غاصة بذكريات الحضارات السالفة ، تيارات الثقافة الشرقية التى كانت ممتزجة بالتراث النفيس لليونان والرومان ، وبدأ النورمانديون يجنون ثمار الجهود والأفكار العربية .

وعلى الرغم من أن روجر الأول نفسه كان مسيحياً غير مثقف إلا أنه كون القسم الأكبر من جنده المشاة من العرب المسلمين ، وكان يرعى الثقافة العربية ، وأحاط نفسه بأهل المشرق من الفلاسفة والمنجمين والأطباء ، وسمح

(١) الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٢٨٨.

للمسلمين بالحرية الدينيةالتامة ، وأبقى كثيراً من الموظفين العرب فى مناصبهم ، وكان بلاطه أشبه ببلاط خلفاء العرب منه ببلاط أمراء الغرب ، وظلت صقلية أكثر من قرن مملكة مسيحية يتولى وظائفها الكبرى عرب مسلمون (١).

وفى خلال هذا القرن ظلت التجارة فى صقلية فى أيدى التجار العرب المسلمين ، كما امتلك العرب الضياع الكبيرة ، وكان العرب قد أدخلوا إلى صقلية زراعة قصب السكر والكتان والزيتون .

وكان روجر الثانى (١١٣٠ — ١١٥٤) يرتدى الملابس العربية ،ويطرز رداءه بحروف عربية ، ونقش على سقف الكنيسة التى بناها فى بالرمو نقوشاً كوفية . كما احتضن روجر الثانى الإدريسى ، أعظم الجغرافيين ورسامى الخرائط فى العصور الوسطى الذى اتخذ من مدينة بالرمو مقراً لنشاطه تحت رعاية روجر الثانى. أما الإمبراطور فردريك الثانى فكان فى عاداته الشخصية وحياته الرسمية نصف شرقى ، وكان يحتفظ بعدد كبير من السرارى.ولقد كان فى بلاطه كثير من الفلاسفة العرب من الشام وبغداد ، وكثير من راقصات الشرق ، وتوثقت صلاته وصداقته بالسلاطين الأيوبيين فى مصر وتبادل معهم الهدايا.

ظلت اللغة العربية شائعة فى جزيرة صقلية إلى أواخر القرن التاسع للهجرة، يؤيد ذلك شواهد القبور التى عثر عليها حديثاً علماء الآثار ، بل كانت شواهد قبور المسيحيين تكتب بالعربية أيضاً . بل تكلم كثير من المسيحيين باللغة العربية بعد نهاية الحكم العربى بمدة طويلة ، وأرخوا بالتاريخ الهجرى.

كانت صقلية نقطة الإلتقاء بين بلدين ذاتى ثقافتين ، وهى بحكم مركزها هذا كانت مهيأة بصفة خاصة لتكون وسيلة لنقل علم العصور القديمة والعصور الوسطى . وكان من بين سكانها بعض العناصر الإغريقية ، وبعض العناصر

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٧٨٧ .

العربية الإسلامية ، وفريق من العلماء الذين يعرفون اللاتينية . وكانت هذه اللغات الثلاث شائعة الإستعمال فى السجلات الرسمية والأوامر الملكية كما كانت شائعة أيضاً بين سكان مدينة بالرمو المتعددى اللغات .

سفارات وجاليات عربية فى اوروبا :

لم تقتصر الصلات بين العرب والقارة الأوروبية على الفتوحات أو الغزو الحربى . بل كانت العلاقات أكثر عمقاً ، فقد قامت صداقات وطيدة بين الدول العربية فى المشرق والمغرب والأندلس وبين دول أوروبا المختلفة ، وشهدت القارة الأوروبية قدوم سفارات عربية تحمل نفائساً عربية لتطلع الأوروبيين على نتائج الحضارات العربية الزاهرة ، وأقامت جاليات عربيةفى مدن أوروبا ، وأصبحت مناراً للمدنية العربية ، وعقدت معاهدات تجارية بين العرب والدول الأوروبية ، وبعثت دول أوروبا بعثات علمية إلى الأندلس العربية لتتلقى العلم والثقافة . وهكذا كانت الصلات بين العرب وأوروبا دبلوماسية وتجارية وثقافية وحضارية .

سفارات بين الدولة العباسية ودولةالفرنجة :

كانت العلاقات بين الدولة العباسية فى المشرق ، والإمارة الأموية فى الأندلس تتحكم فى نوع ومدى العلاقات بين العباسيين والفرنجة . فقد نجح عبد الرحمن الأموى المعروف بالداخل فى أن ينشىء إمارة أموية مستقلة فى الأندلس أخذت تناوىء الدولة العباسية فى المشرق . وحاول ابو جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين أن يقضى على هذه الأمارة الإموية الوليدة بالقوة تارة واللين تارة أخرى دون جدوى .

حتى إذا يئس المنصور من الخلاص من الدولة الأموية ، اتجه نحو (بين Pepin) ملك الفرنجة ، ليساعده ضد عبد الرحمن الداخل الأمير الأموى بالأندلس ، فبعث المنصور بسفراء أقاموا فى بلاطه عدة سنين ، ثم عادوا إلى

المنصور يصحبهم سفراء من الفرنجة ، ثم عاد هؤلاء إلى (بين) محملين بهدايا الشرق النفيسة ، دون أن تؤدى هذه المفاوضات إلى شىء سوى ما ولدته فى نفس عبد الرحمن الداخل من خوف هجوم الفرنجة على بلاده ، وبذلك لم يحاول إظهار عدائه الحربى للخليفة العباسى ، لذلك نرى أن المنصور وإن كان لم ينجح فى القضاء على عبد الرحمن الداخل فى الناحية الحربية ، فإنه قد نجح إلى حد بعيد فى الناحية السياسية ، ووضع أساس هذه السياسة التى سار عليها الخلفاء العباسيون فيما بعد .

واستمر العداء بين الخليفة العباسى المهدى بن المنصور وعبد الرحمن الداخل . ولكن المهدى كان يحجم على إيفاد الجيوش إلى الأندلس لبعد المسافة . وقد أفاد (شارل مارتل) ملك الفرنجة من الخلاف الذى ساد بين العباسيين فى الشرق والأمويين فى بلاد الأندلس ، فتقرب إلى الخليفة المهدى العباسى ليكسبه شيئاً من النفوذ فى بلاده ، ويهدد بذلك منافسه إمبراطور الدولة البيزنطية ، وقد جنى شرلمان ثمار هذه السياسة ، فاكتسب محبة الخليفة العباسى هارون الرشيد وكانت العلاقة بينه وبين إمبراطور الفرنجة تقوم على الود والصفاء ، بخلاف ما كانت عليه مع إمبراطور الدولة البيزنطية فخطب شرلمان ود الرشيد ، وأرسل إليه وفداً مؤلفاً من رجلين من النصارى ، ورجلا من اليهود ، لتسهيل سبل الحج إلى بيت المقدس ، ونشر التجارة بين البلدين والحصول على علوم المشرق . كما رغب الرشيد فى محالفة شرلمان على إمبراطور القسطنطينية وأمير الأندلس الأموى .

على أن هؤلاء السفراء وتلك الكتب ، لم تؤد إلى غرض مادى يذكر ، اللهم إلا ما كان من إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرلمان وتبادل الهدايا بينه وبين الرشيد . ولا غرو فقد أصبح شرلمان حامى المسيحيين الذين يفدون

إلى هذه البلاد لأداء فريضة الحج ، ومع أنه لم ينظر إلى هذا الأمر بعين الاعتبار فى ذلك الحين . فقد أدى ذلك إلى نتائج خطيرة فى المستقبل ، لأنه أكسب ملك الفرنجة حق حماية الأماكن المقدسة فى فلسطين .

وكان من بين الهدايا التى أرسلها الرشيد إلى شرلمان وأثارت إعجاب الناس فى بلاد الفرنجة ، ذلك الفيل الذى كان يسمى أبا العباس ، وتلك الساعة المائية الدقاقة التى ظنوا أنها آلة سحرية ، وغيرهما من هدايا المشرق النادرة ، مثل الأقمشة الفاخرة من الوشى المنسوج بالذهب ، والبسط ، والمسك ، وأعواد الند من الهند[1] .

شرح الرشيد لسفيره إلى شرلمان مهمته والدافع إلى انفاذه فقال : « أنا أتانا من ملك الفرنجة رسول يقرئنا منه السلام ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحج بيت المقدس من ملته . فرأينا أن نوجهك إليه بلطائف تروم إليه أن يتقبلها فى سبيل المودة لغاية نرغب فيها إليه من التعصب على بنى أمية الذين يعزقون الأندلس . فإذا وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من إنفاذك إليه فى هذه الرسالة . واجهد فى أن تسترق قلبه بخلابة لسانك وتقدم إليه بالوعد الجميل فى أننا نوفيه حقه يوم الفتح ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا ، ونجرى الأرزاق الواسعة على جنده »[2] .

استقبل شرلمان سفراء العرب بالحفاوة والتكريم ، ثم انفرد سفراء الرشيد بشرلمان ، وأخبروه برغبة الخلافة العباسية فى التحالف معه ضد الإمارة الأموية فى الأندلس . ولكن المفاوضات لم تسفر عن شىء جديد ، حيث أظهر شرلمان عدم قدرته على خوض حرب لا يعرف نتائجها ضد الأمويين بالأندلس . ذلك

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ١٨٤ .
(٢) جميل نخلة المدور : حضارة الاسلام ص ١١٥ .

أن حكام الفرنجة أدركوا استحالة الإحاطة بالإمارة الأموية لأنها صارت ثابتة الأركان . واستهدف الفرنجة بحملاتهم على عهد شرلمان وأبنائه حماية مناطق الثغور فحسب التابعة لبلادهم والسيطرة على المعاقل التى تكفل ضد الهجوم العربى الإسلامى (١) .

سفارات بين الأندلس والدولة البيزنطية :

رأينا كيف تصادقت الدولة العباسية مع دولة الفرنجة من أجل عدائهما المشترك مع الدولة الأموية بالأندلس . ورأى الأمويون أن يردوا على تحالف العباسيين والفرنجة بأن يصادقوا البيزنطيين أعداء العباسيين ، وكانت الدولة البيزنطية فى عداء دائم وحروب مستمرة مع الدولة العباسية .

بدأت الصداقة بين الدولة البيزنطية والدولة الأموية بالأندلس فى عهد الإمبراطور البيزنطى (ثيوفيل) الذى اشتد العداء بينه وبين الخليفة العباسى المعتصم بن هارون الرشيد . فقد قام الإمبراطور بتخريب حصن زبطرة الإسلامى ، ورد المعتصم على تلك الحملة بهجومه المشهور على عمورية (٢٢٣ هـ — ٨٣٨ م) وتخريب المدن البيزنطية .

ورأى الإمبراطور البيزنطى أن يحالف الأمويين بالأندلس أعداء العباسيين لينتقم منهم من جهة وليخفف الضغط على الأراضى البيزنطية من جهة أخرى . وخاصة أنه فى ذلك الحين زاد النشاط البحرى العربى الذى انبعث من جزيرة كريت ضد سواحل آسيا الصغرى ، وأصبح العرب المسلمون على مقربة من القسطنطينية العاصمة البيزنطية .

ولذا بعث الإمبراطور (ثيوفيل) سفيره (كرتيوس Kratiյus) ومعه هدايا نفيسة ورسالة ، يطلب صداقة عبد الرحمن الأوسط ، ويناشده عقد معاهدة

---

(١) العدوى : المسلمون والجرمان ص ٢٦٨ .

صداقة ، ويحرض على انتزاع الشام من العباسيين التى كانت مقراً للخلافة الأموية فى المشرق ، ويرجوه أيضاً انتزاع جزيرة كريت من الأندلسيين وردها للبيزنطيين .

رد عبد الرحمن الأوسط على ثيوفيل بخطاب عبر فيه عن حنقه عن العباسيين، ولكن دون أن يرتبط معه فى أية محالفة عسكرية ضدهم ، وكذلك أعلن عبد الرحمن عدم استطاعته طرد الأندلسيين من جزيرة كريت لأنهم صاروا غير تابعين له ، ولا ولاية له عليهم .

ومهما يكن من أمر ، فإن تلك السفارات مهدت السبيل لاستقرار الأمور فى غرب أوربا بين المسلمين والفرنجة حيث اقتنع كل منهما بأن لا جدوى من متابعة النضال ، وأن الأجدى بهم التفاهم على ما فيه رعاية مصالحهم وضمان استقرارهم وتقدمهم الحضارى(١) .

وتوثقت الصداقة بين الأمويين بالأندلس والبيزنطيين فى عهد الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) فقـــد سعى الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنيتس (٩١١ — ٩٥٩ م) إلى صداقة الناصر ، بعث فى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ – ٩٤٨ م) إلى البلاط الأموى بالأندلس سفارة تحمل كتاباً من الإمبراطور داخل صندوق من الفضة مغطى بالذهب ، وقد اهتم عبد الرحمن الناصر باستقبال هذا الوفد استقبالا عظيما ، وكان يرمى من وراء ذلك إلى أن « يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطاته وتصف ما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته »(٢) .

---

(١) المسلمون والجرمان ص ٢٧٠ .
(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٧٣ .

العلاقات بين الأندلس والدول الأوربية :

أراد أوتو الأكبر (٩٣٦ — ٩٧٣ م) إمبراطور ألمانيا الذى أصبح سنة سنة ٦٩٢ م إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة أن يفوز بصداقة عبد الرحمن الناصر الأموى بالأندلس ، حتى لا يساعد عرب مملكة الفراكسينت الذين كانوا يقلقون مملكة بروفانس ، فبعث أوتو الأكبر سفارة إلى عبد الرحمن الناصر ليعمل على وقف غارات هؤلاء العرب ، ويذكر بعض المؤرخين أن عبد الرحمن كان قد أرسل إلى أوتو سفراء لإنشاء علاقات سياسية بين الدولتين ، وأنه أرسل إليه كثيراً من الهدايا ، وكانت هذه السفارة برياسة أحد الأساقفة المستعربين فى الأندلس ، وكان هذا الكتاب باللغة العربية . وبعث أوتو أيضاً رسلا إلى قرطبة ليرجوا وقف إغارات الفراكسينت العرب ، وقد اصطف الجند العرب على جانبى الطريق التى مر فيها أعضاء هذه السفارة ، وفرشت ممرات قصر قرطبة بالبسط والديباج ، وجلس الخليفة فى البهو الكبير ، فتقدم سفير الإمبراطور وقبل يد الخليفة وجلس إلى جانبه . وأخذ الناصر يثنى على الإمبراطور أوتو وعلى سعة عقله وكفايته ، لكنه تعرض لإحدى نقائص الحكم فى دولته لاعترافه بنفوذ حكامه الإقطاعيين ومشاركتهم إياه فى حكم البلاد مما يثير فى نفوسهم الغرور والميل لشق عصا طاعته .

كان بلاط عبدالرحمن الناصر محطا لسفراء الدول ، كسفراء أوتو ، وسفراء حكام فرنسا ، كما دخل عبد الرحمن الناصر فى حلف مع ملك إيطاليا الذى آلمه تخريب الفاطميين لمدينة جنوه ، كما حالف البيزنطيين الذين تطلعوا إلى انتزاع جزيرة صقلية من الخليفة القائم الفاطمى[1] .

احتفظت ألمانيا أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الميلاديين بنوع من

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٢٤٣ .

النظام واستتباب الحكم ، فلم تعان من الفوضى الإقطاعية ما عانته فرنسا ، ذلك أن الألمان حافظوا على صلات تجارية هامة مع الشرق عبر إيطاليا ، ومع الأندلس ، إلى جانب تجارة أقاليم البحر البلطى ، على حين كان نصيب فرنسا من ذلك أقل

وكانت الدولة العربية فى الأندلس أكثر رخاء ونموا اقتصادياً من ألمانيا وسائر دول غرب أوروبا ، فقد ظل غرب أوروبا منحصراً فى مجالاته الزراعية وعملاته الفضية الكارولنجية ومرتبطاً اقتصادياً بمن هم أكثر منه تقدما من المسلمين والبيزنطيين فى حوض البحر المتوسط إلى أن حصل العرب على مسالك أسهل وأقرب منالا مثل وادى الرون ، وقد ظلت هذه المناطق إلى ما بعد ذلك بقرن فى حالة ركود اقتصادى بسبب افتقارها إلى قوة بحرية وبسبب ضعفها فى إنتاج ما تحتاج إليه البلاد الإسلامية والبيزنطية المحيطة بها .

يعد هذا العصر من عصور الحيوية العارمة فى تاريخ البحر المتوسط إذ تبدل النظام الاقتصادى القديم وتحولت الأقاليم الإسلامية فى الغرب إلى بلاد صناعية مع سيطرتها بالاشتراك مع المدن الإيطالية على نقل التجارة فى البحر المتوسط[١] .

العلاقات بين الدولة الفاطمية ومدن ايطاليا :

كانت مدينة أمالفى أول المدن الإيطالية التى انشأت علاقات بمصر والشام فى العصر الفاطمى ومن دلائل ذلك أن أحد أثرياء هذه المدينة ويدعى Maurus استعان بمهرة الصناع والفنانين من الاسكندرية لتزيين بعض قصوره بالفسيفساء . ومما يذكر عنه أنه لما شرع فى بناء دير ببيت المقدس — وكانت إذ ذاك خاضعة للسيادة الفاطمية — إقتضت الضرورة إجراء محادثات مع الحكومة الفاطمية بمصر فى عهد الخليفة الظاهر سنة ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) على

---

(١) القوى البحرية والتجارية ص ٢٧٦

منحه قطعة من الأرض بالحى المسيحى بالمدينة شيد عليها دير (Marie de Latina) لإيواء الحجاج والتجار من أهل أمالفى .

وبدأت مدينة بيزا تناشد الدولة الفاطمية صداقتها فبعثت فى سنة ١١٥٤ سفيراً إلى بلاط الخليفة الظاهر الفاطمى لتسوية بعض المشاكل الناجمة عن اعتداء بعض التجار من رعاياها فى إحدى السفن على فريق من التجار المصريين بالقتل والسلب . وثارت الحكومة الفاطمية لرعاياها المصريين ، بمعاقبة تجار مدينة بيزا المقيمين فى مصر .

ونجح سفراء بيزا فى الإتفاق مع الحكومة الفاطمية على تسوية ترضى الطرفين ، فتعهدت حكومة بيزا بالاقتصاص من المعتدين والإمتناع عن تقديم أى مساعدات للصليبيين فى الشام ولغيرهم من أعداء مصر ، كما تضمنت تعهداً من الحكومة الفاطمية بإطلاق سراح رعايا مدينة بيزا الذين أودعوا السجن بسبب إعتدائهم على بعض المصريين ، وحماية الحجاج والتجار القادمين من بيزا فى سفن غير حربية .

وتجلت صداقة مدينة بيزا للحكومة الفاطمية واضحة ، عند إسناد الوزارة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى إلى طلائع بن رزيك ، فقد بادرت حكومة بيزا بإرسال وفد لتقديم تهنئتها إلى الوزير الجديد ، فرحب بقدومهم وأكرمهم ، وأكد المعاهدات القديمة والصداقة التقليدية .

كما حرصت مدينة جنوه على توثيق صلاتها بالدولة الفاطمية ، وخاصة فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى فبعثت سفراء لعقد معاهدة تجارية مع الحكومة الفاطمية سنة ١٠٦٣ م . وتعهد الخلفاء الفاطميون بحماية رعايا جنوه فى مصر ، وكان كثير منهم يقدم إلى مصر للتجارة ، وخاصة إلى مدينة الاسكندرية .

وكانت البندقية من المدن الأيطالية التى قامت بينها وبين الدولة الفاطمية علاقات مودة وتعاون . فقد تعهدت البندقية فى القرن العاشر الميلادى بمد الدولة الفاطمية بحاجتها من الأخشاب اللازمة للأسطول الفاطمى فى مصر والشام . وأدرك الإمبراطور البيزنطى حنا زيمسكيس خطورة ذلك ، فبعث يهدد البندقية ويحذرها من مد الدولة الفاطمية بأخشاب السفن ، واضطرت البندقية إلى الخضوع إلى تهديدات الدولة البيزنطية فامتنعت عن إرسال الأخشاب اللازمة للاسطول وإن كانت ترسل الأخشاب اللازمة للاغراض السلمية ، وأبدت الدولة الفاطمية أسفها لذلك ، فقد كانت الأخشاب فى مصر نادرة لندرة الغابات ، حتى أن الحكومة الفاطمية أمرت بقطع الأشجار التى تصلح أخشابها لبناء الأسطول فى جميع مدن القطر المصرى . ولكن البندقية أدركت أخيراً أنه من مصلحتها إلا ترضخ للدولة البيزنطية وأن تحرص على مصالحها التجارية المتعددة فى مصر والشام ، فأرسلت بعثات إلى مصر للحصول على امتيازات خاصة لسفن البندقية ، واستمر تجار البندقية يتعاملون مع تجار مصر والشام ، ونقلت سفنهم منتجات أفريقية وآسيا إلى أسواق أوروبا (١) .

أما مدن كمبانيا مثل نابلى وجاينا وسالرنو ، فقد قصرت تجارتها على صقلية وبلاد العالم الإسلامى الغربى ، ولم تمتد إلى بيزنطة وسورية ومصر مثلما امتدت تجارة البندقية وأمالفى . وقد لاحظ (ابن حوقل) أواخر القرن العاشر أن منسوجات نابلى كانت تباع فى بالرمو . وقد سكت نقود عربية فى سالرنو فى القرن الحادى عشر . وصارت صقلية وأسبانيا وشمال أفريقية — بفضل تقدمها الصناعى واستيرادها لتوابل الشرق على نطاق واسع — مركزاً لتصدير المواد الكمالية ، لايقل شأناً عن القسطنطينية والقاهرة والاسكندرية .

---

(١) جمال سرور : الدولة الفاطمية ١٧٥ — ١٧٦ .

ونجحت مدن كمبانيا فى الحصول على جميع السلع التى تستطيع تصريفها بأرباح طائلة . ولتوضيح العلاقات الوثيقة بين هذه المدن والموانىء العربية والإسلامية ، فذكر أن هذه المدن لم تتعرض لغارات المسلمين فى المدة بين ٩٦٥ و١٠٢٥ أى فى المدة التى افتقد فيها الغرب سلطان بيزنطة البحرى على مياهه على حين تركزت غارات المسلمين على الأقاليم التابعة لبيزنطة فى قلورية وأبوليا وسواحل تسكانيا وليجوريا (١) .

سفارات بين النورمانديين بصقلية والدولة الأيوبية :

توثقت الصلات بين الدولة النورماندية فى صقلية والدولة الأيوبية فى مصر والشام . وقد رأينا كيف استعان النورمانديون بالعناصر العربية فى جزيرة صقلية ، واحتفظوا بالمظاهر العربية ، وبدت الصداقة النورماندية والأيوبية واضحة فى عهد الامبراطور فردريك الثانى أف هو هنستوفن (١٢١٥ — ١٢٥٠) الذى كان يحكم كلا من صقلية وألمانيا كما كان يحمل لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وقد أصبح سنة ١٢٢٠ ملك بيت المقدس عن طريق زواجه من وارثة العرش (ايزابلا أف برين) ولذا كان الإمبراطور فردريك يتمتع بأكبر نفوذ فى العالم المسيحى . وكان فردريك متأثراً بالآراء الإسلامية وبالعادات والتقاليد العربية ، وامتلأ بلاطه بالعلماء العرب .

تصادق فردريك مع السلطان الأيوبى الكامل محمد (١٢١٨ — ١٢٣٨) ابن أخى صلاح الدين ، وتبادلا السفارات والهدايا ، وكان من ضمن هدايا الكامل لفردريك زرافة ، فكانت أول زرافة رؤيت فى أوربا فى العصور الوسطى ، فضمها فردريك إلى مجموعة حيواناته الق كان بها بعض الإبل والتى كانت ترافقه فى جولاته فى أوروبا ، واستحضر فردريك من مصر أيضاً بعض

---

(١) القوى البحرية والتجارية ص ٣٤٢ .

الخبراء الذين طلب إليهم أن يجروا تجارب على تفقيس بيض النعـام فى حرارة الشمس .

وتلقى فردريك من سلطان أيوبى آخر ، وهو الأشرف صاحب دمشق ، فى سنة ١٢٣٢ جهازاً عجيباً للكواكب فيه صور تمثل الشمس والقمر تحدد الساعات فى مداراتها . وقد أهدى الإمبراطور فى مقابل ذلك للسلطان دباً أبيض وطاووساً أبيض أعجبا أهل دمشق ، كما أعجب أهل صقلية بالزرافة المرسلة من مصر .

وقد لجأ فردريك إلى السلطان الكامل ، من بين من لجأ إليهم من حكام المسلمين الآخرين ، فبعث بمسائل رياضية وفلسفية ، إما لطلب معرفتها أو لإظهار عجزهم ، وقد نجح فى حلها أحد العلماء المصريين ، أما المسائل الهندسية والفلكية التى كان من بينها مربع قطاع الدائرة فقد حلت فى الموصل . وقد أرسلت نفس هذه الأسئلة إلى ابن سبعين .

وأحضر فردريك من سوريا بعض مدربى الصقور المهرة ، وكان يراقبهم وهم يدربون الطيور ، وختم على عيون الصقور ليتحقق إن كانت تستطيع أن تتعرف على موضع الطعام بحاسة الشم . وكان لفردريك ترجمان ومنجم يسمى ثاذرى (تيودور) وهو مسيحى يعقوبى من أهل أنطاكية بالشام . وقد كلفه فردريك أن يترجم كتاباً عربياً عن فن تدريب الصقور ، فكانت هذه الترجمة الأساس الذى اعتمد عليه فردريك فى تأليف كتابه عن الصقور وهو أول مرجع حديث فى التاريخ الطبيعى . وقد استخلص تيودور أيضاً للامبراطور كتاباً فى علم الصحة أخذه عن كتاب « سر الأسرار » المنسوب لأرسطو .

وكان يعمل كمنجم للبلاط قبل تيودور رجل آخر يدعى (ميشيل اسكوت) ظل يمثل علوم الأندلس العربية فى صقلية والأندلس فيما بين سنتى ١٢٢٠ —

١٢٣٦ . وقد وضع اسكوت للامبراطور نقلا عن العربية خلاصة لاتينية لمؤلفات أرسطو فى علم الحياة وعلم الحيوان ، وعنى بصفة خاصة بتلخيص كتاب الحيوان مع شرح ابن سينا عليه ، وقد أهدى هذا الكتاب إلى فردريك وأطلق عليه اسم (ملخص ابن سينا) .

وأن روح التحقيق هذه التى تكاد تكون حديثة ، وذلك التجريب والبحث الذى كان أوضح مميزات بلاط فردريك يعتبر بدء عصر النهضة فى إيطاليا . وقد بدأ الشعر الإيطالى وكذلك الأدب والموسيقى ، فى الإزدهار نتيجة لذلك التأثير البروفنسالى والعربى[1] .

وقد أثبت (أمارى) المستشرق الصقلى أن صقلية مدينة للعرب ، وكذلك إيطاليا مدينة لصقلية بابتكار الشعر الوطنى ، بمعنى أنه منذ قلد البلاط الصقلى البلاط العربى الإسلامى ، بدأت العناية بقرض الشعر ، تلك العناية التى كانت السبب فى نهوض الشعر الإيطالى . وقال (رينالدى) : لم يساعد العرب فقط على إنهاض الشعر الصقلى والإيطالى ، بل أنهم أمدوا قصصنا بشكلها ومادتها[2] .

سفارة بين دولة المماليك ودول أوروبا :

ارتبطت الدولة المملوكية فى مصر والشام بدول أوروبا عامة ودول حوض البحر المتوسط خاصة بصلات عديدة ، تجارية أو سياسية ، تتأرجح بين الصداقة أو العداء تبعا لمجريات الأحداث السياسية ، فقد كانت الدولة المملوكية تسيطر على أجزاء كبيرة من سواحل البحر المتوسط وتقع عند ملتقى أهم الطرق التجارية حينئذ .

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٧٩١ .
(٢) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٢٨٨ .

شهدنا صداقة الدولة الأيوبية بأباطرة جزيرة صقلية . وقد استمرت هـذه الصداقة فى عهد الدولة المملوكية أيضاً . فتوثقت الصلات بين (مانفرد) ملك صقلية والسلطان المملوكى الظاهر بيبرس ، وبعث بيبرس بسفارة يرأسها المؤرخ المعروف جمال الدين بن واصل إلى ملك صقلية ، يحمل الهدايا النفيسة ، وروى المؤرخ المقريزى أن شارل الأنجوى ملك صقلية بعث إلى السلطان الظاهر بيبرس هدية وكتاباً على لسان أحد كبار موظفيه يقول فيه أن مخدومه أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافذاً فى بلاده ، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه .

وارتبطت دولة المماليك بعلاقات صداقة ومودة مع مدن إيطاليا وخاصة البندقية وجنوه ، فكان لهذه المدن قناصل فى المدن والموانى الكبرى فى مصر . ولم تشأ هذه المدن أن تضحى بمصالحها التجارية العديدة فى مصر والشام من أجل الأغراض الصليبية السائدة فى ذلك العصر . ولكن ساءت العلاقات بعد ذلك بين جنوه ودولة المماليك نتيجة تفوق البندقية البحرى والتجارى ، مما جعل تجار جنوه يبحثون عن طريق تجارى آخر لا يمر بدولة المماليك ، فاكتشفوا الساحل الغربى لأفريقية عند جزر كناريا ، وكان هذا مقدمة لكشف طريق رأس الرجاء الصالح .

حرصت دول أسبانيا المسيحية مثل أرغونة وقشتالة واشبيلية على الفوز بصداقة دول المماليك حتى لا تساعد المسلمين فى الأندلس . فتبادلت السفارات والهدايا وعقدت المعاهدات التجارية معها وأشهر هذه السفارات ما كان بين جيمس الثانى ملك أرغونه (١٢٩١ — ١٣٢٧) والسلطان الناصر محمد ، وبين الفونس العاشر أمير قشتالة والسلطان المنصور قلاوون[١] .

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٦٧ — ٢٧١ .

العلاقات التجارية بين العرب وشمال أوروبا :

توثقت الصلاة التجارية بين العرب وأوروبا سنوات عديدة ، وكانت هذه الصلات تتم عبر ثلاث طرق : (١) طريق جبال البرانس (٢) طريق البحر المتوسط (٣) طريق الفلجا المؤدية إلى شمال أوروبا باجتياز بلاد الروسيا . أما الطريقان الأولان فكان يسلكهما عرب الأندلس ، أما الطريق الثالث فكان يسلكها عرب المشرق .

وأقام العرب بجنوب فرنسا عدة قرون ، وكان لابد لهم من إيجاد صلات فيما وراء جبال البرانس ، غير أنهم كانوا يفضلون أن تقصد بعثاتهم التجارية سواحل البحر المتوسط على الخصوص ، وأن يتصلوا فيها بأمم تجارية مهذبة أكثر من التى كانت تقطن بفرنسا أيام سلطانهم فى أسبانيا .

وكان العرب سادة البحر المتوسط ، وكانوا يرسلون إلى جميع الموانى الأوروبية والأفريقية المحيطة بهم منتجاتهم الصناعية والزراعية كالقطن والزعفران والورق والحرير الغرناطى والجلد القرطبى والنصال الطليطلية ، وكانت المرافىء الأسبانية قادس ومالقة وقرطاجنة وغيرها ، مراكز لنشاط تجارى كبير .

لا تذكر كتب التاريخ القديم شيئاً عن صلات العرب التجارية بشمال أوروبا ، ولكن الوثائق تدل على وجود تلك الصلات وتدل على الطرق التى كانوا يسلكونها . وأبرز هذه الوثائق النقود التى تركها العرب فى الطرق التى كانوا يمرون منها ، فتكشف أعمال الحفر الحديثة عنها فى كل يوم .

ومن هذه النقود يتضح أن بداية طريق التجارة كان عند سواحل بحر قزوين ، حيث كان يجتمع تجار المراكز التجارية الكبرى ، كدمشق وبغداد وسمرقند وطهران ، ويسيرون من استراخان مع نهر الفلجا إلى مدينة بلغار (مدينة سنبرسك الحالية) الواقعة لدى قدماء البلغار فى روسيا ، والتى كانت تعد

مستودعا تجارياً بين آسيا وشمال أوروبا . ومن بلغار يقوم تجار آخرون بنقل السلع صاعدين مع نهر الفاجا إلى البحر البلطى حتى خليج فنلندة ، وقد عثر على نقود عربية وفيرة فى موانى شمال أوروبا . وكان التجار يتوجهون إلى شواطىء النرويج وفنلندة والدانمرك وبروسيا ، ووجدت نقود عربية أيضاً فى بولندة قرب وارسو . وتثبت الكتابات الكوفية التى وجدت فى روسيا أنه كان للعرب مستعمرات عند الخزر والبلغار .

وكان العنبر والفراء والقصدير والإماء ، على حسب ماورد فى بعض النصوص العربية ، أهم مواد تجارة العرب فى شمال أوروبا ، وكان أهل الدانمرك يأخذون منسوجات الشرق وآنيته المنقوشه وحليه مقابل هذه السلع الأوروبية . وتدل تواريخ النقود التى وجدت فى روسيا ، من مصب نهر الفلجا إلى شواطىء البحر البلطى ، على أن بداية تلك التجارة العربية كان فى عهد الخلفاء الأولين وأن ختامها لم يجاوز أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وبذلك تكون قد استمرت نحو أربعة قرون ، وآخر تاريخ لتلك النقود التى وجدت هو سنة ١٠٤٠م وكثير من النقود ترجع إلى العصر العباسى ، وبعضها ضرب فى الأندلس ، وتوقفت هذه التجارة بعد قيام الحروب الصلبية وتحويل تجارة الشرق إلى طرق جديدة ، واحتكار أهل البندقية تجارة الشرق منذ القرن الثانى عشر الميلادى [١] .

تعريب اسبانيا :

عمل العرب بعد انتهاء فتوحاتهم فى شبه جزيرة أيبريا على صبغ هذه البلاد بالصبغة العربية . وقد تعددت عناصر السكان فى أسبانيا الإسلامية تبعاً لأصولها البشرية وأديانها وثقافاتها . وكان من الطبيعى أن تمتزج هذه العناصر بعضها مع

---

(١) لوبون : حضارة العرب ص ٥٦٢ .

بعض بالتزاوج أو علاقات الجوار ، وأن يأخذ كل منها عن الآخر ويعطيه ، مما كان له أثره فى طبيعة الحضارة الأندلسية بحيث كانت أشبه ببوتقة انصهرت فيها عقليات شتى وثمرات ثقافات متباينة .

وضمت الأندلس : العرب ، والأسبان الذين اسلموا وتعربوا ، والذين لم يسلموا ، كما ضمت البربر والصقالبة واليهود . وكان لكل من هذه العناصر أثره فى تلك الحضارة التى لم تنطفىء جذوتها بانقراض الدولة العربية الإسلامية بالأندلس ، بل ظلت متقدة فى نفوس صانعيها والمتأثرين بها قروناً عدة [1] .

بلغ عدد جنود الجيوش العربية حوالى ٢٢٤٠٠ جندى عربى ، إلى جانب عدة آلاف من العرب دخلوا أسبانيا فرادى أو جماعات يمكن تقديرها بأكثر من ثلاثين ألفاً . ونلاحظ أن معظم العرب الذين دخلوا أسبانيا دخلوها رجالا بدون نساء ، ثم اتخذوا زوجات لهم من نساء أسبانيا ، وقد توسعوا فى ذلك ، فكثرت نساؤهم وكثر عيالهم أيضاً ، حتى أصبح الثلاثون ألفاً من العرب بعد عشرين سنة من دخول العرب أسبانيا ٣٠٠ ألف ، غير من انضم أو انتسب إليهم من مواليهم ممن أتى معهم من المشرق والمغرب أو أنضم اليهم من أهل البلاد .

دخل العرب المسلمون شبه جزيرة إيبريا ، ولكنهم لم يدخلوها كما دخلها القوط سادة حكاما يباعدون بين أنفسهم وبين عامة الناس حفاظاً على سلامة عنصرهم أو صيانة لهيبة سلطانهم سلطانهم ، بل دخلوها أثناء حركة الإمتداد الدينى الفكرى البشرى التى بعثها الإسلام فى عالم القرن السابع الميلادى .

ولم يكن امتداد الإسلام والعروبة حركة فتوح أو غزوات ، ولم يكن لإنشاء إمبراطورية عربية يسودها العرب المسلمون ، وإنما كان فى الواقع حركة

---

(١) لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١٧ .

نهضة تمتد من شعب لشعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضاً ، فقد انتشر الإسلام وامتدت العروبة من الجزيرة العربية إلى الشام والعراق ثم إلى مصر وشمال أفريقية ، وجاء دور شبه جزيرة أيبريا .

وكان العربى الذى حمل أعباء الفتوحات الأولى ، وهاجر إلى البلاد المفتوحة شخصاً ممتازاً خبيرا بالتقليد واقتباس ما يناسبه ويفيده . وكان ألوفا بسيطا لا يستقر إلى جانب قوم حتى يأخذ منهم ويعطى ، ويصاهرهم ، وتمتزج دماؤهم بدمائه ، ويشركهم فى أصله وحسبه .

ورغم الأصل البدوى ، فقد كان يحب اللين والترف ويتذوق الجمال ، ولذا لم يخرب العرب الفاتحون مدائن الأندلس أو ما وجد فيها من منشآت ، وظلت المدن الأسبانية عامرة تنبض بالحياة والحضارة (١) .

أقبل العرب الفاتحون على الزواج من الإسبانيات ، سواء الأمراء منهم أو صغار الجند . فقد تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير أرملة لذريق آخر الملوك القوط وقد تكنت بأم عاصم . وارتبط العرب بالعناصر الموجودة حينئذ فى أسبانيا بالمصاهرة ، وعاشوا جميعا جنبا إلى جنب فى سلام وتعاون . ولم يحاول العرب المسلمون إرغام أحد على اعتناق الإسلام أو التعرب ، ولكن طبيعة الظروف والأحداث أدت إلى تعريب تلك البلاد ، كما أقبل كثير من الأهالى على اعتناق الإسلام بعد أن لمسوا فضائله وتعاليمه السامية .

قسم (بروفنسال) فى كتابه (تاريخ أسبانيا الإسلامية) سكان الأندلس إلى هذه الفئات : (١) أبناء الأسبان الذين دخلوا فى طاعة المسلمين صلحاً ودخلوا فى الإسلام وأقاموا فى مواضعهم التى كانوا فيها (٢) أبناء الأسبان الذين دخلوا فى طاعة المسلمين عنوة ، فأصبحوا بحكم الفتح أسرى ثم أسلموا أو

---

(١) مؤنس : فجر الأندلس ص ٤١٩ .

أقاموا فى مواضعهم (٣) أبناء المستعربين الذين أسلموا بعد الفتح ، وأبناء النصارى الذين أتت بهم الفتوح والغزوات ثم اعتنقوا الإسلام واستقروا نهائياً فى الأندلس .

وكان المجتمع فى الأندلس يتألف من : العرب ، ومعظمهم من الجند الفاتحين الذين قدموا إلى الأندلس ، ومن جماعة (المسالمة) وهم الأسبان الذين أعتنقوا الإسلام ، أما الأسبان الذين بقوا على دينهم وأصبحوا أهل ذمة فكانوا يعرفون بإسم (العجم) وقد تمتعوا بالحرية الدينية وتسامح العرب معهم . ومن بين عناصر السكان كان (المولدون) وهم الذين ولدوا من آباء مسلمين ونشأوا على الإسلام وكانوا يمثلون الغالبية العظمى من سكان الأندلس ، وهناك أيضاً (المستعربون) وهم الأسبان النصارى الذين عاشروا العرب وتعربوا وتمتعوا بالحرية الدينية .

ويمثل الاستعراب تأثير الثقافة العربية فى غير المسلمين من الأسبان . وقد أصبح المستعربون مولعين بالتراث العربى من أدب وشعر حتى جأر المطران (الفارو) بشكواه من انتشار الثقافة العربية بين الشباب المسيحى ، بحيث أصبح لا يروقهم سوى الشعر والقصص العربى ، ولم يعودوا يقرأون سوى الكتب العربية ونسوا لغاتهم القديمة .

وقد كان دور المستعربين ، وهم عنصر فعال فى حياة الأندلس من العوامل الهامة فى نقل الحضارة العربية إلى أسبانيا المسيحية ، فالعصور الأسبانية لم تكن تعرف الإنفصال الجغرافى ولا العنصرى بين المسلمين والمسيحيين ، والمستعربون بحكم معرفتهم للغتين العربية واللاتينية الحديثة كانوا أداة اتصال بين شطرى أسبانيا . وهم منذ الفتح العربى لم ينقطعوا عن الهجرة إلى الأراضى المسيحية . وكان من شأن هذه الهجرات انتشار الثقافة الإسلامية والعربية بين أهل الشمال

من المسيحيين ،و عن طريق المستعربين انتقلت اليهم عادات وتقاليد إسلامية ، وكثر الأخذ عن التراث العربي [١] .

تغلب العرب الفاتحون على الاسبانيين ، ولم يتغلبوا بالسيف وحده ، بل كذلك تغلبوا أيضاً بروحهم ولغتهم ودينهم ، حتى دخل كثير من الأسبانيين فى الإسلام ، وتقمصوا النفسية العربية ، ونسوا لغتهم اللاتينية ، وأديانهم القديمة وتعددت شكوى رجال الدين من أن الأسبان ينسون دينهم ولغتهم ،ويقبلون على الإسلام واللغة العربية . ولعل من أسباب ذلك أن اللغة العربية كانت فضلا عن أنها لغة الفاتحين تزخر بالعلوم والمعارف التى افتقرت اليها لغتهم [٢] .

قارن (كرد على) بين أسبانيا فى العهد القوطى والعصر العربى فقال : شعر الأسبان بالفرق بين حكم العرب وحكم القوط ، ورأوا من تسامح العرب وتفانيهم فى نشر العدل بين الناس ما يثلج له الفؤاد ، وأبقت العرب السكان الأصليين على قضائهم وإدارتهم ، وقلدوهم الوظائف فأحب الأسبان العرب محبة خالصة ورأوا البون الشاسع بين الحضارة التى يحملها المسلمون ، وما كان للقوط من الثقافة المتأخرة ، وكانت أقرب إلى الهمجية . ولم يمض قرن حتى أخصبت القرى وكثرت المزارع ، واتصل العمران ، وتزاحم الناس على سكنى المدن ، وأمست قرطبة عاصمة الخلافة الأندلسية كعواصم أوروبا اليوم ، وأصبحت عاصمة علم وصناعة وفن وتجارة [٣] .

العروبة فى صقلية وايطاليا وفرنسا :

لم يكن فتح العرب لصقلية مجرد غزو عسكرى ، بل اهتم العرب بنشر الإسلام والعروبة وتنظيم أحوال الجزيرة وبث الحضارة العربية . قسم العرب

(١) لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ٣٠ — ٣١ .
(٢) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨ .
(٣) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٢٥٦ .

صقلية إلى ثلاث ولايات . ويصف (جوستاف لوبون) هذا التقسيم العربى لصقلية بأنه « أكثر ملاءمة لجغرافيتها » . واهتم العرب بالنظم الإدارية والمالية . وترك العرب لغير المسلمين الحرية الدينية التامة ، فخضعوا لقوانينهم المدنية ، وكانت الجزية عادلة تتناسب مع الدخل والثراء . وجعل العرب كل ماله علاقة بالحقوق المدنية كالتملك والإرث وما إليها ملائماً لعادات صقلية ، وهذا ما لم يتبعه النورمانديون حين استولوا على الجزيرة .

واهتم العرب أيضاً بالزراعة والصناعة ، وأدخلوا زراعة القطن وقصب السكر والدردار والزيتون ، وحفروا الترع والقنوات التى لا تزال باقية حتى الآن ، وأنشأوا فيها المجارى وكانت مجهولة قبلهم . واستخرج العرب المعادن بأساليب فنية ، وأدخلوا صناعة الحرير ، وانتشر فن صباغة المنسوجات من صقلية إلى سائر دول أوروبا . وانتعشت التجارة ووضع العرب لها نظماً ثابتة عادلة .

تحدث (دييل) عن العرب فى صقلية فقال : أصبح العرب خلفاء لليونان فى صقلية ، وفى خلال قرنين كانت لهم حكومة ذات مجد ورقى ، وأدخلوا إلى صقلية الإسلام والعروبة ، فانتشرتا فى الغرب ووسط الجزيرة ، وأصبح نصف صقلية أواخر القرن الحادى عشر من العرب وباقيها من اليونان . ثم اتبع النورمانديون سياسة المساواة بين العرب واليونان والكاثوليك ، وأحسنوا اقتباس العادات العربية، وتخلقوا بأخلاق رعاياهم ، وظلوا نورمانديين بأصولهم، وعرباً وبيزنطيين بحضارتهم ، وتميزوا بالتسامح السياسى والدينى .

وقال (آمارى) فى كتابه (المسلمون فى صقلية) : كان أهالى صقلية فى العصر العربى فى راحة وسرور ، وكانت حالتهم أحسن بكثير من حالة إخوانهم الإيطاليين الذين كانوا يرزحون تحت نير اللنجورمانيين والفرنجة .

وذكر (توفتر) فى كتابه (فلسفة التمدن) : منذ الفتح العربى إلى القرن التاسع عشر الميلادى ، لم يبرح أهالى صقلية أن ينتقلوا من يد غريبة إلى يد غريبة أخرى ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحكموا أنفسهم، ويبلغوا أعلى درجات الحضارة إلا فى العهد العربى والعهد النورمانى .

اعتمد النورمانديون بعد انتزاعهم صقلية من العرب على النظم والحضارة العربية ، فيقول (جوستاف لون) : وكانت حضارة العرب زاهرة فى صقلية حين فتحها النورمانديون، وأدرك روجر وخلفاؤه أفضلية العرب فانتحلوا نظمهم وشملوهم برعايتهم ، وتمتعت صقلية برخاء دام إلى أن قبض ملوك السُّوآب على زمامها فى سنة ١١٩٤ فأجلوا العرب عنها (١) .

ولما كان الملوك النورمانديون وأخلافهم على العرش الصقلى يحكمون إلى جانب صقلية جنوب إيطاليا أيضاً فإنهم كانوا بمثابة الجسر التى نقلت عليه مختلف عناصر الثقافة العربية الإسلامية إلى شبه الجزيرة الإيطالية ووسط أوروبا ولم يكد ينتصف القرن العاشر حتى كانت آثار الحضارة العربية واضحة للعيان شمال جبال الألب (٢) .

مكث العرب فى جنوب إيطاليا ثلثمائة سنة تقريباً ، فاستعرب أهل المناطق، وأصبحوا يتكلمون اللغة العربية ويدينون بعادات العرب ، ماخلا العقيدة فقد احتفظ بعضهم بها ودفعوا الجزية ، وكان العرب المسلمون يتركون الحرية الدينية لغير المسلمين . وكان من نتائج هذا الاختلاط أن تسمى الكثيرون بأسماء عربية ، وأصبحت الأماكن والحاجات والشوارع والقصور وأدوات الزينة والحرب ومتاع البيوت وغيرها لها أسماء ومظاهر عربية ، وانتقلت من جنوب إيطاليا إلى وسطها وشمالها .

---

(١) لوبون : حضارة العرب ص ٣٠٧ .
(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٧٩٣ .

شن العرب غارات كثيرة على فرنسا بعد فتحهم أسبانيا . وكان يملك بلاد فرنسا حين ظهر فيها العرب فى القرن الثامن من الميلاد ، أمراء يعرفون بالملوك الكسالى ، وكانت تأكلها الفوضى الإقطاعية واستولى العرب بالتدريج على نصف فرنسا المعاصرة الذى يبدأ من ضفاف نهر اللوار وينتهى إلى مقاطعة فرنش كونته . ترك العرب أثراً عميقاً فى اللغة والدم ، فقد استقر كثيراً من العرب فى الأراضى القريبة من المدن واشتغلوا بالزراعة والصناعة . وأدخلوا صناعة السجاجيد إلى أبوسون ، وعلموا الأهالى كثيراً من أساليب الزراعة . وامتزجوا بالسكان ، وأصبح للعرب أحفاد فى أماكن كثيرة من فرنسا كما أثبت علماء الأجناس البشرية (الأنثروبولوجى) .

تحدث (جاستون دومرج) أحد رؤساء الجمهورية الفرنسية السابقين عن الحكم العربى فى فرنسا فقال : أن العرب كانوا أرحم الفاتحين وأكثر الأمم الناهضة القوية شهامة وعدلا ، وهذه العوامل النبيلة قد ساعدت على انتشار سلطانهم وخضوع الأمم لحكمهم العادل الشريف .

اثر حضارة العرب فى حضارة أوروبا :

كتبت أسبانيا العربية الإسلامية صفحة من أروع صفحات التاريخ الحضارى والعقلى لأوروبا فى العصور الوسطى . ولقد كانت الشعوب المتكلمة باللغة العربية فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر هم حملة شعلة الثقافة والمدنية فى ربوع العالم أجمع ، وفوق هـذا فإنهم كانوا الوسيلة التى كشفت الفلسفة والعلوم القديمة وأضافت إليها ثم نقلتها فكانت أساس النهضة فى أوروبا الغربية . ولقد ساهمت فى كل هذا أسبانيا العربية بنصيب وافر .

وقد أثرت الأندلس فى العالم الأوروبى بعلومها وفنونها أكثر مما أثر المشرق ، لأنها قريبة من أوروبا ، ولأنه كان يقصدها كثير من الأوروبيين ،

فيتثقفون على العرب ، ويتعلمون منهم ، ويشاهدون تقاليدهم ، ويقلدونهم فى بلادهم . كان كثير من اليهود يتعلمون العربية والعلوم والآداب وينقلونها إلى أوساط أخرى ، ولأن الأندلسيين غزوا جنوب فرنسا وفتحوه إلى بلدة « بواتييه » والأفكار سريعة الانتقال بسرعة البرق ، فلو قلنا أن الحضارة الأوربية طارت من على أكتاف الحضارة العربية وخاصة الأندلس ، لم نكن بعيدين عن الصواب .

والتاريخ كل يوم يبين سلسلة من الأحداث يتشابه نتائجها مع نتائج العرب ولا يجعل مجالا للشك فى أن أصولها مستمدة من العرب ، فى اللاهوت وفى القصص ، وفى الطبيعة والكيمياء وفى الرياضة والهندسة ، وغير ذلك . والعصبية الأوروبية تحول كثيراً بين الإعتراف بالحق ، ولكن التاريخ كفيل بكشف الحقيقة [١] .

حاجة أوروبا الى الحضارة العربية :

كان العالم الأوروبى قبل ظهور الإسلام وبداية الفتوحات العربية الإسلامية يتخبط فى أفق مجهول ، يفتقد الحضارة والتمدن . حتى إذا ظهر الإسلام وقامت الدولة العربية الإسلامية ، وازدهرت حضارة العرب المسلمين أخذ الأوروبيون يتطلعون إلى ذلك النور الساطع وهو يلمع من أرض المشرق نظرة إكبار وإعجاب ، ويتمنون لو أن خيوط هذا الفجر السعيد تومض فى نفس الوقت بأرجاء بلادهم التى يعمها الظلام والتأخر

حقاً أن حضارة واسعة النفوذ والسلطان سادت قبل ظهور الإسلام بعض عصور أوروبا الغامضة وعمت معظم أرجائها حتى وصلت إلى شمال انجلترا ، ألا وهى الحضارة الرومانية التى انبثقت فى جنوبى أوروبا ، إلا أنها

---

(١) ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٣٤ .

كانت عبارة عن قوة جبارة تهدف إلى الفتح والإستعمار ، وكانت تعنى بالزخرفة والبناء والاستثمار والتجارة أكثر من عنايتها بالتمدن والتثقيف.

اعترف بذلك المؤرخ الفرنسى (سيبنيه بوس) فقال كان الرومانيون سواء فى المشرق أو الغرب فاتحين مستعمرين لايفكرون إلا فى إقامة الأبنية الضخمة والملاعب الواسعة لإظهار قوتهم وعظمتهم للأمم الواقعة تحت إستعمارهم ثم البحث عن منابع المياه لتنظيم وسائل الرى لأجل إستثمار الأرض وكسب المغانم لأنفسهم من وراء ذلك . ولكن عندما نريد أن نبحث فى النواحى الأخرى التى يجب أن تستفيد الشعوب المستعمرة منها كالنمو الاجتماعى والارتقاء العلمى والأخلاقى . فلا نجد لكل هذا سوى بعض الآثار التى تكاد لا تذكر . الأمر الذى أعطانا فكرة حاسمة فإن الحضارة الرومانية ما كانت على طول عهدها إلا عبارة عن حضارة أقيمت لأجل الرومان أنفسهم ولاجل أن تؤخذ بيد الرومانيين أنفسهم . فهى والحالة هذه ليست حضارة أممية عالمية ، بل حضارة أنانية وغرور وطغيان ترعرعت فى أحضان غطرسة الأباطرة والقواد الرومان الجبابرة .

وثمة حضارة أخرى ظهرت فى الجنوب الشرقى من أوروبا قبل ظهور الاسلام ، ألا وهى الحضارة اليونانية . إلا أن هذه الحضارة أيضاً لم تكن إلا عبارة عن جامعة يونانية تلقن الشعب الاغريقى العلوم الفلسفية التى تحتاج إلى أدمغة مؤهلة من قبل لتلقفها وتفهم مراميها ، ولذا عجزت عن أن تصل إلى اوساط أوروبا ، كما عجزت شعوب هذه القارة الجاهلة عن هضم الحضارة اليونانية وإدراك أهدافها الحضارية الواسعة .

وهكذا نجد أن الشعوب الأوروبية لم تستفد من الحضارة اليونانية رغم أنها كانت من أرقى الحضارات من النواحى العلمية والفلسفية . إذ أنها ظهرت فى أفق

بعيد عن صميم أوروبا ، وكانت فى مستواها الراقى تترفع كثيراً عن وجود أى تشابه أو تمهيد يقربها من العقلية المتأخرة السائدة فى أرجاء أوروبا ، تلك العقلية التى أفسدتها نعرة فروسية العصور الوسطى(١) .

ولذا كان الطريق فى أوروبا ممهداً لانتشار الحضارة العربية ، ووجد الأوروبيون فى حضارة العرب ما يناسب حاجاتهم ويسد الفراغ الموجود ، وكانت الحضارة العربية لها من المرونة والواقعية ما يجعلها تناسب الشعوب الأوروبية على اختلاف بلادها وأجناسها وثقافاتها .

بل كان العرب هم وسيلة نقل معالم الحضارة اليونانية إلى أوروبا . فيقول المفكر (راندل)(٢) : أنقذ العرب من العالم شيئاً كان أرسطو بالرغم من عبقريته عاجزاً كل العجز عنه وهو العلم الرياضى والآلى . وأخذ العرب من العالم اليونانى المعرفة الرياضية والطبية التى احتقرها الرومانيون ونبذها المسيحيون ، وراحوا يعملون بصبر وجهد فى ذلك الطريق الذى ازدراه الإغريق فى أوج عظمتهم ، وبنوا فى القرن العاشر فى أسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب بل كان علماً يخدم الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية .

ويرى المؤرخ (فيشر)(٣) أن احتلال اللاتين للقسطنطينية وغيرها لم يؤد إلى شىء من النهضة فى ميادين العلوم ، وأن مخطوطاً يونانياً واحداً لم يصل إلى غرب أوروبا . على أن شعاعاً من ذلك النور العظيم اتخذ سبيله إلى أوروبا فى القرن ١٣ م لا عن طريق اللاتين أو البيزنطيين أنفسهم ، بل عن طريق المسلمين أصحاب أسبانيا الإسلامية .

---

(١) المدور : الديانات والحضارات ص ٦٤ .
(٢) راندل : تكوين العقل الحديث جـ ١ ص ٣١٣ .
(٣) فيشر : أوروبا فى العصور الوسطى ص ٢٤٨ .

وصف المؤرخ (كرد على) حالة أوروبا فى وقت ازدهار الحضارة العربية فكان مما قال : فى القرون التى كانت فيها العرب تنعم بإنتاج العقل والمال ، وتأخذ من مسرات الحياة الفاصلة بأوفر نصيب ، ويهاب سطوتها البدو والحضر وتؤلف أمة متحضرة وحكومات ناهضة ، كان الغربيون متوحشين وفى جاهلية ، لا يعرفون الترف ، ولا يتذوقون عيش الرفاهية ، لا أمن ، ولا إدارة ، ولا ملوك يعرفون واجبهم فى إقامة العدل وتوطيد الأمن ، وهم فى كل أحوالهم إلى حياة البوادى أقرب منهم إلى حياة المدن والحضارة .

وكانت أوروبا فى ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة فى زراعتها تسودها المستنقعات ، وما ينتج عنها من أوبئة . وكانت البيوت فى باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها منافذ . وكان العالم القديم يقتسمه فى القرن الحادى عشر حضارتان : فى الغرب مدن حقيرة صغيرة ، وأكواخ فلاحين ، وقلاع لاهندسة لها ، وممالك مضطربة دائماً بالحرب وفى الشرق مدن القسطنطينية والقاهرة ودمشق وبغداد ، بما فيها من قصور ومدارس ومصانع وأسواق وحدائق .

وبينما كان شارلمان أعظم ملوك أوروبا ، وصاحب فرنسا وجرمانيا وشمالى إيطاليا ، وهو معاصر للخليفة العباسى هارون الرشيد ، أقرب إلى الأمية منه إلى النور ، كانت كتب الفلسفة والعلوم المادية والأدبية يتنافس فيها علماء العرب فى بغداد وقرطبة ، وتترجم للمنصور العباسى الكتب من اللغات الأجنبية إلى العربية ، ويعقد الخلفاء مجالس العلم والثقافة .

وحاول شرلمان أن يتعلم ويتلقن الآداب ، فلم يصب إلا نجاحاً محدوداً . وكانت الآداب فى غالة متأخرة ، وكانت الكتابات الرسمية تكتب باللغة اللاتينية البربرية وهى سقيمة الخط بحيث يصعب حلها ، ولا يمتاز نبلاء القرون

الوسطى بتعلمهم وتهذيبهم عن الفلاحين ، وكان معظمهم يجهلون القراءة ، ولا هم لهم سوى الشراب والطعام والصيد والحرب ، وهم فى العادة جفاة غلاظ شداد . وذكر (القزوينى) أن تجاراً من العرب ذهبوا إلى (شلشويق) ، وهى الدانمرك الحالية ، لاستحضار العنبر ، فوصفوا أهلها بأنهم وحوش عراة يسترون عوراتهم بقطع من الجلود .

وكان الغربيون خلال القرون الطويلة التى كان فيها العرب أنجب أمة من أمم الخليقة يترامى إليهم من طريق الأندلس وصقلية وإيطاليا أولا ، ثم من طريق الصليبيين ، ماتم فى أمصار العرب والمسلمين من الرقى فتصبو نفوسهم إلى تحقيق مثله أو بعضه فى ربوعهم ، وأنى لهم ذلك وسلطة رجال الدين عندهم تناولت فروع الحياة ، وفرسانهم وملوكهم كانوا أدوات للتدمير لا للتعمير ، تغلب الفظاعة على أعمالهم ، وما زالت حضارتهم فى طور البداءة ، وكلما حفزها حافز عادت أدراجها بعوامل التقهقر المغروسة فيها[1] .

ويرى (لوبون) أن العرب وإن كانوا قد اعتمدوا فى بداية تاريخهم الحضارى على معارف اليونان واللاتين القديمة إلا أن العرب المفطورين على قوة الإبداع والنشاط قد تحرروا من هذا الدور الأول ، وتخلوا عن الكتب اليونانية وأدركوا أن التجربة والبحث خير من هذه الكتب ، ووضعوا لأنفسهم منهجاً تجريبياً عربياً ، وأنشأ العرب بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلافات عن الحضارات التى ظهرت قبلها وتمكنوا من حمل أمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم وحضارتهم الجديدة .

فضل حضارة العرب على أوروبا :

من أبرز المفكرين الذين تحدثوا عن أثر الحضارة العربية فى حضارة أوروبا ،

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٢٠٤ .

(جوستاف لوبون) الذى وضع كتاباً قيما بعنوان (حضارة العرب) ، أنصف فيه العرب وساط الأضواء على الأسس العربية للحضارة الأوروبية الحديثة .

ومن آراء (لوبون) فى هذا الصدد قوله : كان تأثير العرب على الغرب عظيما . وإليهم يرجع الفضل فى حضارة أوروبا . ولم يكن نفوذهم فى الغرب أقل مما كان فى الشرق . ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذى أثره العرب فى الغرب ، إلا إذا تصور حالة أوروبا فى الزمن الذى دخلت فيه الحضارة العربية، وإذا رجعنا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، يوم كانت الحضارة العربية فى أسبانيا زاهرة باهرة ، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة فى الغرب عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين يفاخرون بأنهم أميون .

وظل عهد الجهالة فى أوروبا ، ولم تبدأ الرغبة فى العلم إلا فى القرن الثانى عشر ، ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلا بالحاجة إلى الخلاص من الجهل طرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه ، لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم فى ذلك العهد .

ويرى (لوبون) أيضاً أن الحضارة العربية لم تدخل إلى أوروبا نتيجة الحروب الصليبية كما هو الرأى الشائع ، بـــل دخلت بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا .

ويقارن (لوبون) بين أسبانيا العربية وسائر أرجاء أوروبا فيقول : تمتعت أسبانيا بحضارة سامية بفضل العرب ، بينما كانت بقية أوروبا غارقة فى ظلام وتأخر . ولو سار الغرب تحت راية العرب لتسامت منزلته ، ولو رقت أخلاق أهله ما وقعوا فى الحروب الدينية ومذبحة سان بارتلمى وديوان التحقيق وكل ماشا كل ذلك من المصائب التى أغرقت أوروبا بالدماء عدة قرون ، وما عرف المسلمون ما يشبهها فى أرضهم .

اعترف المؤرخ (رينو) فى كتابه (تاريخ غزوات العرب) بفضل العرب على حضارات أوروبا فقال : أن النهضة الحقيقة فى أوروبا لم تبدأ إلا منذ القرن الثانى عشر حيث أفاق الفرنسيون والإنجليز والألمان من رقدتهم ، ونفضوا عنهم غمار الخمول ووجدوا ضرورة الاشتراك فى الحضارة العربية ، فأخذ المسيحيون فى فرنسا وما جاورها يؤمون أسبانيا لترجمة الكتب العربية ، وأصبح العرب الأمثلة العليا للشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الأخلاق .

وقال (سارتيو) فى كتابه (الحضارة) : أن ما أتت به الحضارة العربية فى باب العلم ، ولاسيما العلوم وتطبيقها أعظم بكثير مما أتت به فى هذا السبيل الدولة البيزنطية ، إذ أن الحضارة البيزنطية لم تأت بفكر جديد .

وأشاد المفكران (لافيس) و (رامبو) فى كتابهما (التاريخ العام) بالحضارة العربية وآثارها فقالا : إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل ، لا يسع المنصف أن ينكر أن قسط العرب منه كان أعظم من قسط غيرهم ، فلم يكونوا واسطة نقلت إلى الشعوب المتأخرة فى أفريقية وآسيا وأوربا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وصناعاته واختراعاته ، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التى كانوا يلتقطونها من كل مكان ، ومن مجموع هذه المواد المختلفة التى صبت فتمازجت نماذجا متجانسا ، أبدعوا حضارة حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم ، وهى ذات وحدة خاصة وصفات قائمة[1] .

بعثات علمية أوروبية الى الأندلس العربية :

اهتمت الدول الأوروبية بإرسال بعثات علمية إلى بلاد الأندلس العربية الإسلامية لدراسة العلوم والفنون والصناعات فى معاهدها الكبرى ، نتيجة

(١) أنظر الاسلام والحضارة العربية لكرد على.

ذياع شهرة الأندلس وحضارتها الزاهرة فى إنجلترا وفرنسا وهولندا وتوسكانا .

تحدث المؤرخ (فالبير) عن ثلاث بعثات أوروبية إلى الأندلس العربية ، أولها بعثة فرنسية برئاسة الأميرة اليزابيث ابنة خالة لويس السادس ملك فرنسا. والبعثة الثانية إنجليزية وعلى رأسها الأميرة (دوبان) ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة (ويلز) . ويذكر المؤرخ أنه ربما كان ولى عهد إنجلترا يومئذ . أما البعثة الثالثة فكانت أسبانية ، وبعضها من مقاطعات (سافوا) و (والباڤر) و (ساكسونيا) و (الرين) وقد بلغ عدد أفرادها (٢١٣ هـ — ١٢٩٣ م) سبعمائة طالب وطالبة .

فقداشتهرت بلاد الأنداس فى أرجاء القارة الأوروبية بحضارتها وتسامحها ، ويشيد (جوستاف لوبون) بذلك فيقول : لقد بلغ نبل الدعوة التى حملها أبناء الجزيرة العربية إلى العالم فى كل مكان توجهوا إليه أن أصبح قادة هؤلاء الأقوام الذين تبينوا أن بلادهم ستكون ممر الجحافل العربية يترقبون فى لجج وشوق اقتراب ساعة ظهور تلك الطلائع المتهللة نصراً ، والحاملة لشعلة العدل والرحمة والحضارة ، لأن السمعة الطيبة وسمو الأهداف كانا يسبقان خيول أبناء العرب، وكانت تلك الخلال المحببة ينتشر عبيرها المعطر على الناس فى الشرق والغرب قبل وصول العرب إلى مقاطعاتها المديدة الكثيرة بألوف الفراسخ .

وكان الأسبان المسيحيون يملأون أجواء أوروبا بالمديح والإعجاب بأعمال العرب وشرائعهم ومعاهدهم وحضارتهم ، ويشيدون بالعمران الذى أدخلوه على البلاد الأسبانية . وكان يتكون من كل ذلك دعاية غير مقصودة ، فترسل عفواً فى صدد الاعتزاز بما وصلت إليه بلادهم على يد المسلمين الفاتحين من رقى وتمدن . فتشرئب الأعناق وتتفتح الأذهان إلى روايات أبناء الأندلس الأصليين المنتشرين فى معظم أرجاء أوروبا كمهاجرين نزحوا عن بلادهم تحت عوامل

الخوف ، ثم ما لبثوا أن تبينوا أخطاءهم فى هجر بلادهم لما توارد إلى أسماعهم من مواطنهم الذين مكثوا فى البلاد بما يقوم به المسلمون من أعمال جليلة ومآثر خالدة أدت إلى تحويل البلاد الأسبانية إلى جنات قطوفها دانية وشرائع وأنظمة ملأت الأقطار عدالة وأمنا(١) .

جعلت هذه الروايات الأفئدة والأسماع والأبصار فى ديار الفرنجة تتجه إلى الأندلس . وكان أول من أراد سبر غور ما يروى عن الحضارة العربية الملك فيليب الباقارى الذى بعث إلى الخليفة الأموى بالأندلس (هشام الأول) يسأله السماح له بايفاد هيئة تشرف على حالة بلاد الأندلس ودراسة أنظمتها وشرائعها وثقافة مختلف الأوساط فيها ، ليتمكن من اقتباس المثمر المفيد من ذلك لبلاده ، ووافق الخليفة على طلبه ، وبعث الملك الجرمانى وفداً برئاسة وزيره الأول (ويلميين) ، وقد لقبه الأندلسيون (وليم الأمين) لأنه كان أميناً فى نقل ما رآه من حضارة الأندلس وعظمتها إلى الملك ، وحثه على الاستمرار فى انفاذ البعثات العلمية لاقتباس معالم الحضارة العربية .

وتوالت البعثات على الأنداس ، فأرسل ملك إنجلترا جورج الثانى ابنة أخيه الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من ١٨ فتاة من بنات الأمراء والأعيان إلى أشبيلية يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى النبيل (سفليك) ، وكان يحمل كتاباً من الملك الخليفة هشام الثالث جاء فيه .

« من جورج الثانى ملك إنجلترا والغال والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس صاحب العظمةهشام الثالث الجليل المقام : بعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة . فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون

---

(١) المدور : الديانات والحضارات ص ٦٧ .

بداءة حسنة فى اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة . وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من من بنات أشراف الإنجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة ، وحدب من لدن اللواتى سيتوفرون على تعليمهن . وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص — من خادمكم المطيع : جورج » .

وكانت هدية الملك جورج عبارة عن شمعدانين من الذهب الخالص طول الواحد ثلاثة أذرع مع أوان ذهبية أخرى للطعام عددها ٢٢ قطعة نقشت بأبدع وأروع النقوش السكسونية وكلها من صنع بلاد الإنجليز ، وتعد من التحف النادرة التى لاتقدر بثمن

ورد الخليفة هشام على ملك انجلترا بالرسالة الآتية : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين ، وبعد: إلى ملك انجلترا وإيكوسيا واسكندنياويا الأجل : لقد اطلعت على إلتماسكم فوافقت بعد إستشارة من يعنيهم الأمر على طلبكم . وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكى. أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد . وبالمقابلة أبعث إليكم بغالى الطنافس الأندلسية ، وهى من صنع أبنائنا هدية لحضرتكم وفيها المغزى الكافى للتدليل على التفاتنا ومحبتنا والسلام — خليفة رسول الله على ديار الأندلس : هشام»

وإذا حاولنا تحليل كلمات الخليفة هشام فى رسالته إلى ملك انجلترا لوجدنا روح السؤدد والمباهاة ، إلى جانب حسن الخلق ، والذوق السليم ، والوثوق من النفس .

توالت البعثات الأوروبية على بلاد الأندلس تنهل من منـــابع الحضارة العربية الزاهرة ، ونبغ كثير من أعضاء هذه البعثات فى الفنون والعلوم التى تخصصوا فى دراستها ، وبقى ثمانية أعضـاء منهم فى الأندلس حيث اعتنقوا الإسلام ولم يعودوا إلى بلادهم . وبين هؤلاء ثلاث فتيات تزوجن من مشاهير رجال الأندلس وأنجبن فحولا يشار اليهم بالبنان ، اشتهر منهم الفلكى المشهور (عباس بن مرداس) .

وقدمت بعثات أخرى من فرنسا وإيطاليا والأراضى الواطئة ، وامتلأت بهم معاهد غرناطة وأشبيلية ، ونهلت من الحضارة العربية الأندلسية وتأثرت بالأخلاق العربية الإسلامية . ولم يعد بعض هؤلاء المبعوثين ، سواء من الفتيان أو الفتيات ، تحت تأثير عوامل شتى ، نتيجة إعجابهم بالحياة العربية وتقاليدها وثقافتها ، أو نتيجة صلات عاطفية نشأت بين بعض الفتيات الأوروبيـات وأبناء سراة العرب الذين كانوا يزاملون أفراد البعثات فى مختلف المعـاهد العربية ، حيث انتهت معظم هذه العلاقات بالزواج بعد اعتنـاق الإسلام . وقد اشتهرت من بين الفتيات اللواتى ربطت الأقدار حياتهن بالأسر العربية الكريمة كثيرات أبرزهن الأميرة (مارى غوبيه) وهى بلچيكية الأصل أحبها الأمير (حسن بن المهدى) وتزوجها . ومنهن (روبيكا ستـارت) من بنات العائلات الأرستقراطية الجرمانية ، والراهبة (جانيت سمبسون) المرافقة لإحدى بعثات البنات الإنجليزيات و (شونا) ابنة الكونت (سيرجاك) من أشراف البلاد الواطئة (هولانده) (١) .

مظاهر اثر الحضارة العربية على حضارة أوروبا :

لم تكن الحروب الصليبية — كما ذكرنا — سبباً فى نقل حضارة العرب

---

(١) المدور : الديانات والحضارات ص ٧٠ .

إلى أوروبا . وإنما دخلت هذه الحضارة عن طريق أسبانيا ، وصقلية وإيطاليا .

أما طريق أسبانيا ، فلم يكد العرب — كما قال لوبون — يتمون فتح أسبانيا حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها ، فاستطاعوا فى أقل من قرن أن يبعثوا فيها الحياة ، فعمروا الأراضى والمدن ، وأقاموا المبانى الفاخرة ، ووطدوا صلات تجارية وثيقة مع الأمم الأخرى ، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين وينشئون الجامعات التى ظلت وحدها ملجأ للثقافة فى أوروبا زمناً طويلا .

وقد أصبحت طليطلة بعد أن استولى عليها الفونسو السادس سنة ١٠٨٥م مركز انتشار الثقافة العربية إلى باقى نواحى أسبانيا وأوروبا ، ويرجع الفضل فى إدخال النصوص العربية فى دوائر الدراسة الغربيـــة إلى (دايموندو) أسقف طليطلة وكبير مستشارى ملوك قشتالة ، وكان لفعله أبعد الأثر فى مصير أوروبا كما يقول (رينان) .

وتولى الأسقف رعاية جماعة من المترجمين والكتاب تعرف بمدرسة المترجمين الطليطليين ترجمت عيون المؤلفات العربية فى الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والحياة وماوراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق والسياسة ، وفيها شروح ومختصرات للفلاسفة المسلمين فضلا عن مؤلفات الإغريق .

وعندما ذاعت هذه الترجمات للكتب العربيـــة ، هرع الكثير من الأوروبيين المتعطشين إلى مناهل العلوم الإغريقية والعربية قاصدين مدرســة طليطلة حيث يترجم لهم أحد المستعربين ماجاء فى الكتب العربية الى الأسبانية الدراجة أو اللاتينية الركيكة(١) .

يشبه المفكر (راندل) العرب فى العصور الوسطى بالألمان فى العصر الحديث

---

(١) بالنشيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٥٣٦ .

فيقول : كان العرب فى القرون الوسطى يمثلون التفكير العلمى والحياة الصناعية العلمية اللذان تمثلهما اليوم ألمانيا الحديثة ، وخلافا للاغريق لم يحتقر العرب المختبرات العلمية والتجارب المصورة . وقد ورثت أوروبا عنهم ماترغب أن تسميه (بروح بيكون) التى تطمح الى توسيع نطاق حكم الإنسان على الطبيعة (١) .

فقد حفظ عرب الأندلس فى القرن العاشر الميلادى العلوم والآداب التى اهملت فى كل مكان ، حتى فى القسطنطينية . ولم يكن فى العالم فى ذلك الحين بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية ، وذلك خلا الشرق العربى الإسلامى . وإلى بلاد الأندلس كان يقصد الأوروبيون المتعطشون للعلم والمعرفة وكان منهم (جربرت) الذى أصبح بابا فى سنة ٩٩٩ م باسم (سلفستر الثانى) وأراد أن ينشر فى أوروبا ماتلقنه من علوم العرب لولا أرتفاع اصوات الأحتجاج.

ولم يظهر فى أوروبا ، قبل القرن الخامس عشر من الميلاد ، عالم لم يقتصر على استنساخ كتب العرب . وعلى كتب العرب وحدها عوّل (روجر بيكون) و (ليونارد البيزى) و (أرنولد الڤيلنوڤى) وغيرهم . وفى ذلك يقول(رينان) إن البرت الكبير مدين لابن سينا فى كل شىء ، وأن سان توما مدين فى جميع فلسفته لابن رشد .

ويقول المفكر (بارنثيا) : يبدو ذهن دانتى فى مؤلفاته متقبلا لشتى التأثيرات العلمية والأدبية . وإننا لنجد نفراً من علماء المسلمين مابين فلكيين وفلاسفة كالبطروجى والفارابى والغزالى وابن رشد مذكورين فى كتابين من آثار دانتى .

وظلت ترجمات كتب العرب ، ولا سيما الكتب العلمية مصدراً وحيداً، تقريباً ، للتدريس فى جامعات أوروبا خمس قرون أو ستة قرون ، ويمكننا أن نقول أن تأثير العرب فى بعض العلوم ، كعلم الطب مثلا ، دام إلى أيامنا . فقد شرحت كتب ابن سينا فى مونبليه فى أواخر القرن الماضى .

---

(١) راندل : تكوين العقل الحديث ص ٣١٣ .

وبلغ تأثير العرب فى جامعات أوروبا من الإتساع ماشمل معـه بعض المعارف التى لم يحققوا فيها تقدماً مها كالفلسفة مثلا ، فكان ابن رشد الحجة البالغة للفلسفة فى جامعات أوروبا منذ أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد ، ولما حاول لويس الحادى عشر تنظيم أمور التعليم فى سنة ١٤٧٣ م أمر بتدريس مذهب هذا الفلسيوف العربى ومذهب أرسطو[١] .

رسم الأب (خوان أندريس) صورة رائعة عن أثر الثقافة العربيـة فى أوروبا ، وقد ألف كتاباً باللغة الإيطالية نشره بين سنتى ١٨٨٢و١٧٩٨ وسماه (أصول الأدب عامة وتطوراته وحالته الراهنة) وقد أكد فيه فضـل العرب على الحضارة الأوروبية ، وقارن بين العرب الذين قطعوا شوطاً كبيراً فى طريق الحضارة ، والشعوب الأوروبية المتأخرة ، مما يحتم إعتمادها على الحضارة العربية.

ثم قال : بينما تصرف المدارس الـكنسية جهدها إلى تلقين الناس الأناشيد الدينية وتعليمهم القراءة وعد الأرقام ، وبينما نجد الناس فى فرنسا يهرعون إلى متز وسواسون بكتب أناشيدهم الـكنسية كى يقوموها على النحو المتبع فى كنائس روما . . نجد العرب يبعثون السفارات لاستجلاب الـكتب القيمة ما بين أغريقية ولاتينية ، ويقيمون المراصد لدراسة الفلك ، ويقومون بالرحلات ليستزيدوا من العـلم بالتاريخ الطبيعى وينشئون المدارس لتدرس فيها العلوم بشتى صنوفها .

ويرى (أندريس) أن قيام التأليف العلمى فى أوروبا فى الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية مرجعه إلى العرب ، ويرى أن روجر بيكون وفتيليون قـد استفادا من بصريات الحسن بن الهيثم ، وأن ليوناردو اليزى أخذ عن العرب الجبر ، وأخذ أرنالدو فيلانوفا الطب والـكيمياء ، كما نهل أعلام الطب الأوربى من كتب العرب وخاصة الزهراوى . كما استوحى (كلير) كشفه لأفلاك الـكواكب الدائرية من كتاب البطروجى[٢] .

---

(١) لوبون : حضارة العرب ص ٥٦٩ .
(٢) بالنثيا : الفـكر الأندلسى ص ٣٣٣ .

ولم يتمكن أهل أسبانيا من أن يحولوا دون تغلغل الحضارة العربية فى صميم حياتهم ، حتى أن ممالك أسبانيا المسيحية استعملت النقود العربية أربعة قرون . واستحضر كثير من ملوك قشتاله وأرجون جما غفيرا من العلماء العرب والمسلمين ، وقدموهم فى مجالسهم ، ورفعوا من أقدارهم . وفتحوا أبواب مجالسهم لكثير من الموسيقين والشعراء العرب . واختفى التسامح من أسبانيا بنهاية العهد العربى .

وما كاد القرن العاشر الميلادى ينبلج حتى كانت الحضارة العربية قد انتشرت فى أسبانيا كلها فى الولايات الإسلامية والمسيحية على السواء . ولما سقطت طليطلة فى أيدى المسيحيين ، انتشرت الحضارة العربية فى عامة أرجاء أوروبا . وخلفت طليطلة مدينة قرطبة فى نشر الحضارة ، واحتفظت بمكانتها إلى ما بعد سقوطها فى أيدى الأفرنج فى سنة ١٠٨٥ .

ترجم عرب الأندلس كتب اليونان واللاتين ، فكان لهم من ذلك حظ لا يقل كثيراً عن حظ خلفاء العباسيين فى الشرق . وتفوق العرب فى دراسة الرياضيات والفلك والطبيعيات والكيمياء والطب ، ووصلوا فى الصناعة والتجارة إلى مستوى الدول الأوروبية الراقية فى العصر الحاضر .

تحدث المؤرخ الأسبانى (بالستر) عن أثر الحضارة العربية فقال :أن العرب فى الأندلس امتازوا بالسرعة الغريبة فى تلقف علوم العالم القديم ، من فلسفة وتاريخ وحساب وجبر وهندسة وفلك وعلوم طبيعية ، وتفردوا خاصة بعلم النبات ، نشروه فى مدارس لهم كثيرة ، ومن أشهرها مدارس قرطبة وطليطلة وأشبيلية .

ويشيد المستشرق البرتغالى (لويس) بفضل الحضارة العربية فيقول :أن المستنيرين من البرتغاليين اليوم يقدرون الأمة العربية المجيدة حق قدرها ويدرسون مآثرها فيما بقى من آثارها الخالدة ، ولا سيما هندستها فى المبانى ، مما تفتخر به الشعوب

المتحضرة الحديثة . وتاريخ العرب حافل بذكائهم وتقدمهم وسيادتهم فى كل العلوم والفنون حتى فى الزراعة ، فقد كانوا بعد غزوهم إحدى المقاطعات يجعلون منها بعد سنين قليلة جنات حقيقية وذلك بفضل مساعيهم وتفوقهم وتدابيرهم [١]

كان بلاط الملك الفونسو السادس متشبعاً بالحضارة العربية على نحو ما كان بلاط فرديناند الثانى ملك صقلية النورماندى فى بالرمو فى القرن ١٣ م ، حتى لقد لقب الفونسو نفسه بامبراطور الديانتين ، أى المسيحية والإسلام . وكان الطلبة يؤمون مدارس طليطلة من كل دول أوروبا ، حتى من انجلترا واسكتلنده.

ولم يكن نفوذ العرب فى جامعات إيطاليا ، ولاسيما جامعة (بادو) أقل منه فى فرنسا . فقد كان للعرب فيها شأن كالذى بدا للاغريق واللاتين بعد عصر النهضة . ويمكن لنا أن نتصور اتساع نفوذ العرب إذا تمعنا فى الاحتجاج الصاخب الذى قاله الشاعر المعروف بترارك : « ياعجبا ، استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموستين ، واستطاع فيرجيل أن يكون شاعرا بعد هوميروس ، فهل قدِّر علينا ألا نؤلِّف بعد العرب ؟ لقد تساوينا نحن والإغريق وجميع الشعوب غالباً وسبقناها أحيانا ، خلا العرب ، فيا للحماقة ، ويا للضلال ، ويا لعبقرية إيطاليا الناعسة أو الخامدة ! »[٢] .

كانت صقلية نقطة اللقاء بين بلدين ذاتى ثقافتين ، وهى بحكم مركزها هذا كانت مهيأة بصفة خاصة لتكون وسيلة لنقل علم العصور القديمة والعصور الوسطى . وكان من بين سكانها بعض العناصر الإغريقية ، وبعض العناصر العربية الإسلامية التى تتكلم اللغة العربية ، وفريق من العلماء الذين يعرفون اللاتينية . وقد تم نقل كثير من الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية فى عهد الملوك

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٢٦٣ .
(٢) لوبون : حضارة العرب ص ٥٦٩ .

النورمانديين . وشاهدت صقلية فى عهد النورمنديين ازدهارا للثقافة العربية ، وقد شهدت الجزيرة خلال الحكم العربى امتزاج الحضارات العربية باليونانية الرومانية .

صور تطبيقية للحضارة العربية فى أوروبا .

اتخذت الحضارة العربية شكلا عمليا فى دول أوروبا المختلفة ، فقد انتهت مرحلة التدوين والترجمة والاقتباس ، وبدأ الأوروبيون يهضمون هذه الحضارة العربية ويتمثلونها ثم يطبقونها فى سائر فروع الحياة .

أصبحت مرافق الدول الأوربية تحاكى مرافق الدولة العربية بالأندلس . كما اقتبسوا علم الكيمياء العضوية وصناعة الجبن والألبان وأصول تربية المواشى وتحسين نسل الخيول ، والفنون الزراعية وخاصة تسميد التربة ، والدباغة الفنية وصناعة البارود ، وسك النقود ، وفنون الطباعة وصناعة الفسيفساء ، والطب البيطرى ، وفن التمريض ، والفروسية وغير ذلك . وقلدت الدول الأوروبية الدولة الأندلسية فى تشكيلات الدواوين والمجالس وبقية المصالح الحكومية ، واقتبسوا نظم جباية الأموال والضرائب وتنظيم الميزانيات .

كانت مملكة بافاريا من أبرز الدول الأوروبية اعتماداً على النظم العربية ، وقد مر بنا كيف أرسل ملك باڤاريا بعثات إلى الأندلس فى عهد الخليفة هشام الأول ، بل ظهر فى باڤاريا جماعة من الخبراء اقتبسوا خبراتهم من النظم العربية، وأصبحوا يفيدون سائر دول أوروبا بهذه الخبرة .

وقامت فى مدينة (بال) الألمانية أول محكمة قانونية على الطراز العربى الإسلامى ، وقلدها فى ذلك سائر مدن أوروبا .

حفظ لنا معجم لاروس برنامج الدراسة فى كلية العلوم فى لندن وهو يشمل (١) الفلسفة الرشدية . (٢) علم الفروسية عند العرب . (٣) فن الصيدلة المقتبس

من مصر (٤) الحساب . (٥) الجبر وهو من العلوم العربية ، (٦) فن الطهى الحديث ، (٧) فنون الموسيقى وتطبيقات مصطلحاتها الشرقية على الموسيقى الأفرنجية ، الكيمياء العضوية وهى من وضع العرب ومتضمن أصول صنع الألبان ومزج عناصر الغذاء — وقد أصبحت هذه الكلية مركزا لتخريج الأساتذة والخبراء فى أوروبا بأكلها .

بدأ تأسيس دواوين الحكومات على الطريقة العربية فى مقاطعات فرنسا الجنوبية المتاخمة لحدود الأندلس . ثم انتقلت النظم العربية الإدارية إلى بقية البلدان الأوروبية ، وطعمت ببعض النظم المحلية . كما قلد الأوروبيون العرب فى إنشاء المجالس الشورية .

سافر أحد أثرياء البندقية ، وهو من أب عربى وأم إيطالية إلى مصر حيث استأجر بعض الخبراء بفن دباغة الجلود وأغراهم بالأجور العالية ، وصحبهم إلى البندقية حيث أنشأوا مدبغة كبرى . وبعد سنوات قلائل انتشرت المدابغ فى القارة الأوروبية .

كما أوفدت انجلترا بعض الصاغة إلى القاهرة عام ١٦٤٠ لصنع تاج الملكة ، فعادوا به وكان أجمل تاج وضع على رؤوس الملوك والملكات . وتسنى بهذه المناسبة لهؤلاء الموفدين أن يتقنوا فنون الصياغة(١) .

فى آخر القرن الثالث عشر الميلادى كان قد تم نقل العلوم والفلسفة العربية إلى أوروبا . وقد انتهت مهمة أسبانيا كوسيطة فى هذا النقل . وسلك الطريق العقلى سبيله الرئيسى من أبواب طليطلة عبر جبال البرانس ، وأخذ يتعرج خلال البروفانس ، ويعبر ممرات الألب إلى اللورين ، فألمانيا وأوروبا الوسطى ثم عبر البحر إلى انجلترا .

---

(١) المدور : الديانات والحضارات .

ومن بين مدائن جنوبى فرنسا الجديرة بالذكر مدينة مرسيليا التى ألف فيها ريموند فى سنة ١١٤٠ جداول الكواكب المؤسسة على زيجات طليطلة . وكذلك مدينة (تولوز) التى أكمل فيها (هيرمان الدلماشى) فى سنة ١١٤٣ ترجمة المجريطى لكتاب بطليموس فى الفلك . وكذلك (ناربون) التى ترجم فيها أبراهام بن عزرا سنة ١١٦٠ شرح البيرونى على جداول الخوارزمى . ومدينة مونبليه التى كانت مركزا للدراسات الطبية والفلكية فى فرنسا .

أما فى شرق فرنسا، فكانت مدينة كلونى، التى كان يضم ديرها عددا من الرهبان الأسبان ، خلال القرن ١٢ تعتبر مركزا ممتازا لنشر العلوم العربية. وكان رئيس ديرها بطرس الوقور ، فيما بين سنتى ١١٤١ — ١١٤٣ يشرف على الترجمة الأولى للقرآن .

ولقد جعلت العلوم العربية التى دخلت إلى مقاطعة اللورين فى القرن العاشر تلك المقاطعة مركزا علميا ذا أثر كبير فى خلال القرنين التاليين . وكانت مدائن (لييج Liege) و (جورز Gorze) و (كولونيا Cologne) وغيرها من مدائن اللورين أيضا صالحة لإنماء الثقافة العربية . ومن اللورين أخذ العلم العربى يشع إلى أجزاء ألمانيا الأخرى . ونقل إلى انجلترا النورمندية على أيدى رجال ولدوا أو تعلموا فى اللورين ، وكانت السفارات بين ملوك الألمان فى الشمال والحكام المسلمين فى أسبانيا كثيرة متعددة ومثمرة من الناحية العقلية[١] .

تطورت طليطلة حتى أصبحت مدرسة الغرب ، والطريق الذى انتقلت عنه كنوز المعرفة التى وصلت إليها من الشرق ، ومثلما جلبت التراجم المنظمة علوم الغرب القديمة إلى العرب ، فإن الغرب عرف أيضاً علوم الشرق عن طريق الترجمات فى العصور الوسطى .

---

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٧١٧ .

وكان يقال فى هذا العصر الزاهر أن أروج أسواق الكتب سوق قرطبة ، وأروج أسواق الآلات الموسيقية سوق أشبيلية ، وفى الحقيقة تعتبر أشبيلية موطن الموسيقى والغناء ؛ وجميع المباهج التى ترتبط فى أذهاننا بذكر مسلمى الأندلس وحياتهم فى سهول أسبانيا الزاهرة . وكانت أشبيلية أيضا بلد الحدائق الرائعة الجمال ، ومعارض الزهور التى لا تجارى فى أسبانيا .

* * *

هذه هى حالة الحضارة العربية الإسلامية فى مركزها العربى فى أسبانيا ، أوائل القرن الحادى عشر ، غير أن ثورة مفاجئة نشبت ، وقبض الحجاب من الصقالبة والبربر على دفة الدولة ، وغدت قرطبة مسرحا للنزاع والحروب الأهلية مدى عشرين عاما ، وعندما تخلى هشام الثالث آخر الأمويين عن العرش سنة ١٠٣١ م ، كان نصف قرطبة قد عمه الخراب .

وبذلك بدأ عهد أهل المغرب فى الأندلس، وتقلد أعنّة الحكم أسر متفرقة متنافرة فى سرقسطة وأشبيلية وغرناطة ومالقة والجزيرة الخضراء وبطليموس وبلنسية ومرسيا ، ولم تعد هذه الأسر قادرة على مقاومة الزحف الأسبانى المسيحى .

وأن انهيار دول المسلمين بالأندلس شيئاً فشيئا يعتبر مأساة سياسية ، على أن تلك الفترة ذات أهمية خاصة فى حضارة العرب والغرب . ذلك أن الحروب الأهلية أفزعت العلماء ، الذين هجروا قرطبة إلى المدن الأخرى مثل أشبيلية وغرناطة وطليطلة . وتمتعت أشبيلية مدى فترة قصيرة بازدهار عظيم ، إذ بلغ سكانها فى عهد بنى عباد ٤٠٠٫٠٠٠ نسمة ، وغدت مركز المرح والسرور فى الأندلس إذ ذاك على نحو ما هى عليه اليوم .

ولم يؤثر النزاع الذى نشب بين العرب وأهالى أسبانيا المسيحيين على التبادل الثقافى بين أصحاب الديانتين العالميتين الكبيرتين أو فى الصلة الحضارية القائمة

بينهما ، وكان كل فتح مسيحى جديد لمراكز الدراسة العربية الإسلامية يؤدى إلى توصل المسيحيين إلى كنوز جديدة من الكتب ، لم تترك على رفوفها دون قراءة ، لأن الملوك المسيحيين شجعوا فى حماسة دراسة الكتب العربية وأصبحت هذه الكتب منبعاً لا ينضب للحضارة الأوروبية [١] .

---

(١) أنظر كتابنا (العرب فى أوروبا) تجد كثيراً من التفاصيل .

٩ — العرب فى موكب الحضارة العالمية

الأهداف القومية والأهداف العالمية :

لا شك أن الدولة التى تسعى إلى تحقيق أهداف يعتقد شعبها وشعوب الدول الأخرى أنها تعد بمثابة خطوات نحو تحقيق الصالح العام ، تكون قد جنت فوائد عظيمة . فإن الدولة التى تريد أن تقنع الدول الأخرى بأن تحذو حذوها أو بأن تفعل كما ترى يجب أن تحمل تلك الدول على الاعتقاد بأنها تعمل فى سبيل خيرها وخيرهم . ونتيجة ذلك نجد أن جميع الدول تدعى أنها تعمل حقًّا من أجل خير البشرية .

ليس هذا الأمر يسيراً كما يبدو ، لأنه إذا كان على الدولة أن تقنع الدول الأخرى بأن أهدافها تسعى إلى تحقيق المصلحة العامة ، فلا بد لها من أن تراعى القيام ببعض الواجبات وأولها أن تؤمن الدولة نفسها بذلك ، لأنه من الصعب جدًّا للمرء أن يحمل الآخرين على الاعتقاد فى أمور لا يؤمن هو نفسه بها . فالصدق والإخلاص هنا أمران ضروريان . فلابد أن تؤمن الجماعة القومية بل وزعماؤها بوجه خاص ، تؤمن إيماناً عميقاً بأن ما تفعله هو فى سبيل الصالح العام .

ولتحقيق ذلك ، يجب على كل جماعة قومية أن تضع لها من المبادىء المثالية ما يستهوى القوميات الأخرى ، مثل : المساواة بين البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وأديانهم . أو شعارات مثل : (الحرية والمساواة والإخاء) أو الشعارات التى تنادى بتحقيق السلام العالمى . حقًّا أن بعض الدول تنادى بهذه الشعارات فى الوقت الحاضر لكنها لا تنفذها ، فالولايات المتحدة الأمريكية

تنادى بمبدأ (المساواة) لـكن الأمريكيين لا يشملون بقولهم هذا الزنوج . كما أن الفرنسيين لم يخطر ببالهم أن يمنحوا الحرية والمساواة والإخاء إلى أهـالى مستعمراتهم . إلا أن هذه الحقائق كلها لا تقضى على ما لهذه المبادىء من أنها مثل عليا تحقق البشرية دائماً تقدما نحوها .

ولولا وجود هذه المبادىء والتقاليد الإنسانية ، لـكان من المستحيل أن يؤمن أحد بما تظهره دولة ما من حب للغير . ولقد آمنت كل من ألمانيا النازية وإمبراطورية اليابان برسالتيهما ، غير أنهما لم توفقا فى حمل الدول الأخرى على الإيمان بمعتقداتهما لأنه لم يكن لدى أى من الدولتين (مثل إنسانية) تصلح للتصدير . فقد كان الألمـان حاذقين فى تمزيق اعتزاز البريطانيين بأنفسهم ، بيد أنهم لم يستطيعوا قط أن يحملوا الآخرين على تصديقهم . وتحدث اليابانيون عن خلق مجال يحقق فيه الرخاء الشامل ، وتحدثوا أيضا عن شعار (آسيا للآسيويين) ولـكن لم تنظر إليهم تلك الشعوب التى هزموها على أنهم محررون للشعوب .

ولـكن يجب ألا يغيب عن الأذهان أنه حينما يدرك البشر الفائدة التى تتحقق من هذه المبادىء الإنسانية سيعملوا على خلقها . كما أن هذه المبادىء والآراء إنما هى نتيجة تطور ظل عدة قرون ، ولا يمكن أن تخلق بين يوم وليلة .

ناقش (برتراند راسل) إمـكان تطور (القومية) إلى (العالمية) فقال : الشعور القومى حقيقة لا يمـكن نـكرانها ، كما لا يجب تجاهلها فى المجتمعات ، فإنه يقوى ويتمكن ويصير مبعثاً لنضال طويل ، ولا يمـكن عندئذ رده إلى حظيرة السلام إلا بتركه حراً طليقاً ما دام غير وحشى . ولـكنه ليس فى ذاته من المشاعر المحببة أو الخيرة ، فـكل شىء يضيق من التعاطف العام للجنس الإنسانى كله بغيض مقيت . أما الشعور الوطنى فيتسم بعنصر خفى أو واضح

من العداء للأجانب . وما كان لهذا الشعور الوطنى أن يوجد أمة حرة تمام الحرية من ضغط خارجى عليها بعداء مماثل .

كل إنسان على حق إذا اشتغلت أفكاره بوطنه أكثر من اشتغالها بالأوطان الأخرى ، لأن أعماله أعمق تأثيراً فى أمته منها فى أية أمة أخرى . بيد أنه من الواجب أن تختلف هذه النظرة فى زمن السلم ، ففيما يختص بالمسائل التى تهم الأمم الأخرى كما تهم أمته ، عليه أن يعد الحيز العالمى فوق كل شىء ، وألا يدع عقله محدوداً منطوياً على مطالب الجماعة القومية وعلى مطالب أمته .

إن الثقافة خير ما يثبت إمكان تطور (القومية) إلى (العالمية) ، فلن تكون الثقافة القومية ثقافة أصيلة إلى بمقدار ما تشترك به الأمة من جهد فى تطور الثقافة العالمية . فإذا كان لأمة من الأمم قسط وافر من البحث العلمى الخالص ، ومن الأدب الرفيع السامى ومن الدين القويم ، ثم إذا كان لها قدرة على تمثيل هذه الثقافة العالمية بمختلف وجوهها ، عدت ثقافة هذه الأمة صادقة أصيلة ، فليس معنى الثقافة القومية أن تكون محدودة بالحدود الجغرافية أو بالأصول اللغوية أو بعوامل الجنس والدين ، بل معنى الثقافة القومية أن تخرج الأمة على العالم ببعض هذه الأفكار العامة ، وأن تشترك فعلا فى بناء العالم وتعميره وحضارته .

القومية والسلام العالمى :

السلام هو أحد الأهداف القومية . إن السلام كلمة عامة كثر استخدامها حتى أنها كادت أن تفقد مدلولها . ونحن نعنى بالسلام (انعدام الحرب) . ولكن من المؤكد أن هذا ليس هو المعنى الوحيد الذى يمكن أن نعطيه للسلام ، ولكنه أفضل تعريف يخدم أغراضنا الحالية ، لأن الدول عندما تحلم بالسلام لا تفكر فى وسائل زيادة التفاهم الدولى ، أو توطيد مشاعر الإخوة بين

البشر ، فإن كل ما تريده تجنب قيام حرب عالمية أخرى .

لقد أصبح السلام — فى القرن العشرين — هدفاً قومياً هاماً أكثر مما كان من قبل . فقد كان الدمار الشامل الذى نجم عن الحربين العالميتين عاملا على ظهور رأى ينادى بأن قيام حرب عالمية ثالثة كفيل بالقضاء على البشرية : إن اختراع الأسلحة الحديثة الذرية والهيدروجينية والصواريخ الموجهة ، جعل قيام حرب عالمية أمراً فظيعاً لا يجرؤ على الخوض فيه إلا رجل مجنون . إذ أن طبيعة الحرب قد تغيرت تغيراً كبيراً ، وازدادت بذلك أهمية السلام بوصفه هدفاً قومياً .

إن السلام قد أصبح هدفاً فى حد ذاته ، يسعى الناس الى تحقيقه بغض النظر عما قد ينتج عنه من تأثير على الأهداف القومية الأخرى . وقد يكون السلام فى بعض الأحيان مكملا للأهداف القومية الأخرى ، وأحياناً يكون سابقة ضرورية من أجل تحقيق أهداف قومية أخرى ، وعندما تكون دولة ما فى حالة تدهور فإن السلام ضرورى لها بوجه عام إذا أرادت أن تحتفظ بما تملكه من قوة وثورة كما أن نزع السلاح أو إتاحة حرية أكبر أمام التجارة أو استعادة مستعمرة بعد فقدانها أو تحقيق وضع من الأوضاع مستقبلا . كل هذه أهداف قومية يعضدها جميع المواطنين . ويبدو ذلك واضحاً فى خلال الأزمات ، فعادة لا يبدى غالبية المواطنين العاديين فى دولة ما فى الغالب اهتماماً كبيراً بالشئون الدولية ، مالم تكن هناك على الأقل أزمة مايرون أنه من المحتمل أن تؤثر على مصالحهم المباشرة .

ناقش (برتراند راسل) إمكان إدماج الدول فى (دولة عالمية واحدة) فقال : نلاحظ ظاهرة هى ازدياد رقابة السلطات على الفرد زيادة لم تتحها فى حدود جماعة ضيقة . ولم يحدث فى التاريخ الماضى أن كانت هناك دولة كبيرة استطاعت

أن تمارس السيطرة المطلقة على رعاياها : وما دامت هذه الأرض محدودة فإن هذا الاتجاه لابد أن ينتهى إلى وجود دوله عالمية واحدة إلا إذا قامت فى سبيله العوائق ، ولكن مثل هذه الدولة لن يوجد من ورائها عدو خاص تخشاه ، فيكون هذا الخوف من الخطر وكونه الأداة النفيسة والفعالة فى أفق الجماعة يجعل هذه الأداة تصبح عديمة الجدوى على فرض تحقيق الوضع الجديد ، وسيتبع هذا أيضاً اختفاء فكرة القومية ، وقيام حكومة عالمية واحدة .

السبيل الى حضارة عالمية :

هل يمكن أن تكون هناك حضارة عالمية ؟ هل يستطيع العربى أو اليابانى أو الأمريكى أن يروا العالم ، بما فيه من أمم وعقائد وتقاليد ، كأنهم ملكهم هم أنفسهم ؟ هل يستطيع العربى أن ينظر إلى (برناردشو) أو (شكسبير) نظرته إلى (الجاحظ) أو (المتنبى) ؟ وهل يستطيع الإنجليزى أن يرى فى ابن رشد أو ابن خلدون مثل ما يجب أن نراه نحن فى (بيكون) أو (هربت سبنسر) إن بيئة الفرد الاجتماعية وحضارته قد لا تقتصر على البيئة المادية التى تحيط به ، بل يمكن أن تكون بيئة وحضارة عالمية إذ هو نشأ على دراسة العالم أجمع مع غير تقيد بهذه البيئة المادية المحدودة .

تحدث (برتراند راسل) عن أهميه التعاون العالمى فقال : لقد تبدت لى أهمية التعاون العالمى خارج محيط السياسة على أثر تجربتى الخاصة . فمنذ أمد قريب، كنت أشتغل بتدريس علم جديد ، لا يستطيع تدريسه إلا رجال معدودون فى العالم . وكان عملى فى هذا العلم يعتمد على مؤلفات رجل ألمانى وآخر إيطالى ، وكان يفد إلى الطلاب من جميع أقطار العالم ، من فرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا واليونان واليابان والصين والهندوأمريكا . ولم يشعر أحدنا بالاختلاف القومى. كنا نشعر أننا خلاصة الحضارة ، نبنى طريقاً جديداً فى غابة المجهول البكر

فكنا نتعاون جميعاً فى الواجب المشترك ، وكانت تبدو الحزازات الدولية والقومية والسياسة تافهة ، عابرة ، باطلة .

وليس معنى ذلك أن يكون التعاون فى العلم المجرد سبباً فى تقدم التعاون العالمى ، فإن المشاكل الاقتصادية والمسائل التى تتعلق بحقوق العمل ، وكل أمل فى الحرية والإنسانية . كل ذلك يتوقف قبل كل شىء على خلق نية عالمية حسنة .

وما دامت تسيطر الكراهية والخوف والشك ، وكل هذه العواصف البغيضة على حياة الأفراد ، فليس لنا أن نرجو تفادى طغيان العنف والقوة . يجب أن يتعلم الإنسان الشعور بالمصالح العامة للجنس البشرى الذى يصبح الكل فيه واحد ، بدلا من المصالح الموهومة التى تنقسم من أجلها الدول . وليس من الضرورى أن نقضى على المميزات الحضارية التى تتميز بها الأمم المختلفة ، فإن هذه الفروق هى التى تجعل مقدور كل أمة أن تضيف لوناً خاصاً إلى تراث المدنية والحضارة .

تسعى الدول القومية إلى تعزيز قواها لصيانة مصالحها بشتى الطرق والوسائل ، ولكن المسئولين عن اتباع تلك السياسة فى بعض الدول الكبرى ينسون أنها قد تضر بمصالح أمم وشعوب ودول . وقد يؤيد الأفراد فى الدول التى تتبع سياسة السيطرة والتسلط والاستعمار سياسات حكوماتهم ويؤيدونها لما تنطوى عليه تلك السياسة فى رأيهم من تحقيق للمصالح الوطنية ، ولكنهم غالباً ما ينسون أو يتناسون ألوان الظلم والهوان قد تلحقها السياسة الاستعمارية وأساليب التسلط بالأبرياء الضعفاء من أفراد الشعوب المغلوبة .

إن الكتل البشرية المنتشرة فى هذا العالم الفسيح غير متجانسة ، ولن تكون متجانسة حتى ولا متساوية ، لا فى التكوين ولا فى المظاهر الأخرى

كاللغات والألوان والنزعات الحضارات .ولكن هذا التباين الكامل فى البيئات والقارات بين الأجناس لا يمنعنا من القول بأن جميع الناس فى كافة أنحاء العالم يتساوون فى الحقوق أمام القانون الإنسانى العام ، ولهم الحق الكامل فى التمتع بالحياة الحرة الطليقة من قيود العبودية . وكل أمة فى هذا المجتمع الواسع لا تتمتع بحق الحياة الغير المستعبدة لا تستطيع أن تنتظم فى حلقة الأمم الحائزة على تكوين اجتماعى منسجم .

تحدث (برتراند راسل) عن وسائل السلام والتعاون العالمى فقال : إن الدين والأخلاق والمنفعة الاقتصادية ومجرد الإبقاء على الكيان البيولوجى للبشرية أو تتبع أسباب هذا الإبقاء تؤدى إلى التعاون العالمى . ولكن الغرائز القديمة التى توارثناها عن أسلافنا القبليين تهدد هذا التعاون . ولذا فإنه لتحقيق فكرة توحيد البشرية علينا توجيه الغرائز فى نطاق آخر ، وعن طريق تدعيم سلطات القانون .

لا بد لنصل إلى (حضارة عالمية) من وجود نظام مستمر ثابت ، ولا بد من إيجاد نظم ديمقراطية واشتراكية تكافح الفقر والجهل والمرض ، وتنمى فى نفوس الأجيال الجديدة نوعاً من (الولاء العالمى) ، وتوفق بينه وبين ولائنا للجامعات القومية . ولا بد قبل ذلك أن نقضى على أسباب العدوان ، وأن تتنازل القوات الدولية الكبرى عن سياسة الاستعمار والتوسع .

العرب فى موكب الحضارة الانسانية :

عاش العرب طول حياتهم على مر العصور على اتصال مباشر بإخوانهم فى البشرية فى شتى أنحاء العالم وساهموا بنصيب كبير فى تطور الحضارة والمدنية فى شتى ميادينها وعلى اختلاف ألوانها ، وحاولوا دائماً أن يتطوروا من حسن إلى حسن ، فكان للعرب دائماً رسالة عالمية إنسانية .

في العصر الجاهلي ، قبل ظهور الإسلام ، كان العرب لا تتوحدهم قومية واحدة أو دولة متحدة ، فعاشوا متفرقين في قبائل كثيرة العدد انتشرت في شتى أرجاء شبه الجزيرة العربية ، لكل منها تقاليدها ونظمها وأساليب حياتها ، ولكنها حرصت كلها على أن تكون على صلة بالعالم ودوله الكبرى في ذلك العصر .

ارتبطت جزيرة العرب بالممالك المجاورة بصلات تجارية كثيرة ، وعرفوا كثيراً من الطرق البحرية والبرية ، وقامت التجارة في أول الأمر على أكتاف اليمنيين ، ثم حل محلهم عرب الحجاز منذ القرن السادس الميلادي ، فكان الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحيثيين ، ثم يبيعونها على حسابهم في أسواق مصر والشام وفارس ، ولا شك أن هذه العمليات التجارية كانت تؤدي إلى امتزاج في الدماء واللغات والحضارات .

كانت الجزيرة العربية تقع بين دولتين عظيمتين ، الدولة الفارسية في الشرق ، والدولة الرومانية في الغرب ، وقد حاول الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لغزوهم وسلبهم ، ولكن وقفت أمامهم الصحراء العربية القاحلة الموحشة ، فرأى الفرس والروم أن خير وسيلة لاتقاء شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يستقروا على التخوم يزرعون ويتحضرون ، فيكونون حصناً يمنع غارات البدو ، فتكونت إمارة الحيرة على تخوم الفرس ، وإمارة الغساسنة على تخوم الروم .

أما الرسول فقد عمل على أن يحقق نظرية عالمية الإسلام ، فبدأ بأن حارب العصبية القبلية ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، واعتبر نفسه رسولا لجميع البشر ، وهدف إلى تحطيم الحواجز الجنسية ، فكان يقول دائماً : (بعثت إلى الناس كافة) ، كما خطب في حجة الوداع فقال (كلكم لآدم وآدم من تراب ليس

لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى) ، كما كان يقول : (اسمعوا وأطيعوا وإن تأمّر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة) . وقرب الرسول إليه كثيراً من العناصر غير العربية التى اعتنقت الإسلام ؛ مثل سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى ، وحينما اضطهد المشركون المسلمين أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة . وكتب الرسول إلى ملوك وأمراء الدول والمماليك الكبرى المعاصرة له ، مثل كسرى فارس وقيصر الروم والمقوقس زعيم القبط فى مصر ، ونجاشى الحبشة وغيرهم . واصطدمت الدولة العربية الإسلامية التى قامت فى عهد الرسول بالدولة الرومانية فى بعض المعارك على الحدود بين الدولتين .

وفى عهد الخلفاء الراشدين استمر العرب على اتصال دائم بالعالم ، وأبرز أشكال هذا الاتصال الفتوحات العربية الإسلامية فى خلافة أبى بكر وعمر بن الخطاب ، فقد قضى العرب المسلمون على الدولة الفارسية . وانتزعوا بلاد الشام ومصر من الدولة الرومانية . لم يفتح العرب الأمصار ولم يحكموها فحسب ؛ بل حاولوا أن ينشروا فيها دينهم وحضارتهم . كما جاهد العرب كثيراً فى الاحتفاظ بقوميتهم ولم يفنوا ذاتيتهم ولا شخصيتهم كما فعلت القبائل الجرمانية حينما استولت على روما ؛ وكما أضاع المغول شخصيتهم لما تقدموا فى آسيا ؛ ولكنهم حفظوا قوميتهم ونشروا دينهم ولغتهم فى الممالك والجماعات التى حكموها ؛ وكان كل هذا بدون ضغط منهم .

ولكن رغم اعتزاز العرب بحضارتهم العربية ؛ فإنهم وجدوا أنفسهم منساقين رغماً عنهم إلى الاختلاط والامتزاج بالحضارات الأخرى . ففى الأمصار المفتوحة ؛ تقبل كثير من الأهالى من غير العرب الإسلام ؛ ونزلوا الحواضر العربية ؛ وامتزجوا بالعرب وأخذ هؤلاء جميعاً يشتركون فى الحياة السياسية والاجتماعيه والاقتصادية الجديدة ؛ ولم يكن العرب أكثرية إلا فى الجزيرة

العربيـــة نفسها ؛ أما فى الأمصار المفتوحة فقـــد كان العنصر الأجنبى يمثل الأغلبية .

شمل الإمتزاج جميع نواحى الحضارة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والدينية . ولما كان العرب أقل حضارة من بعض الشعوب الخاضعة لهم ، فقد اقتبسوا منها كثيراً من مظاهر الحضارة ، وخاصة النظم الإدارية . ولـكن العرب نشروا بين هذه الأقوام شيئين عظيمين : اللغة والدين ، فقد سادت اللغة العربية وهزمت اللغات الأخرى الأصلية ، وصارت لغة الحـكومة والعلم .

يرى البعض أنه لم تكن هناك حضارة عربية ، وإنما كانت هناك حضارة أمم إسلامية ، ويذهبون إلى أن الأمم التى دخلت الإسلام حملت معها حضـارتها وثقافتها ، وإذا فالحضارة الإسلامية لا يمكن أن تنسب إلى العرب وحدهم إنما يجب أن تنسب أيضا إلى هذه الأمم الأجنبية التى خضعت للاسلام .

لم تكن عناصر سكان الأمصار المفتوحة غريبة على العرب الفاتحين ، كما أن فروقهم الحضارية لم تقف حائلا فى سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلم العربيـة واعتنق الإسلام ، وانضم إلى الدولة العربية . فقد كانت الحضارات زمن الفتح العربى متقاربة فى مختلف المواطن ، فالحضارة الإغريقية غلبت الحضارة الرومانية فى القسطنطينية ، وهذه أخذت الـكثير من الحضارة الفارسية لاتصالها السياسى والحربى ، كما أخذ الفرس عن اليونان من قبل . من المؤكد أن الحضارة العربية الإسلامية كانت فى أول الأمر متأثرة بالحضارتين الآرامية والعربية ، ولـكن هذا لم يستمر بعد امتزاجها بالحضارات اليونانية والرومانية والفارسية وحضارات وسط آسيا .

كان هناك نظامان سياسيان كبيران : أولهما إمبراطورية عربية خلقها العرب وصار حكمها وفاقاً للنظم العربية نفسها ، وهذه الإمبراطورية انتهت بسقوط

بنى أمية . وثانيهما الإمبراطورية الإسلامية العباسية التى كان العرب فيها جماعة من المسلمين ، والتى حكمها جماعات إسلامية مختلفة منهم العرب .

كانت الدولة الأموية تعتز فى سياستها بالحضارة العربية وتعمل من أجلها ، فلم يتول القيادة والحكم إلا جماعة من أبناء البيوتات العربية ، وكانت جيوشهم كلها من أصول عربية . وتجلت سياسة الأمويين العربية فى تعصبهم للعروبة وصراعهم للقوميات الأخرى . وتجلى هذا الصراع فى عدة نواح : الجزية ، والعطاء ، والخراج ، والآداب ، والعلوم ، والفنون ، والوظائف .

تابع الخلفاء الأمويون سياسة الفتح ، فأسل معاوية بن أبى سفيان جيوشاً غزت السند وأفريقية ، كما قام الحجاج فى عهد عهد الملك بن مروان بفتوح فى الأطراف الشرقية للدولة . وفى عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السند وبخارى وخوارزم وسمرقند ، كما فتحت الأندلس . وأدت هذه الفتوحات إلى تعريب لغوى وجنسى وأدى إلى امتزاج الحضارة العربية بحضارات أخرى أجنبية .

كانت الدولة التى أسسها العرب هى الدولة العظمى الوحيدة التى قامت باسم الدين والتى اشتقت منه جميع نظمها ، وأصبح الإسلام هو الرابط بين العناصر المتنافرة التى تمثل قوميات عديدة ، وأصبح الإسلام بالنسبة لهذه العناصر مسألة اقتصادية واجتماعية وأساساً للحضارة .

لعبت اللغة العربية دوراً كبيراً فى مزج القوميات والحضارات والعناصر المختلفة المتنافرة فى الأمصار المفتوحة . فقد أدى استعمال اللغة العربية إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجاً قوياً فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربى الحاكم ، إذ ربطت اللغة العربية جميعَ البلاد برباط معنوى حضارى

أدى التنافس بين القومية العربية والقومية الفارسية فى العصر الأموى إلى ظهور الشعوبية ، التى بدأت تنادى بمساواة العرب والموالى ثم تطورت فى

العصر العباسى ، فصارت تنادى بأن الفرس أرفع حضارة من العرب .

فى العصر العباسى ، كانت الدولة على صلات حضارية بشتى الدول العالمية ، صلات صداقة أو عداء ، أما علاقات الصداقة ، فقد تجلت هذه الصلات بوضوح فى القرن التاسع الميلادى الذى شهد شخصيتين عظيمتين — يبرزان فى الشئون العالمية : إحداهما شخصية شارلمان فى الغرب . والأخرى شخصية هارون الرشيد فى الشرق . ولقد كان هارون بلا مراء أحسن الرجلين وأكثرهما قوة ويمثل أعلى الثقافتين . ولقد كانت علاقة الصداقة المتبادلة بين هذين المتعاصرين تحركها بطبيعة الحال المصالح الشخصية ، فأما شارلمان فقد كان ينظر إلى هارون كحليف قوى ضد خصومه البيزنطيين ، وكذلك كان هارون يرغب فى أن يستغل شارلمان ضد منافسيه وأعدائه الخطرين جيران شارلمان وهم الأمويون فى الأندلس الذين نجحوا فى تأسيس دولة قوية زاهرة . ولقد وجدت هذه المشاركة فى العواطف القلبية أحسن تعبير ، كما قال كتاب الغرب ، فى تبادل عدد من السفارات والهدايا بين الفريقين .

أما صلات العداء فكانت بين العباسيين والبيزنطيين ، فقد استؤنف النزاع الذى استمر أكثر من قرن بين الدولة الإسلامية ، والدولة البيزنطية ، فى عهد المهدى (٧٧٥ — ٧٨٥) الخليفة العباسى الثالث ، وقاد الحملة ابنه وولى عهده هارون الرشيد ، فوصل بها إلى البسفور واضطرت الإمبراطورة إلى الصلح ودفع الجزية حتى إذا تولى هارون الحكم استمر فى الحملات العسكرية على الدولة البيزنطية ، واستولى على بعض مدنها . وفى سنة ٨٠٦ قاد المعتصم جيشاً ضخماً توغل به فى الأراضى البيزنطية واحتل عمورية مسقط رأس الأسرة المالكة .

فى العصر العباسى ، وصلت بغداد إلى درجة عظيمة من الحضارة ، وبخاصة فى خلافة هارون الرشيد ، ولم يكن قد مر على بغداد منذ تأسيسها أكثر من

نصف قرن ، ولكنها مع ذلك نمت حتى أصبحت مركزاً عالمياً فى الثروة ، وحازت مكانة دوليه رفيعة . لم يكن ينافسها فيها إلا بيزنطة فقط . فلما وصلت الدولة العباسية إلى ذروة مجدها لم يكن لبغداد منافس أو نظير فى كل مدن العالم.

فى سنة ١٢٥٣ وصل هولاكو إلى بغداد فخربها وقتل الخليفة المستعصم ، وقتل كبار الفقهاء ورجال الدولة ، واستولى على التحف والأموال ، وأحرق قبور الخلفاء وألقى بالكتب التى حوت التراث العربى فى نهر دجلة ، حتى قيل إنه أقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة ، مما أثر فى الحضارة .

ومما يدل على عظمة بغداد بالنسبة للعالم فى ذلك الحين ، تلك التحذيرات التى تقدم بها البعض إلى هولاكو التى كانت تنذر بالويل كل من يجترئ على انتهاك حرمة « مدينة السلام » أو إسقاط الخلافة العباسية . ولقـــد ذكر هولاكو أنه إذا قتل الخليفة فإن نظام العالم أجمع سينهار ، وتختفى الشمس، ويمتنع المطر ولا تنمو النباتات بعد ذلك .

انحصر الإسلام من ناحية الشرق بهؤلاء المغول المتبربرين رماة النبـل والفرسان، ومن الغرب بالفرسان المدرعين من جنود الصـليبيين . ففى آخر القرن السابع الهجرى (٦٩٩ هـ) دخل غازان التترى بلاد الشام فأعمل التخريب والنهب والسلب .

وفى أوائل القرن التاسع (٨٠٣ هـ) خرب تيمورلنك مدينـة بغداد وذبح كثيراً من أهلها وخرب دمشق وحلب . وكما تعرض العرب لأخطار المغول ، تعرضوا لأخطـار الصليبيين حتى ظهر صلاح الدين الأيوبى . فبدأ زحفه فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، وهزم الصليبيين فى حطين ثم طبرية ثم عكا ثم استولى على كثير من مدن الساحل من يافا إلى بيروت . وتوج نصره بفتح بيت المقدس ، واستمر صلاح الدين يحاربهم حتى وقع الهدنة مع ريتشارد قلب الأسد ونقل الصليبيون الحضارة العربية إلى أوروبا .

وكما وقعت الحضارة العربية فى الشرق فى محنة ، لاقت الحضارة العربية فى الغرب محنة أخرى . فقد كان سقوط بلاد الأندلس فى أيدى الإسبان ضربة عنيفة أصابت العروبة : فمن هذه البلاد انبعث نور العرب فى غربى أوروبا ، فقد كانت الأندلس معقل الحضارة العربية فى قارة أوروبا طول ثمانية قرون وأدرك الإسبان ذلك فعملوا على إبادة العرب حتى إنهم لم يعفوا النساء والأطفال والشيوخ من القتل .

أراد الإسبان فى الأندلس القضاء على كل أثر للعرب والحضارة العربية ، فخربوا بيوت العرب وقضوا على الكتب العربية . فقد أمر الكردينال كسيمنس أعدى أعداء الإسلام والعروبة فى سنة ١٥١١ بإحراق الكتب العربية والمصاحف المخطوطة فى ميادين غرناطة ثم تولى ديوان التحقيق الدينى إبادة كل أثر للعرب كما أباد جميع المخطوطات العربية .

وقد قام العرب بنشر الحضارة فى إسبانيا قروناً طويلة ، ومن إسبانيا انتقلت الحضارة العربية إلى ممالك أوربا ، فكان جزاء العرب يوم ضعفت سيادتهم ، أن يقتلوا شر قتلة ، وتباد آثارهم كل إبادة ، ولم يستفد قطر من أقطار الغرب ما استفادته إسبانيا من العرب ، ولما جلوا عنها نعق فيها غراب الدمار وفقدت صناعتها وزراعتها وعلومها ، وأصبحت إسبانيا بعد فترة من خروج العرب أحط بلاد الغرب . فيقول ستانلى لانبول : إن فضل مسلمى الأندلس يتجلى فى همجية الإسبان وتأخرهم بعد أن خلت أرضهم من الإسلام . وقال لابريولا : لقد جعل العرب من إسبانيا جنة بديعة ، وكانت متأخرة جداً فى زمن القوط ، وجعل العرب إسبانيا أعظم مركز للثقافة الأوربية ، فقضى الفتح الإسبانى على عمل سبعة قرون قضتها إسبانيا فى ظل حضارة العرب .

أقبل الأوربيون على الاغتراف من معين الحضارة الإسلامية فى الأندلس

وها هو مثل يدل على ذلك : كان الإسبان المسيحيون يملأون أجواء أوروبا بالمديح والإعجاب بأعمال العرب وشرائعهم ومعاهدهم وحضارتهم ونظمهم والعمران الذين أدخلوه على البلاد الإسبانية . إن أمثال هذه الروايات جعلت الأفئدة والأسماع والأبصار فى ديار الفرنج تتجه إلى الأندلس . أرسل الملك فيليب البافارى إلى الخليفة (هشام الأول) يسأله السماح له بإيفاد هيئة تشرف على أحوال الأندلس ودراسة نظمها وثقافتها حتى يتمكنوا من اقتباس ما يفيد فوافق الخليفة على هذا الطلب . وأرسل الملك الجرمنى وفدا برئاسة وزيره الأول (ويليمين) الذى سماه الأندلسيون (وليم الأمين) . ثم أخذ بعض ملوك أوربا ينسجون على منوال الملك البافارى . فأرسل ملك إنجلترا جورج الثانى ابنة أخيه الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة تتألف من ١٨ فتاة من بنات الأمراء والأعيان إلى (أشبيليه) يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى ، كما ذكرنا .

ثم تلت هذه البعثات وفود أخرى قدمت من فرنسا وإيطاليا والبلاد المنخفضة ، ملأت معاهد غرناطة وأشبيلية ، واقتبست من الحضارة الأندلسية كثيرا من العلوم والآداب والفنون ، ولم تكتف أوربا بإرسال مثل هذه البعثات بل قامت بعض الدول الأوربية فى أواسط القرن التاسع الميلادى وما يليه تستأجر الأساتذة والخبراء العرب لتأسيس المدارس والمعامل وإحياء الصناعات العديدة ونشر لواء العمران والتنظيم فى بلدانها .

إن أعظم جسور نهر التيمس واسمه نهر Heycham أنشأه مهندس عربى وسماه على اسم الخليفة الأندلسى هشام الثانى . إن قباب الكنائس الكبرى فى بافاريا من صنع العرب . إن الأسطول البحرى الهولندى العظيم الذى قهر العمارة الإنجليزية على الشواطىء الإسبانية فى معركة (ليزبونه) عام ١١٥٢ من صنع العرب ، أما قائده فهو (أميرال البحر طارق) . إن صناعة القمصان

فى أوربا عرفها الأوربيون عن العرب ، وما كلمة (Chemise) إلا (قميص). إن مصانع الأندلس كانت تمد كل الدول الأوربية بمختلف أنواع الأسلحة والورق إن علوم الطب والصيدلة والجبر والفلك والكيمياء والجغرافية فى أوربا قامت على أسس عربية صميمة .

أدى الفتح العثمانى للبلاد العربية إلى نهاية مرحلة اقتباس الأوربيين من الحضارات العربية والشرقية ، فقد بدأت فى هذه البلاد عهود ظلام وجهل . فقد وضعت الدولة العثمانية حاجزا منيعاً يفصل العالم العربى عن أوربا خوفاً من امتداد أطماع الدول الأوربية إلى هذه الولايات العثمانية . لقد بدأ الاستعمار العثمانى للعالم العربى فى سنة ١٥١٦ ، أى فى القرن السادس ، واستمر إلى سنة ١٩١٤ فى القرن العشرين . وهذه القرون كانت قرون النهضة فى أوربا عرفت فيها الانقلاب الصناعى ، وتطور مبادىء الحكم من الاستبداد إلى الديمقراطية ، وظهرت الدساتير والمجالس النيابية ، وتطور المجتمع الأوربى نتيجة ظهور المبادىء الاجتماعية الجديدة .

ثم بدأ غزو الحضارات الغربية للعالم العربى بقدوم الحملة الفرنسية إلى مصر. وقد جلب الفرنسيون إلى مصر والشام طريقتهم فى المعيشة ، وأسلوبهم فى الحياة، وحضارتهم الخاصة . واصطدمت هذه الحضارة والمدنية بمدنية السكان الأصليين وطريقتهم فى الحياة . وقد ازداد الخلاف حدة عندما أضاف الفاتحون إلى حضارتهم جوانب مادية ووسائل الترف . وكان تأثير الأساليب الأوربية على السكان تأثيراً سيئاً ، مفسداً للآداب ، ولذا كان من الطبيعى أن يبذل هؤلاء السكان جهدهم لصد تيار هذه الحضارة الأوربية .

شمل صراع العرب للحضارة الأوربية كل مظاهر الحياة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، بل الدينية . واتخذ هذا الصراع والصدام أشكالا مختلفة متنوعة ، أولا رأينا حركات سياسية عديدة تصطبغ دائماً بصبغة

دينية . ثانياً شهدنا حركات وطنية ظهرت نتيجة للضغط الأوربى. ثالثاً رأينا نمو الصناعة الوطنية ، ثم رابعاً لمسنا المقاومة الوطنية للحكم الأجنبى .

نمّت هذه الحركات السياسية والوطنية المختلفة خوف السكان من كل شىء أجنبى ، سواء الأفكار أو الناس ، وخاصة الخوف من الحضارة والثقافة الأوربيتين اللتين تمثلان فى نظرهم المستعمر الأوربى الذى يناضلونه أو يحاربونه ونتيجة لارتباط الحضارة الأوربية بالحكم الاستعمارى الأوربى المقيت فى أذهان عرب مسلمى شمال أفريقية — مثلا — فقد ولدت هذه الحركات كرها للأجانب عامة وللأوربيين خاصة ، بصرف النظر عن كل ما يمت إلى الحضارة والثقافة الأوربية .

لقد فشلت الحضارة الأوربية فى إقرار السلام وتوطيده ؛ بل إن تقدم العلوم أدى إلى الحروب لا إلى السلام؛ بل إن إفلاس المثل العليا ليس إلا نتيجة منطقية للحضارة الأوربية القائمة على عبادة المادة . بل إن الحضارة الأوربية ركزت كل جهودها وثمار فكرها فى ناحية واحدة هى (الاستغلال) ، بل إن الاتجاهات الحديثة فى السياسة التى أخذت بها الدول الأوربية للوصول إلى السلام. إنما هدفها الأسمى هو ضمان بقاء (الاستغلال) وتنظيمه .

العرب والسلام العالمى .

يرى كثير من المفكرين أن الفروق بين الأمم والحضارات إن هى إلا فروق عارضة سوف تتلاشى بمرور الزمن ، ويرون أن العالم لا بد أن تكون غايته السلام وتعاون القوميات ، بحيث يصبحوا جميعاً أسرة واحدة يجمعها الحب والتعاون ويرفرف عليها السلام العالمى . وحاول هؤلاء المفكرون أن يقيموا حضارة عالمية يشترك فيها الجميع ، لا يفرق بينهم جنس ولا دين ولا لغة ولا ثقافة ولا ثراء ، فيعيش العالم فى سلام دائم تنتظم فيه القوميات وتتعارف فيه الشعوب وتتنازل فيه الدول العظمى عما تدعيه .

أصبح السلام — فى القرن العشرين — هدفاً حضارياً هاماً أكثر مما كان من قبل . فقد كان الدمار الشامل الذى نجم عن الحرب العالمية الأولى ، وهو أول صراع هام وقع بين الدول المتقدمة فى الصناعة بمثابة صدمة للعالم ، فساد شعور حينذاك بأن قيام حرب أخرى من هذا النوع كفيل بالقضاء على الحضارة.

إن السلام ، أو على الأقل عدم قيام حروب عالمية ، قد أصبح هدفاً فى حد ذاته ، يسعى الناس إلى تحقيقه بغض النظر عما قد ينتج عنه من تأثير على الأهداف القومية الأخرى . وقد يقال إنه لا يوجد شىء أسوأ من ذلك التدمير الشامل الذى قد ينشأ لو اشتبكت الدول الكبرى التى تملك أحدث الأسلحة فى حرب حتى النهاية . ومع أن الكثيرين يعتنقون هنا الرأى ، إلا أنه لا ينال موافقة جماعية والزمن وحده هو الخليق بأن يثبت ما إذا كان هذا الرأى سيتلاشى ، وتواصل حكومات الدول الكبرى أن تنظر إلى الحرب بصفتها إمكانية حقيقية وهى تستعد لخوضها وكأنها جزء هام من سياستها ، وحتى الآن لا يعتبر السلام إلا واحداً من أهداف عديدة ، ورغما من أهميته إلا أنه ليس بالضرورة أسمى هذه الأهداف .

تحول الشعور الاجتماعى إلى روح قومية ، وسوف يأتى اليوم الذى يصبح فيه الشعور الاجتماعى الفطرى شعوراً عالمياً. وسوف يأتى اليوم الذى يصبح فيه الولاء القومى جزءاً من ولاء عالمى هام .

إن العالم كوحدة لم يرتق بعد إلى ما ارتقت إليه القوميات . فكل وحدة قومية لها نظام مستمر ينتقل من جيل إلى جيل ، وليس للعالم مثل هذا النظام المستمر . وأفراد الوحدة القومية يمتلئون شعوراً بوجود وحدتهم ، ولكن قليلا منهم من هو إنسانى يشعر بوجود الإنسانية كوحدة عامة . والقوميات تكافح بعضها البعض ، لكن العالم لم يستكشف بعد الرذائل والأمراض التى يجب أن

يعمل على كفاحها . وللقوميات أديان وتقاليد وعادات يدرسها أفرادها ويتعصبون لها ، ولكن لم يدرس تقاليد العالم إلا القليل من الفلاسفة والعلماء . والقوميات يسرى بين أفرادها النظام ويحكم أفرادها القانون ، ولها قواعد منسقة فيما يتصل بالعمل والبطالة ، ولكن ليس فى العالم نظام عام ، وليس يحكم الأمم قانون واحد . ولذلك نقول إن العمل على تحويل القوميات إلى عالم يسوده القانون والسلام سوف يكون عملا عسيراً شاقا .

ولكن السلام أصبح ضرورة قومية ، فالمواطن عضو فى وحدة بشرية هى الأمة ، والأمة عضو فى وحدة بشرية كبرى هى العالم . والمواطن يحتاج إلى الأمة لحمايته وكفالة سعادته والأمة تحتاج إلى غيرها من أمم العالم لمعونتها ضد العدو الطبيعى والعدو البشرى ولضمان الكفاية الإنتاجية . إن الأمة فى العصر الحديث لا تستطيع أن تصد عدوان الطبيعة ، من فيضان أو زلازل أو قحط أو وباء ، فهى فى حاجة إلى تكاتف عدد من الأمم معها حتى تتحاشى خطر هذا العدو أو تصده ومن هنا نشأت المؤسسات العالمية لمكافحة الجراد والأوبئة، والفيضانات وغيرها . وهى لا تستطيع وحدها أن تصد هجوم العدو ، فهى فى حاجة إلى التحالف مع سائر الأمم حتى تتحاشى خطر الهجوم .

إن الهدف الذى يستهدفه المجتمع البشرى العالمى الآن قد أصبح واضحاً جلياً ، وهو يتلخص فيما يأتى : « تدعيم السلم العالمى الدائم وتحقيق الرخاء الشامل أى رفع مستوى المجتمع المادى والروحى إلى أعلى الدرجات التى يمكن أن تصل إليها الإنسانية .

وهذا الهدف على قصره وبساطته ينطوى على معان كثيرة ، ويتطلب أعمالا جبارة وحركات نشيطة فى جميع ميادين الحياة ، إذ أن السلم مثلا لا يتحقق ولن يدوم إلا بنشر وإنماء المحبة والمودة والأخوة العامة بين الناس وبين الأمم

والرخاء لا يتحقق ولا يمكن أن يكون شاملا إلا بتوجيه أفراد المجتمع جميعاً إلى أعمال منتجة مفيدة لأنفسهم وللآخرين ، وذلك لكى تكثر وتتضاعف كمية السلام والخدمات حتى تكفى لسد حاجات الجميع ولإشباع رغباتهم . ورفع مستوى المجتمع المادى والروحى معناه إنعاش الحضارة والمدنية وتعميم الثقافة والتعليم بين سائر الطبقات ولجميع أفراد المجتمع ، وتوفير أوسع الأوقات للجميع ليقوموا معاً بهذه الحضارة العظيمة ، وهذه المدنية الشاملة لجميع ميادين الحياة .

بين العرب اتجاهات عالمية تحاول تخطى المجتمع القومى العربى للوصول إلى المجتمع العالمى ، فجميع البشر يمثلون أسرة إنسانية كبيرة يجب أن تعيش فى مجتمع عالمى واحد كبير . وينادى هؤلاء بأنه حتى نستطيع بناء الوطن العربى ، والتهيؤ لحمل الرسالة الإنسانية ، فإننا محتاجون إلى السلام ، وفى أنفسنا وفى بلادنا وفى العالم كله .

إن هـذا السلام لن يوجد ما دام هناك دول تستعد للحرب ما استطاعت من عدة ، ولذلك نستنكر ، نحن أبناء الوطن العربى ، وجود مثل هذه الدول وما يقومون به من تأليب القوميات بعضها على بعض ، ونحن العرب نأبى أن نؤيد الدول المعتدية التى تهدد السلام العالمى لأننا بذلك نزيد سعير الكراهية المدمرة ، ونقضى على نهضتنا الوطنية الحرة والعمران البشرى بأجمعه .

إن السلام لن يستتب فى العالم ما دام هناك غزاة واستعمار ، وقد آن للبشرية أن تشفى من مرضها الوبيل هذا ولذلك فإن على العرب أن يعملوا دائماً على إزالة كابوس الاستعمار عن كل بقعة فى العالم ؛ سواء أكان هذا الغزو الاستعمارى سياسياً أو عسكرياً أو اقتصادياً أو فكرياً ، لأن مجرد وجوده يخلق بؤرة جرثومية تعرض جسم العالم كله للعدوى والهلاك . وإن العرب الذين

عانوا كثيراً من الاستعمار يدافعون دائما عن حريات الأمم جميعاً وحقها المطلق فى تقدير المصير ، والدفاع عن حقوق الإنسان والقضاء على كل تمييز عنصرى أو جنسى .

ولكن السعى لتحقيق السلام العالمى لا يمكن أن يقوم على أكتاف الوطن العربى وحده ، ولا بد من التعاون مع الأمم الراغبة رغبة صادقة فى السلام ، فى آسيا وإفريقية . وهذه الدول ، المحبة للسلام ، يمكن أن تكوّن حركة قوية تقف أمام الدول الاستعمارية وتفرض عليها التخلى عن سياستها الاستعمارية ومطامعها الدولية . ومن المؤكد أن مؤتمر باندونج الآسيوى الأفريقى كان أعظم دعوة عرفها التاريخ لإقرار السلام .

إن العمل لتحقيق السلام لا يتنافى مع القومية ، فالقومية لا تعنى الانعزالية أو الانكماش فى داخل حدود المجتمع القومى وقطع كل صلة للأمة بالعالم ، إن المشاكل الإنسانية ، والظلم ، والحروب ، لا ترجع أبداً إلى الوجود القومى ، بل ترجع فى أسسها إلى الأنظمة السائدة فى المجتمعات القومية ، كما لا ترجع الاتجاهات العنصرية أو الاستعلائية إلى الوجود القومى أيضاً ، بل ترجع إلى فقدان الوعى القومى الإنسانى الصحيح ، بالإضافة إلى أن القومية هى وجود اجتماعى تاريخى متفاعل ، وليست تراكماً بشرياً جامدا ، ينعزل فى حدود صلبة تمنع الاتصال الحضارى .

القومية العربية والانسانية .

إن القومية العربية لا تتعارض مع الإنسانية ، فالقومية العربية كوجود اجتماعي تاريخي للأمة العربية لا بد أن تقوم ، ولا بد أن تستند إلى أسس

إنسانية عميقة ، يتصل من خلالها الشعب العربى اتصالا صحيحاً طبيعياً بالإنسانية كلها ، وينفعل انفعالا صادقاً بآلامها وآمالها ومشاكلها وأهدافها ، ويترجم هذا الانفعال إلى عمل إيجابى ومواقف عملية .

إن القومية المعوجة تؤدى إلى إنسانية معوجة ، والإنسانية الحقة تبتدىء من القومية الحقة . ولهذا فإن الطريق إلى الإنسانية ، لا يمكن أن تبتدىء إلا من الوطن القومى . فالإنسان هو ابن مجتمعه ، والإنسان مهيأ بحكم ارتباطه القومى بمجتمعه وأرضه وتاريخه ولغته وثقافته ، لأن ينفعل بآلام قوميته وآمالها قبل أن ينفعل بآلام وآمال القوميات الأخرى . وهو عن طريق هذا الانفعال القومى أولا ، يصل إلى الانفعال الإنسانى ثانياً . وهنالم يعمل الإنسان على تحقيق إنسانية المجموع القومى الذى يحيا فيه ويربطه التاريخ به ، لن يستطيع أن يعمل على تحقيق إنسانية الإنسانية جمعاء .

إن القومية ذات المضمون الإنسانى الإيجابى هى الطريق الوحيدة الإيجابية للإنسان ، وهى الطريق الوحيدة للسلام الحقيقى الشريف . لا إنسانية حقة بغير قومية حقة ، ولا قومية حقة بغير محتوى إنسانى عميق . والقومية ليست نزعة ضيقة انعزالية ، فالقوميات الواعية هى وحدات اجتماعية متفاعلة ، تأخذ وتعطى ، وتزيد الحضارة الإنسانية غنى وخصباً وشمولا ، والتجربة الإنسانية عمقاً .

وهذه الأسس القومية تفرض أن تفهم القومية العربية على أنها ليست قومية عنصرية استعلائية عدوانية ، وليست قومية انعزالية منكمشة ، وأنها الطريق السليمة للانسانية السليمة والحضارة الزاهرة .

إن الفهم الصحيح للقومية العربية كوجود اجتماعى ، لا بد أن يوصلنا حتما إلى رفض الفكرة العنصرية والجنسية فى تفسير القوميات . لأن أى وجود قومى إنما يقوم على تفاعل عوامل اللغة والتاريخ والثقافة والتقاليد والأهداف

وليس على تخيلات وهمية عن الدم والجنس ، وإن الوحدة القومية هى هـذه الوحدة الاجتماعية التاريخية العامة ، وليست الدموية العنصرية . فالاتجاه القومى النازى ، قد ابتعد ابتعاداً كبيراً عن الفهم العلمى الصحيح للقومية ونشوئها ، وهو فى الواقع اتجاه يمثل الاختلال فى توازن القومية أكثر مما يمثل أى اتجاه قومى صحيح . والفهم الصحيح للوجود القومى العربى . سيوصلنا حتما إلى رفض الاستغلال والتعصب الذى جاء به الاستعلاء القاشى الذى يدعو إلى احتقار الفرد وإنكار حقه فى الحياة ما لم يكن من أفراد النخبة الممتازة .

كما أن الفهم الصحيح الواعى للوجود القومى سيوصلنا إلى أنه لا يمكن أن نتوصل إلى مفهوم الأمة الصحيح ، والوحدة القومية الحقيقية ، إلا على أساس تحقيق المساواة بين أفراد الأمة الواحدة فى الحقوق والواجبات . وإلا على أساس تحقيق التوازن فى العلاقة بين الفرد والمجتمع . إن هذا الفهم لمعنى الأمة والوحدة الحقيقية ، والقائم على إزالة الاستعلاء فى نطاق المجتمع القومى ، سيهيء بدوره لإزالة الاستعلاء نحو القوميات الأخرى .

الوطن العربى جزء من العالم ، والقومية العربية لون من التشكل البشرى . ووطننا العربى لا يمكن أن يعتزل سائر العالم لأنه جسر بين ثلاث قارات ، وإن قوميتنا لن تستطيع أن تحيا لنفسها ، لأن كل قومية حاولت جعل ذاتها غاية لها كانت تنتحر ، ولذا يجب أن تعتبر القومية العربية نفسها فلذة من فلذات المجتمع البشرى ، ومرحلة نحو تحقيق الحضارة العالمية .

إن كل قومية طرحت الرسالة الإنسانية جانباً ، وهى تظن أنها بذلك تحفظ جهودها من أن تتبدد فى التضحية لأجل البشر وأنه يحفظ كيانه من أن يذوب إذا تم الامتزاج فى أخوة شاملة . وإن كل قومية سارت فى هـذا

الطريق ، كانت الخاسرة لأنها تخلت عن الرسالة الإنسانية الحضارية .

ونحن ، أبناء الوطن العربى ، نذكر بفخار أنه فى هذا الوطن ولدت قبل نيف وثلاثة عشر قرناً حركة كانت لها رسالتها الإنسانية الرائعة ، رسالة تؤمن بالخالق العظيم رب العالمين ، وبأن الدعوة إلى سبيله تكون بالحكمة وبالموعظة الحسنة ، وبأن البشر سواسية يبتغون من فضله ويلتحفون برحمته ، فكانت دعوة إلى توحيد الإنسانية فى حقوق واحدة وهداية واحدة وإيمان واحد بإله واحد يتساوى الناس بين يديه ولا يتفاوتون بغير الفضل والصلاح ، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

إن الإنسانية والدعوة إلى حضارة عالمية لا تدعو إلى اختفاء كل شخصية قومية . فمثل هذه الدعوة حينئذ تؤدى إلى الخسارة أكثر مما تؤدى إلى النفع العام ، فالروح الإنسانية العالمية التى تدعو إلى روح أخرى تضاف إلى حب الوطن وليست شيئاً مأخوذاً منها . وكما أن الشعور بالوطنية لا ينقص من الشعور بحب الأسرة كذلك الروح العالمى الإنسانى لا يجب أن يحرمنا من الشعور بالقومية .

ولكن نوع هذا الحب القوى سيتغير ، فلن تصبح الأشياء التى يشتهيها المرء لقومه هى الأشياء التى يمكن تحصيلها على حساب الآخرين . ولكنها ستكون الأشياء التى تعظم بها البلد وتسمو بالنسبة لتقدم العالم كله . فسيرغب الفرد إذن أن تصبح بلاده عظيمة فى فنون السلام . وأن تكون عادة كريمة سامية ، وسيرغب فى أن تساعد البشر جميعاً فى طريقهم إلى عالم من الحرية أفضل ، ومن التعاون العالمى الذى لا يمكن أن نرجو للانسان سعادة بدونه ، ولن يرغب لدولته الانتصارات العنيفة العابرة فى التملك والسيطرة . وسيرى أن هذه الروح لا تشمل الأخلاق السامية فحسب ، ولكنها تشمل الحكمة الحقة

كذلك ، وأنها الطريق الوحيدة التي تسلكها الأمم المتنافرة المتخاصمة في عبورها إلى حياة يكون نماء الحضارة فيها ممكنا .

إن الرسالة العربية الإنسانية تنمو مع نمو نضالنا الآن ، وتتبلور من خلال تجاربنا اليومية ، وهي في جوهرها تعبير عن إنسانية الأمة العربية ، تستهدف إرساء جميع العلاقات الإنسانية على أسس الحق القومي والعدل والمساواة والمنفعة المتبادلة ، وهي في جوهرها تعبير عن إيجابية الحضارة العربية وبعدها عن التعصب والانعزالية وتوقها للعطاء ، وتعبير عن حيوية الأمة العربية ، لأن هذه الرسالة هي عملية أخذ وعطاء حضاري تتأثر بالتجربة الإنسانية كما تؤثر بها من خلال تجربتها القومية ، وهي تعبير عن إدراك عميق لمعنى وجود الأمة ومبررات وجودها .

الجامعة العربية وهيئة الامم المتحدة :

الوطن العربي جزء من العالم ، والقومية العربية لون من التشكل البشري ، والجامعة العربية هيئة من الهيئات الدولية التي تعمل من أجل السلام . والسلام ليس كلمة تقال أو حلماً يداعب الأجفان . ولكنه عمل متواصل قائم على تقارب أمم الأرض وتفاهمها وتعاونها . ولذلك ستعتبر الأمة العربية نفسها صديقة لسائر الأمم في العالم ، وتقيم معها علاقات تعاون وتعامل في كل ميدان : إقتصادي وثقافي واجتماعي . فالتجارة بين الدول يجب أن تكون حرة متبادلة . والتعاون الزراعي يجب أن يكون على أكمل وجه بين الدول . وتكون الفرصة متاحة لكل دولة حتى تنمي مشاريعها الصناعية وتقيم كيانها الاقتصادي وتفتح أبواب البلاد كافة أمام وسائل نشر الثقافة وتبادلها ، من كتب وصحافة وسينما وإذاعة . ويتم تبادل البعثات الدراسية والعلمية بين جميع الأقطار ، وتكون المدارس والجامعات في العالم شبكة متصلة الحلقات ، ويتم تبادل الآراء

والتجارب والأفكار فى يسر وحرية ومودة . أما التقارب الاجتماعى فيكون فى تشجيع السياحة والامتزاج والاختلاط ، بالأشكال التى تحفظ كرامة الأفراد والمجتمعات .

هذا التقارب والتفاهم والتعاون ينتهى جميعه فى ذروة كبرى ، هى تحقيق الوحدة العالمية بحضارتها الإنسانية . وقد قام البشر بعدة محاولات لتحقيق هذه الوحدة ، فكانت عصبة الأمم المنحلة ، ثم هيئة الأمم المتحدة القائمة ، وكانت الجامعة العربية .

لاشك أن هيئة الأمم المتحدة أكثر تحقيقاً للسلام من عصبة الأمم . فقد جمع ميثاق الأمم المتحدة بين الاتجاه المثالى والتقدير للواقع ، فإنه لاينظر إلى السلام الدولى كوضع مطلق دائم ، بل يعتبره وضعاً نسبياً يجب تدعيمه من وقت لآخر والمحافظة عليه بوسائل مختلفة . أما نظام عصبة الأمم المتحدة السابق فيقوم على أساس قانونى ليس للسياسة فيه المجال الواسع الذى يستحقه . كما أن هيئة الأمم المتحدة أصبحت عالمية أكثر مما كانت عليه عصبة الأمم من ناحية الأهداف والأغراض والأساليب لكل منهما ، إذ كانت الجهود التى بذلتها الدول والقرارات التى اتخذتها والأهداف التى ترمى إليها فى الفترة بين الحربين العالميتين تنحصر فى الدول الغربية ، أما دول الشرقين الأوسط والأقصى فقد أهملت كل الإهمال ، بل قد أصبحت هذه البلدان سبباً للمنازعات الدولية التى أدت إلى نشوب الحرب العالمية الثانية . أما جهود الدول وقراراتها وأهدافها التى بدأت فى تنظيمها منذ نشوب الحرب العالمية الثانية ، فقد روعى فيها تطبيقها على جميع شعوب العالم كلية بدون تمييز ، وميثاق الأمم المتحدة يشير إلى أن الهيئة لاتقبل إلا الدول المحبة للسلام ، أى الدول التى ترى الهيئة أنها على استعداد تام للقيام بالالتزامات المقررة فى الميثاق .

من واجب الأمة العربية إثبات وجودها فى كل منظمة دولية . بشكل يتيح الإستفادة من الجميع والتعاون مع كل دولة ، ويضمن لها عدم الخضوع لأية قوة ، ويحفظها بشخصيتها التى لاتعتمد فى بقائها على تقلبــات التوازن الدولى ، وإنما تعتمد على وعينا وإرادتنا وقوتنا . لأن هذه الأشياء بالنسبة لنا ، هى التى ستقرر مصيرنا .

من واجب العرب عامة ، والجامعة العربية خاصة ، أن يسعوا لجعل هيئة الأمم المتحدة مجمعاً عالمياً ، يضم أمم الأرض ، حيث تتبادل الآراء والتجارب فى حرية مطلقة من الـكبت والنفوذ ، وتتعاون على قدم المساواة فى كافة الميادين ، وتتعامل مع بعضها وفقاً للقواعد الأخلاقية ، وتكون الثقة واحترام الحقوق متبادلا بينها . ومن ورائها جميعا سيقوم رأى عالمى واع خير يسندها ويكلؤها ويوجهها نحو المستقبل المجيد .

أصبح لجامعة الدول العربية شخصية محترمة ، وكلمة مسموعة ، وأصبحت كتلة دولية يحسب حسابها ، وتنطبق عليها المادة (٥٢) من ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، ومن البديهى أن كل تكتل واتحاد يؤدى إلى القوة والمجد .

قامت الجامعة العربية على أساس ألا تقتصر جهودها على الدول التى انضمت إلى عضويتها ، فمازال هناك أقطار عربية ترزح تحت نير الاستعمار وتتطلع إلى التحرر والاستقلال حتى تنضم إلى شقيقاتها العربيات ليعملوا سويا من أجـل مجد العرب وخير العالم . فمدى نشاط الجامعة العربية يمتد من المحيط الأطلسى غرباً إلى الخليج العربى شرقا ، كما يمتد إلى عرب الأمريكتين ، ففى الأرجنتين مثلا نحو ٤٠٠ ألف عربى من بينهم من يتولون مناصب كبرى وعضوية المجالس النيابية . وليس هناك مايمنع من أن تتعاون دول الجامعة العربية مع الدول التى تربطها بها روابط تاريخية وثقافية وحضارية فى آســـيا وإفريقية واتحاد

الدول العربية لم يقم على تعصب عنصرى . كما على الجامعة العربية أن تعمل على كفاح الاستعمار فى كل مكان ، وأن تعمل على تحقيق السلام العالمى ، ومنع قيام حرب عالمية ثالثة تلك التى لاشك أنها ستؤدى إلى هلاك البشرية . وعلى الدول العربية أن توحد أصواتها فى هيئة الأمم المتحدة حتى يصبح صوتاً واحداً داويا ، فيفوز الأعضاء الذين يرشحونهم .

كلما زاد تماسك دول الجامعة العربية عظم الخير الذى يعود عليها ، وعليهم أن يعتمدوا على أنفسهم وعلى سواعدهم وعلى إمكانياتهم وحيويتهم ، حتى يصبحوا أقوياء فينزعوا حقهم انتزاعا . فالاعتماد على العدل الدولى عبث ، إذ لم يزل ميثاق الأطلنطى والنداء بالحريات الأربع وقيام نظام للعالم خير من عصبة الأمم من القضايا التى يعوزها التطبيق ، وقد رأينا كيف خذلت الهيئات الدولية بعض القضايا العربية . وإن كان هذا لايمنع العرب من التعاون مع الهيئات الدولية المختلفة .

العرب المعاصرون فى المجال العالمى :

إن الأمة العربية تمر فى لحظات انتقالها التاريخى الحاسم ، انتقالها من الماضى المظلم الذى ورثناه بتفككه وفساده وجموده عن عصور الانحطاط والاستعمار العثمانى الطويل ، الماضى المجزأ المستعمر المتعصب الفاسد الذى يتنافى مع طبيعة الوجود القومى العربى الواحد . الماضى الذى فيه جمود يمنع التقدم ، وقيود تكبل الانطلاق ، ويجعلنا نتخلف عن ركب الحضارة الإنسانية . الماضى الذى لا يحقق إنسانية الفرد العربى ولا يمنحه الفرصة لأن يحيا وينتج ويبدع ، ولا يتيح المجال للأمة العربية لأن تحقق مبرر وجودها كأنه حية فى هذا العالم فتنطلق وتعطى كما كانت طوال عصور التاريخ .

ثم انتقال إلى المستقبل المشرق الذى نريد . الموحد المتحرر الذى يتلاءم

وبطبيعة الوجود القومى العربى الواحد . المستقبل المتجدد المتطور الذى تسوده العدالة الاجتماعية ، وتوجهه القيم الإنسانية الحقة . المستقبل الذى يوفر للفرد العربى حياة حرة كريمة ، ويظهر إمكانياته العظيمة وطاقاته الكامنة . ذلك المستقبل الذى يتيح للأمة العربية أن تعبر عن معنى وجودها فى رسالة عربية إيجابية إنسانية ، رسالة تتصل اتصالا صادقاً بقيمة الإنسان أينما كان . عن طريق اتصالها اتصالا دقيقاً بقيمة الإنسان العربى فى الوطن العربى . ونحن العرب اليوم نعيش فى هذا الانتقال التاريخى الحاسم .

نشهد ، نحن العرب ، اليوم حولنا هذا النزاع الهائل الذى تهتز له أركان المعمورة فى الشرق والغرب ، ونلمس أثر هذا النضال فى أنفسنا إذ قد أخذنا منه بنصيبنا وشاركنا فى تضحياته وآلامه أمم الأرض جميعاً . فنحن نتساءل فيما بيننا وبين أنفسنا عما عسى أن يكون معنى هذا النضال ، وعما عسى أن يكون مبعثه الحقيقى ، وعما عسى أن يكون مداه ، وماذا تكون غايته ونتائجه .

ونحن اليوم معشر العرب ننظر إلى الحاضر والمستقبل بقلوب ممتلئة بالتطلع والأمل. فقد مضى علينا زمن طويل كنا فيه نحس أن العالم الأوروبى والأمريكى يتجه إلى غايته بغير أن يجعل اعتباراً لغاياتنا ، ويمضى فى تقدمه بغير أن يحفل بما يكون من ذلك التقدم على تقدمنا . ولكنا صحونا أخيراً إلى الحقيقة الواقعة وهى أن ذلك العالم الذى يحمل لواء المدنية اليوم لم يبلغ من تقدمه موضع السعادة التى كان ينبغى للأمم المتمدنة أن تنشدها ، فبين شعوبه من هم فى حالة سيئة ، وأن دول الأرض لم تستطع أن تبلغ الأمن والسلام بكل ما أوتيت من ثروة ومن علم. فهى مع كل تقدمها لم تستطع أن توفر الخير لكل أفراد شعوبها ، وما زالت تعانى من الآلام أكثر مما تعانيه ، وما زالت تتطلع إلى الآمال التى لا نزال نتطلع إلى مثلها .

وليست الحروب الأخيرة، والحرب الباردة الحالية، إلا من الأدلة على حاجة

الشعوب فى الشرق والغرب إلى السعادة والسلام . فهل من الممكن أن يحقق البشر هذه السعادة ؟ وهل نظم الحياة تمكنهم من تحقيقها ؟ وهل السيادة السياسية هى هدف الإنسان فى حياته فيضحى بسعادته فى سبيلها ؟ وهل أدى ضعف القيم إلى شقاء الإنسانية ؟ وهل يحقق الإنسان السلام ؟ وهل تحول نظم الدول وعلاقاتها ببعضها دون تحقق هذا السلام المنشود ؟

لقد حاولت الدول الأجنبية أن تعثر على أكسير السعادة ، سواء كانت سعادة الأفراد أو سعادة المجتمعات ، وحسبت فى بعض الأحيان أنها وجدت هذا الأكسير . فحسبت مرة أنها وجدته فى الحقوق الإنسانية ، وحسبت مرة أخرى أنها وجدته فى تقدم الفن والعلم . ولكنها لم تلبث أن عرفت خطأها عندما رأت أن السعادة لاتزال بعيدة عنها . وهل يترتب على هذا أن تكف الإنسانية عن البحث عن هذا الأكسير أم من واجبها أن تمضى فى سبيلها باحثة عنها لأنه هو أملها ولا حياة لها إذا هى لم تحتفظ به ؟

يتوقف مصير الإنسانية منذ فجر التاريخ على حل مشكلة كبرى ، هى السعادة . وكانت المشكلة واحدة فى مختلف الأجيال ، ولدى جميع الشعوب . فطالب البشر فلاسفتهم على مر الزمن بتفسير معقول لها ، كما طالبوا زعماءهم وأولى الرأى فيهم بحل موفق للمشكلة المشتركة .

وقد جرب الإنسان فى بحثه الطويل عن السعادة طريقين : الأولى داخلية ، بوضع حد للصراع المضطرم فى نفسه بين القوتين المادية والمعنوية ، اللتين تتكون منهما وحدته كإنسان . والثانية خارجية ، بوضع حد للنزاع الخارجى القائم بين نفسه لوحدة إنسانية ، وبين بقية الجنس البشرى بوجه عام . وقد اقتنع الإنسان أن مشكلة الإنسانية الكبرى تكمن فى هاتين المعركتين ، ولكنه لم يتمكن من تحديد الطريق التى يسير فيها ليصل إلى السعادة .

هناك صراع عنيف بين المادة والروح ، وبين الإنسان كوحدة والإنسانية ، كمجموعة • وإذا عرفنا أننا سنحصل على السعادة ، بانتصار الروح على المادة ، فما زال أمامنا التماس الوسيلة للحصول على النصر وتعزيزه • وإذا ما اعتمدت السعادة على انتصار المجموعة الإنسانية ، فما زال أمامنا تنظيم انتصارها وتأمينه في وضعه النهائي ، حتى تتحقق السعادة .

إذ نظرنا إلى مشكلة البشر الكبرى ، وجدنا أنها تتعدى حدود البنيان الذاتي للإنسان، فإذا أنعمنا النظر وجدنا أنها قد نشأت نتيجة لصراع قوتين متعارضتين خارجتين عنه • ولا صلة لهما بما في داخل الوحدات الأخرى التي تتكون منها البشرية مجتمعة ، أو بمعنى آخر « المجتمع الإنساني » .

يتألف المجتمع الإنساني من اتحاد الوحدات البشرية حتى تصبح هيئة واحدة نُطلق عليها هذا الاسم ، ولا يمكن أن يتم هذا الاتحاد إلا إذا تنازلت كل وحدة على حدة عن بعض حقوقها الذاتية ، وضحت ببعض مصالحها حتى تكون جزءاً من المجتمع ، مثلها في ذلك مثل التضحية برأس المال للحصول على ربح معين، فهي إذا تنازلت وضحت ببعض مصالحها وحقوقها إنما تنازلت على أمل الحصول على ما يفوق ما قدمته في الأصل من حقوق ومصالح .

أبرز مشا كل العالم في الوقت الحاضر — كما يرى أورجانسكي — هي « الصراع من أجل تولي زعامة العالم » ، كما أن حركة التصنيع تغير وجه المعمورة فتخلق أمماً جديدة وتغير من طبيعة السياسة الدولية. وهذا التغيير الزاحف اقتصادي اجتماعي في جذوره ، غير أن تقدمه يتميز ببعض الثورات السياسية • وها هي تلك الدول المستعمرة تنفض عنها أغلال الاستعمار وتحقق حريتها ويمضي الاستعمار نحو نهايته • كما يتغير توزيع القوى بين الأمم الكبرى في العالم ، وتقترب الفترة التي كان يسودها حكم الرجل الأبيض من نهايتها ..

إننا نعيش بين حقبتين من حقب التاريخ . فقد ولدنا فى عالم ونعيش الآن فى عالم آخر ، وحياتنا هى الطريق التى تصل بين هذين العالمين ، والتى سنقف فيها بضع سنين لنتمكن خلالها من أن نشاهد كلا منها . ونحن نعيش فى عالم يكتنفه الاضطراب والخوف من الحرب ، فنقضى معظم حياتنا فى حقبة من تلك الحقبة القصيرة لأجل الحقبة التى يمكن للمرء فيها أن يرى الماضى والمستقبل فى إطار واضح ، وأن يفطن إلى الاختلافات بينهما . وأن يقتنى أسباب الاختلافات ومبرراتها .

أصبح العالم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية تتنازعه فلسفتان : فلسفة الرأسمالية ، وفلسفة الشيوعية .

وبتأثير هاتين الفلسفتين العمليتين تكون فى العالم الآن معسكران عظيمان، وهما المعسكر الغربى وهو يضم دولا كثيرة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، والمعسكر الشرقى ، وهو يضم عدة دول وعلى رأسها روسيا السوفيتية .

وكل من هاتين الفلسفتين أو هذين المعسكرين تعمل وتحاول نشر مبادئها ونفوذها وسيطرتها على سائر أقطار العالم، وكل منهما لا تستطيع أن تعيش مع الأخرى داخل دولة واحدة ، بل لا يمكن لهما أن تعيشا فى عالم واحد . فما دام كل منهما يرى ويعتبر الآخر عدواً يقف فى طريقه فلا بد من نشوب حرب عالمية ثالثة . وهى إن وقعت كارثة على العالم والمدنية .

لا يمكن أن توجد فى العالم هيئة دولية قوية تستطيع منع الحرب وتدعيم السلم العالمى الدائم إلا بائتلاف النظريات والمبادئ المختلفة واندماجها فى بعض . ولكن من الصعب — إن لم يكن من المستحيل — أن يحصل الائتلاف بينها، لتعارض أسس هذه المبادىء وأغراضها وأساليبها.

ونحن نأمل أن العالم يتجه إلى الوحدة ، لبست وحدة الحكم والإدارة ولا وحدة النظام والنظرية ، وإنما هى وحدة الهدف والغاية . وهى أن يعيش الجميع فى جو مشبع بالمحبة والوئام والإخاء الإنسانى العام ، وغيرها من عناصر السلم العالمى الدائم ، وأن يتمتع الجميع فى الحياة بالعدالة والرفاهية وبالرخاء الشامل للجميع .

فالحكومة العالمية — التى ذاعت فكرة إنشائها فى السنوات الأخيرة — ليس معناها إلغاء الحكومات الحالية وإدماجها جميعاً فى حكومة عالمية واحدة موحدة، وإنما معناها إقامة حكومة فوق الحكومات Superélatiques فالذى يضر ويعكر صفو علاقات الدول ويؤدى إلى اضطراب أحوال المجتمع البشرى عموماً هو استمرار بعض الدول فى استغلال البلدان الأخرى فى استعمارها وامتصاص محاصيلها وثرواتها .

إلى جانب المعسكر الغربى ، والمعسكر الشرقى ، يوجد معسكر ثالث يمكن أن نسميه (معسكر الحياد) ، ومن المعروف أن عددا من دول الكتلة الأسيوية الأفريقية ومن ضمنها الوطن العربى ينتسبون إلى هذا المعسكر ، معسكر الحياد . ومعظم دول هذا المعسكر تجمعهم مصلحة واحدة فى البقاء على الحياد من الصراع الدائر بين المعسكر الغربى والمعسكر الشرقى .

إن الكفاح المشترك الواحد ، ووحدة الأخطار ، والمصلحة الواحدة فى التكتل ضدّ هذه الأخطار ، لا شك عامل هام فى إيجاد الترابط القومى وقد تولد عن النضال المشترك ضد الأخطار التى تحيط بالأمم نموّ الشعور القومى، وهو تبلور الروح القومية ، وازدياد الوعى القومى .

إن القومية هى الواقع التاريخى الناشىء عن تفاعل عوامل اللغة والتاريخ والأرض والثقافة والمصالح تفاعلا تاريخياً ، وعامل المصلحة هو عامل هام فى

تدعيم بعض القوميات . نحن الآن ، أمام قوتين : قوة الاستعمار . وبين قوة القومية الجديدة التي تحاول أن تكون استمراراً لكل المثل العليا .

فقد يعتقد البعض أن العالم منقسم قسمين : قسم شرقي وقسم غربي . ولكن المسألة عند العرب ليست كذلك ، فالعالم عندهم ينقسم قسمين : قسم مستعمر يريد أن يستعبد الناس سياسياً واقتصاديا وقسم آخر متحرر يريد أن يكافح الاستعمار في كافة صوره . وفي هذا الجهاد بين الاستعمار وبين القوة الجديدة ظهرت هذه القومية الجديدة التي نريد أن نقف عندها وقفة أخيرة حتى نتعرف موقفنا نحن في العالم الجديد .

كتب المؤرخ (هانز كوهن) كتابا بعنوان (المدنية الغربية في الشرق الأدنى) يصوّر العلاقات بين أوروبا وبين بلاد الشرق الأدنى على أنها مادية من ناحية التجارة والاستغلال الاقتصادي وكان هذا ما تهدف إليه البلاد الأوربية ، ويصوّر هذه العلاقة على أنها ثقافية من ناحية التعلم والتقدم الروحي والتشبع بالمبادىء الدستورية وأصول الحرية التي كان الأوربيون ينادون بها في بلادهم . وفي هذا كثير من الصواب . ولا عجب أن يتأثر الشرقيون بمبادىء الحرية حين يرون بلادهم نهبا للأجانب . ولما كان هناك تناقض في هذه العلاقة فقد حدثت الثورات التي قامت بها بلاد الشرق الأدنى ضدّ احتلال بلادهم فإذا كان على بلادهم حكام منهم يعاونون المستعمر أو يعاونهم المستعمر على حكم بلادهم ثار الشعب ضدّ الحاكم والمستعمر في وقت واحد ، وكان سلاح الشعب الروحي في كل ذلك هي تلك المبادىء الديمقراطية والاستقلالية التي تعلموها من الثورات العالمية . ولا زالت هذه العلاقة ذات الوجهين قائمة اليوم في صراعنا مع قوات الاستعمار التي تتربص بنا الدوائر .

في هذه الساعة الحاسمة التي يبدو فيها العالم منقسم إلى معسكرين مشتبكين

فى صراع مميت ، يحاول كل منهما جهد طاقته أن يستميل العالم العربى إلى جانبه لسببين رئيسيين : أولهما موقعه الاستراتيجى الذى يحتمل أن يشن منه أى منهما هجومه اللاحق أو يبنى فيه وسائل دفاعه . وثانيهما موارده الطبيعية وعلى الأخص البترول أعظم الموارد الطبيعية أهمية فى زمن الحرب أو فى فترة الاستعداد للحرب. وينظر الفرد العربى إلى المعسكرين ولسان حاله يقول : قاتل الله الطرفين.

إن العرب قد يكرهون الأجانب أحيانا ليس لأنهم أجانب ، بل بسبب تجاربهم مع هؤلاء الأجانب ، وبسبب خوفهم منهم . وقد كان العرب يسيرون مع دول أوروبا على أكثر من طريق واحد ، كما شوهد خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى فقد تعاونوا مع الأوروبيين ضد العثمانيين إخوانهم فى الدين ، وعلى الرغم من خيبة آمالهم المريرة بالحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى، وبالرغم من تجربتهم القاسية للإدارة البريطانية والفرنسية الاستعمارية ، فقد انضموا إلى الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، ولكنهم ما عتموا أن وجدوا الحلفاء يضحون بهم فى سبيل العصابات الصهيونية .

كانت سنوات ما بين الحربين ، سنوات نضال شنتة العروبة ضد السياسة البريطانية والصهيونية فى فلسطين وكان البريطانيون يملكون القوة المادية والسياسية لفرض خطتهم . وكان الصهيونيون يملكون المهارة فى استغلال الجانب العاطفى والإنسانى من الرأى العام الغربى . أما العرب فلم يكونوا يملكون غير الحق ، والحق ينتصر دائما .

وخلاصة القول : ليست الإنسانية أمما وقبائل ، أو معسكرات وأحلافا ، أو هيئات ومنظمات . وليست كلمات وخيالات ، أو نظريات وفلسفات . وليست سيطرة مذهب من المذاهب ، أو غلبة دولة من الدول . وإنما هى وحدة عالمية شاملة ذات حضارة إنسانية جامعة ، تقوم أركانها الاقتصادية والاجتماعية

والسياسية والعالمية على المواطن العالمى الصالح ، ولخير كل فرد من الشعب العالمى الوحد .

ولا سبيل إلى نشر السلام إلا بإعداد النفوس لقبول الأوضاع الدولية الجديدة التى يجب أن يتجه إليها العالم كافة ، لأن العلاقات بين الشعوب قد أفسدها عدم التفاهم وسوء الظن وضيق الإدراك فى أن الأرض متسعة للجميع ، والجهل بكفاية خيرات الطبيعة ومقدرتها لسدّ حاجيات الجميع .

ويرجع منشأ ذلك كله إلى ظلام الجهل الذى ساد ولا يزال يسود الآن معظم المجتمعات البشرية فى الشرق والغرب . وما تقصده بالجهل هنا ليس الجهل العادى المعروف فحسب ، بل الجهل العام بإمكان الحياة السليمة للمجتمعات البشرية وبطرق تحقيقه ذلك ، وبأن التماسك والترابط بين الشعوب لا يقوم على الماديات وحدها ، بل هناك الترابط المعنوى والأدبى والثقافى الذى يقوم على حسن التفاهم وتبادل الثقة والمنافع .

كان أفراد المجتمع فيما مضى ينقسمون إلى ثلاثة أقسام إزاء الحركات الوطنية أو القومية . فريق لا يبالون بها وقد يظاهرونها بأقوالهم لا بأعمالهم وتصرفاتهم . وفريق يعارضونهـا ويعرقلونها بأعمالهم وتصرفاتهم . وفريق وهم المخلصون يكرسون أموالهم وأوقاتهم وحياتهم لها ويستميتون فيها . وبديهى أن هـذا الانقسام بين أفراد مجتمع واحد وضع غير طبيعى . ولـكن الحركات الوطنية القومية أصبحت تمس جميع ميادين الحياة وتهم جميع أفراد المجتمع ، وبخاصة وأننا العرب نهدف إلى حركة وطنية قومية واسعة ، تقوم على مبادىء إنسانية عامة تتمشى مع اتجاه الأسرة الدولية ، وتعمل على تحقيق مصالح جميع سكان العالم المشتركة .

وغني عن البيان أن اشتراك الجميع فى الحركة سيـكوّن فيهم رأيا عاما

صحيحاً ناضجاً وهو أساس تكوين الرأى العالمى الناضج ، وللرأى العام شأن أكبر فى توطيد العلاقات وتدعيمها بين الأفراد وبين الدول .

هذه هى رسالة الوطن العربى فى بعثه الجديد ، وستكون رسالة كل وطن وكل إنسان . ونحن العرب فئة من البشر آمنت برسالتها الإنسانية ، ووجدت لزاماً عليها أن تضع يدها فى أيدى المؤمنين مثلها حتى يسيروا جميعا صفا واحدا فى الموكب الإنسانى العظيم ، فنحن لا نبغى أن نجر أحد وراءنا ، ولا نقبل أن يجرنا غيرنا وراءه ، وإنما سنسير جميعا على قدم المساواة .

فوحدة المجتمع البشرى ستقوم على وعى عالمى ، ورغبة عند جميع الأمم ، وتكييف لمقتضياتها ، وتعاون حر على تحقيقها ، وتشكيلها على هيئة تعامل كل جماعة من الناس على قدم المساواة ، وتضم كل فرد من البشر . وهذه هى رسالتنا الإنسانية إلى العالم[1] .

(١) أنظر كتابنا (العرب ورسالتهم الانسانية) تجد كثيراً من التفاصيل .

١٠ — الحضارة العربية فى المجتمع العربى المعاصر

وطن المجتمع العربى :

يجدر بنا فى مستهل دراستنا للمجتمع العربى المعاصر أن نصف (الوطن العربى) أى (وطن المجتمع العربى) ، مستعيدين إلى ذكراتنا تلك العبارة التى قالها الزعيم الإيطالى (متزينى) فى القرن الماضى وهو يدعو الشباب إلى الوحـــدة الإيطالية : (أنكم تبحثون عن وطن ، وهى فطرة غرسها الله فى قلوبكم ، ويدعوكم صوت أبطالكم أنكم أخوة) . لقد كنا فى انتفاضاتنا الوطنية الماضية نبحث عن وطننا العربى ، فنحاول اكتشاف مقوماته وخصائصه ، وإمكانياته الطبيعية والبشرية . وإن وطننا العربى ليس مجرد خريطة فى مصور جغرافى نرسم حدوده بالخطوط والألوان ، وليس فكرة ما أيا كانت ، نتناقلها أو نقرؤها ، وليس عاطفة غامضة لا تحفز إلى عمل ، وليس جيلا واحداً من الناس ، وليس طبقة واحدة من العرب . ولكن وطننا العربى هبة الله ، وتراث أحقاب ، وجماع أجيال ، وواقع حياة . وكل مواطن عربى صورة حية ناطقة للوطن العربى ، فيه طبيعة بيئته ، ومجد ماضيه ، وجهاد حاضره ، وأمل مستقبله .

يمتد العالم العربى ، ووطن المجتمع العربى ، من الخليج العربى شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ، ومن جبال طوروس فى جنوب تركيا شمالا ، إلى المحيط الهندى ، ومنابع النيل والصحراء الكبرى جنوباً . وينقسم العالم العربى جغرافياً إلى قسمين طبيعيين : قسم فى غرب آسيا ، وقسم آخر فى شمال إفريقية. يضم القسم الأول جزيرة العرب (نجد ، الحجاز ، اليمن ، عدن ، حضرموت ، عمان ، مسقط ، ساحل الصلح ، قطر ، البحرين ، والكويت) والعراق

والشام (سورية ، لبنان ، فلسطين ، الأردن) . أما القسم الثانى فيشمل : مصر، السودان ، ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش ، وهناك بلاد بعض سكانها عرب أو يتكلمون باللغة العربية مثل زنجبار وبلاد الصومال . وأواسط أفريقية وغيرها . وفى الأمريكتين عدد كبير من المهاجرين العرب .

موقع الوطن العربى ممتاز لوجوده فى وسط العالم القديم ، وتسكنه عدة أقوام لعبت أدوارا هامة فى تاريخ البشرية ، وهو مهد الحضارات ، وفيه قامت أعظم الديانات. وهو وإن كان على مايبدو متنوعا فى الظواهر الطبيعية والبشرية، نظرا لاتساع رقعته وعظم مساحته ، إلا أنه فى الواقع يكون وحدة قوية متماسكة لها مميزاتها ولها خصائصها .

يتميز الوطن العربى بتنوع كبير فى مظاهر السطح ، وفى المناخ ، والنبات والنظم الاجتماعية ، والسلالات البشرية . ولكن كل جزء من الوطن العربى يتمم الآخر .

والوطن العربى نقطة الإتصال بين الشرق والغرب ، وهو جسر عظيم يربط آسيا بأوربا من ناحية ، وبأفريقية من ناحية أخرى ، ولذا كان الوطن العربى منطقة عبور وحركة طوال العصور التاريخية ، سلكته فى الماضى الأقوام والهجرات . واكتسحته جيوش الغزاة فتأثر إلى حد بعيد بهجرات الساميين التى خرجت من قلب شبه جزيرة العرب ، وهجرات الأتراك والتتار والمغول التى جاءت من شرق آسيا ووسطها ، وشاهد فى خلال التاريخ جيوش الفرس وجحافل الأسكندر الإكبر وقياصرة الرومان ، وطمع فيه الصليبيون كما طمعت فيه الدول الأوربية فى العصر الحديث ، ولكن العرب احتفظوا دائما بطابعهم الحضارى الأصيل وانتصروا على المستعمرين والطامعين .

كان تاريخ العالم العربى حافلا بأضخم الحوادث وأعظمها فى تاريخ البشرية

وكانت صفحاته من أقدم ما كتب فى التاريخ كما كانت حضـــارته من أقدم الحضارات فى العالم .

إزدادت أهمية العالم العربى ، كحلقة اتصال بين الشرق والغرب ، بعد شق قناة السويس ووصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر ، وفتح طريق للمواصـلات البحرية بين أوربا وآسيا . ثم تقدمت وسائل النقل بواسطة السيارات والطائرات فأبرزت ما لموقع الإقليم من قيمة فى المواصلات بين الغرب والشرق ، سواء فى وقت السلم أو وقت الحرب . وازداد هذا الموقع شأنا بعد الكشف عن البترول، وإنشاء مصانع تكريره، ومد الأنابيب التى تنقل منتجاته عبر الصحارى والبحـار من مناطق إنتاجه إلى موانى تصديره .

أدى موقع الوطن العربى إلى جعله مكانا تختلط فيه الأجناس والثقافات وتلتقى فيه الآراء والأفكار، ومن هنا زهت حضارة الأقاليم، وبرزت وحدته ووضحت شخصيته .

وكما أثر موقع الوطن العربى فى حياته الإجتماعية ، فقد أثر المناخ فى النظم الإجتماعية . فنجد البدو الرحل الذين يجوبون الصحراوات ، ونجـد الزراع الذين يعيشون عيشة استقرار ، أو أقرب إلى الاستقرار ، فى السهول الخصبة والواحات حيث الآبار والعيون . ونجد سكان الهضـاب والمرتفعـات الذين يعيشون على الرعى وتربية الحيوان ، بينما سكان الأودية يعيشون على الزراعة والتجارة . وإذا تتابعت مواسم الجفاف كان ذلك سببا فى حركة انتقال وهجرات تؤثر فى النهاية فى الإقليم برمته . وحياة الترحال صفة من صفات البدو ، وهى تصبح عندهم أحيانا من الضروريات إذا انعدم المطر وأجدبت الأرض ، والبداوة هى من غير شك نتيجة محتومة لظروف البيئة الجغرافية . أما الزراع فيمثلون الغالبية من السكان العرب ، وليس كل السكان المستقرين زراعا ، بل كثيرون يمارسون

التجارة فى المدن والأسواق الصحراوية . وقد كان لموقع العالم العربى شأن كبير منذ عهد بعيد فى إقامة (مجتمع تجارى) كان له بدوره أعظم الأثر فى نهضة الاقليم. فالتبادل التجارى ساعد على قيام المدن وجمع الثروات ، مما أدى إلى التقدم والرقى . وظاهرة تجمع السكان فى المدن على حساب الريف هى من أهم ظاهرات المجتمع فى العالم العربى .

الوطن العربى وحدة جغرافية واقتصادية واجتماعية متكاملة ، يكمل بعضها بعضاً . إن أوضح ما يميز الوطن العربى جغرافياً كونه شريطاً صحراويا ممتداً من المحيط الأطلسى حتى الخليج العربى ، وله حافة من السهول الساحلية الضيقة تحتضنها ثلاثة بحار هامة : الأبيض ، والأحمر ، وبحر العرب . وتفصل بين هذا الشريط وحافته سلسلة متصلة من الجبال المحيطة بالوطن إحاطة السوار بالمعصم . أما الشريط الصحراوى فيتخلله عدد كبير من الهضاب والسهول ، وتجرى فيها أنهار ، بعضها عظيم مثل النيل ودجلة والفرات ، وأكثرها صغير مثل الأردن والعاصى وبردى وغيرها، إلى جانب أراض خصبة، ومناخ معتدل، وخير وفير. وهذا الوطن يكمل بعضه بعضاً ، إذ تظهر فى أرجائه جميع أنواع سبل المعيشة وأشكال الاقتصاد . ففيه الشكل البدائى أو الرعوى ، حيث ينتشر العشب النضير الذى ترعاه الحيوانات . وفيه الشكل الزراعى على ضفاف الأنهار وفى السهول الساحلية ، حيث تفلح الأرض وتزرع ، وفيه الشكل الصناعى الذى يعتمد على ما فى باطن الأرض من بترول ومعادن ، وما يحفل به الوطن العربى من أيد عاملة وفيرة وقوى تصلح لتوليد الكهرباء . وفيه أخيراً الشكل التجارى الذى امتاز به لموقعه الجغرافى .

تدل الإحصاءات الأخيرة أن سكان الوطن العربى قد تجاوز عددهم ٨٠ مليونا ، يعيش ثلثهم فى الأقطار الأسيوية ، بينما يعيش الثلثان الباقيان فى الأقطار

الأفريقية . ونضيف إلى هذا العدد أربعة ملايين عربى ومتكلم باللغة العربية يعيشون خارج الأراضى العربية ، وخاصة فى الأمريكتين ، فيبلغ عدد العرب الإجمالى حوالى ٨٥ مليون عربى .

لم تعد العوامل الطبيعية ، وحدها ، تعين حدود الدول ، بعد أن تقدمت وسائل المواصلات فى العصر الحديث ، فربطت الأقطار المتباعدة ، وتغلبت على الجبال والبحار والصحارى ، وأتاحت للدول الكبيرة أن تتوحد رغم ما بين أجزائها من اختلاف طبيعى واقتصادى . والدول الحديثة إنما تقوم على إرادة شعوبها فى المعيشة المشتركة ، المستندة إلى المصالح المادية المتبادلة ، والعقليات المتقاربة ، والآمال والأهداف الواحدة ، وليس على أسس جغرافية محضة ، بل على أسس حضارية وطيدة .

العالم العربى المعاصر :

إن الدول العربية القائمة الآن ، لم تتكون ولم تتعدد بمشيئة أهلها ، ولا بمقتضيات طبيعتها . إنما تكونت وتعددت من جراء الاتفاقيات والمعاهدات المعقودة بين الدول التى تقاسمت البلاد العربية وسيطرت عليها كما أن الحدود الفاصلة بين الدول العربية أيضا لم تتقرر وفق مصالح البلاد وسكانها ، انما تقررت بعد مساومات بين الدول المستعمرة ضمانا لمصالحها هى . وكل الفروق والاختلافات التى تشاهد الآن بين الدول العربية ، من حيث النظم الإدارية والتشريعية والاقتصادية ، والاتجاهات السياسية ، إنما هى من بقايا عهود الاحتلال .

يتألف العالم العربى من البلاد التى بقى معظم سكانها متأثراً بالعوامل الفكرية والإجتماعية العربية . فلا تدخل فى نطاقه أسبانيا وجزر البحر المتوسط ، حيث ظهرت قوة جديدة بعد زوال السيطرة العربية فمحت أثرها ، كما أن ايران وتركيا وأفغانستان وسائر المناطق الواقعة فيما وراء السند وجيحون تخرج من

نطاقه لأنها لم تتخذ العربية لغة قومية لها فى وقت من الأوقات. وعلى هذا فإن العالم العربى يتألف من سلسلة غير متقطعة من البلاد، تمتد من سواحل المحيط الأطلسى فى الغرب، وتمر بالشواطىء الجنوبية للبحر المتوسط حتى تصل إلى حدود إيران فى الشرق. أى ساحل أفريقية الشمالى، من المغرب الى مصر، وبلاد الشام، والعراق، والجزيرة العربية.

الوطن العربى وحدة دينية وثقافية وتاريخية واجتماعية وحضارية :

كان الوطن العربى مهد الديانات الكبرى، وفى بلاده الأماكن المقدسة التى يقصدها الحجاج من كل مكان. والإسلام هو دين الغالبية العظمى من العرب، ويعتبر الوطن العربى قلب العالم الإسلامى. وإذا كانت العوامل الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية قد لعبت دورها فى ربط العرب بعضهم ببعض، فالدين الإسلامى من أبرز عوامل التوحيد فالروابط الدينية بين الأقطار العربية تجعل منها قوة متماسكة ذات أهداف واحدة.

فى المجتمع العربى طوائف مسيحية ويهودية، ولكنها قليلة العدد بالنسبة للسكان المسلمين. والمسيحيون موزعون بين الكنيستين الشرقية والغربية، ويعيش المسيحيون جنباً إلى جنب مع المسلمين ويتمتعون بالحرية الدينية ويعملون من أجل نهضة المجتمع العربى الحضارية.

أما اليهود فأغلبهم فى فلسطين، وقد سمح الأتراك لجماعات منهم بالاستيطان فى تلك البلاد فى أوائل القرن الحالى، ثم زادت بالتدريج هجرتهم وزاد طمعهم فى فلسطين وهم يغتصبون الآن جزءاً كبيراً منها. وتوجد كذلك أقليات يهودية فى سائر أقطار العالم العربى.

هذا الاختلاف الدينى لا يؤثر فى وحدة المجتمع العربى. حقاً أن الإسلام هو دين الغالبية العظمى للعرب، وحقاً أنه أحد العوامل القوية التى تقرب بين

البلاد العربية، وتشد بعضها إلى بعض، إلا أن تعدد الأديان لا يضر بالوحدة الاجتماعية . وأهمية الإسلام ، كعامل من عوامل التوحيد ، تأتى من كونه فى نظر المسلمين ، نظاما تاما ، شاملا لمتطلبات الدنيا والآخرة ، فهو دين يعين علاقة الإنسان بربه ، وهو نظام اجتماعى يحدد شكل الأسرة ، وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض ، وسلوك الأفراد فى معاملاتهم الدنيوية ، وفى طرق معيشتهم ووسائل رزقهم . وهو نظام سياسى ، وتشريع مدنى، يعين شكل الدولة ، وعلاقة الحاكم بالمحكوم . وهو إلى جانب ذلك كله : علم ، ومدنية ، وتاريخ . على أن أثر الإسلام فى التقريب بين الأقطار العربية لا يقتصر على ما تقدم . أى على جعله النظم الاجتماعية والفكرية متشابهة ، بل يمتد إلى أبعد من ذلك فهو يوحد العرب المسلمين عاطفياً، ويربطهم بوحدة الأهداف والمثل العليا . ورغم هذا فلا يمكن اعتبار اختلاف الأديان عاملا يعوق قيام مجتمع عربى قوى متماسك ترفرف عليه أعلام القومية والحضارة العربية .

الوطن العربى وحدة ثقافية فقد كان لموقع العالم العربى بين الشرق والغرب أثر كبير فى تطوره الثقافى . فقد تأثر بحكم هذا الموقع بالعالم الأسيوى والعالم الأفريقى كما تأثر إلى حد بعيد بعالم البحر المتوسط . والمعروف أن عمان فى الركن الجنوبى الشرقى من شبه جزيرة العرب فيها بعض المؤثرات الهندية وأن اليمن فيها مؤثرات أفريقية وأن بعض بلاد الشام تأثرت بتيارات ثقافية أتتها من أقطار البحر المتوسط .

ولذا كان للمجتمع العربى خصائص ثقافية معينة تميزه عن الأقاليم المجاورة . وهذه الوحدة الثقافية دعمتها فى النهاية عناصر الحضارة التى نشأت مع الإسلام وازدهرت فى خلال عصوره ، مما قرب الأقطار العربية بعضها مع بعض العادات والتقاليد ، وساعد على إبراز الوحدة الحضارية فى المجتمع العربى .

واللغة العربية فى مقدمة العوامل الفعالة فى توحيد العرب ، وأبعدها أثراً فى جمع شملهم . وهى العامل المشترك بين جميع الأقطار العربية على اختلاف اللهجات . يفهم العربى فى مصر أو سوريا أو العراق أو الجزيرة العربية أو المغرب أو غيرها من الأقطار العربية ، تعابيرها ويطرب لشعرها وأمثالها وجوامع كلمها ، ويناجى ربه بها . ومهما يختلف العربى عن العربى من حيث المستوى الاجتماعى والثقافى ، ومن حيث البيئة الجغرافية والدينية ، يترنح طرباً لتلاوة القرآن ، أو إنشاد الأشعار ، أو استعمال الحكم والأمثال .

والوطن العربى وحدة تاريخية ، فقد ساعدت الظروف الطبيعية على قيام حضارات زاهرة فى كثير من الأقطار التى أصبحت عربية فيما بعد . فنى مصر قامت الحضارة الفرعونية العظيمة وعرف المصريون القدماء أنواعا من النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية الراقية . وفى منطقة الهلال الخصيب قامت الزراعة واستأنس الإنسان الحيوان ، وأقام المساكن ، واستخدم النحاس ثم البرونز وبدأ ينظم صلاته التجارية مع البلاد المجاورة . ونتيجة للغزوات التى قام بها سكان المراعى ومن بينهم الهكسوس ، واندماج هؤلاء الرعاة بهؤلاء الزراع ، ظهرت عناصر جديدة فى حياة هذه الأقطار وعرفت الحصان والعربة واستخدمت الحديد الذى يعزو البعض فضل اكتشافه إلى الحيثيين .

ثم كان ظهور الفينيقيين الذين عملوا على توحيد الإقليم بواسطة تجارتهم الواسعة ومستعمراتهم المختلفة فنشروا لغة واحدة ، واخترعوا حروف الهجاء . ثم تحققت وحدة الإقليم على يد الفرس الذين أنشأوا فى القرن السادس قبل الميلاد وحدة سياسية ضخمة تمتد من أبواب الهند حتى البحر المتوسط . وقد دعم تلك الوحدة إنشاء سلسلة من الطرق تربط أجزاء الأمبراطورية بعضها ببعض ، وأقامة إدارة مركزية وجعل اللغة الآرامية لغة رسمية ، وزاد النشاط التجارى وحدة هذه الأقطار قوة .

استمرت تلك الوحدة فى عصر الإغريق بعد أن هزمت جيوش الأسكندر الأكبر جيوش الفرس، كما استمرت على نحو ما فى عصر الرومان، وإن كانت روما لم تخضع كل هذه الأقطار لحكمها.

تتابعت الموجات العربية السامية حتى اصطبغت بعض أجزاء الشام والعراق بصبغة عربية. وحينما سارت الجيوش العربية الإسلامية فى عهد أبى بكر وعمر لفتح الشام والعراق ومصر، وجدت معظم سكانها إما عربا، وإما أقواما من أصول سامية أى عربية قديمة. ولهذا سهل التفاهم بين الفاتحين والسكان الأصليين، كما سهل اختلاطهم وتمازجهم واندماجهم فى قومية عربية واحدة، ومجتمع عربى متماسك.

أقبلت شعوب البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام، كما أقبلوا على تعلم اللغة العربية وتخلوا عن لغاتهم القديمة. وبدأت عملية تعريب واسعة النطاق، وامتزجت دماء هذه الشعوب بالدماء العربية عن طريق التزاوج، والتخلق بأخلاق العرب وسجاياهم ونظمهم الاجتماعية وحضارتهم العربية.

سارت عملية التعريب مع عملية اعتناق الإسلام جنباً إلى جنب، وكان استقرار العرب فى البلاد المفتوحة بأعداد متساوية. فقد استقروا فى بعض الأقطار، كالعراق والشام، بأعداد كبيرة امتزجت بالسكان بالتزاوج، فأثرت فى تكوين السكان الجنسى، إذ طبعتهم بطابع الجنس العربى، يضاف إلى هذا أن عرب شبه الجزيرة العربية كانوا على اتصال مستمر بهذه البلاد قبل ظهور الإسلام، وأن أغلب سكانها الأصليين هم من الساميين، كما ظلت هذه البلاد مركزاً للحكم العربى فترة طويلة. واستقر العرب فى مصر وشمال أفريقية والسودان بأعداد أقل، وأدى هذا الاستقرار فى النهاية إلى التعريب وانتشار الحضارة العربية.

تدفق على العالم العربى أجناس عديدة ، بعضها قدموا لأغراض سلمية مثل الفرس والأتراك والأكراد والأرمن والهنود والزنوج وغيرهم ، قدموا كجند مرتزقين أو صناع أو عمال أو جوارى أو رقيق ، ومنهم من قدم فاتحا غازيا مثل البويهيين الفرس ، والسلاجقة والأتراك ، والمغول ، وأخيراً الأتراك العثمانيين الذين حكموا العالم العربى قرابة أربعة قرون .

خلصت البلاد العربية لسكانها العرب والمتعربين منذ الفتح الإسلامى إلى يومنا هذا . وما استطاعت الأقوام الأخرى التى غزتها أن تزحزح هؤلاء السكان عنها ، أو أن تفقدها طابعها العربى . ومن هؤلاء الأقوام الأوربيون فى الحروب الصليبية ، والمغول والتتر والسلاجقة والمماليك والترك العثمانيون وغيرهم . حقاً أنهم خلفوا فى البلاد الإسلامية أنسالا يمتون بدمائهم إلى سلالات غير سامية ، لكن هؤلاء الأنسال كانوا وما برحوا أقلية ضئيلة . وظل الدم العربى سائداً الأقطار العربية لفرط حيويته وشدة تأصله ، ولكونه يدعم دائما بموجات تقدم إليه من الجزيرة العربية . ولم يتمكن قوم من الأقوام التى ذكرناها أن تطبع البلاد العربية بطابعها ، بل كانت الثقافات العربية دائما تتغلب على الثقافات الأجنبية . وفى ذلك يقول (هوغارت) أن العرب استمالوا الأجانب إلى لغتهم وآدابهم حتى طبعوهم بطابعهم العربى وكان العرب أنجح العناصر على الإطلاق ، وكانت لغة العرب وما تزال حتى اليوم لغة التخاطب والكتابة لنحو سبعين مليونا من البشر ، كما أنها كانت طوال العصور الوسطى ، لغة العلم والثقافة والفكر فى العالم المتمدن ، واستمرت أعلام الحضارة العربية ترفرف فى سماء العالم العربى .

وعلى الرغم من أن سيادة الترك العثمانيين فى البلاد العربية كانت طويلة الأمد ، أكثر من كل سيادة أجنبية أخرى ، فإنهم لم ينجحوا فى عملية تتريك العرب . لقد استعمر العثمانيون البلاد سياسيا ، ولكن العرب فى أثناء هذا الاستعمار قد استعمروهم أدبيا وثقافياً .

خير دليل على صلابة العرب ، ما شاهدناه من كفاح الجزائر المجيد ، فالجزائر عانت من الاستعمار منذ سنة ١٨٣٠ ، وأراد الفرنسيون أن يقوموا بعملية (إذابة) أو (إفناء) المجتمع العربي الجزائري ، وبذلوا في سبيل ذلك كل الوسائل من سياسية إلى عسكرية إلى اقتصادية ، ورغم ذلك فقد حافظ الجزائريون على الطابع العربي للمجتمع الجزائري ، ونالت الجزائر استقلالها وانضمت إلى جامعة الدول العربية ومضت مع شقيقاتها الدول العربية في موكب الحضارة العربية .

إن ذكريات التاريخ العربي هي التي تطبع عقلية الجماهير العربية بطابعها الراسخ ، وتملي على ذاكرتها ما تحفظ . ومن هنا جاءت أهمية التاريخ العربي من كونه أداة لتوحيد عواطف العرب ، وتغذيتهم بوعي جماعي ، وإشعارهم أنهم أبناء أمة واحدة .

وكما أن المجتمع العربي وحدة دينية ، ووحدة ثقافية ، ووحدة تاريخية ، كما ذكرنا ، فهو أيضا وحدة اجتماعية متماسكة . تشترك في العقلية والروح والتقاليد والعادات والنظم الاجتماعية المختلفة . مما يجعل المجتمع العربي وحدة حضارية أيضا ، بحيث تصبح الحضارة العربية محوراً لحياة العرب في أرجاء العالم العربي .

الطريق الى حضارة عربية زاهرة :

إن كل شخص يقيم في الوطن العربي ويشعر أنه من أبنائه ، ويؤمن بحقوقه فيه ويقوم بواجباته نحو مجتمعه الكبير ، يعتبر مواطناً عربياً ، كائناً ما كان أصله أو شكله أو مذهبه ، وله الحق في أن يثبت وجوده كأي مواطن آخر .

ولكي نصل إلى مجتمع عربي قوي ، متكامل ، متماسك ، علينا أن نعد

الفرد فى هذا المجتمع ليكون (المواطن العربى الصالح) . وإذا أردنا أن يكون للمجتمع العربى مستقبل زاهر يكون جديراً به ، فيجب أن يقوم بناؤه على أساس متين يعصمه من أن تقوضه الهزات وتذروه العواصف . ولا يمكن أن يكون هذا الأساس إلا فى نفوس أبناء هـذا المجتمع ومن وجودهم ، ولن توجد له قاعدة أرسخ من (المواطن العربى) الذى يتمتع بمواهب نادرة وكفايات واستعداد فطرى للحضارة والتقدم .

من أجل خلق المواطن العربى الصالح ، علينا كمواطنين أن نعمل على تبديل النفوس وإصلاحها ، ونعنى بذلك نفس كل شخص ومقيم فى الوطن العربى ، لا فرق بين كبير وصغير وغنى وفقير . وعندما يعزم أى شخص على جعل نفسه مواطناً صالحاً ، يجب أن يشرع فى عملية بنائية مستمرة من أجل تدعيم صرح الحضارة العربية .

ليس أخطر على حياة المواطن ومستقبله من أن يقنع أبناؤه باجترار ماخلفه لهم آباؤهم من الذكريات والأمجاد ، ويجعلوا من التفاخر بها منصرفاً تضيع فيه جهودهم العقلية . ومن ذلك ماداُبوا عليه خلال القرون الطويلة من وصف عظمة الأجداد ، يستعيضون بها عما هم فيه من فقر وتأخر . إننا لا نمانع أن يستفيد المواطن العربى من تجارب الأولين ، ولكن يجب عليه أن يدرك أنه يحيا فى الطور الصناعى من التاريخ البشرى بعد أن مضى الطور الزراعى وهو يعلم أن طوره الحاضر قد صبغ إمكانياته الحيوية بصفة علمية معينة لا يمكن تجاهلها . ولذلك يجب على المواطن أن يصل الماضى المجيد بالحاضر السعيد الذى يعيش فيه ليحقق مستقبلا زاهراً .

وحين يشرع المواطن العربى فى الإنطلاق وفى أداء دور إيجابى على مسرح الحضارة الإنسانية ، يجد لزاماً عليه تغيير فلسفة حياته لتصبح فلسفة إيجابية حيوية .

وأبرز نواحى هذه الفلسفة الإيجابية ، اكتشاف مفاهيم أخلاقية إيجابية ، كلها حياة وإرادة وإيمان ، يستمدها المواطن من القيم الإنسانية الخالدة ، ويعطيها شكلها الملائم لظروف وطنه وحاجاته . والمواطن العربى حين يدعو إلى شكل جديد من أشكال المجتمع ينظم الأخلاق تنظيماً علمياً واقعياً مستمداً من إمكانياتنا الطبيعية ، ويرتبط فيه القانون والأخلاق والعمل جميعاً بالحاجة البشرية .

ولا يعتبر الميدان الخلقى كل شىء فى الوجود ، إذ هناك غيره ميادين عليه أن يعنى بها ويقوم بواجبه فيهـــا . وهو يعرف أنه فرد فى مجتمع كبير يضم الملايين ، فلا بد من رابطة تربطه بهم وتنظم العلاقات فيما بينهم . ولا توجد رابطة أسمى من المحبة التى توجه القيم الإنسانية . وإلى جانب المحبة ، يقوم التعاون ، فعلى المواطن العربى أن يمد يده إلى كل مواطن آخر ، وأن يتعاون معه من أجل الخير الجماعى . وهذا التعاون يشمل الأفراد والجماعات كما يشمل الصلة بين الحكومة والمحكومين .

ولا ينحصر التعاون فى الميدان الاجتماعى ، وإنمـــا يتعداه إلى الميدان الاقتصادى . وهذا يعنى أنه على كل مواطن عربى أن يؤمن بأن الوطن العربى وحدة اقتصادية متكاملة ، يكمل بعضها بعضاً ، وأن يحرص على تشجيع إنتاج بلاده الزراعى والصناعى ، عاملا على تحسين هذا الإنتاج والإقبال عليه حتى ينافس الإنتاج العربى الإنتاج العالمى .

علينا أن نجعل المواطن العربى يؤمن إيماناً راسخاً بأنه المسئول الأول عن كل ما يصاب به الوطن من آلام أو خير . حتى يكرس كل حياته وجهده وماله وخبراته لإصلاح نفسه وخدمة مجتمعه . وسواء أكان حاكما أم محكوماً عاملا أم فلاحاً ، تاجـــراً أم فنياً ، طالب علم أم طالب رزق ، فإن واجبه

الاقتصاد فى المظاهر والنفقات ، والعمل أكبر عدد ممكن من الساعات إلى جانب الشجاعة فى التفكير والقول والعمل ، والنزاهة فى الوسيلة والغرض ، والمثابرة على التضحية ، والإخلاص فى التعاون .

من واجب المجتمع العربى أن ينمى القيم الإنسانية فى وجدان كل مواطن ، وأن يصحح مفاهيمه الاجتماعية . ومن واجب المجتمع تشجيع أبناء الطوائف والطبقات والأسر والمجتمعات المختلفة على التزاور والاختلاط والإندماج فتنتظم باستمرار بعثات دراسية من الطلاب والشباب والمثقفين تطوف أرجاء الوطن ، وتتعرف على ما فيه ومن فيه . وتسهل التصاهر بين العرب ، وتجرى عمليات تهجير وتوطين بين كافة البلاد العربية لتعمير أرجاء الوطن العربى وتوزيع الأيدى العاملة حسبما تقضى الحاجة إليها : وعلى المجتمع أن يضع برامج علمية وطنية إنسانية غايتها مزج أبناء الوطن العربى ودمجهم ، وإفهام كل فرد منهم أن كل شبر من البلاد العربية تربة صالحة لنموه وإقامته . هذا التوحيد الاجتماعى ضرورة اجتماعية لا بد أن نسعى لتحقيقها ، حتى نستبدل بالطائفية والطبقية وسائد مظاهر التجزئة والتباين والتعدد ، وحدة قائمة على الشعور المشترك والإندماج الودى .

من واجب المجتمع العربى العناية بالشباب العربى الذكور والأناث على السواء ، وإنشاء أندية لهم فى المدن وفى القرى ، ذات نظم معينة تؤدى إلى خلق رأى عام عربى . ويكون لكل ناد مكتبة ومذياع وملعب ، على أن ترتبط أندية كل قطر عربى فى هيئة واحدة ، ويحسن أن تشرف الحكومات العربية على هذه الأندية ، بجانب تشاور الحكومات من وقت لآخر فى تنظيمها .

أن سلطان العلم يفوق سلطانه في أي عصر مضى ، والمجتمع العربى

أحوج ما يكون إلى مناهج التربية القويمة وأسلحة العلم الحديثة ، وخاصة أن القلق الاجتماعى الذى نلمسه فى بعض الأقطار العربية يحتاج إلى علاج عاجل ولن يستطيع شيء أن يبعث فيه الاستقرار والثقة والنهوض إلا تربية الشخصية العربية ، وتكون وظيفة التربية كما قال أفلاطون : « الإعداد الصالح للشباب ، وتضافرهم على العمل الجدى لصالحهم وصالح بلادهم » والعلم يؤدى إلى أخلاق مهذبة . وعدالة اجتماعية ، وارتفاعاً فى مستوى المعيشة ، وحرية فكرية ، وسمو فى الحضارة الإنسانية .

والمجتمع العربى فى أشد الحاجة إلى العلم . وللعلم ستكون الكلمة العليا فى تنظيم مجتمعنا ، وتحقيق العدالة فيه ، حتى يتاح لكل منا معرفة واجباته فيقوم بها ، وإدراك حقوقه فيحافظ عليها ، والعلم ضرورى لبناء كياننا الاقتصادى ، إذ أنه القادر على تزويدنا بالخبراء الزراعيين اللازمين لتحسين الإنتاج الزراعى ، ومهندسى الرى وهم القادرون على وضع المشروعات المائية التى ستروى ملايين الأفدنة وتولد الطاقة الكهربية . والصناعة لا تقوم على غير العلم ، وهو الذى سيزودنا بالفنيين القادرين على تشغيل المصانع وتركيب الآلات والإشراف عليها . وهؤلاء الفنيون هم الأساس الذى ستقوم عليه الصناعات المختلفة .

أن سبيل المجتمع العربى الأفضل هو الثقافة : الثقافة المنبثقة من صفوف الشعوب المتجاربة مع حاجات المجتمع ، القائمة على احترام الحق ، المتأصلة فى ماضيها الإيجابى ، المشاركة فى الحضارة الإنسانية ، والمعطية لهذه الحضارة ، وفى البيت ، والحقل ، والمصنع ، والمدرسة ، وكل شأن من شئون الحياة وميدان من ميادينها ، ستكون للعلم الكلمة العليا ، وعلى نور حقائقه ستتشكل العلاقات بين أبناء المجتمع ، ثم بينهم وبين سائر البشر .

ويعتبر محو الأمية أول مراتب ظهور المواطن العربى المتعلم الصالح إذ لا حياة كريمة لمجتمع من المجتمعات إلا بمحوها وقد طبق الإسلام هـذه النظرية منذ عهده الأول ، فقد جعل من جملة فداء أسرى بدر أن يعلم العارف بالقراءة والـكتابة عشر من المسلمين . أن دساتير الأقطار العربية تنص على وجوب تعليم الشعب ، ومع ذلك فالأمية طاغية . ولنرجع إلى الطرق التى اتبعتها بعض الدول فى محو الأمية حتى يمكننا أن نقتبس بعضها .

هذه الظلمات التى تخيم على عقول قليل من أبناء الأقطار العربية هى ظلمات آن لها أن تزول ، ولن يزيلها غير النور ، نور العلم ، ولن يأتى بالنور غيرنا نحن أبناء هذا المجتمع . والعلم يخرج من جوهر واحد ، هو العقل البشرى ، هذا العقل الذى اكتسب صفاته الحالية خلال آلاف السنين ، ولا يزال ماضيا فى نموه وتطوره . ينشر الضياء فى الآفاق ، وينير سبيل الخلود لبنى الإنسان .

ومما يؤسف له أن مناهج التعليم فى بعض الأقطار العربية تجتاحها عـدم التناسيق والتناسب . وصف Erich Bethmanm, فى كتابه 'Bridge to Islam, أحوال التعليم فى العالم العربى ، فقال : نجـد لـكل فئة مهما صغرت ، نظامها التعليمى الخاص بها المختلف عن غيره ' فى الـكتب والمراجع والوسائل والغايات ، ويزيد هذا الانقسام شده أشكال النفوذ الثقافى الدخيل التى تبدو فى المدارس الأجنبية التبشيرية الفرنسية والبريطانية وغيرها ، ولـكل فريق من هؤلاء أهدافه التى يرمى إلى تحقيقها بصبغ عقول طائفة من العرب صبغة معينة تجعلها خاضعة له ، أو على الأقل معجبة به .

اتجهت بعض البلاد العربية بالتعليم اتجاهاً خاطئاً منذ البداية . فقد كان هم الدول العربية أن تخرج موظفين مدنيين ، ثم كان هم المثقفين أن يصبحوا موظفين حكوميين ، فإذا لم يجد الواحد وظيفة حكومية يعيش على راتبه منها

أصبح من العاطلين . وهكذا أخذ عدد المثقفين العاطلين ، بعد أن اتخمت مصالح الدولة بالمتعلمين يزداد ازدياداً خطيراً على مرور الأيام ، على أن البلاد فى أمس الحاجة إلى عمال فنيين ، وخبراء فى الصناعة والزراعة ، أى إلى مثقفين مهنيين . وهذا يتطلب من الحكومات العربية أن تقيم التعليم الصناعى والزراعى على أسس وطيدة ، فتشيد المدارس الصناعية والزراعية ، وتجهزها بما تحتاج إليه من معدات فنية ومعامل وحقول تجارب . وهذا ما أقامته فعلاً الجمهورية العربية المتحدة فى السنوات الأخيرة مما حقق فوائد عظيمة .

يجب علينا فى بناء المجتمع العربى أن نعتبر العقل مرشدنا فى كل أمر ، وأن نقيس كل شىء بمقياس العلم ، نتاج العقل البشرى . والعلم يدعو إلى استعمال العقل وتحكمه والإستفادة من تجارب البشر والتجاوب معهم . ونحن الآن نعيش فى العصر الصناعى ، العصر الذى شهد نمو العلم التجريبى واستفاد منه فى تطوير حياة البشر وأفكاره ، وأخضع به ظواهر الكون للطريقة العلمية التى تعتبر من الخطوات الحاسمة فى تاريخ البشرية حين تفتح أمامنا آفاقاً نقف الآن على عتبتها .

يجب أن تكون مناهج التعليم ، فى جميع المراحل ، ذات سياسة ثابتة ، فلا تظل مدارسه ومعاهده ، كما هى فى بعض الأقطار العربية ، حقلا للتجارب ، فلا تربط ثقافة الناشئين بحياة المجتمع ، وحياة العصر . ولذا فقد التعليم حيويته وصار جسماً من غيرروح . يجب أن توضع المناهج على أساس الروح الإستقلالية الكاملة ، وأن تجمع بين الدراسة النظرية والفنية ، وأن تهدف إلى المثل الأعلى فى السلوك ، وأن تساير اختلاف الإستعدادات والميول والمواهب . ويزداد على هذا فى التعليم الجامعى أن تهدف مناهجه إلى إحراز جميع سجايا العقل والخلق مع القدرة على القيام بمختلف المهن فى ميدان الإجتماع والخدمة العامة ، وضمان حرية المناقشة والرأى .

كما يجب أن يهدف التعليم الدينى — سواء أكان فى الأزهر بالقاهرة ، أم فى الجامع الأموى بدمشق ، أم فى جامع النجف بالعراق ، أم فى جامع القرويين بالمغرب ، أم فى كلية المقاصد الإسلامية ببيروت ، أم فى جامع الزيتونة بتونس ، أم فى غيرها من المعاهد الدينية فى البلاد العربية — إلى الغاية التى قصدها الإسلام من الدين والمعرفة ، فلا يقل الطلاب واقفين عند مدخل العلوم ، مكتفين بدراسة الحواشى مضيعين وقتهم فى النقاش اللفظى ، ومقفلة عقولهم ، مغمضة عيونهم عن مخترعات العلم الحديث ، بل عليهم أن يخطوا إلى الأمام وأن يساهموا فى جميع نواحى الحياة حتى يكونوا قوة روحية دافعة بقصد التوازن إزاء التقدم المادى . وقد طورت الجمهورية العربية المتحدة الجامعة الأزهرية فأصبحت فى مقدمة الجامعات فى العالم .

أما الثقافة بما تحوى من أدب وفن ، فيجب أن تقوم على أساس ثقافتنا العربية العريقة ، كما تقوم الثقافة اليوم فى العالم الغربى على أساس الثقافتين الإغريقية واللاتينية القديمتين ، خاصة أن ثقافتنا الأصلية لم تزل فيها من عناصر القوة والحيوية ما يوجهنا إلى المجد وما يوحى إلينا بكرامتنا ، لأنها عصارة الفلسفة والفن والمثل العليا . ولكننا لا مانع فى أن نمزجها بآداب الغرب وفنونه وعلومه حتى ندرك حقائقها ، وحتى تكون بيدنا آلات الغرب فنسخرها كما سخرها هو ، ولا نظل عالة على حضارته واختراعاته . وقد أثبت العرب دائما تفوقهم الحضارى واستعدادهم الفطرى للتقدم والمدنية .

إن قضية العالم العربى ، اليوم ، إنما هى قضية تحرير بعض أقطاره من الاحتلال الأجنبى ، وتخليص فلسطين من إسرائيل الصهيونية ، وقضية تقدم من النواحى الاجتماعية ، والاقتصادية ، والفكرية . وقضية استعادة الفرد العربى لكرامته الإنسانية التى سلبها الاستعمار قديما ، واسترجاع الوطن العربى

لكرامته الدولية . وهـذه القضية الكبرى لا ينهض بأعبائها إلا شعب متعلم تعلماً يمكنه من حل مشكلاته والبقاء للأصلح دائماً .

إن السبيل إلى تكامل الشخصية عند المواطن العربى هو أن يبدأ حياة أسرية سعيدة ، حياة يسودها الحب والتعاطف والتعاون . حياة يجد فيها كل من الطفل وأبويه أنه يستفيد منها ويستمتع بها . والأسرة ، تحمل إلى الطفل عادات المجتمع وتقاليده ، وتضع له من المثل ما تراه ضرورياً لقبوله فى المجتمع كمواطن جديد .

لذا يجب أن تبدأ العناية بتكوين المواطن الصالح من الأسرة ، وأن تتأكد الدولة أن كيان الأسرة سليم من النواحى المادية والخلقية والوجدانية . وعناية الدولة الراقية بالأسرة ، وفلسفة تكوينها ، جعلتها تعنى بمسألة لا تزال شائكة فى بلادنا وهى مسألة التربية الأسرية ، وهى الآن جزء من منهج الدراسة فى الغرب . وتعنى المدارس كذلك فى الغرب بتوجيه الشبان والشابات . وبدراسة المسئوليات التى تنشأ من البدء فى الحياة الزوجية ، والإلتزامات والحقوق المالية والاجتماعية التى تترتب على الإقدام على الزواج .

من واجب الدولة أن تبصر الشباب ، علمياً واجتماعياً ، بوظيفة كل من الرجل والمرأة ، كل منهما نحو الآخر ، وكليهما نحو أبنائهما . وأنشئت فى أوروبا وأمريكا مجالس استشارية للزواج Marriage Councils يذهب إليها الراغبون فى الزواج لعرض مشكلاتهم والاستعانة بآراء الخبراء مجاناً . كما أنشأت عيادات طبية للكشف مجاناً عن صحة كل من الشاب والشابة للتأكد من عدم وجود أمراض معدية أو تناسلية . وقد أنشأت الجمهورية العربية المتحدة مثل هـذه العيادات ، كما أنشأت مراكزاً تعنى بالأسرة وتنظيم النسل وتلقى إقبالا عظيما.

وتدخلت بعض الحكومات الأجنبية فى حل أزمات الزواج ، بتقديم

معونات مادية تساعد على بدء الزوجية ، أو بزيادة مرتب الزوج ، أو إعفاء المتزوجين من بعض الضرائب ، أو منح علاوات لمن أنجب أطفالا . وهـذه المساعدات تؤدى الى تحسين أحوال الأسرة اقتصاديا واجتماعيا .

ان المجتمع العربى فى حاجة ماسة الى (ثقافة أسرية) ، وإلى أن نضع من التشريعات ما يمكن للأسرة — وهى البيئة الأولى لتكوين المواطن — من أن يحيا حياة مادية واجتماعية سعيدة . اننا فى حاجة الى تثقيف أبنائنا وبناتنا تثقيفا عائليا ، يعرفون به المشكلات الأسرية ، والمسئوليات الأسرية حتى يقوموا بأعبائها .

تم بحمـــد الله تعـــالى



فهرس

كتب وأبحاث للمؤلف

أولا : كتب نشرتها مكتبة الأنجلو المصرية :

١ ـ الحضارة العربية الإسلامية (القاهرة ١٩٦٣)

٢ ـ مصر العربية الإسلامية (القاهرة ١٩٦٤)

ثانياً : كتب نشرتها دار المعارف .

٣ ـ تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى (المكتبة التاريخية ١٩٥٩)

٤ ـ حياة محمد (ترجمة لكتاب واشنجتون ارفنج مع تعليقات تاريخية ، طبعتان ١٩٦٠ و ١٩٦٦)

٥ ـ العرب ورسالتهم الإنسانية (سلسلة اقرأ ١٩٦١)

٦ ـ البحر المتوسط بحيرة عربية (سلسلة اقرأ ١٩٦٣) .

٧ ـ عبد المطلب جد الرسول (سلسلة اقرأ ١٩٦٦) .

ثالثاً : كتب نشرتها الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر (وزارة الثقافة) .

٨ ـ المختار الثقفى (سلسلة أعلام العرب ١٩٦٣) .

٩ ـ عبد الله بن الزبير (سلسلة أعلام العرب ١٩٦٥) .

١٠ ـ العرب فى أوروبا (سلسلة المكتبة الثقافية ١٩٦٥)

١١ ـ المهدى العباسى (سلسلة أعلام العرب ١٩٦٦)

رابعاً . كتب نشرتها دار إحياء الكتب العربية (عيسى الحلبى)

١٢ ـ القومية العربية من الفجر إلى الظهر (القاهرة ١٩٥٩)

١٣ ـ الدولة العربية الإسلامية (القاهرة ١٩٦٠)

١٤ ـ الحضارة الإسلامية (ترجمة لكتاب خودابخش مع تعليقات تاريخية القاهرة ١٩٦٠)

خامسا : كتب نشرتها مؤسسة المطبوعات الحديثة

١٥ ـ فجر القومية العربية فى القرن الأول الهجرى (القاهرة ١٩٥٨)
١٦ ـ محمد والقومية العربية (سلسلة مع العرب ، طبعتان ١٩٥٩ و١٩٦٠)
١٧ ـ المجتمع العربى (سلسلة مع العرب القاهرة ١٩٦٠)
١٨ ـ غروب الخلافة الإسلامية (المكتبة التاريخية ١٩٦٢) .

سادساً : كتب نشرتها الدار القومية بالقاهرة

١٩ ـ المجتمع العربى فى العصور الوسطى (سلسلة كتب ثقافية ١٩٥٩) .
٢٠ ـ العرب واليهود فى العصر الإسلامى (سلسلة كتب قومية ١٩٦٣) .

سابعاً : أبحاث علمية منشورة فى مجلات علمية :

٢١ ـ ملكية الأراضى فى الدولة العربية الإسلامية (حولية جامعة عين شمس ١٩٦٠) .
٢٢ ـ المسجد فى فجر الإسلام (حولية جامعة عين شمس ١٩٦٢) .
٢٣ ـ المجوسية والمجوس (حولية جامعة عين شمس ١٩٦٤) .
٢٤ ـ كتاب مروج الذهب للمسعودى (مجلة تراث الإنسانية ١٩٦٦) .
٢٥ ـ كتاب الخراج لأبى يوسف (مجلة تراث الإنسانية ١٩٦٦) .
٢٦ ـ الوثنية العربية قبل ظهور الإسلام (مجلة جامعة عين شمس ١٩٦٦) .

ثامناً : كتاب أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

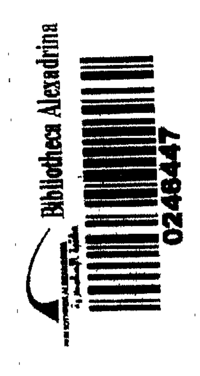
٢٧ ـ الإسلام دين عالمى إنسانى (يونيو ١٩٦٦)

تاسعاً : مقالات متنوعة فى مجلة منبر الإسلام التى يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، والملحق الدينى الذى تصدره جريدة الجمهورية بالقاهرة



ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

الثمن ٦٥ ص



المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١